أونوره ده بلزاك

زنبقة الوادي

نقلها الى العربيّة

بهيج شعبان

ابتكرت رسم الغلاف للطبعة العربيّة

السيّدة غيليه نابولي

•

المنشورات العربيّة

أونوره ده بلزاك

زنبقة الوادي

نقلها إلى العربية

بهيج شعبان

ابتكرت رسم الغلاف للطبعة العربية

السيدة غيليه نابولي

•

المنشورات العربية

مقدّمة

١

قد يحدث ان روايةً ما تبعث الخصب في موهبة روائي. فبلزاك حين قرأ رواية «لذة» لسانت بوف، قال بتنازل: «انه ركيك، مترهل، محشو. لكن فيه اشياء جميلة». لقد كان على حق في كرهه لسانت بوف الذي كان يسيء التصرف معه دائماً بغير حق؛ ولهذا نوى ان يعيد تأليف الكتاب وان يضرب العدو في عقر داره.

ما كان موضوع «لذة»؟ ثمة شاب يدعى اموري كان على علاقة بالسيد كوين رئيس الملكيين في مقاطعته، وقد هام بالسيدة كوين، لكن حبه ظل افلاطونياً نزولاً عند رغبتها. فأخذ أموري يبحث عمّا يرضي حواسه في الموبقات. وحين

ادرك ان الحب الطاهر الذي يحلم به ليس ممكناً، وانه اذا كانت الحواس «كثيراً ما تقوم بعمل معاكس للحب» فانها تقتله اذ تبلى فيه، فقد عزم على البحث عن «حب الخير الوحيد»، واصبح كاهناً. اما السيدة كوين فقد ماتت بعد ذلك بقليل.

ان لور دي برني التي تكبر بلزاك بثلاث وعشرين سنة، والتي احبته، واخذت بيده، وألهمته في عهد شبابه الصعب، والتي عرفت ان تكون عاشقة ومستشارة معاً، ذمت «لذة» بعنف. وقد اثارها المقطع الذي يشير الى ان اموري كان يذهب الى الاماكن القذرة ليتحرر من رغباته. فعزم بلزاك على ان يكتب لها الكتاب من جديد، وان يضفي على البطلة بعض ملامح السيدة برني وافكارها. وكان يعلم ان هذا سيكون من افضل كتبه، «تمثال جميل ابيض»، صورة «اللذة المزدوجة التي امسكت تحت هذه العلاقة بطبيعتين جاهلتين عذراوين».

وهذه هي العقدة التي تخيلها: فليكس دي فاندنيس مراهق بائس في عائلته، ذهب ليقضي بضعة اشهر في وادي الاندر، في قصر فربسل، عند السيد شسل. وفي حفلة راقصة اقيمت في

تور قبل قليل ، اثناء عودة الملكية الاولى ، على شرف الدوق دانغوليم ، فان هذا التلميذ الجائع الى الحب غمر بقبلاته كتفين جميلتين لامرأة مجهولة . صرخت فهربت . وعند مروره امام بيت كلوشيغورد الجميـــل وصف له مضيفه السكان : الكونت دي مورتسوف مهاجر قديم ذو طباع حادة ، والكونتس الجميلة ذات السمات الكئيبة ، وولدان ضعيفان .

وفجأة داعب الامل فليكس دي فاندنيس ان يجد المرأة المجهولة في شخص مدام دي مورتسوف . وكانت هي نفسها . في بادىء الامر ، تضايقت من ان ترى مرة ثانية ذلك الذي انتقص من احترامها ، إلا انها سرعان ما تغفر لذلك الشاب وتلـــك العاطفة . لقد علمت ان فليكس يحبها ، فسمحت له شرط ان يبقى ضمن الحدود الضيقة التي تفرضها عليه : يد يقبلها على الاكثر . خضع فليكس واكتشف بسرعة مأساة هذه العائلة . فالكونت على وشك الجنون الكامل ، يلقي الرعب في البيت كله بما يصيبه من اعراض . ولولا زوجته مدام دي مورتسوف التي كانت تتولى ادارة البيت لأفلس ، إلا انه كان عاقاً اذ كان يشتم تلك المرأة الرائعة .

ان حب فليكس دي فاندنيس واخلاصه المتأجج ساعدا هنرييت دي مورتسوف عـــلى تحمل حياة جهنمية . ولكنها ما كانت تريد لهذا الشاب الذي عرفت منه صفات القلب والروح السامية ان يفسد حياته بسببها . انها ابنة الدوق دي لينكور المتمتع بحظوة لويس الثامن عشر . وقدم فليكس الى البلاط فاستقبل بحفاوة ، واصبح بعد عودة الملكية الثانية سكرتيراً للملك. لقد اثار حبه الافلاطوني لامرأة بعيدة عن فضول باريس. مما حدا بامرأة انكليزية جميلة فاسقة ، هي ارابيل ليدي ديدلي التي اجتذبها المركب الصعب ، الى السعي لاستمالة فليكس ، وقد نجحت بفضل تجاربها الحسية واصبحت عشيقته . لقد اعطته اللذة وليس السعادة .

وعرفت الكونتس دي مورتسوف بهذه العلاقة . وحـــين حاول فليكس ان يراها استقبلته ببرود . فدهش من هزالها وامتقاع لونها . لقد اصابها الالم الروحي بمرض مميت . فهنرييت دي مورتسوف لم تستطع نسيان لسعة الرغبة . وهذان الكائنان المتحابان كما يمكن ان يكون الحب ، قهرا الطبيعة برفضهما المتعة مدفوعين باحترام القوانين الالهية والانسانية ، إلا ان هذه

الفضيلة المميتة لم تنقذ نفس هنرييت البائسة . فقد اعترفت وهي على فراش الموت بتحسرها على المتع الجسدية التي لم تعرفهــا ابداً ، وقالت : «كل شيء كان كذباً في حياتي، اريد ان اكون محبوبة ، سأقوم بأعمال جنونية كالليدي ديدلي» . لكن الوقت فات وسيكون الموت وحده في الموعد الاخير .

٢

الكتاب مؤلف تأليفاً مبتكراً متنافر الاجزاء بشكل غريب . يكاد يتألف بكامله من رسالة طويلة كتبها فليكس ، بعد هذه الحوادث بوقت طويل، الى ناتالي دي مانرفيل التي يحبها ، والتي طلبت منه سرد حكاية ماضية . والقسم الثاني ، وهو قصير جداً ، جواب ناتالي الساخر . «اعلم جيداً انه ما من امرأة تريد ان تشارك في قلبك تلك الميتة التي احتفظت بها فيه». ما من امرأة؟ . . . اننا نعلم ، نحن قراء «المهزلة الانسانية» ان فليكس دي فاندنيس سيتزوج ممن تـــدعى الآنسة دي غرانفيل . وانه سيظهر في «ابنة حواء» زوجاً بارعاً .

من حيث كتابة هذه الرواية بصيغة المتكلم هل يجب ان

نستنتج انها قصة حياة ذاتية ؟ ان بلزاك ينكر ذلك في مقدمة الطبعة الاولى. «يخلق الكاتب في فقرات عديدة من كتابه شخصية تسرد باسمه. ولكي يصل الكتّاب الى الصواب يستعملون الحيل الادبية التي يبدو لهم صلاحها لتضفي على صورهم الكثير من الحياة». من المؤكد ان كل روائي يمكنه ان يلد عدداً كبيراً من «الأنا» لا يمتزج اي منها معه لكنها كلها تتضمن شيئاً منه.

ان فليكس دي فاندنيس يشبه هونوريه دي بلزاك بطفولته. فكلاهما تهيّبا امّاً ظالمة قاسية؛ وكلاهما أُرضعا في الريف ونسيتهما عائلتاهما هناك. وكلاهما كذلك نشأ في مدرسة يديرها رهبان القديس فيلبس النيري. ونجد في فليكس خجل بلزاك المراهق ورغباته المجنونة. وهونوريه كفليكس، حضر حفلة راقصة اقيمت في تور على شرف الدوق دانغوليم، وتأثر، مثله، ذلك المساء بعطر امرأة. ولكن فليكس، وهو من عائلة عريقة، جعل لنفسه مركزاً لامعاً في عالم الواقع. اما هونوريه، وقد افتقر الى اصدقاء اقوياء، فقد اضطر ان يخلق لنفسه مركزاً في عالم الوهم.

هل مدام دي مورتسوف هي مدام دي برني؟ . . ان بلزاك في رسالة الى السيدة هنسكا يسمي لور دي برني «المخلوقة الالهية ومدام دي مورتسوف هي نسخة شاحبة عنها»، ومن المؤكد ان هنرييت دي مورتسوف تحتل مكان لوردي برني بالحكمة العملية وانكار الذات . ان «رسالة التدرب» التي كتبتها هنرييت لفليكس حين ترك كلوشيغورد الى البلاط، الى البلاد التي يجهل لغتها، يبدو انها مؤلفة من النصائح التي طالما اسدتها لوردي برني الى بلزاك . فبأي براعة تجمع هاتان المرأتان اللتان هجرتا العالم عناصر تجربتهما المبعثرة لتنقلاها الى رجل ـ طفل تحبانه . «كن بسيطاً في تصرفاتك، عذب اللهجة، فخوراً بدون غطرسة، ولا سيا رصيناً» .

لقد رفضت مدام مورتسوف ان تعطي نفسها، اما مدام دي برني فاستسلمت بكرم، وعكرت الخيانة حياتها فيما بعد . ولكن بلزاك، وهو العاجز عن مقاومة اهوائه، سبّب العذاب لتلك التي كان يدعوها المحبوبة المفضلة . ولم ينقطع عن تكريمها . «لقد اصبحت... ام الافكار العظيمة، والسبب المجهول للثورات المنقذة، وسند المستقبل، والنور الذي يتلألأ في الظلمة

كالزنبقة في الاوراق الداكنة ... ان معظم افكاري ولدت هناك، كما يتضوّع العطر من الزهور».

في كتاب بعيد عن الصواب بعنوان «بلزاك عارياً» يرى المؤلف ان بلزاك اراد ان يرسم بالسيدة مورتسوف واحدة اخرى من عشيقاته؛ هي الكونتس غيدوبوني ـ فيسكونتي المولودة باسم فرنسس ساره لويل. وليس اغرب من هذا القول. فهذه الانكليزية الجميلة قدمت بعض الملامح لشخصية ارابيل الليدي ديدلي، كما انه استعير منها خطوط اخرى الى الليدي إلنبورو، وهي امرأة رائعة الجمال تقدم اليها بلزاك بواسطة صديقه البرنس شونبرغ. «ان ما عرفته عن الليدي إلنبورو خلال ساعتين وانا اتنزه في حديقتها... هو الحقيقة عنها».

ورواية «الزنبقة في الوادي» مدينة لساره غيدوبوني ـ فيسكونتي بالعنوان الانكليزي الاصل The Lily in the Valley. وكانت ارابيل تدعو فليكس «ماي دي» كما كانت ساره تدعو بلزاك «بلي» لربما وجد لذة مشوشة في رسم «المحبوبة» وعشيقته الجديدة جنباً الى جنب على نفس اللوحة. لقد كانت ساره واحدة من الجنيات البيض اللواتي لا تسبر اغوارهن

ظاهراً انما يعرفن فوراً، واللواتي يعتقدن ان الحب يكفي للحب ويحملن سأم الرتابة الى المتعة... اوقيانوس من الحب سيجهل دائماً من لا يسبح فيه شيئاً من شعر الشهوات». كان بلزاك يفخر بأنــــه اوضح حب المرأة الانكليزية في وصفه الليدي ديدلي.

اما السيد مورتسوف فهل كان فيه بعض ملامح السيد دي برني؟.. لربما كان غبريال دي برني، هو ايضاً، رجلا شاخ قبل الاوان. كان عاجزاً عن الاهتمام بأعماله وكان يوبخ زوجته حين تديرها قدر المستطاع. ومرة ثانية نقول ان الروائي ليس رساماً، وما كان بلزاك يحاول رسمه كان أعم. شاء ان يجمع في مورتسوف «كل ملامح المهاجر وكل ملامح الزوج» وليست «الزنبقة» قصة غرام فقط اذ الاهواء فيها مدمجة بعمق في البناء الاجتماعي. وقد قال آلان: «انها تاريخ المئة يوم، التي انقضت بين عودة نابوليون الى الحكم وتخليه عنه في ٢٢ حزيران سنة ١٨١٥، شوهدت في قصر على اللوار».

وبالفعل فاننا نجد البطل مقيماً في كلوشيغورد كمبعوث لملك غاند. ورسالة التدرب التي اعطتها هنرييت الى فليكس فيها

سياسة ونظرة عميقة. لقد كتبت مدام دي مورتسوف: «عليك قبل كل شيء ان تقبل المجتمع والاخلاق كما هي... اني لا اكلمك عن المعتقدات الدينية ولا عن العواطف؛ فالامر هنا يتعلق بدواليب آلة من ذهب وحديد... ان هذه الرسالة المدهشة الواقعية «تشير الى ماضي السياسة من سافل»؛ والفضائل التي توصي بها يجب ان تساعد على النجاح الموقت. «ان الاستقامة، والشرف، والامانة، والتهذيب، هي اوثق واسرع ادوات لنجاحك». ان هذا يبدو وقحاً، ولكن اذا كان بالامكان تجاوز السياسة فمن المستحيل الاستغناء عنها.

ان «الزنبقة في الوادي» واحدة من الروايات (الكثيرة في مؤلفات بلزاك) التي يمتد فيها على الحيوات الخاصة ظل واسع من الثورات التي تهدم مهاجراً وتخرب العائلات، ثم تعيد وضعها فجأة على قمة عظمتها، بينما الطبيعة اللامبالية الجميلة تستمر تحت جميع العهود في تحريك اوراق الاشجار على شواطىء الانهر المتعرجة، وتعطير الحقول بروائح اللذات الجسدية المنبعثة من نبات النجيل العطري. فالوادي لا يتغير الا مع العواطف، ولا يهرم إلا مع الحب. ان هذه المرثاة هي ايضاً ملحمة.

٣

بعد ان تأمل المؤلف كتابه المنتهي اعترف انه مغتبط . « ولكن الزنبقة ! اذا لم تكن الزنبقة «شبية» مؤنثةً ، فأنا لا شيء . . . أن تضع بالفضيلة ما هو مؤثر ، وان تظل نشيطا ، وان تستعمل لغـــة ماسيون وانشاءه ، تلك معضلة حُلت في المقالة الاولى وتكلف ثلاثمائة ساعة للتصليح ، واربعمائة فرنك للمجلة ، وتكلفني انا بعض وجع الكبد » . وقد تجرأ ان يكتب فيما بعد : « ان المعركة المجهولة التي تنشب في احد اودية الاندر بين مدام دي مورتسوف والحب قد تعادل اكبر المعارك المعروفة » .

ان مدام دي برني ، التي كانت عام ١٨٣٦ تقاسي مرضاً عضالًا ، قرأت الكتاب فقالت : «استطيع ان اموت ، انا واثقة انك تحمل على جبينك التاج الذي كنت اريد ان اراه عليه . « ان الزنبقة » كتاب عظيم لا تشوبه شائبة ، ولكن موت مدام دي مورتسوف ليس بحاجة الى حسراتها المرعبة ؛ انها تلحق الضرر بالرسالة الجميلة التي كتبتها » . وقد عزم بلزاك ،

بعد موت مدام دي برني، ان يستجيب لرغبتها . «واليوم محوت المائة سطراً بكثير من الورع » لانها ، حسب رأيها ، تعطل هنرييت من الزينة . « انني لم آسف على سطر منها ، وفي كل مرة مرت ريشتي على احدها لم يكن ثمة قلب انسان اشد تأثراً من قلبي » .

ان السطور التي طلبت حذفها هذه المرأة الكبيرة كانت تتضمن توبيخ مدام مورتسوف لفليكس بسبب عدم جرأته . « نعم ، لقد قتلتني بعدم إدراكك مبلغ حبي إياك ! كل امرأة عليها قناع ، وكل قناع يود ان يرفع... لماذا لم تفاجئني ليلاً ؟ اننا لم نتحابّ إلا نصف حب . واتحاد النفوس لا يتبع الحب السعيد بــــل هو نتيجة له . . . لقد كانوا يحاولون تعزيتي وهم يحدثونني عن الحياة الاخرى؛ ولكن، هل هناك حياة أخرى؟... اما هذه فقد عرفتها ، واحبها ، ولا اريد ان اموت ! . . . ان ساعة من الليدي ديدلي تساوي الابدية ».

وحذف ايضاً بعض العبارات الـــتي قالتها الميتة لكاهنها المعـــرّف الذي كان بجانب سريرها يقرأ الطلبات و « الكيرياليسون » . «كانت تصغي الى هذه الكلمات وتنظر

الى معرّفها وتضحك. وقد اجابت: «ليس هناك من يرثي لي. انك تكلمني دائماً عن الجنة، فهل سيكون فليكس فيها؟...» وقد قال آلان موضحاً: «ما من احد يفكر في خلاص نفسه اذا لم يكن يرى ان هـــذه النفس ضائعة، ولا يمكن الشعور بالحاجة الى الطهارة والسمو اذا لم يجد المرء في نفسه ما يحتقره». انها فكرة دينية وجميلة، وقد يكون من الضروري التأسف على السطور التي ضحيت على مذبح الحب.

وهناك صديقة لبلزاك كثيرة الرقة والطهارة، هي زيلما كارو، ادركت كل شيء وربما اكثر: «مهما كان الرأي «بالزنبقة في الوادي» حاذقاً فهناك الف امرأة يقلن عند قراءتها: «لم يقل بعد كل ما يجب قوله» لان الاعترافات التي تتلقاها مهما كانت خاصة فان منها ما لا يمكن قوله بداعي الحياء، ولان هناك الفاً من الاشياء الخسيسة لا يعترف المرء بها لنفسه وتُنكر حتى على الصديق الذي يكشف سرها». يا لزيلما المسكينة!... فهل انكار هذه الاشياء او السكوت عنها غير الاعتراف بها؟...

وكان النقد منحطاً وغير لائق. «نعم، لقد ابدت جميع الصحف عداءها «للزنبقة» فالكل شنعوها وبصقوا عليها.

لقد أعلمني (ألفريـــد) نتيان ان «الغازيت دي فرنس» ادانتها لانني لم أكن اذهب الى القداس. وأدانتها (الكوتيديين) بدافع انتقام خاص من المحرر، واخيراً، ادانها الجميع لسبب ما... هناك جهلة لا يدركون الجمال في موت مدام دي مورتسوف ولا يرون فيه صراع المادة والروح الذي هو جوهر المسيحية. انهم لا يرون فيها سوى لعنات اللحم المخدوع والطبيعة الجسمانية المجروحة ولا يريدون انصاف وداعة النفس السامية حينما اعترفت الكونتس وماتت قديسة».

اما المرأة، لور دي برني، التي كانت مدام دي مورتسوف «نسخة شاحبة» لها، فحين ماتت بدورها ارادت ان تكون «الزنبقة» على سريرها فتعيد قراءة موت هنرييت. لقد اسفت هذه على اللذات التي منعتها على نفسها؛ اما لور دي برني فما اسفت على ما اعطت واخذت. لقد اكتشفت وانشأت عبقرية، وبهذا ظلت فخورة، وكانت تريد ايضاً ان يأتي فليكس دي فاندنيس ليجعل الانتقال سهلاً ولكنه كان بعيداً حينذاك، في ايطاليا، ولم يعلم بالمصيبة إلا عند عودته. لقـــد كانت لور «شمسه المعنوية» ومدام دي مورتسوف الزنبقة «انعكاساً بعيداً لها».

٤

هذه الرواية، التي هي من اجمل روايات بلزاك ومن كل ادب، لم تكن دائماً موضوع حكم عادل. فهناك اكثر من قارىء اثارته طريقة ماسيون في الانشاء (وطريقة سان مارتان ايضاً) في بعض الدفقات الانشائية وبسبب الاخطاء الذوقية القليلة («احبني كما كانت تحبني خالتي»). وشكا آخرون من انعدام وجود الشهوات الجسدية، او لم يروا ما في حب الليدي ديدلي من دعارة وحشية؟... ألم يشعروا بماهية الرغبة العارمة لهذين العاشقين اللذين حكما على نفسيهما بالعفة؟.. سيحب هذا الكتاب من الرجال والنساء اولئك الذين عرفوا الحب الحقيقي. وكنت صغيراً جداً حين قرأته لاول مرة ولم افهمه؛ اما اليوم فغالباً ما اعود الى مطالعته بسعادة.

انه يقتضي من القراء انتباهاً دائماً للتفاصيل. فجمالات «الزنبقة» ليست معروضة في واجهة زجاجية بل هي نصف مخبأة تحت العشب. فتطلبات السيد مورتسوف واشمئزازات زوجته قد رسمت بجرأة؛ والقارىء المتعجل الذي لا يلاقي قسوة في

اللغة يمر دون ان يرى المأساة. وهل هناك اجمـــل من المرأة الميتة ظمأ والتي تستنشق رائحة قطاف العنب من خـــلال الجدار؟ ... كان آلان يقول ان على كل شاب ان يقرأ الرسالة الشهيرة ويعيد قراءتها. وهذا صحيح، لان الحقيقة عن المجتمع، وعن جميع المجتمعات، موجودة فيها. وهذه الحقيقة ليست محبوبة، ومع ذلك يجب ان تقال وتثير التأمل.

اندره موروا

عضو الأكاديمية الفرنسيّة

الى السيد ج. — ب. ناكار[1]

عضو الاكاديمية الملكية الطبية

عزيزي الطبيب ، هوذا واحد من الحجارة التي استنفدت اكبر جهد في المدماك الثاني من بناء أدبيّ بني بتؤدة وجهد ؛ أُريد ان أُسجل اسمك عليه لأشكر العـــالم الذي انقذني في الماضي ، ولأمجد الصديق الدائم .

ده بلزاك

الى الكونتس ناتالي ده مانرفيل

نزلت عند رغبتك . ان مزية المرأة التي تحبها اكثر مما تحبنا

(١) جان باتيست ناكار صديق عائلة بلزاك وكان يعول الروائي بأريحية .

هي في ان تنسينا قواعد الصواب في كل مناسبة . فلكي لا ندع اي غضن يرتسم على جباهكن ، ولنزيل امائر الحرد عن شفاهكن التي يغمها اقـــل رفض ، فسوف نقطع المسافات باعجوبة ، ونعطي دمنا ، ونستهلك المستقبل . انت اليوم تريدين ماضيّ ، فهاكه . انما اعلمي يا ناتالي بانني اضطررت ، لكي اطيعك ، ان احتقر الكراهيات المحرمة . ولكن لمـــاذا ارتاب بالاحلام الطويلة المفاجئة التي تستولي علي وانا في اوج سعادتي ؟ لماذا غضبك الجميل هذا ، غضب المرأة المحبوبـــة ، بسبب الصمت ؟ ألا تستطيعين اللعب بمتناقضات طبعي دون ان اسأل عن الاسباب ؟ وهـــل في قلبك اسرار تحتاج الى اسراري لتجد مسوغاً لها ؟.. اخيراً عرفتها يا ناتالي . ومن الافضل ان تعرفي كل شيء : نعم ، ان حياتي يسيطر عليها شبح . انه يرتسم بشكل غامض عند اقل كلمة تثيره ، وفي الغالب يتحرك من تلقائه فوقي . لدي ذكريات ملحة مدفونة في اعماق نفسي كتلك المنتجات البحرية التي تشاهد في الطقس الهادىء وتقذفها امواج العاصفة قطعاً على الرمال . وان يكن العمل ،

الذي تحتاجه هذه الافكار لتصبح واضحة ، قد استوعب هذه التأثيرات القديمة التي تسبب لي الكثير من الالم حين تستيقظ فجأة ، فاذا كان في هذا الاعتراف شظايا تجرحك ، تذكري انك هددتني اذا لم اطعك ، اذن فلا تعاقبيني على طاعتي اياك . اريد ان يضاعف اعترافي من حنوك . والى هذا المساء .

فليكس

الى اية موهبة مغذاة بالدموع سنكون مدينين ذات يوم بالمراثي الاكثر تأثيراً ، صورة الآلام التي تتحملها بصمت تلك النفوس التي لا تلقى جذورها اللدنة في التربة المنزلية سوى حصى صلبة ، وتتمزق اولى اوراقها بأيد مبغضة ، ويصيب الجليد ازهارها حين تتفتح ؟ اي شاعر سيحدثنا عن آلام الطفل الذي تمص شفتاه ثدياً مراً ، وتخمد ابتساماته نار آكلة منبعثة من عين قاسية ؟ ان الوهم الذي تمثله هذه القلوب المسكينة المضطهدة بكائنات وضعت حولها لتساعد على تطور قوة الحس عندها قد تكون التاريخ الحقيقي لطفولتي : اي خيلاء

يمكنني ان ألحق بهـــا الضرر انا المولود حديثاً؟ واية نكبة جسدية او اخلاقية أكسبتني برودة امي؟ فهل كنت اذن ولد الواجب، ذلك الذي جاءت ولادته عرضية، او ذلك الذي كانت حياته تقريعاً؟.. أُرسلت للرضاعة في الريف، ونسيتني عائلتي طوال ثلاث سنوات، وحين عدت الى البيت الابوي وجدتني شيئاً تافهاً بحيث كنت اتعرض لشفقة الناس. لم اعرف العاطفة، ولا الصدفة السعيدة اللتين تساعداني على النهوض من كبوتي الاولى. الولد عندي يجهل، والرجل لا يعرف شيئاً. وكانت امي واختاي يتلهين بتعذيبي بدلاً من ان يلطفن مصيري. والميثاق الذي بموجبه يخفي الاولاد هفواتهم، والذي يعلمهم الشرف كان لا شيء في نظري؛ وفضلاً عن هذا كنت أعاقب في الغالب بسبب اخطاء اخي دون ان استطيع الاعتراض على هذا الظلم؛ فهل التملق، النابت عند الاولاد، يشير عليهم بالمساهمة بالاضطهادات النازلة بي لاحراز عطف أم يخافونها؟ وهل كان هذا نتيجة ميلهم للاقتداء؟ وهل كانوا بحاجة لتجربة قواهم، ام انه عدم الرحمة؟.. ربما هذه الاسباب مجتمعة حرمتني

من عذوبة الاخوة. لقد حرمت في السابق من كل مودة، ولم أكن أستطيع ان احب شيئاً، وها ان الطبيعة جعلت مـــني عاشقاً!.. وهل هناك ملاك يتلقف آهات هذه الحساسية التي ما تنفك منغصة؟ اذا كانت العواطف غير المفهومة في بعض النفوس تتحول الى بغض، فانها في نفسي تجمعت وحفرت فيها مجرى أثر فيما بعد على حياتي. ووفقاً للسجايا فان عادة الارتعاش تفلت الخيوط، وتولد الخوف، والخوف يجبر دائماً على الانصياع. ومن هنا يأتي ضعف يفسد الانسان ويوصله الى ما لا ادري من العبودية. ولكن هذه الآلام المستمرة جعلتني اعتاد عـــلى إظهار قوة كانت تنمو بالتمرين وتهيء نفسي للمقاومات المعنوية. وبانتظار ألم جديد، كما ينتظر الشهداء ضربة جديدة، اضطر كل كياني الى اظهار انقياد كئيب اختنقت تحته الكياسة وحركات الطفولة، وهو موقف مر كعارض من اعراض البلاهة سوّغ حدس امي المشؤوم. والتيقن من هذه المظالم اثار في نفسي الكبرياء قبل الاوان، الكبرياء ثمرة العقل التي اوقفت دون شك الميول الرديئة التي تشجعها تربية كهذه. ومع ان امي

تهملني فقد كنت احياناً موضع شكوكها ، وكانت تتحدث احياناً عن تعليمي وتبدي رغبة في الاهتمام به ، وكانت تعتريني حينذاك ارتعاشات مخيفة وانا افكر بالاضطرابات التي سيسببها لي احتكاكي اليومي بها . لقد باركت اهمالها لي ووجدت نفسي سعيداً لاستطاعتي البقاء في الحديقـــة ألعب بالحصى ، وأراقب الحشرات ، وأتطلع الى زرقة السماء . ولئن قادتني العزلة الى الاحلام فان ميلي للتأملات قد جاء من مغامرة سترسم لكم مصائبي الاولى . كان الاهتمام بي قليلًا حتى ان المربية كانت تنسى في اغلب الاحيان ان تأخذني لأنام . وذات مساء ، وكنت جاثماً براحة تحت شجرة تين ، اخذت اتطلع الى احدى النجوم بذلك الشغف الفضولي الذي يستولي على الاولاد ، والذي أضافت اليه كآبتي المبكرة نوعاً من الذكاء العاطفي . وكانت اختاي تلهوان وتصرخان . وكنت اسمع جلبتهما البعيدة كأنها مرافقة لأفكاري . وانقطعت الضجة ، وجاء الليل . ولاحظت والدتي غيابي صدفة . ولكي تتجنب مربيتنا اللوم ، وهي آنسة مخيفة تدعى كارولين ، اقرت مفاهيم امي الخاطئة زاعمةً انني

أخاف من البيت ، وأنني كنت هربت من زمن لولا سهرها علي ، وانني لست أبله بل مرائياً ، وانها لم تلاق واحداً بين جميع الاطفال الذين خضعوا لعنايتها من كانت ميوله سيئة كميولي . وتظاهرت بالبحث عني ، ونادتني فأجبت فأتت الى شجرة التين وكانت تعلم انني هناك ، وقالت :

ــ ماذا كنت تفعل هنا ؟

ــ كنت أراقب احدى النجوم .

فقالت والدتي وكانت تسمعنا من أعلى شرفتها :

ــ لم تكن تنظر الى اي نجمة ، وهل يعرف علم الفلك من هم في سنك ؟

فهتفت الآنسة كارولين :

ــ آه ! يا سيدتي ، لقد فتح حنفية خزان الماء وغمرت المياه الحديقة .

وحصلت جلبة عامة . لقـــد كانت اختاي تلهوان بفتح الحنفية لتشاهدا جريان الماء، لكنهما فوجئتا بانفصال حزمـــة كانتا قد رشتاها بالماء فأضاعتا الصواب وهربتا دون ان تستطيعا اقفال الحنفية . وقبض علي ، لانني اخترعت هـــذه النزوة الصبيانية ، واتهمت بالكذب حين اكدت براءتي ، وعوقبت بصرامة. ولكنه عقاب فظيع ! لقد اصبح حبي للنجوم موضع سخرية ، ومنعتني امي من البقاء في الحديقة مساءً . والمنـــع الاستبدادي يشحذ عند الاولاد آلاماً اكثر منها عند الرجال ؛ ومـــيزة الاولاد على هؤلاء في انهم لا يفكرون بسوى الشيء الممنوع ، مما يثير فيهم جواذب لا تقاوم. اذن فقد كان السوط جزائي في اغلب الاحيان بسبب نجمتي . ولما كنت لا استطيع ان اشكو الى احد فقد كنت احدثها عن احزاني بذلك الهذر الصبياني الداخلي اللذيذ الذي يتمتم الطفل بواسطته اولى افكاره، كما يتمتم من قبل اولى كلماته . وفي المدرسة ، وانا في الثانية عشرة، كنت اتأملهـــا ايضاً شاعراً بلذات لا توصف ، فالانطباعات التي يتلقاها المرء في صباح حياته تترك اثاراً عميقة في القلب .

كان شارل، الذي يكبرني بخمس سنوات، ولداً جميلاً بقدر ما هو الآن رجل جميل، لقد كان أثير ابي وحب امي وأمل عائلتي، انه بالتالي ملك البيت، قوي البنية وكان له مربٍّ. اما أنا الهزيل فقد ارسلت في سن الخامسة كتلميذ خارجي الى مدرسة في المدينة، يذهب بي خادم ابي صباحاً ويعود بي مساء. كنت امضي حاملاً سلة مجهزة بالقليل، بينما كان رفاقي يحملون مؤونة وافرة. وهذا التناقض بين عوزي وغناهم ولَّد لي كثيراً من الالم. كانت لحوم تور المطبوخة بالدهن تشكل العنصر الرئيسي في الوليمة التي نقيمها في منتصف النهار بين وجبتي الصباح والمساء في البيت حيث كان موعدها يطابق ساعة عودتنا. وكان بعض ذوي البطنة يفرطون في هذه الوليمة التي كانت نادراً ما تظهر في تور على الموائد الارستقراطية. ولما كنت سمعت من يتحدث عنها قبل مجيئي الى المدرسة فلم اكن اسعد برؤية هذه المربيات السمراء وهي تمتد على قطعة خبز؛ ولكنها لم تكن مألوفة في المدرسة، ولم تكن رغبتي بها اقل لانها اصبحت فكرة ثابتة، تشبه الرغبة التي يوحيها الى آنق دوقةٍ في باريس لحم

السمك المتبل الذي تطبخه حارسات الابواب، والذي كانت تسرّبـــه بصفتها امرأة. ان الاطفال يكشفون الاشتهاء في النظرات كما تقرأون انتم فيها الحب: اذن فقد اصبحت موضوعاً ممتازاً للسخرية. فرفاقي الذين ينتمون كلهم تقريباً الى طبقة البورجوازية الصغرى كانوا يأتون ويقدمون لي اللحوم المطبوخة بالدهن «الرييت» الممتازة ويسألونني هل اعرف كيف تُصنع واين تباع، ولماذا لا أملك شيئاً منها. كانوا يتلمظون وهم يطرون، تلك البقايا من اللحم المقلية بشحمها والتي تشبه الكمأة المشوية؛ وكانوا يفتشون سلتي فلا يجدون فيها سوى الجبن او بعض الاثمار المجففة، ثم يجهزون علي بقولهم: ــ اذن ليس معك شيء؟... هذه العبارة جعلتني اقيس الفرق بين اخي وبيني. وهذا التناقض بين اهمالي وسعادة الآخرين لوث ورود طفولتي، واذوى اخضرار صباي. والمرة الاولى التي مددت فيها يدي، مخدوعاً بعاطفة كريمة، لقبول المربيات التي طالما تمنيتها، والتي قدمت الي على سبيل الخداع، سحب المخادع قطعة الخبز بين قهقهات الرفاق العارفين مسبقاً بهذه النهاية. فاذا كانت النفوس

الممتازة سهلة الاغترار بهذه الاباطيل فكيف لا يغفر للولد الذي يبكي لرؤية نفسه محتقراً؟ وبسبب هذا اللعب، كم من ولد اصبح هو شرّها، مستجدياً، جباناً!... لقد كنت اقاتل لاتجنب الاضطهادات، والشجاعة التي يبعثها اليأس جعلتني مرهوب الجانب، لكني كنت موضع حقد، وظللت دون سند يقيني من الغدر... وذات مساء، تلقيت في ظهري، وانا خارج، منديل مطوي مليء بالحصى. وحين اخبر الخادم امي بهذا الحادث، وكان قد ثأر لي بقسوة، صرخت:

– هذا الولد الملعون لا يأتينا منه سوى الغم!...

واصبحت في حذر شنيع من نفسي نظراً للاشمئزاز الذي أوحيه للعائلة. لقد انطويت على ذاتي هناك، كما في البيت. وها هو سقوط ثانٍ للثلج يؤخر إزهار البذور المزروعة في نفسي. لقد كان اولئك الذين رأيتهم محبوبين فجّاراً مخلصين، وقد استندت كبريائي الى هذه الملاحظة، وبقيت وحيداً. وهكذا استمر عجزي عن البوح بالعواطف التي افعمت قلبي. وعندما

رآني المعلم دائم الانقباض، مكروهاً، منزوياً، تأكد من صحة الشكوك الخاطئة التي كانت تساور عائلتي حول طبيعتي الرديئة. ولما اصبحت قادراً على القراءة والكتابة ارسلتني امي الى بون ـ ليفوا[1]، وهي مدرسة تديرها رهبنة القديس فيلبس النيري التي تستقبل اولاداً في مثل سني في صف يدعى صف «الخطوات اللاتينية» ويبقى فيه ايضاً التلامذة الذين يصعب على ذكائهم المتأخر الجد في العمل. لقد بقيت هناك ثماني سنوات لا ارى احداً، واعيش عيشة المنبوذين. واليكم كيف ولماذا ... لم يكن لي سوى ثلاثة فرنكات لمصروفي الشهري، وهو مبلغ لا يكاد يكفي للاقلام والمبرايات والمساطر والحبر والورق. ولما لم استطع شراء الطوالات ولا الحبال ولا أي شيء من الاشياء اللازمة لألعاب المدرسة، كنت محروماً من اللعب؛ ولكي اقبل في الالعاب كنت اضطر الى تملق الاغنياء او اطراء الاقوياء في

(١) في هذا الفصل يمزج بلزاك الحقيقة بالخيال. فمدرسة بون ـ ليفوا حلت هنا محل مدرسة فاندوم التي تلقى فيها بلزاك دروسه الاولى.

فرقتي . وكان اقل شيء من هــذه الدنايا التي يستبيحها الأولاد يثير قلبي فينتفض . كنت امكث تحت احدى الأشجار ، ضائعاً في احلام شاكية ، اقرأ الكتب التي توزعها المكتبة علينا شهرياً. ولكم اخفيت من ألم في اعماق هذه الوحدة الشنيعة ، وكم ولّد فيّ هذا الاهمال من الم نفسيّ ! . . . تخيلوا ما يمكن ان تشعر به نفسي الرخصة في الحفلة الاولى لتوزيع الجوائز حيث حصلت على اهم جائزتين: الترجمة والتعريب!...فحين تقدمت الى المسرح لأخذهما وسط الهتافات ونغــم الابواق ، لم يكن هناك لا والدي ولا والدتي ليحتفلا بي ، مع ان اسفل المسرح كان مليئاً بأهل جميع رفاقي . وبدلًا من ان اقبّل موزع الجوائز كما هي العادة ارتميت على صــدره وأجهشت بالبكاء . وفي المساء احرقت تيجاني في الموقد . وقد ظل اهالي الاولاد في المدينــة طوال الاسبوع المخصص للتمارين التي تسبق توزيع الجوائز . وهكذا كان رفاقي يذهبون مسرورين في الصباح ، بينما انا ، واهلي على بضعة اميال من هنا ، كنت ابقى في الصف مــع « عبر البحار » ، وهو اسم اطلق على التلامذة الذين كانت عائلاتهم في الجزر او في الخارج.

وفي المساء، اثناء الصلاة ، كان البرابرة القساة يتيهون علينا اختيالًا بالاطعمة اللذيذة التي صنعها اهلهم . انكم سترون بؤسي يكبر دائماً بسبب دائرة الكرات الاجتماعية التي سأدخلها . ولكم جهدت لأدحض الحكم الذي قضى علي بألا اعيش إلَّا داخل نفسي!... وكم من امل تمخضت به طويلًا مع ألف اندفاع نفسيّ فتحطم في يوم !... ولكي احمل اهلي الى المجيء الى المدرسة كتبت لهم رسائل ملأى بالعواطف ، وربما مفخمة التعبير . ولكن هل كان في هذه الرسائل ما يدعو الى لوم امي التي وبختني بسخرية على إنشائي ؟... لقد وعدّت دون ان تنثني عزيمتي ، بان انفذ الشروط التي وضعها ابي وامي لوصولهما ، والتمست معونة اختيّ اللتين كتبت اليهما في أيام عيدهما وميلادهما بدقة الأولاد الفقراء المهملين، ولكن بإلحاح لا طائل تحته . وعند اقتراب موعد توزيع الجوائز ضاعفت رجائي، وتحدثت عن النجاح المنتظر. وخُدعت بصَمت اهلي فانتظرتهم وانا ابعث بحماس في قلبي ، واعلنت عن مجيئهم لرفاقي ؛ وحين رنت خطوة البواب الهرم الذي يدعو التلامذة من الصفوف عند مجيء الاهل ، شعرت

بارتعاشات مرضية . هذا الهرم لم يلفظ اسمي ابداً . ويوم اتهمت بانني لعنت الوجود، اراني معرّي في السماء حيث يزدهر السعف الذي وعد به المخلص .

لما تناولت القربانة الاولى ارتميت في اعماق الصلاة الغامضة . وأغرتني الافكار الدينية التي تسحر فتنتها الاخلاقية النفوس الفتية . وصليت الى الله مدفوعاً بايمان حار ان يعيد لاجلي صنع العجائب المذهلة التي قرأتها في كتاب الشهداء . لقد شرعت وانا في سن الخامسة اطير في نجمة ، وفي الثانية عشرة صرت اطرق باب المعبد . وقد ولّد ذهولي في نفسي احلاماً لا توصف عمرت مخيلتي ، وأغنت حناني ، وزادت من قوة ملكاتي المفكرة . وكنت في الغالب اعزو هذه الرؤى السامية الى ملائكة مكلفين بتكييف نفسي وفقاً لمصائر الهية ، واكسبت عينيّ خاصة رؤية روح الاشياء ، واعدّت قلبي لعمليات السحر التي تصنع الشاعر البائس ، حين يملك القدرة المشؤومة على المقارنة بين نفسه وبين ما يشعر به ، بين الاشياء العظيمة التي يريدها والقليل الذي يحصل عليه ؛ وكتبت في رأسي كتاباً استطعت ان اقرأ فيه

ما علي ان اوضحه ، ووضعت على شفتي نار الالهام . كان يساور ابي بعض الشك حول جدوى التعليم عند هؤلاء الرهبان ، وقد جاء ينتشلني من بون ـ ليفوا ليضعني في باريس في مدرسة قائمة في الماريه وكنت قد بلغت الخامسة عشرة . واجري لي امتحان لمعرفة مقدرتي ، وحُكم على عالم البيان الآتي من بون ـ ليفوا بان يكون في الصف الثالث . ان الآلام التي شعرت بها في العائلة ، والمدرسة ، والكلية ، وجدتها هنا بشكل جديد اثناء اقامتي في نزل لبيتر . لم يعطني ابي نقوداً . كان كل شيء مقرراً حين علم اهلي انني استطيع ان آكل وألبس ، والقم اللاتينية وأحشي باليونانية . لقد عرفت الف رفيق طوال حياتي المدرسية ولم اجد عند احدهم مثلاً على اهمال كهذا. والسيد لبيتر المتعصب لآل بوربون كان على علاقة بأبي حين حاول بعض الملكيين المخلصين انقاذ الملكة انطوانيت من سجن التامبل ؛ وها هما يجددان تعارفهما ؛ ولهذا اعتقد لبيتر انه مضطر لاصلاح نسيان ابي ، لكن المبلغ الذي كان يعطيني اياه شهرياً كان قليلاً ، لانه جهل مقاصد عائلتي . وكان النزل في فندق « جويوز » القديم ،

وفيه مسكن لحارس كما هي الحال في جميع المساكن الاقطاعية القديمة . واثناء النزهة التي تسبق الساعة التي يأخذنا فيها «المفسد» الى معهد شارلمان ، كان الرفاق الاغنياء يذهبون لتناول غذائهم عند بوابنا المسمى دوازي . وكان السيد لبيتر يجهل، او يتساهل بتجارة السيد دوازي الذي كان مهر باً حقيقياً يجد التلامذة فائدة في مسايرته . لقد كان القبعة السرية لخطايانا ، ومستودع اسرار عوداتنا المتأخرة ، ووسيطنا لدى مؤجري الكتب الممنوعة . وكان غذاء فنجان قهوة بالحليب يُعدُّ ترفاً ارستقراطياً ، يفسره الثمن المفرط الذي ارتفعت اليه سلع المستعمرات ايام نابليون. واذا كان استعمال السكر والقهوة من الكماليات عند الاهل ، فانه انبأ بيننا عن تفوق كان يمكن ان يسبب لنا ألماً لولا الميل الى التقليد ، والبطنة ، وعدوى (الموضة) . وكان دوازي يفتح لنا اعتمادات ، ويفترض لنا اخوات وعمّات يستصوبن اعطاء مركز الشرف للطلاب ، ويدفعن ديونهم . لقد قاومت طويلًا مغريات محل بيع المأكولات . ولو عرف قضاتي قوة الاغراء ، وطموح نفسي البطولي الى ثبات العزيمة ، والجشع المكبوت

اثناء مقاومتي الطويلة، لكانوا جففوا دموعي بدلًا من ان يجعلوها تسيل. لكن هل وسعني وانا ولد، الحصول على عظمة النفس هذه التي تجعلني احتقر احتقار الغير؟ ثم لربما شعرت بعـــدة عيوب اجتماعية اصابتني فزاد طمعي. لقد جاء ابي وامي الى باريس عنـــد اقتراب نهاية السنة الثانية، وعين لي اخي يوم وصولها: لقد كان يسكن باريس ولم يزرني ولا مرة. وكانت أختاي في رحلة وعلينا ان نرى باريس معا. في اليوم الاول ذهبنا نتناول طعامنا في الباليه ـ رويال لنمضي جميعنا الى المسرح الفرنسي. ورغم النشوة التي سببها لي هذا المنهاج من الحفلات التي لم أكن أتوقعها، فان سروري خف بسبب ريح العاصفة التي تؤثر بسرعة في آليفي الشقاء. كان علي ان أصرح بدين مئة فرنك استلفتها من السيد دوازي الذي كان يهددني بطلبها من أهلي. وخطر لي ان اصطحب اخي كترجمان لدوازي، ومعبر عن توبتي، ووسيط للعفو عني. ومال أبي الى الغفران إلا ان امي لم ترحم، كانت عينها الزرقاء الداكنة تخيفني، وانفجرت بنبؤات رهيبة: «ماذا سأصبح في المستقبل ما دمت اقحم نفسي

في أمور كهذه وانا في السابعة عشرة؟ هل انا ابنها حقيقة ؟ هل سأسبب الافلاس لعائلتي ؟ وهل انا وحدي في البيت ؟ والمركز الذي يشغله اخي شارل الا يتطلب مخصصات مستقلة استحقها بفضل سلوكه الذي شرف العائلة بينما انا عارها ؟... وهل ستتزوج اختاي بدون بائنة ؟. هل اجهل قيمة المال وما أكلف من نفقات ؟ ولمَ استعمال السكر والقهوة في التربية ؟ ثم ان تصرفاً كهذا ألا يعني تعلم جميع العيوب ؟ ...» لقد كان مارا ملاكاً اذا قيس بي . أعادني اخي الى النزل بعد ان تحملت صدمة هذا السيل الذي افعم نفسي رعباً ، فخسرت غذاء في مطعم « الفرير بروفنسو[1] » وحرمت من مشاهدة « تلما » في برتيانيكوس .

هكذا كانت مقابلتي لوالدتي بعد غياب اثنتي عشرة سنة .

حين انهيت علومي الادبية تركني ابي تحت وصاية السيد

(١) مطعم مشهور في الباليه ـ رويال .

ليبتر : كان علي ان اتعلم الرياضيات العالية ، وانهي السنة الاولى من دراسة الحقوق وأبدأ بدراسات عالية . لقد اعتقدت ان هناك هدنة بين البؤس وبيني حين اصبحت تلميذاً داخلياً ذا غرفة مستقلة ، ومتحرراً من الصفوف . ولكن رغم سنواتي التسع عشرة ، وربما بسببها استمر ابي على تطبيق النظام الذي ارسلني سابقاً بموجبه الى المدرسة دون مؤونــــة طعام ، والى الكلية دون مصروف جيب ، والذي جعل دوازي دائني . ووضع تحت تصرفي القليل من المال . وماذا تحاول في باريس دون نقود؟... لقد قيّدت حريتي ببراعة : كان السيد ليبتر يرافقني الى معهد الحقوق بصعلوك يودعني يدي الاستاذ ثم يأتي لإعادتي . فالفتاة الصغيرة لا تُحرس بمثل هذه الحيطة . وأمي لم تستوح هذه الحيطة لحفظ شخصي . كانت باريس تخيف أهلي . فالطلاب مشغولون خفية بمـــا يشغل الاوانس في مدارسهن الداخلية ؛ ومهما يكن الامر فهؤلاء يتحدثن دائماً عن الحبيب واولئك عن المرأة . لكن الاحاديث في باريس بين الرفاق ، وفي ذلك الوقت ، كان يسيطر عليها عالم القصر الملكي الشرقي

السلطاني . لقد كان القصر الملكي « إلدورادو » الحب ، حيث كانت السبائك في المساء تجري وكلها مسكوكة. لقد كانت تنقطع هناك ابسط الشكوك ، وهناك امكن لفضولنا المشتعل ان يخبو !... فالقصر الملكي وانا كنا خطين متوازيين يتقاربان ويستطيعان الالتقاء . واليكم كيف أحبط القدر محاولاتي . كان أبي قد قدمني الى احـــدى عماتي القاطنة جزيرة سان لويس ، وكنت مضطراً الى الذهاب يومي الخميس والاحد لتناول الغداء عندها تقودني السيدة او السيد لبيـــتر اللذان كانا يخرجان في هذين اليومين ويعودان بي مساء عند رجوعهما الى البيت . يا لها من فرص تنفس غريبة !... كانت المركيزة ليستومير سيدة كبيرة مفرطة في المجاملة إلا انها لم تفكر ابداً باعطائي فلساً . انها هرمة ككنيسة ، مدهونة كأنها صورة صغيرة ، فاخرة في اناقتها ، وكانت تعيش في قصرها وكأن لويس الخامس عشر لم يمت ، لا ترى إلا نساء مسنات ورجالًا من النبلاء ، انه مجتمع من الاجساد المتحجرة كنت أظن وانا فيه انني في مقبرة . لم يكن هناك من يوجه اليّ الكلام ، وانا لا اشعر بالقدرة على

أن ابدأه؟ لقد جعلتني النظرات العدائية او الباردة اخجل مِن شبابي الذي بدا وكأنه يزعج الجميع. لقد بنيت نجاحي في الهرب على هذه اللامبالاة لانني صممت ان اهرب ذات يوم حين ينتهي الطعام لأطير الى رواق الخشب[1]. ان خالتي لا تعود تعيرني انتباهاً حين تبدأ بلعبة «الويست»، وخادمها جان قليلًا ما يهتم بالسيد لبيتر؟ لكن هذا الغداء التعس طال بكل أسف بسبب الفكوك العتيقة او بسبب عدم اتقان الاسنان الاصطناعية. واخيراً، وفي احدى الامسيات، بين الساعة الثامنة والتاسعة، بلغت الدرج وانا ارتجف مثل بيانكا كابللو[2] يوم هربها، وما ان سحب البواب لي الشريط حتى رأيت عربة السيد لبيتر في الشارع، ورأيت الرجل الطيب القلب يطلبني بصوته المختنق. لقد حالت الصدفة ثلاث مرات بشكل مشؤوم بين جحيم الباليه

(١) رواق الخشب الذي وصفه بلزاك في بعض كتبه هـدم في نهاية عهد الملكية.

(٢) عشيقة الغراندوق فرنسوا دي مدسيس وقد مات الاثنان بالسم.

رويال وفردوس صباي. فحين اصبحت خجلًا من جهلي وانا في العشرين من عمري، وفي اليوم الذي صممت فيه على مجابهة جميع الاخطار لأنتهي من هذا الجهل؛ وفي اللحظة التي تركت فيها رفقة السيد لبيتر اثناء صعوده الى العربة، وهي عملية صعبة لانه كان ضخماً كلويس الثامن عشر وذا رجل شوهاءَ؛ إيه !... ماذا !... وصلت امي بعربة البريد، فسمرتني نظراتها، وبقيت كالعصفور امام افعى. اية صدفة جعلتني التقي بها؟... الامر طبيعي جداً. كان نابوليون يحاول ضرباته الاخيرة. فأبي الذي كان يتوسم عودة آل البوربون جاء يرشد أخي العامل آنذاك في الديبلوماسية الامبراطورية. وكان قد ترك تور مع والدتي. كانت مهمة امي ان تعيدني الى تور لتنقذني من الاخطار التي بدت تهدد العاصمة لأولئك الذين يتبعون سير الاعداء. وببضع دقائق خطفت من باريس في اللحظة التي اصبحت الاقامة فيها مشؤومة علي. لقد ارغمتني آلام مخيلة تثيرها الرغبات المكبوتة دون انقطاع، ومتاعب حياة اشجاها الحرمان الدائم، على ان انصرف الى الدرس، كأولئك الرجال الذين انهكهم قدرهم في

سالف الايام فانعزلوا في احد الاديرة. واصبح الدرس عندي عاطفة يمكن ان تكون شؤماً علي بأن تسجنني حين ينصرف الفتيان الى النشطات الساحرة لطبيعتهم الربيعيّة .

هذا المخطط البسيط لعصر الصبا، حيث تستشفّون الكثير مما يثير الرثاء، كان ضرورياً لشرح تأثيره على مستقبلي. كنت لا ازال صغيراً، هزيلاً، شاحباً وقد اشجاني الكثير من العناصر الوبيلة وانا في العشرين. وكانت نفسي الملأى بالميول تقاوم بجسم واهن في الظاهر، لكنه يعاني آخر ذوبان طبع حديدي، على حد قول طبيب هرم في تور. كنت ولداً في الجسم وشيخاً في التفكير، قرأت كثيراً وتبصرت كثيراً بحيث صرت أعرف الحياة بمرتفعاتها ميتافيزيقياً حين بدأت اشاهد الصعوبات المضنية في فجاجها والطرق الرملية في سهولهـــا. هناك اقدار عجيبة تركتني في تلك الحقبة اللذيذة حيث تتفجر اولى اضطرابات النفس وتستيقظ على اللذات، وحيث كان كل شيء عندها ذا طعم وجديداً. كنت بين درجة البلوغ التي طال امدها بسبب اشغالي وبين رجولتي التي انبتت افنانها الخضراء متأخرة. ما من

شاب كان افضل مما كنت، مهيئاً لأن اشعر وان احب. ولفهم حكايتي جيداً عودوا الى تلك الفترة الجميلة من العمر، حيث الفم طاهر من الكذب، والنظر صادق مهما غطي بالجنون المثقلة بالحياء المتناقض مع الرغبة، والروح لا تنحني مطلقاً لمراوغة العالم، وجبن القلب يعادل في العنف عطايا الحركة الاولى.

لن احدثكم ابداً عن رحلتي مع امي من باريس الى تور. فبرودة تصرفاتها كبحت وثبة حناني. وحين كنا نبدأ السير عند كل مرحلة جديدة كنت اعلل نفسي بالكلام، ولكن نظرة واحدة او كلمة، كانت تنفر العبارات التي اعددتها بحكمة لأبدأ بها. وفي اورليان، في فترة النوم، وبختني امي بسبب صمتي. فارتميت على قدميها، وقبلت ركبتيها وانا ابكي بحرارة وفتحت لها قلبي المليء بالالم، وحاولت ان الامس قلبها بفصاحة مرافعة جائعة للحب كانت نبراتها تحرك احشاء اي ام عديمة الحنان. وكان جوابها لي اني امثل مهزلة. وشكوت اهمالها فدعتني ابناً عاقاً. وهكذا اصبت بانقباض القلب الذي اصابني

في بلوا وركضت الى الجسر لالقي بنفسي في نهر اللوار. فحال علو الحاجز دون انتحاري.

عند وصولي الى البيت بدت على اختيّ اللتين لا تعرفانني علائم دهشة اكثر منها علائم حنان؛ ومع ذلك فيما بعد، وبالمقارنة، بدتا مليئتين بالصداقة نحوي. لقد أنزلت في غرفة في الطابق الثالث. وقد تدركون مدى بؤسي حين أخبركم ان امي تركتني، انا الشاب ابن العشرين، دون ملابس داخلية سوى ذلك الجهاز الحقير الذي كان معي في النزل، ودون ملابس خارجية سوى تلك التي كانت معي في باريس. كنت اذا طرت من طرف البهو الى الطرف الآخر لالتقط لها منديلها لا توجه الي سوى كلمة شكر باردة كتلك التي تمنحها المرأة خادمها. لقد اضطررت الى مراقبتها لأعرف هل في قلبها اماكن سريعة التفتّت استطيع ان انشب فيها بعض فروع من المودة، فلم ار سوى سيدة كبيرة جافة، بخيلة، مقامرة، انانية، سفيهة كجميع نساء عائلة لستومير اللواتي تحسب السفاهة عندهن مع البائنة.

انها لا ترى في الحياة غير واجبات تؤدى؛ وجميع النساء الباردات اللواتي التقيتهن يجعلن من الواجب ديناً؛ كانت تتلقى شغفنا بها كما يتلقى الكاهن البخور في القداس؛ ويبدو ان اخي البكر قد استنزف القليل من الامومة الموجود في قلبها. كانت تلسعنا دون انقطاع بسهام تهكم لاذع، سلاح الناس العديمي الرحمة، كانت تستعمله ضدنا نحن الذين لا نستطيع ان نجيبها بشيء. ورغم هذه الحواجز الشائكة فان العواطف الغريزية تمسك بكثير من الجذور، والرعب الديني المستوحى من أم لا يكلفها بعث اليأس في النفوس إلا قليلًا يحتفظ بكثير من الروابط، وان الضلال السامي لحبنا يستمر الى اليوم الذي يحاكم فيه محاكمة كاملة عندما تتقدّم بنا الحياة. في ذلك اليوم تبدأ مشاحنات الاولاد حيث اللامبالاة المتولدة من خيبة الامل في الماضي تضخم بقايا وحلية جاءتهم منه، ويمتد حتى القبر. هذا الاستبداد المرعب طرد الافكار الشهوانية التي كنت اقصد ارضاءها بجنون في تور. القيت نفسي بيأس في مكتبة أبي حيث انصرفت الى قراءة جميع الكتب التي لم اكن أعرفها. وهذه

الجلسات الطويلة في العمل وفرت علي كل اتصال بأمي ، لكنها زادت من سوء حالي المعنوية . واحياناً كانت أختي الكبرى ، تلك التي تزوجت من ابن عم المركيز دي لستومير ، تحاول التفريج عني فلا تستطيع تهدئة الهياج المستولي علي . كنت اريد ان أموت .

كانت تتهيأ آنذاك حوادث عظيمة كنت غريباً عنها . فالدوق دأنغوليم الذي ذهب من بوردو الى باريس ليلحق بلويس الثامن عشر كان يستقبل عند مروره في كل مدينة بهتافات هيأها الحماس الذي استولى على فرنسا القديمة بعودة آل بوربون . فالتورين هائجة لامرائها الشرعيين . والمدينة في هرج ومرج . والنوافذ مزدانة بالاعلام ، والاهالي بثياب الاحد ، فاستعدادات الحفلة ، وهذا المسكر المنتشر في الهواء ، بعث فيَّ الرغبة في حضور الحفلة الراقصة المقامة على شرف الامير . وحين تجلببت بالجرأة لأوضح هذه الرغبة لوالدتي التي كانت مريضة وعاجزة عن حضور الحفلة غضبت بشدة ، أتراني اجهل كل شيء كأني

قادم حديثاً من الكونغو ؟... كيف استطعت التخيل ان عائلتي لن تكون ممثلة في تلك الحفلة الراقصة ؟... ثم ألا تقع على عاتقي مهمة الذهاب اليها في غياب ابي واخي ؟... أليس لي أم ؟... ألا تفكر بسعادة أولادها ؟... وفي لحظة أصبح الولد المنكر شخصية مرموقة. ودهشت من اهميتي اكثر مما دهشت من الاسباب المفصلة بسخرية الــتي استقبلت والدتي بها طلبي. وسألت اختيّ فعلمت ان امي التي تسرها هذه المفاجآت المسرحية كانت كثيرة الاهتمام بزينتي. ولم يستطع اي خياط في تور ان يقوم بتجهيزي بعــد الاستماع الى تطلبات امي. فاستدعت عاملتها اليومية التي كانت ملمة بكل انواع الخياطة، وفقاً لعادة الاقاليم. ثوب ازرق جعل شكلي معتدلًا. جوارب حريرية وخفَّان جديدان وجدا بسهولة؛ وكانت صداري الرجال تلبس قصيرة، واستطيع ارتداء احدى صداري والدي؛ وللمرة الاولى اصبح لي قميص ذو تخريم نفخت صداريه صدري والتفت في عقدة ربطة عنقي. حين ارتديت هــذه الملابس صرت لا أشبه نفسي إلا قليلًا، وبعثت اختاي بمديحها الشجاعة الكافية

في نفسي لأظهر امام الجمعية التورينية . انها لمجازفة عسيرة !... اقتضت هذه الحفلة الكثير من المدعوين ليكون فيها الكثير من المختارين وبفضل صغر قامتي دخلت تحت خيمة في حديقة بيت بابيون[١] ، ووصلت الى قرب المقعد حيث الامير . فاختنقت من الحر ، وبهرتني الانوار والفرش الحمراء ، والزخارف المذهبة ، والزينات والماسيات اول حفلة عامرة حضرتها ، كان يدفعني جمهور من الرجال والنساء ينقض بعضهم على بعض ويصطدمون في سحابة من الغبار . وقد اختنقت اصوات الآلات النحاسية الحامية وضوضاء الموسيقى الحربية البوربونية في غمرة الهتافات القائلة : — يعيش الدوق دانغوليم !... يعيش آل بوربون . كانت هذه الحفلة ثورة من الحماس يحاول كل واحد فيها ان يتفوق بسرعة ضارية في الركض نحو شمس آل بوربون الطالعة ؛ انها انانية حزب حقيقية جعلتني بارداً ، وصغرتني ، وطوتني على نفسي .

(١) لقد هدم هذا البيت وقام مكانه اوتيل دي فيل الحالي .

في هذا الاعصار الذي اقتلعني كالقشة ساورتني رغبة صبيانية في ان اكون الدوق دانغوليم، وان اختلط بهؤلاء الامراء الذين يتبخرون امام جمهور مبهور. ان غيرة تورنجو الحمقاء ولدت طمعاً جعلته شجيتي والظروف نبيلاً. ومن لا يصاب بالغيرة لهذه المحبة التي شاهدت تكراراً مضخماً لها بعد بضعة شهور، حين اندفعت باريس بكاملها نحو الامبراطور العائد من جزيرة ألبا؟... ان هذه السيطرة على الجماهير الـــتي تنصب عواطفها وحياتها في نفس واحدة كرستني فجأة للمجد، تلك الكاهنة التي تذبح فرنسي اليوم كما كانت الكاهنة الغاليّة تضحي بالغاليين في الماضي. ثم التقيت فجأة بالمرأة التي يجب ان تنخس رغباتي الطامعة دون انقطاع، وان تغمر هذه الرغبات بأن تلقيني في قلب الملكية. كان خجلي يمنعني من دعوة احدى الراقصات، واخاف مع ذلك ان اعكر الوجوه، فاصبحت بحكم الطبيعة كثير العبوس لا ادري ما افعل، وبينما انا اتألم من دوس الحشد، مشى ضابط على قدمي المتورمتين بسبب ضغط الجلد بقدر ما هو بسبب الحرارة. فقرفني الحفلة. ولما كان الخروج

مستحيلًا ، لجأت الى زاوية في طرف مقعد مهجور ظللت فيها محدق العينين ، جامداً حرداً . وكان هناك امرأة خدعها مظهري المزيل فخالتني طفلًا غالبه النعاس منتظراً رغبة أمه. وقفت قربي بحركة عصفور يهوي في عشّه. وشممت رائحـــة عطر نسائي تألق في نفسي كما تألق فيها منذ ايام الشعر الشرقي. فبهرتني اكثر مما بهرتني الحفلة ؛ اصبحت كل حفلتي . ولو ادركتم جيداً حياتي الماضية لادركتم العواطف التي انبجست في قلبي. ذهلت عيناي فجأة من كتفين بيضاوين بدينتـــين وودت لو استطيع التمرغ عليهما ، كتفان في صبغة وردية خفيفة يبدوان، وقد لونهما الاحمرار ، كأنهما تعريا للمرة الاولى ، كتفان خفرتان فيهما روح ، تتلألأ بشرتهما الملساء في النور كنسيج حريري. على هاتين الكتفين اللتين قسمهما خط جرى نظري ، وكان أجرأ من يدي . فنهضت مرتجفاً لأرى النصف الاعلى ، فبهرني عنق غطاه بطهارة قماش شفاف ، لكن الكرتين اللازورديتين المستديرتين تماماً كانتا نائمتين بنعومة في امواج من المخرمات . وأقل تفصيل من هذا الرأس كان طعوماً ايقظ في نفسي متعاً

لا نهاية لها : رونق الشعر المصقول فوق عنق مخملي كعنق فتاة صغيرة ، وخطوط بيضاء رسمها فيها المشط كانت مخيلتي تركض فيها كما تركض في طرقات نضرة، كل هذا أضاع عقلي . وبعد ان تأكدت اني بمنجى من العيون، انغمست في هذا الظهر كطفل يلقي نفسه في حضن امه ، واخذت أقبل هاتين الكتفين وانا أمرغ رأسي عليهما. واطلقت هذه المرأة صرخة حادة لم تسمع بسبب صوت الموسيقى . والتفتت فرأتني فقالت لي : «– أيها السيد؟» آه !... لو انها قالت «يا غلامي الصغير ما بك؟ ...» لربما كنت قتلتها ، ولكن كلمة «السيد» هذه أراقت الدموع الحارة من عيني . لقد جمدتني النظرة الملتهبة بغضب مقدس ، والرأس السامي المتوج بالشعر الرمادي المتناسق مع الظهر المغري بالحب . لقد تألق ارجوان الحياء المهان على وجهها الذي جرده من سلاحه عفو المرأة التي تدرك الفورة الجنونية حين تكون هي سبباً لها ، وتدرك الشغف اللامتناهي في دموع التوبة . وذهبت بحركة كأنها حركة ملكة . فشعرت حينئذ بوضعي المضحك ؛ وحينئذٍ فقط ادركت انني حزمت كقرد

عند رجل من السفوا . وخجلت من نفسي . وبقيت مشدوهاً متلذذاً بالتفاحة التي سرقتها ، محتفظاً على شفتي بحرارة الدم التي تنشقتها ، غير نادم على شيء ، ومتبعاً نظري بتلـــك المرأة الهابطة من السماء . وسرت على غير هدى في حلبة الرقص وقد اقفرت واستولت علي الفورة الجسدية الاولى من حمّى القلب الكبرى ، دون ان اجد فيها مجهولتي . وعدت الى النوم متغيراً .

ان روحاً جديدة ، روحاً ذات اجنحة متعددة الالوان ، كسرت شرنقتها . ونجمتي العزيزة الهابطة من السهوب الزرقاء حيث كنت اعجب بها انقلبت امرأة ، محتفظة بضيائها وتألقها ونضارتها : لقد أحببت فجأة دون ان اعرف شيئاً عن الحب . أليست غريبة هذه الغزوة الاولى لأحدّ عاطفة عند الانسان؟...في صالون عمتي التقيت بعض النساء الجميلات ، ولكن ما من واحدة منهن سببت لي اقل تأثير . فهل توجـد اذن ساعة ، اقتران كواكب ، اجتماع ظروف معينة ، امرأة ما بـين جميع النساء ، تحدد عاطفة مستأثرة ، في الوقت الذي يشمل فيه الحب الجنس بكامله ؟... حين فكرت ان عروس احلامي تعيش في التورين ،

صرت اتنشق الهواء بلذة ، ووجدت في زرقـــة الطقس لوناً لم اره في اي مكان . ومع انني كنت منتشياً عقلياً ، فقد بدوت خطير المرض وشعرت والدتي بمخاوف يمازجها تقريع الضمير . وذهبت ، كالحيوانات التي تشعر باقـــتراب الشر ، وأقعيت في زاوية من الحديقة احلم فيها بالقبلات التي اختلستها . وبعد ايام من هذه الحفلة الراقصة التي لا تنسى عزت امي اهمـال اشغالي ، ولامبالاتي بنظراتها الجائرة ، وعـدم اهتمامي بتهكمها، وهيئتي المتجهمة، الى نوبات طبيعية تصيب من هم في سني من الشباب . وقـد اعتبر الريف ، ذلك الدواء الابدي للآلام التي لا يعرفها الطب ، افضل وسيلة لاخراجي من جمودي . فقررت امي ان اذهب لقضاء ابضعة يام في فرابسل[1] ، وهو قصر قائم على الاندر بين مونبازون وآزاي ــ ليريدو ، عند احـــد اصدقائها الذي اعطتـــه ولا شك معلومات سرية عني . ويوم اوليت وجهي

---

(١) هــذه الارض موجودة حقيقية ولكنها بالقرب من ايسودان في الاندر وكانت تسكنها زيلما كارو افضل صديقة لبلزاك .

شطر الحقول كنت قد سبحت في اقيانوس الحب بقوة جعلتني اجتازه. كنت أجهل اسم حبيبتي المجهولة فكيف ادل عليها واين اجدها ؟ . . . وفضلًا عن ذلك ، فإلى من أستطيع ان اتحـدث عنها ؟ . . . ان طبعي الخجل كان يزيـد من المخاوف المبهمة التي تستولي على القلوب الفتية في بدء الحب ، ويجعلني ابدأ بالكآبة التي تنهي الحب اليائس . لم اكن أطلب افضـل من ان اروح واجيء ، واركض خلال الحقول . وبهذه الشجاعة التي لا تهاب شيئاً وتحتوي على ما لا ادري من صفات الفروسية، عزمت على تفتيش جميع قصور التورين، سائراً اليها على قدمي ، قائلًا لنفسي عند رؤية كل برج جميل « قد تكون هنا !... »

في صباح احد ايام الخميس خرجت من تور عن طريق حاجز سان ـ إلوا ، واجتزت جسور السان ـ سوفير ، ووصلت الى بونشيه رافعاً انفي عند كل بيت ، واخـــذت طريق شينون . وللمرة الاولى في حياتي استطعت ان اتوقف تحت شجرة، واسير متمهلًا او مسرعاً على هواي دون ان يسألني أحـد عما افعل .

فعند كائن مسكين سحقته الاستبدادات المختلفة التي تثقل قليلاً او كثيراً على جميع الشبان ، فان مزاولة الحريّة لاول مرة، حتى لو مارسها على لا شيء، تحمل الى النفس ما لا ادري من فرح. اسباب كثيرة تجمعت لتجعل من هذا اليوم عيداً مليئاً بالسحر. في طفولتي لم تكن نزهاتي تقودني الى ابعــــد من ميل خارج المدينة . وما كانت سباقاتي في ضواحي بون – ليفوا ، ولا تلك التي قمت بها في باريس ، لتفسدني فيما يتعلق بجمال الطبيعة في الحقول . ومع كل هــذا فقد بقيت لي من اولى ذكريات حياتي عاطفة الجمــال التي تتضوع من مناظر تور التي الفتها . ومع انني جديد تماماً على شعر المناظر الطبيعية فقد كنت متطلباً دون علمي ، كأولئك الذين لا يعرفون التطبيق العمـــلي لفنٍّ ما يتخيلون فيه المثل الاعلى لأول وهـلة . وللذهاب الى قصر فرابسل فان المشاة او الفرسان يختصرون الطريـق بمرورهم في الاراضي المسماة شارلمان . وهي ارض بور تقع على قمة الهضبة التي تفصل حوض الشير عن حوض الاندر حيث توجد طريق معترضة توصل الى شامبي . وهذه الاراضي المنبسطة الرملية التي تبعث

فيك الحزن طوال ميل كامل ، تتصل بواسطة الغابات بطريق ساشيه[1] وهو اسم المديرية التابع لها فرابسل. اما الطريق التي تنفتح على طريق شينون، فيما وراء بللان ، فإنها تقطع سهلًا غير ممهد دون عوارض مهمة ، حتى بلاد أرتان الصغيرة. وهناك ينكشف واد يبدأ في مونبازون وينتهي على اللوار ، ويبدو كأنه يثب تحت القصور الواقعة على تلك التلال المزدوجة ؛ انه كأس بديع من الزمرد ، يجري الاندر في اعماقه بحركات افعوانية. وقد انتابتني دهشة لذيذة لهذا المشهد اعدها لي السأم من الارض الجرداء وتعب الطريق. «— لئن سكنت تلك المرأة، زهرة جنسها، مكاناً في الدنيا ، فها هوذا» . وعند هذه الفكرة استندت الى شجرة جوز وصرت منذ ذلك اليوم ارتاح تحتها كلما عدت الى واديّ العزيز. تحت هذه الشجرة مستودع اسراري ، كنت اسائل نفسي عن التغييرات التي طرأت علي منذ آخر يوم ذهبت

(١) كان قصر ساشيه ملكاً لجان دي مارغون صديق عائلة بلزاك . وقد كتب فيه المؤلف اشهر كتبه .

فيه . انها تقيم هناك ، وقلبي لا يخدعني ابداً ؛ واول قصر رأيته عند منحنى الارض كان مسكنها . وحين كنت اجلس تحت شجرة الجوز ، كانت شمس الظهيرة تبعث اللمعان في قرميد سطحها وزجاج نوافذها. وكان ثوبها القطني الرقيق يشكل النقطة البيضاء التي لاحظتها في كرومها تحت شجرة « البرجي » لقد كانت ، كما عرفتم الآن ، وبدون ان تعرف شيئاً بعد ، **زنبقة هذا الوداي** حيث ترتفع الى السماء فتملأها بعطر فضائلها. ان الحب اللانهائي ، الذي لا قوت له سوى شيء يكاد لا يستشف والذي ملأ نفسي، وجدت تعبيره في هذا الشريط المائي الطويل الذي ينساب في الشمس بين ضفتين خضراوين وبتلك الصفوف من اشجار الحور التي زينت بخرماتها المتحركة هذا الوادي الغرامي ، وبغابات السنديان التي تزحف بين الكروم على تلال يدورها النهر دائماً على وجه مختلف ، وبتلك الآفاق الممهدة الهاربة وهي تتعاكس . اذا اردت رؤية الطبيعة الجميلة العذراء كأنها عروس ، فاذهب هناك في احد ايام الربيع ؛ واذا أردت تهدئة جراح قلبك الدامية، فعد الى هناك في اواخر ايام الخريف؛

في الخريف يصفق الحب هناك بجناحيه تحت السماء؛ وفي الخريف يطيب التفكير بالغائبين . ان الرئة المريضة تتنفس هناك برودة مفيدة، والنظر يستقر على باقات مذهبة تسر الى النفس وداعاتها الدمثة . في هذه اللحظة كانت الطواحين القائمـــة على مساقط الاندر تعطي هذا الوادي المرتعش صوتاً، وكانت اشجار الحور تتأرجح ضاحكة ، والسماء خالية من الغيوم ، والعصافير تغرد، والصراصير تصخب ، لقـد كان هناك كل شيء نغماً . لا تسلني بعد لماذا احب التورين . لا احبها كما يحب المرء مهده ، ولا كما تحب الواحـة في الصحراء ؛ احبها كما يحب الفنان الفن ، احبها اقل مما احبك ، وربما لا اعيش ابـداً بدون التورين . وعادت عيناي الى البقعة البيضاء دون ان ادري لمـاذا ، الى المرأة التي تتلألأ في تلك الحديقـــة الواسعة كما يلمع زهر اللبلاب وسط الادغال الخضراء ، تذوي اذا ُمست . ونزلت ، كئيباً الى قعر هـذه السلة من الزهور ؛ فرأيت قرية جعلني الشعر الفائضة به نفسي لا ارى لها مثيلًا . تصوروا ثلاث طواحين قائمة بين جزر مقطعة بشكل لطيف ، ومتوجـــة ببعض باقات من الاشجار

وسط مرج من المياه ؛ اي اسم آخر يطلق على تلك النباتات المائية ، الكثيرة الرشاقة ، الجيدة التلوين ، والتي تغطي النهر ، وتنبجس فوقه ، وتتموج معه ، وتتبع اهواءها وتنحني لعواصف النهر الذي تسوطه دواليب الطواحين ! . . : هنا وهناك ترتفع اكداس من الحصى يتكسر الماء عليها مشكلًا منها مخمليات تتألق عليها الشمس . ونباتات الامارلس ، والنيلوفر ، وزنبقة الماء ، والخيزران ، والقبس تزين الضفاف بوشيها البديع ؛ وهناك جسر احراج مؤلف من اخشاب نخرة ، اعمدته مغطاة بالازهار وحواجزه مفروشة بالاعشاب المعمرة ، والطحالب المخملية تنحني على النهر ولا تسقط ؛ وزوارق منهوكة ، وشباك صيادين ، وغناء راعٍ رتيب ، والبط الذي يسير بين الجزر او ينظف نفسه على الرمل الممزوج بالحصى التي ينقلها اللوار ؛ وصبيان طحانين يضعون قبعاتهم على آذانهم وهم مشغولون بوضع الاحمال على بغالهم ؛ ان كلًّا من هذه التفاصيل يجعل لهذا المشهد بساطة اخاذة . وتصور فيما وراء الجسر مزرعتين او ثلاثاً ، وبرج حمام ، ويماماً ، ونحو ثلاثين من المساكن الحقيرة تفصلها حدائق وسياجات من شجر

زهر العسل ، وياسمين ، وياسمين البر ؛ ثم مزابل تعلوها الازهار امام جميع الابواب ، ودجاجاً وديوكاً على الطرق، انها قرية بون دي روان، وهي قرية جميلة تعلوها كنيسة فريدة الطابع ترجع الى الصليبيين يقصد امثالها الرسامون لرسم لوحاتهم . واحيط كل هذا باشجار جوز عتيقة ، واشجار حور فتية ذات اوراق ذهبية شاحبة ، ومصانـــع بديعة وسط مروج طويلة تضيع فيها العين تحت سماء حارة مليئة بالابخرة، وبهذا تكوّن فكرة عن منظر من الف منظر في هذه البلاد الجميلة. سرت على طريق ساشيه على شمـال النهر ملاحظاً مجموعة التلال التي تعمر الضفة المقابلة حتى بلغت حديقـــة مزدانة باشجار معمرة دلتني على قصر فرابسل .

وصلت ساعة اعلن الجرس موعد الغداء . وبعد الطعام لم يلاحظ مضيفي انني جئت من تور على الاقـدام ، فحملني على التجول حول ارضه واستطعت رؤية الوادي من جميع الجهات بكل اشكاله : من هنا رأيت منظراً واحداً ، ومن هناك رأيته

بأكمله ، كانت تجتذب عيني في الغالب الى الافق صفحة اللوار الذهبية الجميلة حيث ترسم الاشرعة بين الضربات المتلاحقة صوراً جامحة كانت تفر بها الريح. وحين تسلقت احدى القمم اعجبت للمرة الاولى بقصر آزاي ، انه قطعة ماس مصقولة على عدة وجوه ، رصعه الاندر ، ورفـع على دعائم مغطاة بالزهر . ثم رأيت في احد الاغوار كتل قصر ساشيه الرومانتيكية . إقامة كئيبة ملأى بالانسجام ، شديـدة على الناس السطحيين ، عزيزة على الشعراء ذوي النفوس المتألمة . وفيما بعد ، احببت فيها الصمت، والاشجار الكبيرة المجردة من اغصانها ، وهذا الشيء الغامض المنتشر في واديه المقفر !... ولكن في كل مرة ألقى فيها ، عند منحنى الضفة المجـاورة ، القصر الظريف الصغير الذي اختارته نظرتي الاولى فانني اقف عنده مغبوطاً .

وقال لي مضيفي وهو يقرأ في عيني احـدى تلك الرغبات المتوقدة المعبر عنها بسذاجة في مثل سني :

– هيه ؟ . . . انك تشتم من بعيد رائحة امرأة جميلة كما يشم الكلب رائحة الطريدة .

لم احب هذه الكلمة الاخيرة ، لكنني سألت عن اسم القصر واسم صاحبه . فقال لي :

ـ هذا هو كلوشيغورد ، وهو بيت جميل يملكه الكونت دي مورتسوف ، ممثل عائلة تاريخية في التورين ، وتعود ثروته الى عهد لويس الحادي عشر ، واسمه يشير الى المغامرة التي هو مدين لها بشعائر شرفه وشهرته . انه متحدر من رجل نجا من المشنقة . وقد جاء الكونت يستقر في هذه الارض عند عودته من الهجرة . وهذه الامــــلاك لزوجته ، وهي فتاة من آل لينانكور ، من بيت لينانكور جفري الذي أوشك على الانطفاء : والسيدة دي مورتسوف هي ابنة وحيدة . وتتناقض الثروة القليلة لهذه العائلة مع شهرة الاسماء ، اذ ظل هؤلاء في كلوشيغورد ، بعامل الكبرياء او بدافع الحاجة ، ولا يرون فيها احداً . وقد برر عزلتهم حتى الآن تعلقهم بالبوربونيين ؛ وأشك في ان تغير عودة الملك طريقة حياتهم . وحين جئت لأقيم هنــــا في السنة الماضية قمت بزيارة مجاملة لهم ، فردوا لي الزيارة ودعوني الى الطعام ؛ وفي الشتاء انفصلنا لبضعة اشهر ،

ثم أخرت الحوادث السياسية عودتنا ولم آتِ الى فرابسل إلا منذ حين. والسيدة دي مورتسوف تستطيع ان تحتل المكان الاول اينما حلّت .

ـ هل تأتي غالباً الى تور ؟

ـ انها لا تذهب اليها أبداً ـ ثم قال مستدركاً : لكنها ذهبت اليها مؤخراً عند مرور الدوق دانغوليم الذي بدا كثير اللطف مع السيد دي مورتسوف .

وهتفت : انها هي .

ـ من ، هي ؟ ...

ـ امرأة جميلة الكتفين .

فقال ضاحكاً :

ـ ستلتقي في التورين كثيراً من النساء ذوات الاكتاف

الجميلة ، فاذا لم تكن تعباً أمكننا اجتياز النهر والصعود الى كلوشيغورد حيث تتروى في التعرف الى كتفيك .

وقبلت ، بعد ان احمررت سروراً وخجلاً . وعند الساعة الرابعة بلغنا القصر الصغير الذي كانت عيناي تداعبانه منذ امد طويل . هذا المسكن الجميل الاثر في تلك المناظر كان بالحقيقة متواضعاً . له خمس نوافذ من الامام ، ومن كل من تلك التي ينتهي بها وجه البناء الموجه الى الجنوب تبرز نحو اثني عشر قدماً ، حيلة معمارية توهم ان هنالك جناحين ، وهذه النوافذ تضفي الملاحة على المسكن. اما النافذة التي في الوسط فتستعمل كباب يوصل على درجات مزدوجة الى حدائق مدرجة تبلغ مرجاً ضيّقاً قائماً على طول الاندر . ورغم وجود طريق اقليمي يفصل هذا البرج عن آخر سطح مظلل بممر من الاكاسيا ونبات الإنلنطس ، فإنه يبدو جزءاً من الحدائق ؛ لان الطريق اجوف يخفيه السطح من ناحية ، وهو محاط من الناحية الاخرى بسياج نورمندي . والمنحدرات نسقت بمهارة بحيث تجعل مسافة بين المسكن والنهر فتبعد خطر المياه المجاورة ، بدون ان تزيل

عنها ملاحتها. ويوجد تحت البيت مكان للعربات، واسطبلات، ومخازن، ومطابخ تشكل فتحاتها المتنوعة اقواساً. والسقوف محاطة بالزوايا بشكل لطيف ومزخرفة بغريفات عليا ذات عوارض خشبية محفورة. وبباقات من الرصاص على الجملون. والسقف الذي أهمل دون شك اثناء الثورة كان مثقلاً بذلك الصدإ الناتج عن الطحالب المسطحة المحمرة التي تنمو على البيوت الموجهة نحو الجنوب. والنافذة ــ الباب المطلة على الدرج يعلوها نبات الجريس وقد بقي شعار بلامونت ـ شوفري محفوراً عليها. والشعار القائل «انظروا ولا تمسوا» اذهلني بشدة. والدعائم التي هي عقاب وتنين لهما حلاقيم مكبلة بالذهب تشكل أثراً جميلاً محفوراً. وكانت الثورة قد اتلفت تاج الدوقية وزينة الحوذة المؤلفة من نخلة مثمرة ذهباً. لقد كان سينار[1] امين سر لجنة السلامة العامة قاضياً في ساشيه قبل عام ١٧٨١ وهذا ما يفسر ذلك الإتلاف.

(١) مؤلف عدة مذكرات عن الفانديه. وكان فعلاً سكرتيراً للجنة السلامة العامة.

هذه التنظيمات تضفي شكلًا أنيقاً على هذا القصر المتقن الصنع كالزهرة، والذي يبدو كأنه لا يثقل على الارض. واذا نظرنا من الوادي الى الطابق الارضي بدا كأنه الطابق الاول؛ ولكنه من ناحية الباحة متساوٍ مع ممر عريض مفروش بالرمال مفضٍ الى ساحة معشوشبة بعثت الحيوية في حشيشها عـــدة سلال من الازهـــار. والى اليمين والشمال خنادق الكروم والرياض، وبعض قطع من الاراضي الصالحة للزراعة مغروسة باشجار الجوز، تنحدر بسرعة، مغلفة البيت بتلاصقها وتبلغ ضفاف الاندر التي تعمرها في هذه الناحية باقات اشجار نوعت الطبيعة نفسها خضرتها. وبصعودي الطريق المحاذي لكلوشيغورد اعجبت بتلك الكتل الحسنة الترتيب وتنشقت فيها هـــواء مفعماً بالسعادة. فهل الطبيعة المعنوية اذن كالطبيعة الجسدية باتصالاتها الكهربائية وبتغيير حرارتها السريع؟... كان قلبي يخفق لاقتراب الاحداث الخفية التي قد تغيره الى الابد، كما تبتهج الحيوانات حين تستشعر طقساً حسناً. وهذا اليوم الشديد الأثر في حياتي لم يفتقر الى اي من الظروف التي قد تجعله عظيماً.

فالطبيعة مزدانة كامرأة ذاهبة الى موعد مع حبيبها ، وقد سمعت روحي صوتها للمرة الاولى. وعيناي اعجبتا بها كثيرة الخصب ، كثيرة التنوع ، كما كانت مخيلتي تمثلها لي في احلامي المدرسية التي قلت لك عنها كلمات غير صادقة عليك انت أن توضحي تأثيرها لانها كانت كرؤيا يوحنا أنبئتُ فيها بحياتي بشكل رمزي : كل حادث سعيد او تعيس يرتبط فيها بصور غريبة ، بروابط منظورة فقط بعين الروح. واجتزنا اول باحة محاطة بالابنية الضرورية للاستثمارات الحقولية : مخزن ، معصرة، زرائب ، اسطبلات . وهناك خادم انذره نباح كلب حراسة فجاء لملاقاتنا ، وقال لنا ان الكونت وقد ذهب الى آزاي منذ الصباح يوشك ان يعود، وان الكونتس في البيت. وتطلع الي مضيفي فارتجفت خوفاً من عزوفه عن رؤية السيدة دي مورتسوف في غياب زوجها ، ولكنه قال للخادم ان ينبئها بوجودنا. واندفعت الى غرفة الانتظار الطويلة التي تخترق البيت ، بجشع ولد. وسُمع عندئذٍ صوت ذهبي يقول : ادخلوا يا سادة ! ...

مع ان السيدة دي مورتسوف لم تتلفظ بسوى كلمة واحدة في الحفلة الراقصة فقد عرفت صوتها الذي نفذ الى نفسي وملأها كما يملأ شعاع الشمس زنزانة سجين ويطليها بالذهب. لقد اردت ان اهرب حين فكرت انها قد تتذكر وجهي؛ ولكن الوقت لم يتسع، فقد ظهرت على عتبة الباب، وتلاقت عيوننا. ولا اعرف من منا احمرّ وجهه اكثر من الآخر. ولما كانت عاجزة عن قول شيء فقد عادت وجلست في مكانها امام نول لصناعة المفارش، بعد ان قدّم لنا الخادم مقعدين؛ وانتهت من سحب ابرتها لتجد عذراً بصمتها. وعدّت بعض القطب ورفعت رأسها المتغطرس اللطيف معاً نحو السيد شيسل وسألته عن الظروف السعيدة المدينة لها بزيارته. ورغم اهتمامها بمعرفة الحقيقة عن سبب وجودي فانها لم تنظر الى احدٍ منا؛ كانت عيناها عالقتين ابداً بالنهر؛ ولكن بطريقة تتيح لها السمع، وتستطيع القول انها، كالعميان، تعرف كيف تتعرّف الى بلبلة النفس من نبرات الكلام غير المحسوسة. وكان هذا صحيحاً. ولفظ السيد دي شيسل اسمي وسرد سيرتي: وصلت الى تور منذ

بضعة اشهر حيث اعادني اهلي اليهم حين بدأت الحرب تهدد باريس . ابن التورين والتورين مجهولة لدي ، كانت ترى بي شاباً اضعفته الاعمال الصعبة ، فأرسل الى فرابسل يتلهى فيها ورأى ارضه حيث جئت لاول مرة . في اسفل التلة فقط اعلمته بسفري من تور الى فرابسل ، وخوفاً على صحتي الضعيفة خطر له ان ندخل كلوشيغورد على امل السماح لنا بالاستراحة فيها . كان السيد دي شيسل يقول الحقيقة ، ولكن صدفة سعيدة تبدو مدبرة جعلت السيدة دي مورتسوف حذرة ؛ فأجالت بي عينين باردتين صارمتين جعلتني اخفض جفوني بسبب شعور الخزي اكثر مما هو بقصد اخفاء الدموع التي امسكتها بين اهدابي . لقد رأت سيدة القصر الوقور جبهتي تتفصد عرقاً ؛ وربما لاحظت الدموع ، لانها قدمت لي ما كنت بحاجة اليه ، مظهرة طيبة تفرج الغم ردت إلي ملكة الكلام . فاحمر وجهي كفتاة ارتكبت خطأ ، وبصوت مرتجف كصوت رجل هرم ، اجبت بشكر سلبي ، وقلت لها وانا ارفع عيني الى عينيها اللتين التقيتهما للمرة الثانية ، ولكن لفترة سريعة كالبرق :

ـ كل ما اتمناه هــــو ان لا أطرد من هنا ؛ انا مرهق ولا استطيع المشي .

فقالت لي :

ـ لماذا ترتاب بضيافة بلادنا الجميلة ؟

ثم اضافت وهي تلتفت نحو جارها :

ـ ما من شك في انك تسرنا بتناولك الطعام في كلوشيفورد .

القيت على ظهيري نظرة يتفجر منها الكثير من الرجـــاء ليقبل هذا العرض الذي بدت صيغته وكأنها تريد رفضاً . ولئن سمحت عشرة الناس للسيد دي شيسل ان يميز هذه الفروق ، فإن شاباً دون تجربة يؤمن ايماناً قوياً بوحدة القول والتفكير عند امرأة جميلة ، لذا دهشت حين قال لي رفيقي بعد عودتنا مساء : ـ لقد بقيت لأنك كدت تموت رغبة ؛ ولكن اذا لم تصلح الحال فقد اختلف مع جيراني .

ان عبارة « اذا لم تصلح الحال » جعلتني افكر طويلًا . اذا نلت رضا السيدة دي مورتسوف فانها لن تحقد على من ادخلني عندها . اذن فالسيد دي شيسل يفترض اني قادر على نيل اعجابها ، أليس معنى ذلك انه يعطيني هذه القدرة؟... لقد زاد هذا التفسير من املي ساعة كنت بحاجة الى نجدة . وقد أجاب :

ــ هذا يبدو لي صعباً ، فالسيدة دي شيسل تنتظرنا .

فاجابت الكونتس :

ــ انك لها في جميع الايام ، وبإمكاننا اعلامها . فهل هي وحدها ؟

ــ عندها الاب دي كيلوس .

فقالت وهي تنهض لتقرع الجرس :

ــ حسناً ! ستتناولان الطعام معنا .

وظنها السيد دي شيسل صادقةً هذه المرة، فألقى عليّ نظرات مهنئة . لقد شعرت انني املك الابدية حين وثقت من بقــائي تحت هذا السقف طوال السهرة . والغد كلمة لا معنى لها عند كثير من الكائنات البائسة ، وكنت حينذاك في عداد اولئك الذين ليس عندهم أي إيمانٍ بالغد ؛ وحينَ تتاح لي بضع ساعات فإنني أحرص على أن أجعلها حياة ملذات . وشرعت السيدة دي مورتسوف بحديث عن البلاد ، والمحاصيل ، والكروم كنت غريباً عنه . ان هذه الطريقة في التصرف عند سيدة بيت تدل على نقص في التربية او على احتقارها لمن تلقيه خارج الحديث ؛ ولكن، كان ذلك غطرسةً عندها . ولئن ظننت ، بادىء الامر ، انها تتصنع معاملتي كولد ، ولئن حسدت رجال الثلاثين من العمر على امتيازهم الذي اتاح للسيد دي شيسل ان يعالج مــع جارته مواضيع صعبة لم أكن أفهم منها شيئاً ، ولئن غضبت لاعتقادي ان كل شيء كان له ؛ فقد عرفت بعد بضعة اشهر كم هناك من معنى في صمت امرأة ، وكم من افكار تغمر حديثاً مطوّلا . جربت اولًا ان اجلس في مقعدي عــلى هواي ، ثم

عرفت فوائد وضعي بان استسلمت الى السير وراء سحر سماع صوت الكونتس. كانت نسمة روحها تنتشر في ثنايا المقاطع، كما ينقسم الصوت تحت مفاتيح النـــاي؛ وتتلاشى متموجة في الآذان فيسرع من جرائها عمل الدم. وطريقتها في لفظ الكلمات المنتهية بحرف «ي» تدفعك الى الظن ان هناك شيئاً من تغريد عصفور؛ ولفظ حرف «ش» كأنه ملامسة خفيفـــة لذيذة، والطريقة التي تلقي بها حروف «ت» تشكو استبداد القلب. كانت تنشر معنى الكلمات هكذا دون ان تعلم فتقود النفس الى عالم فوق البشر. كم مرة عملت على استمرار مناقشة كنت استطيع انهاءها، وكم مرة عرضت نفسي للتوبيخ بغير حق لاصغي الى حفلات الصوت الانساني الغنائية هـــذه، ولأتنشق الهواء الخارج من شفتيها مشبعاً بروحها، ولأعتنق ذلك النور المحكي بالحرارة التي اضم بها الكونتس الى صدري! اي غناء لسنونو مرحة حين تتمكن من الضحك! ولكن اي صوت لبجعة تنادي رفاقها، حين تتحدث عن احزانها! ان عدم انتباه الكونتس اتاح لي ان اتفحصها. فقد شبع نظري وهو ينزلق على المتكلمة

الجميلة ، فضغط قامتها ، وقبل قدميها ، واقتحم خصل شعرها . ومع ذلك فقد كنت فريسة رعب يدركه اولئك الذين ذاقوا في حياتهم مسرات حب حقيقي لا حدود لها . كنت خائفاً من أن تفاجىء عيني المتعلقتين بكتفيها اللتين قبلتهما بحرارة . وهذا الخوف اذكى المحاولة ، ونؤت تحت ثقلها ، ونظرت اليهما ! لقد مزقت عيني الثوب ، ورأيت ثانيةً الشامة التي تدل على بداية الخط الجميل الذي يقسم ظهرها، انها ذبابة ضائعة في الحليب، كانت منذ الحفلة الراقصة تلهب المساء في تلك الظلمات حيث تنساب إغفاءة الفتيان ذوي المخيلة الملتهبة والحياة الطاهرة .

بامكاني ان ارسم بالقلم الخطوط الرئيسية التي تعلن الكونتس حينما كانت للانظار ؛ لكن الرسم الاكثر ضبطاً ، واللون الاشد حرارة لا يوضحان منها شيئاً . فوجهها من تلك الوجوه التي تحتاج فناناً لا يمكن ايجاده ، تعرف يده ان ترسم انعكاس النيران الداخلية ، وتعرف ان تحيي ذلك البخار المتألق الذي ينكره العلم ، ولا يترجمه الكلام ، لكن العاشق يراه . كان شعرها الناعم الرمادي يسبب لها الالم في اغلب الاحيان ، وهذه

الآلام ناتجة دون شك عن معاكسة مفاجئة لرجوع الدم نحو الرأس. وجبهتها المستديرة، المرتفعة كجبهة الجوكوندة تبدو ملأى بافكار حبيسة، وعواطف مكبوتة، وازهار غرقى في مياه مرة. وعيناهـــا الخضروان، المبذورتان بالنقط السمراء كانتا شاحبتين على الدوام؛ اما اذا تعلق الامر بولديها، واذا فاتتها هذه الدفقات الحية من السرور او الالم، والنـــادرة في حياة النساء المستسلمات، فان عينها كانت تطلق شعاعاً لطيفاً يبدو مشتعلًا في ينابيع الحياة وعليه ان ينضبها؛ وبرقاً انتزع الدموع من عيني حين غمرتني باحتقارها الهائل، الذي كان يكفيها لتجعل اعظم الناس جرأة يخفضون جفونهم. ولها انف يوناني كأنه من رسم فدياس ينضم بواسطة قوس مزدوج الى شفتين ملتويتين يحول وجهها ذا الشكل البيضوي الى روح، وصبغته التي تشبه نسيج الكاميليا الابيض تحمر على الخدين بلون وردي جميل. وبدانتها لا تفسد جمال قامتهـــا ولا تلك الاستدارة المطلوبة لتبقى اشكالها جميلة مهما نمت. وستدرك حالًا هذا النوع من الاتقان حين تعلم انك اذا ضممت الى الساعد تلك الكنوز

الرائعة التي بهرتني فانها لا تشكل اي طية . واسفل رأسها لا تظهر فيه تلك التجاويف التي تجعلنا نشبه نقرة بعض النساء بجذوع الاشجار ، ولا يظهر في عضلاتها اي وتر والخطوط تستدير في كل مكان باشكال كثيرة الالتواءات تعجز النظر والريشة . وهناك زغب يتلاشى على طول خديها ، وعلى العنق ، محتفظاً لها بالنور الذي يجعلها كالحرير . وأذناها الصغيرتان المرسومتان باتقان كانتا ، على حد تعبيرها ، اذني عبد وأم . وحين سكنت قلبها فيما بعد ، كانت تقول لي : « هذا هو السيد مورتسوف ! » وكانت على حق ، بينما انا لم اكن سمعت شيئاً بعد ، انا الذي يمتد سمعي الى مسافة بعيدة . وكان ذراعاها جميلتين ، ويدها ذات الاصابع المنحنية ، طويلة ، وكان اللحم ، كما في التماثيل القديمة ، يتجاوز اظافرها ذات الاضلاع الدقيقة . قد لا ارضيك ان جعلت للقامات المنبسطة افضلية على القامات المستديرة ، لو لم تكوني من الشواذ . فالقامة المدورة علامة القوة ولكن النساء اللواتي بهذا الشكل متغطرسات ، متصلبات ، شهوانيات اكثر منهنّ رقيقات القلب . والنساء ذوات القامات

المنبسطة هن على النقيض ، مخلصات ، مليئات بالرقة ، يملن الى الكآبة . انهن اكثر انوثة . والقامة المنبسطة رشيقة رخوة بينما القامة المدورة صلبة غيور . وها انت تعلمين الآن كيف هي . كان لها قدم امرأةٍ كاملة ، هذا القدم الذي يمشي قليلًا ويتعب بسرعة ويسر النظر حين يتجاوز الثوب . ومع انها أم لولدين ، فانني لم الق في بنات جنسها اكثر صباً منها . وهيئتها تدل على بساطة مضافةٍ الى ما لا ادري بما هو ممنوع وحالم كان يوصل اليها كما يوصلنا الرسام الى الصورة التي عبرت فيها عبقريته عن عالم من العواطف . وصفاتها المنظورة لا يمكن التعبير عنها الا بالتشبيهات . تذكري ذلك العطر الطاهر البري لنبات الخلنج الذي قطفناه ونحن عائدون من دارة ديوداتي[1] ، تلك الزهرة التي اطريت فيها اللونين الاسود والوردي ، تعرفين كيف تستطيع هذه المرأة ان تكون انيقة وهي بعيدة عن العالم ،

(١) قائمة على بحيرة جنيف وقد اقام فيها اللورد بيرون . وزارها بلزاك مع السيدة هنسكا في كانون الثاني ١٨٣٤ .

طبيعيةٌ في تعابيرها ، انيقة في الاشياء التي تصبح ملكاً لها . وردية اللون وسوداء معاً . وكان لجسمها ذلك الريعان الذي يعجبنا في الاوراق المنشورة حديثاً، ولروحها ذلك الايجاز العميق عند المتوحش ؛ كانت طفلة بالعاطفة ، رزينة بالعذاب ، ربة قصر وفتاة . وهي ايضاً ترضي دون تصنع، بطريقة جلوسها، ونهوضها ، بصمتها او بلفظ كلمة . وهي عادة جامعة لافكارها وحواسها ، منتبهة كذلك الحارس المسؤول عن سلامة الجميع ، الذي يرقب المصيبة . وتفلت منها احياناً ابتسامات تفضح فيها صبية ضاحكة متخفيةً ، تحت هيئة تتطلبها حياتها . وقد اصبح دلالها لغزاً ، فهي تبعث على الاحلام بدلًا من ان توحي الانتباه المغناج الذي تتلمسه النساء ، وتفصح عن طبيعتها الاولى الملتهبة ، واولى احلامها الزرقاء ، كما تشاهد السماء من خلال فجوات السحب . وهذا الكشف اللاإرادي يحير اولئك الذين لم يشعروا بدمعة داخلية جففتها نار الرغبات . وندرة حركاتها ، وخصوصاً ندرة نظراتها (فهي لا تنظر الى احد سوى ولديها) تضفي عظمة لا تصدق على ما تفعله او تقوله ، حين تفعل

او تقول شيئاً بتلك الهيئة التي تعرف النساء ان يتخذنها عنـــدما يعرضن كرامتهن للخطر بسبب إقرار ما. في هذا اليوم كانت السيدة دي مورتسوف ترتدي ثوباً وردياً ذا ألف خط، وطوقاً ذا غبنة عريضة، وزناراً اسود، وحذاء عالياً من اللون نفسه. وكان شعرها المفتول ببساطة على رأسها مشبوكاً بمشط من السفط. هذا هو المخطط الناقص الموعود. ولكن فوح روحها الدائم عــلى من حولها، ذلك الجوهر المغذي الدفاق كالشمس وهي ترسل نورها؛ ولكن طبيعتها الخاصة، وموقفها في الساعات الصافية، واستسلامها في الساعات الغائمة؛ كل دوامات الحياة هذه حيث يظهر فيها الطبع، تبدو كتأثيرات السماء على ظروف غير منتظرة، وعابرة، لا تتشابه فيما بينها الا بالاساس الذي تنفصل عنه، وحيث الصورة تصبح حتماً ممزوجة بحوادث ذاك التاريخ؛ انها ملحمة بيتية حقيقية كبيرة في عيني الحكيم كبرَ المسرحيات ـ المآسي في عيون الجمهور، حيث تربطك القصة بسبب الجزء الذي شغلته فيها اكثر مما تربطك بسبب مشابهتها لعدد كبير من المصائر النسائية.

كل شيء في كلوشيغورد كان يحمل طابـــع نظافة انكليزية حقيقية . فالصالون الذي بقيت فيه الكونتس مكسو بالخشب بكامله ، ومدهون باللون الاشب على شكلين . ويزين الموقـــد ساعة موضوعة في قطعة من الاكاجو تعلوها كأس ، وآنيتان كبيرتان من البورسلين الابيض ذي خيوط مذهبة، حيث ترتفع خلنجات « الكاب » . وهناك مصباح على المنضـــدة . وطاولة للنرد امام الموقد ، ورباطان عريضان من القطن يمسكان ستائر من نسيج قطني ابيض بـدون مخمل . ومفارش رمادية مؤطرة بشريط اخضر تغطي الارائك ، وقطعة الوشي المنشورة عـلى مشغل الكونتس توضح سبب تخبئة اثاثها هكذا . ان هـــذه البساطة تصل الى درجـة العظمة . فما من شقة من الشقق التي رأيتها في الماضي سببت لي تأثيرات خصبة ، مورقة كتلك التأثيرات التي اجتاحتني في هـذا البهو ، في كلوشيغورد ، انه هادىء جامع كحياة الكونتس . تدرك فيه تنظيم اعمالها الشبيه بتنظيم الاديرة . ان معظـــم افكاري ، حتى اشدها جرأة في العلوم او في السياسة، ولدت هناك، كما يتضوع العبير من الزهر؛

ولكن هناك اخضرت النبتة المجهولة التي القت على نفسي غبارها الخصيب . وهناك تألقت الحرارة الشمسية الـــتي انمت صفاتي الحسنة وخففت صفاتي السيئة . ومن النافذة تشمل العين الوادي من التل حيث تنتشر بون ـ دي روان حـــتى قصر آزاي ، متابعة التواءات الضفة المقابلة التي تنوع اشكالها ابراج فرابسل ، ثم الكنيسة ، والضيعة ، والبيت الاقطاعي القديم في ساشيه الذي يطل على الحقول . وهذه الاماكن المنسجمة مع الحياة المستريحة بـــدون متاعب سوى تلك التي تسببها العائلة ، توصل صفاءها الى النفس . لو كنت التقيت بها لأول مرة هنا ، بين الكونت وولديها ، بدلاً من ان اجـدها رائعة في ثوب الحفلة الراقصة ، لما كنت اختطفت منها تلك القبـــلة الجنونية التي لا ازال اشعر بتوبيخ الضمـــير بسببها ، معتقداً انها ستفسد مستقبل حبي !... كلا ، ففي الحالات النفسية السوداء التي سببها شقائي ، كنت اطوي ركبتي ، ولكنت قبلت حذاءها ، وتركت عليه بعض الدموع ، ولكنت ذهبت لألقي نفسي في الانـدر . ولكن بعد ان لامست ياسمين بشرتها النضر ، وشربت الحليب

من تلك الكأس الملأى بالحب، اصبحت استشعر الطعم والامل للذات فوق ملذات البشر ؛ كنت اريد ان اعيش ، وارقب ساعة السرور كما يرقب المتوحش ساعة الثأر ؛ كنت اريد ان يشاركني في الذنب صمت الليل ، وسأم الحياة، وحرارة الشمس لأكمل اكل التفاحة اللذيذة التي عضضتها قبلًا . لو طلبت مني الزهر التي تغني او الثروة التي خبأها رفاق مورغان[1] المدمر لكنت حملتها اليها لأحصل على الثروات الاكيدة والزهرة الصامتة التي كنت اتمناها !... وحين انتهى الحلم الذي غمسني فيه طول تأملي في معبودي ، والذي جاء اثناءه احد الخدم وكلمها، فقد سمعتها تتحدث عن الكونت. وعند ذلك فكرت ان المرأة يجب ان تكون ملكاً لزوجها . وهذه الفكرة اصابتني بالدوار ، ثم راودني سرور مهتاج قاتم لأرى مالك هذا الكنز. واجتاحتني عاطفتان ، الكراهية والخوف ؛ كراهية لا تعرف اي عائق وتنظر الى العوائق كلها بعين الاعتبار دون ان تخشاها؛ وخوف

(١) قرصان انكليزي شهير في القرن السابع عشر اصبح حاكم بناما .

مبهم، لكنه حقيقي، من المعركة، من المخرج منها، ومنها هي على الخصوص . وقد تهيبت ، وانا فريسة مشاعر فائقة الوصف ، قبضات اليد التي تشين ، واستشففت الصعوبات المطاطة حيث تصطدم اوعر الارادات فتضعف ؛ كنت اخاف قوة الجمود تلك التي تعرّي الحياة الاجتماعية اليوم من النهايات التي تبحث عنها النفوس العاشقة . وقالت :

ـ هذا هو السيد دي مورتسوف .

انتصبت على ساقي كحصان مذعور . ومع ان هذه الحركة لم تخف على السيد دي شيسل ولا على الكونتس فانها لم تعرضني لأية ملاحظة صامتة ، لأن هناك ما الهاهما عني. واذا طفلة قدرت عمرها بست سنوات ، دخلت وهي تقول :

ـ اليكم ابي .

فقالت امها :

ـ وبعد ، يا مادلين ؟

فمدت الطفلة الى السيد دي شيسل اليد التي طلبها، ونظرت الي بكثير من الانتباه بعد ان القت علي تحيتها الصغيرة الملأى بالدهشة . وقال السيد دي شيسل للكونتس :

— أأنت مسرورة من صحتها ؟

فأجابت وهي تداعب شعر الصغيرة التى انكمشت في حضنها :

— انها تتحسن .

ومن سؤال للسيد دي شيسل علمت ان عمر الطفلة تسع سنوات ؛ وابديت شيئاً من الاندهال بسبب خطإي وقد اثارت دهشتي غيوماً على جبهة الام . وألقى علي من جاء بي احدى النظرات البليغة التي يلقننا بها الناس تربية ثانية . هنا ، دون شك ، يوجد جرح اومي يجب احترام ضمادته . فمادلين ، وهي طفلة ضعيفة البنية ، ذات عينين شاحبتين ، وبشرة بيضاء كقطعة بورسلين اضيئت بشعاع ، لم تعش في جو مدينة . فهواء الريف

وعناية امها التي تحوطها ، كانت كلها تتعهد الحياة في هذا الجسم الهزيل الذي يشبه جسم نبتة نمت في خيمة زجاجية رغم قساوة مناخ غريب . ومع انها لا تشبه امها في شيء فقد بدا انها اخذت منها روحها ، وهذه الروح هي التي تحفظها . شعرها قليل اسود، وعيناها جوفاوان ، وخداها متقعران ، وذراعاها هزيلتان ، وصدرها ضيق ينبيء بمعركة بين الحياة والموت ، صراع دون مهادنة انتصرت الكونتس فيه حتى الآن. كانت تتظاهر بالحيوية لتوفر العذاب على امها ؛ لانهـــا في بعض الفترات ، حيث لا يلاحظها احد ، كانت تتخذ هيئة الصفصاف الباكي . ولك ان تقول انهـــا بوهيمية صغيرة تشكو الجوع ، جاءت من بلادها كمتسولة ، منهوكة ، لكنها شجاعة تزين نفسها لجمهورها .

سألتها امهـــا وهي تقبلها على الفرق الابيض الذي يقسم شعرها الى جديلتين تشبهان جناحي غراب :

ــ اين تركت جاك ؟

ــ انه آتٍ مع ابي .

في هذه اللحظة دخل الكونت يتبعه ولده وقد امسكه بيده. ان جاك صورة حقيقية لأخته ، تظهر عليه اعراض الضعف نفسها . ورؤية هذين الطفلين الواهنين الى جانب ام بهية الجمال يفسر ينابيع الغم التي تبعث الرقة في اصداغ الكونتس وتجعلها تكتم احدى تلك الافكار التي لا تُسرُّ الا الى الله ، لكنها تكسب الجبهة معاني مرعبة . وحين حيَّاني السيد دي مورتسوف القى علي نظرة مراقبٍ اقل منها نظرة قلقة غير حاذقة لرجل جاء حذره من قلة تمرّسه بالتحليل . وبعد ان اعلم بالامر ، واستسماني ، تركت زوجته مكانها له ، وتركتنا . اما الطفلان، اللذان كانت عيونهما عالقة بعيني امهما كأنهما يستمدان منهما النور، فقد أرادا مرافقتها ، فقالت لهما :

– إبقيا يا ملاكيّ العزيزين .

ووضعت اصبعها على شفتيها ، فأطاعا ، لكن نظراتهما اختفت وراء حجاب . آه ! اي مهام لا تؤدى لتُسمَع الكلمة : « يا عزيزيّ » ؟ وشعرت ، كالولدين ، بانخفاض حميتي حين لم تعد

هنا . وغيّر اسمي حالة مزاج الكونت لصالحي . فمن بارد مقطب اصبح على الاقل مجاملًا بأدب ، ان لم يكن ودوداً ، واظهر لي علامات اعتبار وبدا سعيداً باستقبالي . فقد كان والدي في السابق مخلصاً لأسيادنا في لعب دور كبير انما غامض، خطير انما قد يكون ناجعاً . وحين ضاع كل شيء بوصول نابليون الى قمة الكفاح ، هرب شأنَ كثير من المتآمرين السريين الى هدوء الاقاليم والحياة الخاصة ، قابلًا باتهامات قاسية جائرة ؛ انها عقوبة لا يمكن تجنبها للاعبين يقامرون بالكل في سبيل الكل ، وسقط من الاعياء بعد ان استعمل كمدار للآلة السياسية. كنت لا اعرف شيئاً عن الثروة ، ولا عن ماضي ومستقبل عائلتي ، وكنت اجهل ايضاً خصائص هـذا القدر الضائع الذي كان الكونت دي مورتسوف يتذكره . ومع ذلك فاذا كان الاسم العريق ، وهو اثمن صفة للانسان بنظره ، يمكن ان يسوغ الاستقبال الذي جعلني خجلًا ، فانني لم اعرف منه السبب الحقيقي الا فيما بعد . لقد جعلني التحوّل المفاجىء مسروراً في هـذه اللحظة . وحين رأى الطفلان ان الحديث اقتصر علينا نحن الثلاثة انتزعت

مادلين رأسها من بين يدي ابيها ، وتطلعت الى الباب المفتوح ، وانزلقت خارجاً كالابرة ، ثم تبعها جاك . لقد لحق الاثنان بأمها لانني سمعت اصواتهم وحركاتهم التي تشبه ، عن بعد ، طنين النحل حول قفيره المحبوب .

وتأملت الكونت محاولًا معرفة طباعه، لكن بعض الخطوط الرئيسية استمالتني كفاية لأبقى ضمن الفحص السطحي لسيمائه. انه لا يتجاوز الخامسة والاربعين مع انه يبدو في حدود الستين . فقد شاخ بسرعة في الغرق الكبير الذي انهى القرن الثامن عشر. ونصف التاج الذي يعصب مؤخر رأسه العاري من الشعر بشكل رهباني انتهى عند الاذنين مداعباً الاصداغ بخصل شهباء يشوبها السواد . ووجهه يشبه تقريباً وجه ذئب ابيض في فمه دم ، لان انفه كان ملتهباً كأنف رجل مضطرب الحياة بسبب مبادئه ، ومعدته ضعيفة، وطباعه افسدتها امراض قديمة، وجبهته مسطحة، كثيرة العرض بالنسبة الى وجهه الذي ينتهي مقرّناً ، مغضنة بالعرض بسيرٍ غير متساوٍ وتنبىء عن عادات الحياة في الهواء الطلق وليس عن تعب النفس ، عن اثقال نحس دائم وليس عن

الجهود المبذولة للتغلب عليه . ووجنتاه الناتئتان السمراوات وسط صبغات شاحبة من لونه تدلان على هيكل ذي قوة كافية ليؤمن له حياة طويلة . وعينه صافية ، صفراء وقاسية تسقط عليك كشعاع الشمس في الشتاء ، مضيئة دون حرارة ، قلقة دون تفكير ، حذرة دون سبب . وفمه جاف متعجرف ، وذقنه مستقيمة طويلة . انه هزيل طويل القامة ، له هيئة رجل نبيل يعتمد على قيمة اصطلاحية ، يعرف نفسه فوق الآخرين بالحق ، وتحتهم بالفعل. وحريته في الريف جعلته يهمل مظهره الخارجي. فملابسه ملابس ريفي لا يميزه الفلاحون ولا الجيران الا بثروته العقارية . ويـــداه العصبيتان تشهدان انه لم يضعهما في قفاز الا ليركب الحصان او ليذهب نهار الاحد الى القداس . وكان حذاؤه خشناً . ومهما اثرت عشر سنوات من الهجرة وعشر سنوات في الزراعة على بنيته فقـــد بقيت فيه آثار النبلاء . والليبرالي الاكثر كراهية ، وهي كلمة لم تكن متداولة بعد ، يتعرف بسهولة الى الوفاء الفروسي عنده والى البراهين المقنعة

الثابتة لقارئ اكتسبها من جريدة « الكوتيديين »[1] . انه يعجب الرجل المتدين ، المتحمس لقضيته ، الصادق في كرهه السياسي ، العاجز عن خدمة حزبه شخصياً ، والقادر جداً على اضاعته ، وغير عارف بالامور في فرنسا . كان الكونت فعلاً احد هؤلاء الرجال المستقيمين الذين لا يعنون بشيء ، ويعيقون كل شيء بعناد ، صالحون للموت والسلاح في ايديهم في الموقع الذي عيّن لهم ، لكنهم شديدو البخل يعطون حياتهم قبل ان يعطوا نقودهم . لاحظت في ارتخاء خديه الذابلين ، وفي بعض النظرات الملقاة على ولديه خلسة ، آثار تفكير مزعج تختفي وثباته على الوجه ، ومن لا يدركها حين يراه ؟ ومن لا يتهمه بانه نقل الى ولديه قضاء وقدراً ذينك الجسدين اللذين تنقصهما الحياة ؟ واذا كان قد ادان نفسه فانه ينكر على الآخرين الحق بمحاكمته . انه مرّ كسلطة تعرف نفسها انها مخطئة لكنها لا تملك من السمو

(١) جريدة تاجر الشرعية . وكان بين محرريها اصدقاء لبلزاك منهم فيرون ونوديه .

ولا من السحر ما يكفي للتعويض عن اظهار الآلام التي القتها في الميزان، وحياته الخاصة تضطره الى إظهار الخشونات التي تنضحها خطوطه المقرّنة وعيناه القلقتان باستمرار . لقد توقعت مصيبة حين دخلت زوجته يتبعها ولداها المتعلقان بخاصرتيها . فالقدمان تشعران بالعمق على شكلٍ ما حين تسيران على عقود قبو . وحين تطلعت الى هؤلاء الاشخاص الاربعة مجتمعين، حين شملتهم بنظري متنقلًا من الواحد الى الآخر دارساً سيماءهم وهيئة كل منهم سقطت على قلبي افكار مغموسة بالكآبة كمطر رقيق اشهب يغطي بالضباب بلاداً جميلة بعد شروق الشمس الجميل . وحين استنفد موضوع الحديث عاد الكونت الى اظهاري على حساب السيد دي شيسل ، بأن اخبر زوجته عن عدة احوال تتعلق بعائلتي وكنت اجهلها . وسألني عن سني . وحين اخبرته ردّت الكونتس إلي حركة الدهشة التي قمت بها بشأن ابنتها . لربما قدرت عمري بأربع عشرة سنة . وكان هذا ، كما علمت فيما بعد، الرباط الثاني الذي ربطها بي بقـوة . كنت اقرأ في نفسها . واهتزت امومتها ، وقد اضيئت بشعاع شمس متأخر القى اليها

الامل . فحين رأتني في العشرين وانا ضعيف البنية ، رقيق، ومع ذلك عصبي ، لربما صرخ بها صوت – « سيعيشان » ! وتطلعت الي بفضول، وشعرت في هذه اللحظة ان كثيراً من الجليد قد ذاب بيننا . وبـــدت كأن هناك الف سؤال تريد القاءها علي واحتفظت بها كلها . وقالت :

– اذا كان الدرس قـــد اصابك بمرض فان هواء وادينا سيشفيك .

وأجاب الكونت :

– ان التربية الحديثـة شؤم على الاولاد . فنحن نحشوهم بالرياضيات . ونقتلهم بضربات العلوم ، ونبليهم قبل الاوان .

ثم قال لي :

– يجب ان ترتاح هنا ، فأنت مسحوق تحت وابل الافكار التي تدحرجت عليك ، فأي قرن يهيء لنا هـذا العلم الموضوع بمتناول الجميع اذا لم نتدارك الشر بأن نعيد التعليم الى عهدة رجال الدين !

هذا الكلام ينبئ تماماً عن الكلمة التي قالها ذات يوم في الانتخابات، مانعاً صوته عن رجل قد تمكنه مواهبه من خدمة القضية الملكية :

— سأكون دائماً على حذر من رجال الفكر .

قال ذلك مجيباً وسيط الاصوات الانتخابية . ثم عرض علينا التجول في حدائقه ، ونهض .

وقالت الكونتس : يا سيد . . .

— ماذا يا عزيزتي ؟ . .

اجابها ملتفتاً بعنفٍ متعالٍ يدل على مقدار ارادته في ان يكون مستبداً في بيته ، وكم كان قليل الاستبداد حينئذٍ .

— ان السيد جاء من تور على قدميه ، والسيد دي شيسل لا يعرف عنه شيئاً وقد نزهه في فرابسل .

فقال لي :

ـ لقد قمت بعمل غير حكيم، مع ان في مثل سنك...

ثم هزّ رأسه علامة الأسف. واستؤنف الحديث. وما لبثت ان عرفت صلابة عقيدته الملكية وكم علي ان احتاط لأظل دون صدمة في مياهه. وجاء الخادم بالثياب الرسمية مسرعاً يعلن الطعام. فقدم السيد دي شيسل ذراعه للسيدة دي مورتسوف، واخذ الكونت ذراعي بانشراح لنسير الى غرفة الطعام التي تشكل في ترتيب الطابق الارضي شبهاً للصالون.

وغرفة الطعام المبلطة ببلاط أبيض من صنع التورين، والمكسوة بالخشب الى علو الدعائم كانت مفروشة بورق برنيق يمثل لوحات كبيرة مؤطرة بالزهور والاثمار؛ وعلى النوافذ ستائر قطنية مزينة بأشرطة حمراء؛ وخزائن أدوات المائدة من أثاث «بول» القديم، وخشب الكراسي، المكسوة بمفارش مصنوعة باليد، من سنديان محفور. ومع ان المائدة ضمت الكثير الا انه لم يكن عليها شيء فخم: بعض من فضيات العائلة دون وحدة في الشكل، وآنية من بورسلين ساكس لم تكن متداولة بعد،

وقوارير مثمنة الزوايا ، وسكاكين ذات قبضات من عقيق ، وتحت الزجاجات مدورات من المغرة الصينية ؛ وزهور في اصص شهباء، مذهبة على قصاصاتها التي تشبه أسنان الذئب ، كنت أحب هذه الاشياء القديمة ، وقد وجدت ورقة « رفيون[1] » بحواشيها ذات الزهور الرائعة . لقد منعني السرور الذي نفخ جميع اشرعتي من رؤية الصعوبات المعقدة القائمة بينها وبيني بحياة الوحدة والريف المتلاحمة . كنت بجانبها، الى يمينها ، وقدمت اليها الشراب . نعم ، سعادة غير منتظرة ، فقد لامست ثوبها ، وأكلت خبزها . وفي مدى ثلاث ساعات امتزجت حياتي بحياتها ! وأخيراً كنا مرتبطين بتلك القبلة السحرية ، نوع من السر يوحي الينا خجلًا متبادلًا . لقد كنت ذا جبن يستحق التمجيد : اجتهدت في ارضاء الكونت الذي اهتم بكل تملقاتي . داعبت الكلب ، وتزلفت لأدنى رغبات الطفلين ؛ جلبت لهما

(١) صانع ورق ملون في ضاحية سان انطوان وكان ذا شهرة قبل الثورة .

اطارات وكرات من عقيق ؛ وجعلت لهما نفسي كحصان ، وجعلتهما يتمسكان بي تمسكهم بشيء لهم . ان للحب حدسه كما للعبقرية، وقد رأيت بشكل غامض ان العنف ، والعبوس والضغينة تهدم آمالي . وانتهى الغداء وأنا اشعر بأفراح داخلية، لحين رأيت نفسي عندها عدت لا أستطيع التفكير ببرودها الحقيقي ، ولا باللامبالاة التي يغطيها تهذيب الكونت . فللحب ، كما للحياة، سن بلوغ يكفي نفسه بنفسه اثناءها . لقد احببت بشيء من الحماقة المنسجمة مع اسرار الحب الصاخبة ، ولكن ليس من يستطيع ادراكها ، حتى هي نفسها التي لا تعرف شيئاً عن الحب . وبقية الوقت كانت كالحلم . وقد انقطع هذا الحلم الجميل عندما اجتزت الأندر في ضوء القمر، وفي مساء حار عطر، وسط الخواطر البيضاء التي تزين المروج ، والضفاف ، والتلال ؛ وانا أسمع الغناء الصافي، اللحن الوحيد المليء بالكآبة الذي تلقيته دون انقطاع في أوقات متساوية من ضفدع اجهل اسمها العلمي ، ولكني منذ ذلك اليوم الجليل لم أصغ اليها الا بلذة فائقة . وعرفت هناك فيما بعد ، كما في السابق ، عدم حساسية الرخام

التي كانت عواطفي تضعف حيالها حتى ذلك الوقت ! وتساءلت هل الامر سيبقى دائماً هكذا ؛ واعتقدت اني واقع تحت تأثير مشؤوم ! وان حوادث الماضي المشؤومة تصادمت مع المسرات الشخصية الصرف التي ذقتها . قبل ان نصل الى فرابسل تطلعت الى كلوشيغورد فرأيت في الاسفل زورقاً يسمى في تورين « تو » مربوطاً الى شجرة دردار ، يؤرجحه الماء . هذا الزورق يخص السيد دي مورتسوف ، يستعمله لصيد الاسماك .

قال لي السيد دي شيسل حين صرنا بمأمن من ان يسمعنا احد :

ـ ايه ! حسناً . لن احتاج الى سؤالك هل وجدت كتفيك الجميلتين؛ ويجب تهنئتك على استقبال السيد دي مورتسوف لك ! لقد اصبحت في قلب المكان من اول ضربة .

هذه العبارة المتبوعة بما حدثتكم عنه احيت قلبي الصريع . لم الفظ أية كلمة منذ كلوشيغورد ، وعزا السيد دي شيسل صمتي الى سعادتي .

وأجبت بلهجة ساخرة ربما املاها الحب المكتوم :

ــ كيف ؟

ــ انه لم يستقبل احداً هكذا ، كائناً من كان .

فقلت له شاعراً بالمرارة الداخلية التي كشفتها لي هــــذه الكلمة الاخيرة :

ــ اعترف لك بانني ، انا نفسي ، كنت دهشاً من هــــذا الاستقبال .

مهما كنت عديم الخبرة بالامور الدنيوية لادرك سبب العاطفة التي كان يشعر بها السيد دي شيسل فانني دهشت من التعبير الذي فضح فيه هذه العاطفة . كان في مضيفي علة هي انه يدعى ديران ويتحاشى السخرية في انكار اسم والده ، وهو صاحب مصنع شهير ، جمع ثروة طائلة اثناء الثورة . وكانت زوجته هي الوارثة الوحيدة لعائلة شيسل ، وهي عائلة قديمة مصلحة ، بورجوازية

ايام هنري الرابع ، كمعظم الحكام الباريسيين . وقد اراد السيد دي شيسل ، وهو طماع من مستوى عالٍ ، ان يقتـــل « ديرانه » الاصلي ليصل الى الاقدار التي كان يحلم بها . فدعى نفسه في بادىء الامر ديران دي شيسل ، ثم د . دي شيسل ؛ وكان حينذاك اسمه السيد دي شيسل . وايام عودة الملكية أنشأ عقاراً يحمل مالكه لقب كونت بموجب رسائل منحهـــا لويس الثامن عشر . وقد قطف اولاده ثمار شجاعته دون ان يعرفوا عظمتها . وهناك كلمة قالها امير لاذع غالباً ما كانت تثقل على رأسه ، مؤداها :

ـ ان السيد شيسل ، بوجه عام ، قليلًا ما يظهر بشخصية ديران.

وهذه العبارة ألهت التورين مدة طويـــلة . ان حديثي النعمة هم كالقرود ولهم رشاقتهم : نراهم في الاعالي ونعجب بخفتهم اثناء التسلق ؛ ولكن حين يصلون الى قمة فـــلا تظهر منهم سوى النواحي المخجلة . وقفا مضيفي مؤلف من صغارات ضخمها الحسد . فلقب الشرف وهو ، هما حتى الآن خطان مستحيلا الالتقاء . ووقاحة القوة هي ان يكون المرء معجباً

بنفسه ثم يسوغ هذا الاعجاب؛ إما ان يكون تحت مستوى هذا الاعجاب بالنفس فهذا يشكل سخرية ثانية تصبح مرعى للنفوس الصغيرة. والسيد دي شيسل لم يكن يملك السير المستقيم للرجل القوي: فقد كان نائباً مرتين، وفشل مرتين في الانتخابات؛ بالامس مدير عام، واليوم لا شيء، حتى ولا والٍ، ونجاحاته واخفاقاته افسدت طباعه واكسبته خشونة الطماع العاجز. وهو وان كان رجلًا مستقيماً، رجلًا روحياً، جديراً بالامور الكبيرة، فقد تكون الغيرة التي تلهب الحياة في التورين، حيث يستعمل المواطنون عقولهم ليغاروا من كل شيء، شؤماً عليه في الاوساط الاجتماعية العليا حيث قلما تنجح تلك الوجوه المتشنجة من نجاح الغير، وتلك الشفاه الحردة المتمردة على المجاملات، السهلة على الهجاء. ولكنه لو اراد الاقل لحصل على الاكثر؛ ولكن ما يؤسف له هو انه من التفوق بحيث يستطيع السير دائماً منتصباً. في هذه الفترة كان السيد دي شيسل في غسق مطامعه، فالملكية تبتسم له. وربما تتصنع سلوك العظمة لكنه كان كاملًا معي. وكان يعجبني لسبب

بسيط جداً. هو انني وجدت الراحة لاول مرة عنـــده. والاهتمام الذي ابداه نحوي، وهو ضعيف، بدا لي، أنا الولد البائس المنبوذ، صورة عن الحب الابوي. وكانت عناية الضيافة تتناقض كثيراً مع الاهمال الذي ارهقني حـــتى ذلك الوقت، بحيث ابديت امتناناً صبيانياً بسبب معيشتي دون قيود، وبشيء من الملاطفة. وكان سادة فرابسل ايضاً ممزوجين بأفق سعادتي وتفكيري يمزجهم بالذكريات التي أحب ان أعيشها من جديد. وقد شعرت بالسرور فيما بعد، وبعبارة أدق في قضية الشهادات الرسمية، حيث قدمت بعض الخدمات لمضيفي. كان السيد دي شيسل يتمتع بثروته ببذخ يغيظ بعض جيرانه؛ وكان يستطيع تجديد جياده الجميلة وعرباته الانيقة؛ وكانت امرأته محط الانظار بزينتها؛ وكان يستقبل بكرم؛ وخدمه اكثر عدداً مما تتطلبه عادات البلاد، فهو يتظاهر كأمير. وأراضي فرابسل واسعة. والكونت دي مورتسوف، بحضور جاره وأمام كل هذه الابهة، يقتنع بعربة العائلة الصغيرة التي تحتل مكاناً وسطاً في تورين بين العربة العمومية وعربة البريد. ولما

كان مضطراً لضآلة ثروته الى الاستفادة من أراضي كلوشيغورد، فقد حرث تورانجو وظل كذلك الى اليوم الذي اعاد العطف الملكي الى عائلته بريقاً لم يكن متوقعاً. واستقباله على أعقاب عائلة مفلسة يعود ترس شرفها الى ايام الحروب الصليبية ساعده على ازدراء الثروة العظمى. وعلى ان يصغر الغابات، والاراضي المحروثة التي لم تزرع، ومروج جاره الذي لم يكن من النبلاء. والسيد دي شيسل فهم الكونت جيداً. ومع ذلك كانا يريان احدهما الآخر دائماً، وبكل تهذيب، ولكن دون ان تقوم بينهما علاقة من تلك العلاقات اليومية، وبدون تلك المودة اللطيفة التي وجب ان تتوطد بين كلوشيغورد وفرابسل، العقارين اللذين يفصلهما الأندر، وحيث كان كل من رب القصرين يستطيع من نافذته ان يرسل اية اشارة الى الآخر.

لم تكن الغيرة هي السبب الوحيد للعزلة التي يعيش فيها الكونت دي مورتسوف. فقد كانت تربيته الاولى كتربية معظم العائلات العريقة: تعليم ناقص وسطحي يسد نقصه تعليم الدنيا وعادات البلاط، وممارسة مهام التاج الكبرى، او

مراكز سامية. وقد هاجر السيد دي مورتسوف في العصر الذي بدأت فيه تربيته الثانية، وكانت تنقصه. وكان من اولئك المؤمنين بسرعة عودة الملكية الى فرنسا؛ وعلى هذا الاعتقاد كان منفاه بطالات تستحق الرثاء. وحين تبعثر جيش كونده حيث سجلت شجاعته بين اعظم المخلصين، توقع عودته السريعة تحت العلم الابيض. ولم يسعَ، كبعض المهاجرين، لان يخلق لنفسه حياة حاذقة. وربما اعوزته الشجاعة ليتخلى عن اسمه ويكسب خبزه من عرق عملٍ محتقر. ومنعته آماله المتجهة دائماً الى الغد، وربما الى الشرف ايضاً، من ان يضع نفسه في خدمة القوى الاجنبية. لقد أفنى الالم شجاعته. والسير الطويل على الاقدام دون غذاء كافٍ، على خيبة آمال دائمة، افسد صحته، واخمد شجاعة روحه. وأصبح املاقه مفرطاً على درجات. واذا كان الشقاء عند بعض الناس دواءً مقوياً فهناك آخرون يذيبهم الشقاء، وكان الكونت من هؤلاء. حين افكر بهذا النبيل المسكين من تورين، السائر النائم على طرقات المجر،

المقتسم قطعة لحم من رعيان البرنس استرشازي[1] حيث كان المسافر يطلب منهم الخبز الذي لم يكن النبيل ليقبله من سيدهم، وقد رفض عدة مرات الايدي المعادية لفرنسا، فانني لا اشعر بأي حقد على المهاجر، حتى حين أراه مضحكاً في الانتصار. ان شعر السيد دي مورتسوف الابيض انبأني بآلام مخيفة. وأنا كثير التعاطف مع المنفيين فلا استطيع مقاضاتهم. لقد ماتت البشاشة الفرنسية التورينية عند الكونت فأصبح شكساً، واصيب بالمرض فعولج عن طريق الاحسان في ما لا اعرف من مستشفيات المانيا. وكان مرضه التهاباً في المساريقة وهو مميت في الغالب، يترك الشفاء منها تغييرات في الطباع، ويسبب السويداء دائماً. وغرامياته المدفونة في اعماق نفسه، والتي اكتشفتها بمفردي، كانت من النسق المنحط، غراميات لم تهاجم حياته فقط بل هدمت مستقبل هذه الحياة. بعد اثني عشر عاماً من البؤس ادار عينيه نحو فرنسا وقد سمح له قرار

(١) احد كبار ملاكي الاراضي في النمسا والمجر.

نابوليون بالعودة اليها. وفيما كان الراجل المتألم يجتاز الرين شاهد برج اجراس ستراسبورغ في مساء جميل فخارت قواه. — « فرنسا ! فرنسا ! لقد صرخت : « هذه هي فرنسا ! » قال لي ذلك كأنه طفل يصرخ : « امي ! ... » حين يصاب بجرح. كان غنيًّا قبل ان يولد فأصبح فقيراً ؛ وخلق ليقود جيشاً او يحكم دولة فاذا هو دون سلطة ولا مستقبل زاهر ؛ وولد معافى قويًّا فعاد مشوهاً متهدماً. انه دون تعليم وسط بلاد كبر فيها الناس والاشياء، بالضرورة دون تأثير ممكن، فوجد نفسه معرّى من كل شيء، حتى من قواه الجسدية والمعنوية. خسارة ثروته اعادت اليه اسمه الثقيل. وآراؤه التي لا تتزحزح، ومآثره في جيش كونده، وهمومه، وذكرياته، وصحته الضائعة، منحته طبيعة سريعة التغلّب ليكون قليل الاعتبار في فرنسا، بلاد السخرية. وبلغ مقاطعة الماين نصف ميت، حيث الحكومة الثورية نسيت بطريق صدفة ربما كانت مدينة للحرب الاهلية ان تبيع مزرعة كبيرة المساحة احتفظ مُزارعها بها مدخلًا في الروع انه مالكها. وحين علمت عائلة لينانكور التي تسكن

جيفري، وهو قصر قائم بالقرب من هذه المزرعة، بوصول الكونت دي مورتسوف ، ذهب الدوق دي لينانكور يعرض عليه الاقامة في جيفري طيلة الوقت اللازم لاعداد مسكن له . وكانت عائلة لينانكور كريمة بنبل حيال الكونت الذي استعاد قواه هناك طوال اقامة امتدت الى بضعة اشهر ، وقد بذل الكثير من الجهد ليخفي آلامه اثناء الرحلة الاولى . كان آل لينانكور قد خسروا املاكهم الشاسعة. وكان السيد دي مورتسوف ، بسبب اسمه ، عريساً مناسباً لابنتهم . والآنسة دي لينانكور البعيدة عن معارضة هذا الزواج برجل في الخامسة والثلاثين ، مريض وهرم ، بدت سعيدة . فالزواج اتاح لها ان تعيش مع خالتها الدوقة دي فرناي اخت الامير بلامون ـ شوفري التي كانت لها بمثابة ام .

والسيدة دي فرناي، وهي صديقة حميمة للدوقة دي بوربون[1]

(١) كانت من انصار الثورة وضحت بثروتها في سبيلها وهـي ام الدوق دانجيان الذي قتله نابليون .

عضو في جمعيـــة مقدسة يوجهها السيد سان مارتان[٢] المولود في تورين والملقب « الفيلسوف المجهول » . كان تلامذة هـــذا الفيلسوف يمارسون الفضائل التي تشير بها النظريات العاليـــة للاشراقية الروحانية . وهـذا المذهب يعطي مفتاح الدنيوات الالهيـة ويفسر الوجود بتحولات يسير الانسان بموجبها الى مصائر سامية ، ويحرر الواجب من حرمانه القانوني ، ويطبق على احزان الحياة الملاطفة الثابتـة التي يتحلى بها « الكويكر » ، ويأمر باحتقار العذاب موحياً مالا ادري من الامومة للملاك الذي نحمله الى السماء . انها الرواقية في مستقبلها . والصلاة الفعليـة والحب الطاهر هما عنصرا هذا الايمان الذي يخرج من كثلكة الكنيسة الرومانية ليدخل من جديد الى مسيحية الكنيسة البدائية . لقد بقيت الآنسة دي لينانكور مـع ذلك في حضن الكنيسة الرسولية التي كانت خالتها دائمـة الاخلاص لها . اما الدوقة دي فرناي التي ابتليت بقسوة بآلام الثورة فقد اتخذت

(٢) كان يدعى الفيلسوف المجهول ، وقد اعتنق الفلسفة الاشراقية .

في اواخر ايامها صيغة من التقوى المتحمسة سكبت في نفس طفلتها العزيزة « ضوء الحب الالهي وزيت السرور الداخلي » اذا اردنا استعمال تعابير سان مارتان نفسها . وقد استقبلَت الكونتس رجل السلام والمعرفة الفاضلة هذا عدة مرات في كلوشيغورد، بعد موت خالتها، التي كان يأتيها في اغلب الاحيان. وقد راقب سان مارتان من كلوشيغورد آخر كتبه المطبوعة في تور عند ليتورمي . والسيدة دي فرناي التي استوحت حكمة النساء المسنَّات اللواتي اختبرن لجاج الحياة العاصفة ، اعطت الزوجة الفتية كلوشيغورد لتجعل لها بيتاً. وبكياسة الشيوخ التي تكتمل حين يكونون كيّسين تركت الدوقة كل شيء لابنة اختها مكتفية بغرفة فوق الغرفة التي كانت تشغلها اولًا والتي اخذتها الكونتس. وموتها شبه الفجائي التي اغشية على مسرات هذا الزواج ، وطبع كلوشيغورد ونفس الزوجة التي تعتقد بالخرافات بطابع حزن لا يمحى . والايام الاولى من استقرار الكونتس في تورين كانت الفترة الوحيدة التي خلت من الهموم في حياتها مع انها لم تكن سعيدة .

ان السيد دي مورتسوف، بعد عوائق أقامته في الخارج، وبعد ارتياحه في توهم مستقبل رحيم، اصبح وكأنـــه في فترة نقاهة النفس؛ فقد تنشق في هذا الوادي الروائح المسكرة لأمل مزهر. وأجبر على التفكير في ثروته فانهمك باعـــداد مشروعه الزراعي، وبدأ يتذوق شيئاً من السرور؛ ولكن مولد جاك جاء ضربة صاعقـــة هدمت الحاضر والمستقبل: فالطبيب قضى بالموت على الوليد، وأخفى الكونت هذا القرار عن الام بكثير من الاعتناء؛ ثم استشار لنفسه وتلقى اجوبة تبعث على اليأس أكدتها ولادة مادلين. هذان الحادثان، وهما نوع من التأكيد الداخلي للقضاء المشؤوم، زادا من قابليات المهاجر المرضية. فاسمه إنطفأ الى الابد، وبجانبه زوجة فتية طاهرة، خالية من العيب، بائسة، موقوفة على آلام الامومة، دون ان تحصل على مسراتها. ان هذه الذبالة من حياته القديمة، التي أنبتت له آلاماً جديدة، سقطت على قلبه، وأتمت انهيارها. فقد عرفت الكونتس الماضي من الحاضر وقرأت المستقبل. ومع انه ليس هناك أصعب من ان تشعر بالسعادة رجلًا يعرف

انه مخطىء فان الكونتس قامت بهذه المحاولة الجديدة كملاك. وفي يوم واحد أصبحت ثابتة الجنان. وبعد ان نزلت الى الهاوية التي لا تزال تستطيع ان ترى السماء منها، نذرت نفسها، في سبيل الجميع؛ فغفرت له ما لا يمكن ان يغفره لنفسه وذلك لكي تصلح بينه وبين نفسه. واصبح الكونت بخيلًا، فرضيت بالحرمان المفروض؛ وكان يخاف أن تخونه خون جميع أولئك الذين لم يعرفوا الحياة الا ليحملوا اليها الكراهية، ولذلك بقيت في العزلة وانطوت على نفسها دون تذمر من عدم ثقته؛ واستعملت حيَل المرأة لتجعله يريد ما هو حسن، وهكذا نمت عنده أفكار وتذوق في بيته مسرات التفوق التي لم يكن يتذوقها في أي مكان. ثم بعد أن تقدمت في طريق الزواج عزمت على ألا تخرج أبداً من كلوشيفورد، عالمة بما عند الكونت من نفس هستيرية، حيث يمكن أن يلحق الابتعاد الضرر بولديها في بلاد الخبث والثرثرة. وبعد فما من أحد يرتاب بعجز السيد دي مورتسوف الحقيقي، إذ زينت خرائبه برواء كثيف من اللبلاب. ان طبع الكونت المتغير، غير المستاء ولكنه راضٍ

بشكل سيّىء، لاقى عند زوجته أرضاً لينة سهلة فامتد فيها شاعراً ان آلامه الخفية قد استرخت بفضل طراوة الدهانات العطرة .

هذه اللمحة التاريخية هي أبسط تعبير عن الاحاديث المنتزعة من السيد دي شيسل بسبب حزن خفي غاضب . ان معرفته للناس جعلته يستشف بعضاً من الغوامض المدفونة في كلوشيغورد. ولئن خدعت السيدة دي مورتسوف الناس بتوقفها السامي فانها لم تستطع أن تخدع حواس الحب الذكية . فحين وجدت نفسي في غرفتي الصغيرة، جعلتني معرفة الحقيقة أقفز في سريري، لم احتمل ان اكون في فرابسل ما دمت استطيع رؤية نوافذ غرفتها ؟ فارتديت ثيابي، ونزلت بخطوات الذئب، وخرجت من القصر من باب برجٍ فيه درج حلزوني . وأعاد برد الليل الهدوء إليّ . فاجتزت الانــدر عبر جسر الطاحونة الحمراء، ووصلت الى الزورق السعيد أمام كلوشيغورد حيث يلمع ضوء في النافذة الاخيرة من ناحية آزاي . واستعدت تأملاتي السابقة، وهي تأملات، ممزوجة بأصوات شعراء الليل الغرامية وباللحن

الوحيد لبلبل المياه. واستيقظت في نفسي أفكار كانت تنزلق كالاشباح مقتلعة شارات الحداد التي اختلست حتى الآن مستقبلي الجميـــل. كانت النفس والحواس معاً في افتتان. بأي عنف صعدت رغباتي اليها!.. وكم مرة قلت لنفسي كما يقول المجنون لازمته: — هل أحصل عليها؟.. اذا كان الكون في نظري قد كبر طوال الايام السابقة، فقد أصبح له نقطة مركز بليلة واحدة. لقد ارتبطت ارادتي ومطامعي بها وتمنيت ان أكون لها كل شيء لأرمم وأملأ قلبها الممزق. كانت جميلة تلك الليلة التي قضيتها تحت نوافذها بين تمتمات المياه المارة خلال سدود الطاحونة، والتي يقطعهـــا صوت الساعات التي تدق في برج اجراس شاسيه! في تلك الليلة السابحة بالنور، حيث أنارت تلك الزهرة الكوكبية حياتي، خطبت لها نفسي بإيمان الفارس الكاستيلي المسكين الذي تسخر منه مؤلفات سرفنتس والذي بدأنا الحب به. وهربت الى حديقة فرابسل عند اول شعاع في السماء واول صرخة عصفور؟ لم يرني أي إنسان من الريف، ولم يرتب احد بهربي، ونمت الى ان أعلن الجرس موعد الغداء.

ورغم الحرارة فقد نزلت الى المرج بعد الطعام لأذهب وأرى الأندر وجزره، والوادي وتلاله، فقد كنت شديد الاعجاب بها؛ ولكن بسرعة الاقدام التي تتحدى سرعة الحصان الهارب، وجدت زورقي، وصفصافي، وكلوشيغورد. كل شيء هناك كان ساكناً ومرتعشاً شأن الريف في الجنـــوب. كانت الاوراق الجامدة تتقطع بوضوح على صفحة السماء الزرقاء؛ والحشرات التي تعيش بالنور، فراشات خضر، وذراريح، كانت تطير الى دردارها، الى قصبها؛ والقطعان تجتر في الظلال، وأراضي الكروم الحمراء تشتعل، والافاعي تنزلق على طول المنحدرات. أي تغيير حدث قبل نومي لهذه المناظر الكثيرة النضارة، الكثيرة الدلال! قفزت فجأة خارج الزورق وصعدت في الطريق لأدور حول كلوشيغورد حيث توهمت انني رأيت الكونت يخرج. لم أكن مخطئاً، كان يسير بمحاذاة سياج ليصل دون شك الى باب يفتح على طريق آزاي المحاذي للنهر.

— كيف حالك هذا الصباح يا سيدي الكونت؟

فرمقني ببشاشة كأنه لم يكن يتوقع أن يدعى هكذا. وقال :

ـ بخير ، أظن انك تحب الريف لتتنزه في هذه الحرارة .

ـ ألم يرسلوا بي الى هنا لأعيش في الهواء الطلق ؟

ـ حسناً ، أتريد أن تأتي لمشاهدة حصاد الجاودار عندي ؟

أجبته :

ـ بكل سرور ، فأنا ذو جهل لا يصدق ، وأعترف لك بذلك . اني لا أميز الجاودار من القمح ، ولا الحور من شبيهه ، ولا أعرف شيئاً من الزراعة ولا من الطرق المختلفة لاستثمار الارض .

فقال مزهواً وهو يعود أدراجه :

ـ حسناً، تعال وادخل من الباب الصغير الموجود فوق .

وعاد يصعد على طول السياج من الداخل ، وأنا من الخارج. وقال لي :

– لن تتعلم شيئاً عند السيد دي شيسل، فهو سيد كبير جداً لا يهتم بسوى تلقي حسابات وكيل اعماله.

وأراني باحاته وأبنيته ، وحدائق اللهو ، وبساتينه وحقول خضاره. وأخيراً سار بي نحو ذلك الممر الطويل من أشجار الطلح والإيلنطس حول النهر. وكان في الطرف الآخر السيدة دي مورتسوف على مقعد منهمكة مع ولديها . ان المرأة تبدو جميلة جداً تحت أوراق الاشجار المهتزة المقطعة ! ولربما فوجئت بحميتي الساذجة ، لكنها لم تكترث لعلمها اننا سنسير اليها . لقد جعلني الكونت أعجب بمنظر الوادي الذي يمثل من هنا منظراً يختلف كلياً عن المناظر التي كان يظهرها حسب الارتفاعات التي مررنا بها . فهنا ، بامكانك القول انها زاوية صغيرة من سويسرا . والمرج الذي تثلمه السواقي التي تصب في الاندر ينكشف بكل طوله ويغيب في الافق الذي يظلله

البخار . وتشاهد العين من ناحية مونبازون مساحة شاسعة خضراء، وعلى جميع النقاط الاخرى تستوقفها التلال، والاشجار، والصخور. اسرعنا الخطى لنحيي السيدة دي مورتسوف التي القت الكتاب الذي كانت تقرأ مادلين فيه ، وحملت جاك على ركبتيها وقد انتابه سعال مصحوب بتشنج. وقال الكونت وقد امتقع وجهه :

ــ هيه ! ماذا هناك ؟

فأجابت الأم التي بدت وكأنها لم ترني :

ــ إنه يشعر بألم في نحره ، شيء بسيط .

ثم أمسكت برأسه وظهره ، وكان يخرج من عينيها شعاعان يسكبان الحياة في هذا المخلوق الضعيف المسكين .

أجاب الكونت بخشونة :

ــ انك مفرطة يا سيدتي بعدم التبصر . تعرضينه لبرد النهر وتجلسينه على مقعد حجري .

فقالت مادلين :

– ولكن المقعد ساخن يا أبي .

وقالت الكونتس :

– لقد ضاقت انفاسها فوق .

فقال الكونت وهو ينظر اليّ :

– يريد النساء دائماً ان يكنّ على حق .

ولأتجنب استحساني او عدم استحساني له تأملت جاك الذي كان يشكو ألماً في نحره ، وقد حملته أمه . واستطاعت ، قبل ان تتركنا ، سماع زوجها يقول :

– حين نلد أولاداً صحتهم سيئة يجب ان نعرف كيف نعتني بهم .

انه كلام جائر ، ولكن حب الذات دفعه الى تبرير نفسه

على حساب زوجته. كانت الكونتس تطـــير وهي تصعد الادراج. ورأيتها تختفي من الباب ـ النافذة. اما السيد دي مورتسوف فقد جلس على المقعد وقد احنى رأسه مفكراً؛ فجمل وضعيتي غير محتملة، لانه لم ينظر إليّ ولم يكلمني. وداعاً ايتها النزهة التي أحببت اثناءها لو أتمركز في ذهنهــــا. إني لا أذكر برهة في حياتي كانت هائلة كهذه. وتصبب العرق مني وانا أقول لنفسي: «هل اذهب، هل ابقى؟...» كم من فكرة حزينة تصاعدت في نفسه فجعلته ينسى ان يذهب للتعرف على حالة جاك. لقد نهض فجأة وجاء الى قربي. وعدنا لرؤية الوادي الضاحك. وقلت له بلطف:

ــ سنرجىء نزهتنا الى يوم آخر يا سيدي الكونت.

فأجاب:

ــ لنخرج! من سوء الحظ اني تعودت رؤية نوبات كهذه في اغلب الاحيان، إني أعطي حياتي دون اسف لأحفظ حياة هذا الولد.

ـ حالة جاك حسنة ، انه ينام يا صديقي .

هكذا قال الصوت الذهبي. فقد ظهرت السيدة دي مورتسوف فجأة في طرف الممر . ووصلت مغضية على الضيم ، دون غم ، وردت تحيتي قائلة :

ـ ارى بكل سرور انك احببت كلوشيغورد .

وقال الكونت مبدياً رغبته في طلب الصفح عن ظلمه :

ـ اتريدين يا عزيزتي ان امتطي الجواد واذهب في طلب السيد دسلاند؟

فقالت :

ـ لا تزعج نفسك . ان جاك لم ينم هذه الليلة ، وهذا كل شيء . ان هذا الولد عصبي جداً ، فقد حلم حلماً مزعجاً ، وامضيت الوقت كله وانا اروي الحكايات لأجعله ينام. سعاله عصبي صرف، وقد هدأته بحبة صمغ ، فنام .

ـ يا للمرأة المسكينة !

هكذا قال وهو يأخذ يدها بين يديه ويلقي عليها نظرة مقرونة بالدموع لا أعرف عنها شيئاً .

ـ وما فائدة قلقك من اجل لا شيء؟ اذهب الى جاودارك. انت تعلم انك اذا لم تكن هناك فان المزارعين يتركون اللاقطات الغريبات في القرية يدخلن الى الحقل قبل ان ترفع الاكداس .

فقلت لها :

ـ انا ذاهب لأتلقى درسي الاول في الزراعة يا سيدتي .

ـ انت في مدرسة ممتازة .

اجابتني بذلك مشيرة الى الكونت الذي تقلص فمه ليظهر ابتسامة رضى .

بعد شهرين فقط، علمت انها قضت تلك الليلة في قلق مخيف،

كانت خائفة ان يكون ولدها مصاباً بالذبحة . وكنت في ذلك الزورق ، مهدهداً بأفكار الحب مسترخياً ، متخيلًا انها تراني من نافذتها ، عابداً ضوء تلك الشمعة التي كانت حينذاك تميز الجبهة المغشاة بالقلق المميت . كانت الذبحة منتشرة في تور ونتج عنها وفيات مخيفة . وقد قال لي الكونت حين كنا على الباب بصوت متأثر :

– السيدة دي مورتسوف ملاك !

هذه الكلمة جعلتني اترنح . لم اكن اعرف هذه العائلة بعد سوى معرفة سطحية ، وتوبيخ الضمير الطبيعي جداً الذي تشعر به نفس فتية في مناسبة كهذه كان يصرخ بي : « بأي حق تعكر هذا السلام العميق ؟ »

والكونت السعيد بلقاء شاب وديع يستطيع ان يتفوق بسهولة عليه اخذ يحدثني عن المستقبل حيث تعد العدة في فرنسا لعودة آل بوربون . ودخلنا في حديث متنقل سمعت خلاله صبيانيات حقيقية فاجأتني بشكل غريب . كان يجهل وقائع

ذات وضوح هندسي، وكان يخاف من المتعلمين، وينكر التفوق؛ وكان يسخر من التقدم، وربما كان على حق! واخيراً تعرفت فيه الى كثير من الاوتار المؤلمة التي تضطرني الى اتخاذ كثير من الاحتياطات لئلا اجرحه، وان الحديث المتابع يصبح عملاً فكرياً. حين لامست عيوبه انعطفت نحوها بكثير من المرونة التي تستعملها الكونتس وهي تلامس هذه العيوب. قبل سنوات كنت انكد عليه، ولكنني وانا خجل كالطفل، معتقد بعدم معرفة شيء، او معتقد ان رجال الاعمال يعرفون كل شيء، دهشت من الاعاجيب التي حصل عليها في كلوشيغورد هذا الزارع الصبور. كنت اصغي الى مخططاته بإعجاب. واخيراً أكسبني ذلك التملق اللاإرادي حسن التفات النبيل الهرم، فأطريت الارض الجميلة وموقعها، هذه الجنة الارضية، فجعلتها فوق فرابسل. وقلت له:

ـ ان فرابسل هي هضبة فضية لكن كلوشيغورد علبة حجارة كريمة!

عبارةٌ غالباً ما رددها منذ ان قالها قائلها. وأجابني:

ـ هه ! حسناً ! لقد كانت خراباً قبل ان نأتي اليها .

كنت كلي آذاناً حين حدثني عن مساكبه ومشاتله . ولما كنت جديداً على الاعمال الريفية فقد ارهقته بالاسئلة عن اثمان الاشياء ، ووسائل الاستثمار ، وبدا لي سعيداً لانه علمني الكثير من التفاصيل . وقد سألني بدهشة :

ـ ماذا علموك اذن ؟

ومنذ اليوم الاول هذا ، قال الكونت لزوجته عند عودته :

ـ ان السيد فليكس شاب جذّاب .

وفي المساء كتبت الى والدتي طالباً بعض الاثواب والملابس الداخلية ، معلناً لها انني سأبقى في فرابسل . ولما كنت اجهل الثورة الكبرى التي تمت حينذاك ولا أدرك مدى تأثيرها على مصيري ، فقد ظننت انني سأعود الى باريس لأتم فيها دراسة الحقوق ، وهي لا تبدأ إلا في أوائل تشرين الثاني ، فأمامي شهران ونصف اذن .

في الفترات الاولى من اقامتي حاولت توطيد صداقتي مع الكونت، وكان زمناً قاسي الانطباعات. فقد اكتشفت في هذا الرجل نزقاً بدون سبب، ونشاطاً في العمل في حالة اليأس أفزعاني. لقد اجتمعت فيه انفعالات فورية للرجل النبيل الباسل في جيش كونده، وبعض ومضات رمزية من تلك الارادات التي تستطيع في الظروف الصعبة ان تثقب السياسة على طريقة القنابل، والتي تجعل من الرجل، بسبب اخطار الاستقامة والشجاعة، محكوماً ان يعيش في بيته النبيل عيشة إلبه وبونشامب وشاريت. كان انفه يتشنج امام بعض الافتراضات وجبهته تستضيء، وعيناه تقذفان صاعقة لا تلبث ان تلين. كنت اخشى من السيد دي مورتسوف ان يقتلني دون تفكير وهو يفاجىء لغة عيني. كنت طري العود في ذلك الوقت، والارادة التي تغير الناس بشكل غريب كانت في بداية بزوغها عندي. ورغباتي المتجاوزة الحد اطلعتني على ارتجاجات الحس السريعة التي تشبه رعشات الخوف. لم يكن الصراع ليجعلني ارتجف ولكني ما اردت ان افقد الحياة دون ان اتذوق فيها

سعادة حب متبادل. كانت المصاعب ورغباتي تكبر بخطين متوازيين. كيف اتحدث عن عواطفي؟ كنت فريسة حيرة محزنة. كنت انتظر فرصة، كنت أراقب، تآلفت مع الولدين آملًا ان أحَب بواسطتها، حاولت أن أتحد مع أشياء البيت. واصبح الكونت قليل الاقتناع مني بشكل لاشعوري. وعرفت تقلبات مزاجه الفجائية، واحزانه العميقة دون سبب، وهيجانه العنيف، وشكاويه المرة القاصمة، وبروده الحقود، وحركاته الجنونية المكبوحة، وانينه الصبياني، وصراخه كرجل في قمة اليأس، وغضبه غير المتوقع. ان الطبيعة المعنوية تتميز عن الطبيعة الجسدية بهذا، بأن لا شيء فيها مطلق: فشدة التأثر ذات علاقة بطاقة السجايا والافكار التي نحشدها حول عمل ما. ووقايتي في كلوشيغورد، ومستقبل حياتي يتوقفان على تلك الارادة الجامحة. لن اعرف ان اوضح لك اي قلقٍ يضغط على نفسي، بينما الانشراح سهل كالانقباض حين اقول لنفسي وانا داخل: كيف ستستقبلني؟ اي اضطرابِ قلبيّ يحطمني حين تتجمع فجأة عاصفة على تلك الجبهة الثلجية! انه تأهب

دائم. لقد وقعت اذن تحت استبداد هذا الرجل. وجعلتني آلامي ادرك آلام السيدة دي مورتسوف. فقد بدأنا نتبادل نظرات فطنة، وكانت دموعي تسيل احياناً بينما هي تمسك دموعها. هكذا تخابرنا بالالم انا والكونتس. كم من اكتشاف قمت به طوال تلك الايام الاربعين الاولى الملأى بالغموم الحقيقية، وبالمسرات المكتومة، وبالآمال الغارقة حيناً والطافية حيناً آخر! وجدتها ذات مساء غارقة في تفكيرها امام مغيب الشمس الذي يضفي الاحمرار بشكل ماتع على القمم ويجعل الوادي يبدو كالسرير، بحيث كان من المستحيل ألّا يسمع صوت نشيد الانشاد الابدي، ذاك الذي تدعو الطبيعة بواسطته مخلوقاتها الى الحب. هل كانت الصبية تستعيد اوهاماً زائلة؟ وهل كانت المرأة تتألم من بعض المقارنات الخفية؟ لقد اعتقدت انني ارى في وضعيتها استسلاماً مفيداً لأولى الاعترافات فقلت لها:

— انها ايام عصيبة!

فقالت:

ـ لقد قرأت في نفسي ، ولكن كيف ؟

فأجبت :

ـ اننا نتماس في كثير من النقاط . الا ننتمي الى ذلك العدد الصغير من المخلوقات المميزة بالالم وبالسرور ، والتي تهتز كل ملكاتها الحساسة في ايقاع فتنتج دوياً داخلياً عظيماً، فطبيعتها العصبية دائرة الانسجام مع مبدأ الاشياء ! ضعي هؤلاء الاشخاص في محيط كل ما فيه تنافر في الاصوات فانهم يتعذبون بشكل مخيف ، كما يذهب بهم السرور الى حد الهوس حين يلتقون بالافكار، والمشاعر ، او بالكائنات المحببة لديهم . اما نحن فلنا حالة ثالثة لا تعرف الشقاء فيها سوى النفوس المصابة بنفس المرض ، وتتلاقى عندها مفاهيم اخوية . يمكن أن يحدث لنا ألا نتأثر بالخير ولا بالشر . وحينئذٍ يتدرب في داخلنا وفي الفراغ ارغن قوي الدلالة محمّل بحركة ، يحتد دون سبب ، ويخرج اصواتاً دون ان ينتج نغماً ، ويقذف نبرات تضيع في الصمت ! نوع من التناقض المخيف لنفس تتمرد ضد عبث العدم . انها العاب مضنية

تتملص فيها مقدرتنا بكاملها دون قوت ، كما يتملص الدم من جرح مجهـول . ان قوة الحس تسيل كالسيول ، فينتج ضعف مقيت ، وكآبات فائقة الوصف ليس لكرسي الاعتراف آذان لسماعها . الم اوضح آلامنا المشتركة ؟

انتفضت ، وبدون ان تنقطع عن التطلع الى مغيب الشمس اجابتني :

ــ كيف تعرف كل هذه الامور وانت صغير ؟ فهل كنت امرأة ؟

فأجبتها بصوت متأثر :

ــ آه ! لقد كانت طفولتي كفترة مرض طويلة .

واجابتني وهي تتركني مسرعة :

ــ اني اسمع سعال مادلين .

رأتني الكونتس اواظب على المجيء الى بيتها دون ان

تساورها ريبـــة ، وذلك لسببين : اولًا كانت طاهرة كالطفل لا يذهب تفكيرها الى اية ناحية . ثم اني كنت اسلي الكونت ، وكنت كالمرعى لهذا الاسد الذي لا مخالب له ولا لبدة . وانتهيت اخيراً بأن وجدت سبباً للمجيء يبدو معقولًا لنا جميعاً . لم اكن اعرف لعبة النرد ، وقد عرض علي السيد دي مورتسوف ان يعلّمني اياها ، فقبلت . وفي الفـترة التي كنا ننفذ فيها اتفاقنا لم تستطع الكونتس ان تمنع نفسها من القاء نظرة رأفة علي كأنها تقول : « لكنك تلقي بنفسك في حلقوم الذئب » ! واذا كنت لم افهم شيئاً في بادىء الامر فانني عرفت في اليوم الثالث بماذا ألزمت نفسي . فصبري الذي لا يتعبه شيء ، تلك الثمرة مـن طفولتي ، نضجت اثناء هذا الوقت من الاختبار . وكانت سعادة الكونت تبدو في انصرافه الى السخرية القاسية حين لا اعرف ان اطبق المبدأ او القاعـــدة التي شرحها لي ؛ فاذا اخذت في التفكير شكا من الملل الذي يسببه اللعب البطيء ، واذا لعبت بسرعة فانه يحنق لدفعه الى العجلة ؛ واذا ارتكبت اخطاء فانه يغتنم الفرصة ويقول لي بأني اسرع كثيراً . لقـــد كان ذلك

استبداد معلم ، وتعسف مقرّعة لا استطيع ان اعطيك فكرة عنها الا بمقارنته بإبيكتيت[1] واقع تحت نير ولد شرير. حين لعبنا عن نقود فان ربحه الدائم سبب له افراحاً غير مشرفة ، حقيرة . وكلمة من امرأته كانت تعزيني عن كل شيء وتعيده بسرعة الى عاطفة التهذيب واللياقة . ولم البث ان سقطت في مجمرة عقاب غير متوقع . فقد كانت نقودي تذهب في هذه المهنة . ومع ان الكونت كان يبقي بيني وبين امرأته الى ان اتركها ، فقد كنت آمل ، مهما طال الوقت ، ان اجد فترة ادخل فيها الى قلبها ، ولكن الا يلزمني لأحصل على هذه الساعة المنتظرة بصبر الصياد المؤلم ان استمر في اداء هذه الادوار المنكدة التي تتمزق فيها نفسي باستمرار وتذهب بنقودي! كم مرة بقينا صامتين ، مشغولين بالنظر الى تأثير الشمس في المرج ، والى السحب في سماء شهباء ، والى التلال المغلفة بالابخرة او الى ارتعاشات القمر في جواهر النهر ، دون ان نقول شيئاً سوى :

---

(١) إبيكتيت ، فيلسوف رواقي من القرن الاول وكان عبداً رقيقاً لايبافروديت وقد قيل ان سيده قطع له رجله وهو يعذبه .

– الليل جميل !

– الليل امرأة ، يا سيدتي .

– يا لهذا الهدوء !

– نعم ، لا يمكن المرء ان يكون بائساً هنا .

عادت بعد هذا الجواب الى عملها في التطريز . وانتهيت بان سمعت في داخلها تحركات احشاء ناتجة عن مودة تريد مكاناً لها . وداعاً ايتها السهرات ، بدون نقود . وكتبت الى امي لترسل الي شيئاً منها فوبختني ولم تعطني شيئاً طوال ثمانيـــة ايام . ممن اطلبها اذن ؟ والامر يتعلق عليه حياتي ! وهكذا استعدت في حضن سعادتي الاولى العظيمة ، الآلام التي كانت تهاجمني في كل مكان ؛ ولكن في باريس ، في المدرسة ، في النزل ، كنت اتملص منها بلجوئي الى (قطاعة) مفكرة ، وكان شقائي سلبياً ؛ اما في فرابسل فقد اصبح فعالاً ، وعرفت عندئذٍ الميل الى السرقة ، الى تلك الجرائم المشتهاة ، الى ذلك الكَلَب الرهيب الذي يخدد

النفس والذي يجب اخماده والا فقـــدنا اعتبارنا . ان ذكريات التأملات القاسية ، والآلام النفسية التي فرضها علي شح امي اوحت الي رحمة مقدسة للفتيان ، اولئك الذين وصلوا الى حافة الهاوية ، دون ان يرتكبوا هفوة ، ليقيسوا عمقها . ولئن كانت نزاهتي المغذاة بالعرق البارد قد قويت في هذه اللحظات حيث الحياة تنفتح قليلًا وتترك مجالًا لرؤية حصباء ارضها الجافة ، فانني كنت اقول لنفسي في كل مرة تسل العدالة الانسانية المخيفة سيفها على عنق انسان : « لقد وضع القوانين الجزائية اناس لم يعرفوا الشقاء » . وعند هذا الحد اكتشفت في مكتبة السيد دي شيسل مبحثاً في لعبة النرد ودرسته ، ثم شاء مضيفي ان يلقي علي بعض الدروس ؛ ولما كان قد سار في تعليمي بقساوة فقد استطعت ان انال بعض التقدم ، وان اطبق القواعد والحسابات التي حفظتها غيباً. وفي ايام قليلة تمكنت من التغلب على معلمي . لكن مزاجه ساء حين ربحت منه؛ فلمعت عيناه كعيون النمور ، وتشنج وجهه، وتحرك حاجباه بشكل لم اره على انسان ، واصبحت شكاويه شكاوي ولد مدلل . كان احياناً يقذف (الزهر) فينفجر غاضباً،

ويفحص برجليه ، ويعض على بوقه ويوجه الي الشتائم . وكان لسورات الغضب هذه نهاية . فحين اكتسبت مهارة عالية في اللعب صرت اقود المعركة على هواي ؛ ودبرت الامر بحيث تكون النهاية متساوية تقريباً ، وذلك بأن ادعه يربح طوال نصفها الاول ثم احقق التوازن اثناء النصف الثاني . لقد كانت نهاية العالم تدهش الكونت اقل مما ادهشه تفوق تلميذه السريع ؛ لكنه لم يعترف بذلك . وكانت نهاية لعبنا الثابتة غذاء جديداً استحوذت روحه عليه . وقد قال لي :

ـ ان رأسي المسكين يتعب دون شك . فأنت تربح دائماً في نهاية اللعب لانني افقد وسائلي آنذاك .

اما الكونتس التي كانت تعرف اللعبة فقد فطنت لتدبيري منذ المرة الاولى ، وادركت الدلائل العظيمة على مودتي. وهذه التفاصيل لا يمكن ان يعرف قيمتها سوى اولئك الذين يعرفون صعوبات لعبة النرد . ربما هذا الشيء الصغير لا يعني شيئاً ! لكن الحب ، كإله بوسويه يضع كأس ماء الفقير وجهد الجندي الذي

يموت مجهولًا فوق اغنى الانتصارات . والقت الي الكونتس احدى علامات الشكر الصامتة التي تحطم قلباً فتياً ! لقد منحتني النظرة التي تحتفظ بها لولديها ! ومنذ ذلك المساء السعيد اصبحت تنظر الي دائماً وتكلمني . ولن استطيع ان اشرح حالتي وانا ذاهب . فقد امتصت روحي جسدي وصرت لا أزن شيئاً ، ولا امشي ، بل اطير . كنت اشعر بهذه النظرة في نفسي ، انها غمرتني بالنور كما ان عبارة « وداعاً يا سيد » كانت تعزف في داخلي الانغام المنسجمة التى تنطوي عليها يا ابنائي ! في صلاة القيامة يوم عيد الفصح . لقد ولدت لحياة جديدة . كنت اذن شيئاً بالنسبة لها ! ونمت في اقمطة من الارجوان ، ومرت شعلات امام عيني المطبقتين متتابعة في الظلمات كألسنة النار الجميلة السائرة واحدة وراء الاخرى على رماد ورقة محترقة . اصبح صوتها في احلامي شيئاً ملموساً لا ادري ما هو. جو غلفني بالنور والعطور، ونغم داعب روحي . واوضح استقبالها لي في اليوم التالي افراطاً في العواطف الممنوحة فاصبحت مذ ذاك مطلعاً على اسرار حياتها. وقد صار هذا اليوم من اكثر الايام خطراً في حياتي . بعد الغداء

تنزهنا على المرتفعات ، وذهبنا الى ارض جرداء لا يأتي اليها احد . كانت جافة الحجارة ، خالية من الزرع ؛ الا ان فيها بعض اشجار السنديان ، وادغالاً ملأى بثمر الزعرور ؛ وبدلاً من العشب امتدّ بساط من الطحلب الاصهب القصير ، المضاء بأشعة الشمس الغاربة ، تنزلق الاقدام عليه . كنت ممسكاً بيد مادلين لأسندها ، والسيدة دي مورتسوف اعطت ذراعها لجاك ، والكونت السائر في المقدمة كان يلتفت ويضرب الارض بعصاه ويقول لي بنبرة مزعجة : — هذه هي حياتي ! اوه ! ولكن قبل ان اعرفك . قال ذلك وهو يلقي نظرة اعتذار على زوجته . انه استغفار جاء متأخراً ، فقد شحب لون الكونتس . وأية امرأة لا تترنح مثلها حين تتلقى هذه الضربة ؟ وهتفت :

— ما ألذ الروائح التي تصل الى هنا ، وما اجمل النور ! كم تمنيت لو ان هذه الارض لي . لعلني اجد فيها كنوزاً وانا اسبر اغوارها . لكن جواركم هو الثروة الاكيدة . ومن الذي لا يدفع غالياً ثمن هذا المنظر الكثير الانسجام امام العين، وذلك النهر المتعرج حيث تسبح النفس بين اشجار الدردار والحور

الرومي ؟ اترون الفرق بين الاذواق ؟ انكم ترون هذه الزاوية من الارض سُبروتاً وانا اراها جنة.

فشكرتني بنظرة، اما الكونت فقال بلهجة قاسية :

— كلام شاعر ! ليست هنا حياة رجل يحمل اسمك .

ثم توقف قليلًا وقال :

— اتسمعون اجراس آزاي ؟ من المؤكد انني سمعت قرع هذه الاجراس .

فتطلعت السيدة دي مورتسوف الي بهيئة خائفة ، وشدت مادلين على يدي . فقلت له :

— اتريد ان نعود لنلعب النرد؟ ان جلبة (الزهر) ستمنعك من سماع هذه الاجراس .

وعدنا الى كلوشيغورد ونحن نتحدث بأمور لا رابطة بينها .

وكان الكونت يشكو آلاماً حادة دون ان يوضح . وحين جمعنا الصالون سرت بيننا حيرة لا تعريف لها . كان الكونت غاطساً في مقعد ، غارقاً في تأملات احترمتها زوجته التي الفت اعراض المرض وعرفت ان تتدارك نوباته . وحذوت حذوها في الصمت . وان هي لم تطلب اليّ الذهاب فلأنها تعتقد ان لعب النرد يزيل ذلك النزق العصبي المشؤوم الذي تقتلها شظاياه. ولم يكن هناك اسهل من ملاعبة الكونت بالنرد لانه ذو ميل عظيم الى هـــذه اللعبة. لكنه كعشيقة فتية يريد ان يُرجى ويرغَم حتى لا يبدو عليه انه مضطر ، واذا نسيت لحظةً ان احييه عـلى اثر حديث شائق فانه يصبح عبوساً ، خشناً ، جارحاً، ويهتاج مـن الحديث معارضاً كل شيء. وبوحي مزاجه السيء عرضت عليه ان نلعب ، فقال متدللًا : ــ « اولًا فات الوقت ، ثم اني لا اهتم باللعب » . وأخيراً تظاهر بأشياء لا رابط بينها كمـــا تفعل النساء اللواتي يتوصلن الى انـ يجعلنك جاهلًا رغباتهن الحقيقية . فتضرعت ، ورجوته انـ يتعهدني في علمٍ ينسى بسهولة لعدم التمرين . وقد احتجت هذه المرة الى ابتهاج جنوني لأحمـله على اللعب . فقد

كان يشكو دواراً يمنعه من ان يحسب ، كأن جمجمته مضغوطة في كلّابة . وكان يسمع صفيراً ، وضاقت انفاسه ، واخرج زفرات مفرطة . واخيراً رضي ان يجلس الى الطاولة . فتركتنا السيدة دي مورتسوف لتنيم طفليها وتجعلهما يتلوان الصلاة في البيت . وقد جرى كل شيء على ما يرام اثناء غيابها . ورتبت امري لكي اجعل السيد دي مورتسوف رابحاً ، فأزالت سعادته تجهمه فجأة . ان الانتقال من حالة حزن انتزعت منه نبؤات مشؤومة عن نفسه ، الى هذا الفرح ، فرح انسان ثمل ، الى هذا الضحك الجنوني الذي يكاد يكون بدون سبب ، قد اقلقني وجمّدني . لم اره ابداً في هياج يثير الاتهام الصريح . لقد آتى تعارفنا الحميم ثماره ، لانه لم يكن يشعر معي بالضيق . كان يحاول كل يوم ان يغمرني بسلطته ويوفر غذاء جديداً لمزاجه ، ويبدو فعلًا ان الامراض النفسية كالمخلوقات لها شهياتها وغرائزها وتريد ان تزيد مساحة امبراطوريتها ، كمالك يريد ان يزيد مساحة ارضه . ونزلت الكونتس وجاءت الى قرب طاولة النرد لتنير ما تصنعه من مطرزات بصورة افضل ، لكنها انخرطت في عملها

بخوف مبهم لم تستطع اخفـــاءه تماماً. وجاءت لعبة مشؤومة لم استطع تداركها غيرت وجه الكونت : واخذت عيناه تترجرجان ثم جاءت مصيبة اخرى لم استطع التنبؤ بها ولا اصلاحهـا . فقد القى السيد دي مورتسوف (زهراً) صاعقاً حقق خسارته . فنهض حالًا ، والقى الطاولة عليّ ، والمصباح عـــلى الارض ، وضرب بقبضته على المنضدة ، ووثب من ردهة الاستقبال ولن استطيع القول انه مشى . لقد جعلنا سيل الشتائم ، واللعنات، والالفاظ اللاذعة ، والعبارات غير المتلاحمة التي خرجت من فمه نتذكرمس الشيطان القديم ، كما في القرون الوسطى. ولـكِ ان تحكمي على موقفي .

قالت لي وهي تضغط على يدي :

ـ اذهب الى الحديقة .

خرجت دون ان يلاحظ الكونت اختفائي . ومن الشرفة التي بلغتها بخطى بطيئة سمعت صياحه وزفراته الآتية من غرفته

الملاصقة لغرفة الطعام . وسمعت ايضاً خلال العاصفة صوت الملاك الذي كان يرتفع متلاحقاً كصداح البلبل عند بدء انقطاع المطر . وسرت متنزهاً تحت اشجار الطلح في اجمل ليلة من اواخر آب ، منتظراً ان تلحق الكونتس بي. انها ستأتي وقد وعدتني حركتها بذلــك . منذ ايام طغا ايضاح بيننا قد ينفجر لدى اول كلمة فتجعل النبع الطافح في نفوسنا يفيض . اي حياء يؤخر ساعة تفاهمنا التام ؟ لعلها تحب اكثر مني ذلــك الارتعاش الشبيه بتأثرات الخوف ،والذي يقتل قوة الحس اثناء تلك اللحظات التي يمسك المرء فيها حياته وهي تكاد تفيض ، ويتردد في كشف مكنوناته ، ملبياً داعي الحياء الذي يعتري الصبايا قبل مثولهن امام الزوج المحبوب . لقد كبَّرنا انفسنا بافكارنا المتراكمة بحيث اصبح الاعتراف الاول ضرورياً . ومضت ساعة . كنت جالساً على حاجز من الآجر حين انعش نسيم المساء الهادىء وقع خطاها المصحوب بجلبة متموجة من ثوبهـــا المسترسل . ان هذا من الاحساسات التي لا يكفيها القلب . وقالت :

ـ السيد دي مورتسوف نائم الآن . لقد اعتدت في مثل

هذه الحالة ان اسقيه كأس ماء ينقع فيه بعض رؤوس الخشخاش، عندما تكون النوبات متباعدة تباعداً كافياً لكي يعطي هذا الدواء البسيط النتيجة نفسها .

ثم قالت وقد غيرت لهجتها متخذة افضل تبديـــل مقتنع في صوتها :

ـ ايها السيد ، لقد كشفت لك فرصة سيئة اسراراً كانت حتى الآن محفوظة باعتناء ، فعدني ان تدفن في قلبك ذكرى هـــذا المشهد. افعل ذلك لاجـــلي ، ارجوك . اني لا اطلب منك قسما ، قل لي كلمة « نعم » التي يقولهـــا الرجل الشريف ، وسأكون مسرورة .

فقلت لها :

ـ وهل انا بحاجة اذن للفظ هذه اا «نعم»؟ ألن نتفاهم ابداً؟...

ـ لا تحكم على السيد دي مورتسوف حكماً على وجه مضاد

برؤيتك مفعول آلام طويلة تحملها طوال هجرته . سينسى غداً الاشياء التي قالها تماماً وستجده ممتازاً ودوداً .

فأجبتها :

ـ كفى يا سيدتي ! تبريراً للكونت ، سأعمل كل ما تريدين . اني القي بنفسي حالًا في الاندر لو وسعني ان اجدد السيد دي مورتسوف واعيدك الى حياة سعيدة . اما الشيء الوحيد الذي لا أستطيع ان اجدد صياغته فهو رأيي ، فليس هناك امتن منه نسيجاً في نفسي. اني اعطيك حياتي، ولا استطيع ان اعطيك ضميري ؛ بامكاني ان لا اسمعه ، ولكن هل استطيع منعه عن الكلام ؟ في رأيي ان السيد دي مورتسوف هو ...

فقاطعتني بعنف على غير عادتها وقالت :

ـ اني افهمك فأنت على حق .

ثم تابعت لتلطف فكرة الجنون بتلطيف الكلمة :

ـ الكونت عصبي كعشيقة فتية ، لكنه ليس كذلك الا في فترات ، مرة على الاكثر بالسنة ، وقت اشتداد الحر. كم سببت الهجرة من آلام ! وكم من حيوات جميلة فقدت ! لقد كان رجل حرب كبير ، وانا متأكدة من ذلك ، كان فخر بلاده .

فقلت مقاطعاً بدوري لأجعلها تدرك ان لا فائـــدة من خداعي :

ـ اني اعرفه .

فتوقفت ووضعت احدى يديها على جبهتها وقالت :

ـ من اذن انبتك هكذا في بيتنا؟ فهل اراد الله ارسال نجدة الي ، صداقة حارة تسندني ؟

ثم اضافت وهي تضع يدها على يدي بقوة : لانك طيب ، وكريم .

ورفعت عينيها الى السماء كأنها تستحضر شاهـــداً غير منظور يؤكد لها آمالها الخفية . ثم ركزتهما علي . فتكهربت من

هذه النظرة التي القت روحاً في روحي. كان ينقصني شيء من الفطنة وفقاً لعلم الفقه الدنيوي ، ولكن أليس ذلك عند بعض النفوس عجلةً مفرطة كريهة امام خطر ، وميلًا الى منع حدوث صدمة ، وخوفاً من مصيبة لن تحـــدث ، وفي اغلب الاحيان الا يكون السؤال المباغت الذي نلقيه على قلبٍ ما ضربة تعطى لنعرف هل يرن الاتفاق الرأي والهدف ؟ وتصاعدت في نفسي عدة افكار كالوميض تشير علي ان اغسل اللطخة التي لوثت نقاوتي ، في اللحظة التي كنت استشف فيها الاطلاع الكامل . وقلت لهـــا بصوت افسدته ارتعاشات تسمع بسهولة في ذلك السكون العميق الذي نحن فيه :

ـ قبل ان نذهب بعيـــداً، اتسمحين لي ان اطهر تذكاراً من الماضي .

ـ اسكت .

قالت ذلك بحدة، واضعة على شفتي اصبعاً ما لبثت ان رفعته،

ثم تطلعت الي بأنفة امرأة عالية جداً بحيث لا تطالها الاهانة ، وقالت بصوت مضطرب :

— انا اعلم عمّ تريد ان تتكلم. ان الامر يتعلق اولاً وآخراً، بالاهانة الوحيدة التي تلقيتها ؛ لا تحدثني ابداً عن هـــذه الحفلة الراقصة . واذا كانت المسيحية قد غفرت لك فان المرأة لا تزال تتألم .

فقلت لها وانا امسك بين اهدابي الدموع التي طفرت الى عيني .

— لا تكوني اشد قسوة من الرب .

فأجابت :

— يجب ان اكون اكثر صرامة ، اني اكثر ضعفاً .

فأجبت على نسق التمرد الصبياني :

— ولكن اصغي إليّ، ما دام هذا لن يحدث الا للمرة الاولى، للمرة الاخيرة ، وللمرة الوحيدة في حياتك .

فقالت :

ــ حسناً ! تكلم ! والا فستظن اني اخاف ان اسمعك .

شعرت حينئذ ان هذه اللحظة وحيدة في حياتنا ، فقلت لها بتلك اللهجة التي تأمر بالانتباه ان جميع النساء في حفلة الرقص كنّ غير مباليات بي كأولئك الذين شاهدتهن قبلًا ؛ ولكن حين رأيتها ، انا من كانت حياتي كلها درساً ، ونفسي قليلة الجرأة ، صرت كأنني مدفوع بجنون لا يحاسبني عليه الا اولئك الذين لم يجربوه ، وان ما من انسان مثلي امتلأ قلبه بالرغبة التي لا يقاومها اي مخلوق فتتغلب على كل شيء ، حتى الموت .

فقالت وهي توقفني :

ــ والاحتقار ؟

فسألتها : وهل احتقرتني اذن ؟

فقالت : لندع الحديث عن هذه الامور .

فأجبتها بحماسة وليدة الم فوق طاقة البشر :

- بل لنتكلم عنها ! ان الامر يتعلق بي ، بحياتي المجهولة ، بسر يجب ان تعرفيه ، والا فسأموت من اليأس ! ثم الا يتعلق الامر ايضاً بك ؟ انت التي كنت ، بدون ان تعرفي ، السيدة التي يتألق في يديها التاج الذي وعد به المنتصرون في المباراة؟

سردت عليها قصة طفولتي وشبابي لا كما قلتها لك ، بعقاضاتها عن بعد ، بل بكلمات حارة من شاب لا تزال جراحه تنزف . كان صوتي يدوي كفأس الحطابين في غاب . وتساقطت امامها بجلبة عظيمة تلك السنوات الميتة ، والآلام الطويلة التي نفشتها اغصان معراة من الاوراق . رسمت لها بكلمات محمومة طائفة من التفاصيل المرعبة التي اعفيك منها . لقــــد نشرت كنز امنياتي الزاهية ، وذهب رغباتي البكر ، وقلباً محترقاً محفوظاً تحت ثلوج الالب المكدسة بفعل شتاء مستمر . وحين كنت انتظر كلمة من هذه المرأة التي كانت تصغي اليّ منخفضة الرأس وانا رازح تحت اثقال آلامي المكررة بنـــبرات اشعيا ، اذا بها تضيء

الظلمـــات بنظرة ، وتحيي العوالم الارضية والسماوية بكلمة واحدة .

ـ ان طفولتنا واحدة .

قالت هذا وهي تريني وجهاً يتألق عليه تاج الشهداء . وبعد وقفة اتحدت فيها روحانا بتلك الفكرة المعزية نفسها : لم اكن اذن اتعذب وحدي! وحدثتني الكونتس بصوتها الذي تحتفظ به لتكلم صغيريها العزيزين . اساء اليها الحظ لكونهـــا بنتا مات اخوتها. وشرحت لي الفروق بين آلامها في حالتها كبنت دائمة التعلق بخاصرتي امها وبين آلام ولد القي في عالم المدارس. كانت وحدتي فردوساً اذا قيست بملامسة الرحى الـــتي كانت روحها تزهق تحتها دون انقطاع حـــتى اليوم الذي انقذتها فيها امها الحقيقية ، خالتها الطيبة ، بأن انتزعتها من هذا العقاب الذي قصت عليّ آلامه المتجددة. انها المجادلات التي لا تفسر ولا تحتمها الطبائع العصبية التي لا تتراجع امام طعنة خنجر وتموت تحت سيف ديموقليس : فحيناً توسع سمح توقفه نظرة جامدة ، وحيناً

قبلة تستقبل ببرود، وصمت مفروض يثير لوماً متكرراً؛ ودموع مفترسة تبقى جاثمة على قلبها؛ واخيراً استبدادات الدير الكثيرة المخفية عن عيون الغرباء تحت مظاهر حضانة متحمسة بفخر. كانت امها تجعل منها موضوع زهو، وتطريها؛ ولكنها كانت تدفع غالياً في الغد ثمن هذا التملق الضروري لفوز المعلمة. وحين كانت تعتقد انها نالت الغلبة على قلب الام بالطاعة والدماثة، وانها انفتحت لها، فان الطاغية كان يعود الى الظهور متسلحاً بأسرارها. فالجاسوس لم يكن اكثر جبناً ولا اكثر خيانة. وكل مسراتها كفتاة، وكل اعيادها ابتيعت بثمن غالٍ، فقد كانت توبخ لأنها سعيدة كما توبخ على هفوة. ودروس تعليمها النبيل لم تكن تلقى عليها بحب بل بسخرية جارحة. ولم تكن تحقد ابداً على والدتها بل كانت تلوم نفسها لانهـــا تشعر نحوها بالرعب اكثر مما تشعر بالحب. وربما كان هذا الملاك يفكر فيما اذا كانت هذه الصرامة ضرورية، الم تكن تعدها لحياتها الحالية؟ كان يخيل اليّ وانا مصغٍ اليها ان معزف ايوب، الذي استخرجت منها مطابقات وحشية، تحركه الآن اصابـع مسيحية، فتجيبه منشدةً طلبات العذراء عند الصليب.

– اننا نعيش في الكرة ذاتها قبل ان نلتقي هنا ، انت قسم من الشرق وانا قسم من الغرب .

فحركت رأسها بحركة يائسة وقالت :

– لك الشرق ولي الغرب . انت تعيش سعيداً وانا سأموت من الالم ! والرجال يصنعون حوادث حياتهم بأنفسهم، اما انا فقد حددت حياتي الى الابد . ما من قوة تستطيع تحطيم هذه السلسلة الثقيلة التي ربطت المرأة اليها بحلقة من ذهب ، رمز طهارة الزوجات .

وبشعورنا حينئذٍ اننا توأمان من رحم واحد لم تدرك ابداً ان المناجاة جرت مناصفة بين اخوين شاربين من الينابيع نفسها. وبعد التنهد الطبيعي للقلوب الطاهرة حين انفتاحها ، قصّتْ علي ايام زواجها الاولى ، واخفاقاتها الاولى ، وتجـــدد الشتاء . انها مثلي عرفت الاحداث الصغيرة ، الكبيرة جداً على النفوس التي يهتز جوهرها الصافي بكامله عند اول صدمة ، كحجر التي في بحيرة يحرك سطحها كما يحرك اعماقها . حين تزوجت امتلكت

مدخراتها ، ذلك القليل من الذهب الذي يمثل الساعات المرحة والآلاف من رغبات الصبا ؛ وفي يوم من ايام الشقاء اعطتهـــا بأريحية دون ان تقول انها ذكريات وليست قطعاً ذهبية ؟ اما زوجها فلم يمسك حساباً لها ، ولم يعرف انها دائنة له ! ومقابل هذا الكنز الذي ابتلعته مياه النسيان الساكنة لم تحصل على تلك النظرة المبللة التي تنهي كل حساب ، والتي هي للنفوس الكريمة كجوهرة ابدية يتألق لمعانها في الايام العصيبة. لكم سارت من الم الى الم ! فقد كان السيد دي مورتسوف ينسى ان يعطيها النقود اللازمة للبيت ؛ وقد استيقظ من حلم حين طلبتها منه ، بعد ان تغلبت على كل خجلها كامرأة ، ولم يجنبها مرة انقباضات القلب القاسية تلك ! اي رعب استولى عليها حين انكشفت لها طبيعة هذا الرجل المتهدم المرخية ! لقد تحطمت منذ اول شظية من غضباته الجنونية . بكم من الافكار القاسية مرت قبل ان ترى زوجها لا شيء ، هذا الوجه المفروض الذي يسيطر على وجود امرأة ! واي بلايا مرعبة تبعت هاتين الولادتين ! واي تأثير لمرأى طفلين ولدا ميتين ؟ واية شجاعة لتقول لنفسها : سأنفخ

فيها الحياة ! سألدها من جديد كل يوم! ثم اي يأس في ان تشعر المرأة بعائق في القلب واليد اللذين تستمد منهما المعونة ! لقد رأت هذا الشقاء الواسع ينشر سهوله الشائكة عند كل صعوبة تغلبت عليها. وعند صعود كل صخرة كانت تشاهد قفاراً جديدة عليها ان تجتازها، الى اليوم الذي عرفت فيها زوجها تمام المعرفة، وبنية ولديها، والبلاد التي عليها ان تعيش فيها ؛ والى اليوم الذي عودت فيه قدميها على السير في الوحل والثلج ، كالولد الذي انتزعه نابليون من حنان بيته فألفت جبهته قذائف المدافع، وشخصيته طاعة الجندي العمياء . هذه الامور التي الخصها لك ، قالتها لي حينذاك في اتساعها الظلامي ، مع موكب احداثها المحزنة ، والمعارك الزوجية الخاسرة ، والمحاولات غير المجدية.

وقالت اخيراً منهية حديثها :

– بقاؤك هنا بضعة اشهر ضروري لتعرف كم تكبدت من مشاق لتحسين كلوشيفورد، وكم لجأت الى حيل متعبة لأحمله على قبول الشيء الاكبر نفعاً لمصالحه! واي خبث صبياني يستولي

عليه حين يخفق مسعى اشرت عليه به ! وبأي سرور ينسب الخير لنفسه ! واي صبر كان ضرورياً لي لأسمع دائماً شكاوى بينما اقتل نفسي لأنقّي ساعاته ، واعطر هـــواءه ، وافرش ارضه بالرمل ، واغرس الزهور في طريقه التي بذرها حجارة ! لقد كانت مكافأتي هذه اللازمة المرعبة : — « اني اموت ، الحياة تثقل كاهلي ! » اما اذا وفق بوجود اناس عنده فإن كل شيء يمحي ، ويصبح ظريفاً مهذباً . لمـــاذا لا يكون هكذا حيال عائلته ؟ اني لا اعرف كيف افسر هذا النقص في الشهامة عند رجل يتمتع احياناً بفضائل الفروسية . انه خليق بأن يذهب خفيةً وبأقصى سرعة الى باريس ليجلب لي حليةً كما فعل اخيراً بسبب الحفلة الراقصة في المدينة . انه بخيل على بيته ولكنه يصبح مبذراً في سبيلي اذا اردت ذلك منه . وكان يجب العكس فأنا لست بحاجة الى شيء وبيته ثقيل . ورغبته مني في ان اجعل حياته سعيدة ، وبدون ان افكر اني سأصبح اماً ، قد أكون عوّدته على ان ينظر الي كضحية له ، انا التي لو استعملت بعضاً من التملق لكان بإمكاني ان أقوده كولد لو كنت استطيع

الانحطاط الى لعب دور اعده مرذولًا ! ولكن مصلحة البيت تتطلب ان أكون هادئة وصارمة كتمثال العدالة ، ومع ذلك، فانا ايضاً لي نفس قابلة الاتساع ورؤوم .

فقلت لها :

ـ لماذا لا تنتفعي بهذا التأثير لتصبحي مالكة له لتسوسيه ؟

ـ لو تعلق الامر بي وحدي لما عرفت ان اتغلب على صمته الغليظ ، المعارض طوال ساعات بكاملها لبراهيني الصحيحة ، ولا ان اجيب على ملاحظات لا منطق فيها ، على ثرثرة طفل . فأنا لا املك الشجاعة ضد الضعف ولا ضد الطفولة ، فهما يستطيعان ضربي دون ان اقاومهما ؛ قد اقاوم القوة بالقوة ، لكن لا طاقة عندي ضد اولئك الذين اشكو منهم . واذا اقتضى الامر ان اعارض مادلين بشيء لأنقذها فاني اموت معها . فالشفقة ترخي عروقي واعصابي . لذلك صرعتني الهزات العنيفة طوال السنوات العشر ؛ والآن فما من شيء يجدد قوة الحس عندي التي كثيراً ما هوجمت . وتعوزني احياناً الحمية التي ساعدتني على

صد الزوابع. نعم، احياناً انا مغلوبة. اني سأهلك بسبب عدم الراحة وحمامات البحر التي اغمس فيها اعصابي. ان السيد دي مورتسوف سيقتلني وسيموت بموتي.

— لماذا لا تتركين كلوشيغورد لبضعة اشهر؟ ولماذا لا تذهبين الى شاطىء البحر مصحوبة بولديك؟

— اولاً، يعتقد السيد دي مورتسوف انه يموت اذا ابتعدت عنه، ومهما حاول الا يصدق وضعيته، فانه يشعر بها. الرجل والمريض يلتقيان فيه، طبيعتان مختلفتان توضح متناقضاتهما الكثير من الغرائب! ثم انه على حق في ان يضطرب، فكل شيء يسير هنا الى الاسوإ. قد ترى فيّ ام العائلة المهتمة بحماية اطفالها من الحدأة التي تحوم فوقهم. انها مهمة مهلكة ناهيك بالاعتناءات التي يتطلبها السيد دي مورتسوف الذي يسأل دائماً: — اين السيدة؟ وليس هذا بشيء. فأنا ايضاً المؤدبة لجان والمربية لمادلين. وليس هذا بشيء ايضاً! فأنا مديرة اعمال ووكيلة املاك. وستعرف يوماً مدى اقوالي حين تعلم ان

استثمار ارضٍ هو من اتعب الاعمال هنا. عندنا القليـــل من الدخل النقدي، ومزارعنا تزرع مناصفة، وهي طريقة تحتاج رقابـــة مستمرة. علينا ان نبيع بأنفسنا حبوبنا وماشيتنا ومحصولاتنا على اختلافها. ولنا مزاحمون هم مزارعونا الذين يتواطأون مع المستهلكين في الحانة. ويحددون الاثمان بعد ان يبيعوا غلتهم اولًا. ولو شرحت لك صعوبات زراعتنا الكثيرة لأضجرتك. ومهما بلغ اخلاصي فاني لا استطيع السهر على منع فـــلاحينا من اصلاح اراضيهم الخاصة بسمادنا؛ ولا استطيع الذهاب لأرى اذا كان وكلاؤنا لا يتواطأون معهم عند قسمة المحصول، ولا ان اعرف الفرصة المناسبة للبيع. لو جئت تفكر بالقليل مما عاناه السيد دي مورتسوف، وبالعذاب الذي رأيتني أقاسيه لأضطره الى الاهتمام بأعماله، لأدركت ثقل حملي واستحالة انزاله عن كاهلي ولو لحظة. انني لو غبت لأفلسنا، فما من احد يصغي اليه؛ وفي معظم الاوقات تتناقض اوامره؛ ومع ذلك فليس هناكَ من يحبه لانه كثير التوبيخ وكثير الاستبداد؛ ثم انه، كجميع الضعفاء، يصغي بسهولة الى من هم ادنى منه

ليوحي حوله المودة التي توحد العائلات . لو ذهبت فما من خادم يبقى هنا ثمانية ايام . انت ترى جيداً كيف انــــني مرتبطة بكلوشيغورد كما ترتبط تلك الباقات الرصاصية بسطوحنا . ليس لي ما أخفيه عنك ايها السيد، وكل هذه الناحية تجهل اسرار كلوشيغورد، اما انت فصرت تعرفها . لا تقل عنها إلا خيراً، وستنال اعتباري وامتناني . ـ اضافت ذلك بصوت ملطّف ـ وبهذا الثمن تستطيع العودة دائماً الى كلوشيغورد وستجد فيها قاوباً صديقة .

فقلت :

ـ ولكن، اني لم اتعذب ابداً ! انت وحدك ...

فأجابت مطلقةً العنان لتلك الابتسامة التي تذيب الصوّان :

ـ كلا ! لا تدهش من هذه المسارة، انها تريك الحياة كما هي، وليس كما تجعلك مخيلتك تتمناها . ان لنا جميعاً اخطاءنا ومزايانا. ولو كنت تزوجت احد المبذرين لكان افلسني . ولو تزوجت احد

الشبان المشتعلين الشهوانيين لنال اعجاب النساء، فما عرفت كيف احتفظ به، ولكان تركني، ولكنت متُّ غيرة. انا غيورة! — قالت ذلك بنبرة من الحماس تشبه هزيم الرعد في عاصفة مارة! — ايه، نعم، ان السيد يجني طاقته؛ وكل ما في قلبه من محبة يسكبها على قدمي، كما سكبت المجدلية ما بقي من عطرها على قدمي المخلص. صدقني! وحياة الحب شذوذ مشؤوم عن الناموس الارضي؛ ولا زهرة تفنى. وللمسرات الكبيرة غد سيّىء حين يكون لها غد. والحياة الحقيقية هي حياة ألم مبرح: ونجد صورتها في نبتة القراص هذه الآتية الى اسفل السطح، والتي تبقى خضراء على فرعها دون شمس. وهنا، كما في بلاد الشمال، تلتمع في السماء ابتسامات نادراً ما تكون حقيقية، لكنها تدفع الكثير من الهموم. ثم ان النساء اللواتي هن امهات فقط، الا يرتبطن بالتضحيات اكثر مما يرتبطن بالمسرات؟ هنا اجتذب إلي الزوابع التي اراها على اهبة الانقضاض على الناس وعلى ولدي، وانا اغيّر اتجاهها بعاطفة لا أدري كنهها تمنحني قوّة خفية. ان الاستسلام في المساء يهيّىء

دائماً استسلام الغد. ومع ذلك فلا يتركني الله دون أمل. واذا كانت صحة ولديّ سببت لي يأساً في بادىء الامر فصحتهما اليوم تتحسن كلما تقدما في العمر. وبعد، فان منزلنا قد أصلح، والثروة ترممت. ومن يدري فقد تكون شيخوخة السيد سعيدة بسببي؟ صدّقني! فالكائن الذي يمثل امام القاضي الاكبر، وبيده سعف اخضر، معيداً اليه اولئك الذين لعنوا الحياة وقد انفرجت همومهم، ان هذا الكائن يحول آلامه الى نعيم. واذا كانت آلامي تخدم سعادة العائلة، فهل هي حقيقةً آلام؟

فقلت لها:

ـ نعم، ولكنها كانت ضروريةً كما كانت آلامي لتجعلني أقدر قيمة مذاق الثمرة الناضجة في صخورنا؛ والآن الا يمكن أن نذوقها معاً؟ ألا يمكن أن نؤمن بالمعجزات؟ هذه السيول من المحبة التي تغمر النفوس، هذا النسغ الذي يعيد الحياة الى الاوراق الصفراء. إذن فالحياة لا تزن شيئاً، وهي ليست لنا. يا إلهي! ألا تسمعينني؟..

وتابعت كلامي مستعملًا اللغة الصوفية التي عودتنا عليها ثقافتنا الدينية :

ـ أنظري في أي سبلٍ مشى الواحد منا نحو الآخر . وأي جاذبٍ سار بنا على أوقيانوس المياه المرة ، نحو ينبوع الماء العذب الجاري على حضيض الجبال على رملٍ مزينٍ بالتبر ، بين ضفتين خضراوين مزهرتين ؟ ألم نتبع نفس النجم كالمجوس ؟ ها نحن أمام المذود حيث يستيقظ طفل إلهي سيريش سهامه في جبهة الاشجار العارية ، ويحيي العالم بصرخاته الفرحة ، ويجعل للحياة طعماً بمسرات لا تنتهي ، ويعيد الى الليالي نعاسها وللنهارات فرحها الشديد . ومن كان يعقد كل سنة عقداً جديدة بيننا ؟ ألسنا أكثر من أخٍ وأخت ؟ لا تحلّوا أبداً ما عقدته السماء . والآلام التي تتحدثين عنها كانت الحبة التي فاضت أمواجاً بيد الزارع لتطلع الحصاد المذهب بأجمل شمس . أنظري ! أنظري ! ألا نذهب معاً لنلتقطها قشةً قشة ؟ أية قوة فيّ جعلتني أجرؤ على ان أكلمك هكذا ! جاوبيني اذن ، وإلا فلن أعود الى اجتياز الأندر .

فقالت مقاطعةً بصوت حازم :

ــ لقد جنبتني كلمة «حب» ولكنك تحدثت عن عاطفة أجهلها وليس مسموحاً لي بها . أنت ولد . واغفر لك مرةً أخرى ، ولكن لآخر مرة . اعلم أيها السيد ان قلبي ثمل بالأمومة ! وأنا لا أحب السيد دي مورتسوف بدافع الواجب الاجتماعي ، ولا بدافع حساب الغبطات الابدية الممكن ربحها ؛ بل بعاطفة لا تقاوم تربطه الى كل عروق قلبي . هل كنت مرغمة على الزواج؟ لقد صممت عليه بسبب عطفي على منكودي الحظ . أليس على النساء أن يشفين آلام الزمن ويعزين أولئك الذين يركضون على السياج ويعودون مثخنين بالجراح؟ ماذا أقول لك؟ اني أشعر بسرور أناني حين أراك تسليه : أليست هذه هي الأمومة الطاهرة . ألم يرك اعترافي إذن ، وبشكل كافٍ ، الاولاد «الثلاثة» الذين يجب ألا أخطئ بحقهم ، بل يجب أنْ أمطرهم بالندى الشافي ، وأضيء لهم نفسي دون أن أترك أي قطعة منها تفسد؟ لا تفسد حليب أم ! ولا تكلمني أبداً هكذا مهما كانت الزوجة معصومة فيَّ . وإذا لم تحترم هذا الدفاع

الكثير البساطة فانني انذرك ان مدخل هذا البيت سيقفل في وجهك الى الابد . كنت أؤمن بصداقات طاهرة، بأخوة طوعية أكثر متانةً من الاخوة المفروضة . ضلال ! كنت أُريد صديقاً لا يكون قاضياً ، صديقاً يصغي إلي في لحظات الضعف هذه التي يكون فيها الصوت الموبخ صوتاً مميتاً ، صديقاً قديساً لا أخاف معه شيئاً . ان الشباب نبيل دون أكاذيب ، خليق بالتضحيات ، نزيه : لقد ظننت حين رأيتك أن هناك مقصداً من مقاصد السماء، وأعترف بذلك ؛ ظننت ان هناك نفساً ستكون لي وحدي كما ان الكاهن هو للجميع . قلب يكون باستطاعتي أن أبوح له بآلامي حين تطفح ، وأصرخ حين لا أستطيع منع صراخي ، وأكتمها اذا ظللت في التهامها . وبهذا فإن وجودي الثمين جداً بالنسبة لهؤلاء الاولاد يمكن أن يمتد الى اليوم الذي يصبح فيه جاك رجلًا . ولكن ألست كثيرة الانانية في هذا ؟ وهل يمكن أن تكرر لور بترارك ؟ انني مخدوعة . فالله لا يريد ذلك . وعلي أن أموت في مركزي كالجندي الذي لا صديق له . ان معرّفي خشن صارم ؛ و ... خالتي توارت .

وخرجت من عينيها دمعتان كبيرتان أنارهما شعاع القمر ، تدحرجتا على خديها وبلغتا الاسفل ؛ ولكني مددت يدي في الوقت المناسب لالتقاطهما ، لاشربهما بنهم وورع أثارته هذه الكلمات الموقعة سابقاً بعشر سنوات من الدموع الخفية ، وبحساسيةٍ مستنفدة ، واعتناءات مستمرة ، وذعر دائم ، وببطولة هي أسمى ما في جنسك ! وتطلعت إلي في حمق ممزوج بلطف ، فقلت لها :

ـ هذا هو أول وأقدس اتحاد في الحب . نعم ، لقد جئت اساهم في آلامك ، وأتحد مع نفسك كما نتحد بالمسيح حين نشرب جوهره الإلهي . ان الحب بدون أمل هو أيضاً سعادة . آه ! أي امرأةٍ على وجه الارض تستطيع أن تسبب لي فرحاً عظيماً كهذا الذي جاءني من تنشق هذه الدموع ! لقد قبلت بهذا العقد الذي يتمخض لي عن عذاب . إني أستسلم لك دون أي غرض ، وسأكون ما تريدين أن أكون .

فأوقفتني بإشارة ، وقالت بصوتها العميق :

-- إني أقبل بهذا الميثاق على ألاّ تشد الخيوط التي تربط بيننا أبداً .

فقلت لها :

ــ لقد منحتني القليل ولكني استحق أن أحصل على الكثير.

فأجابت مظهرة كآبة الشك :

ــ لقد بدأت بالحذر .

ــ كلا ، بل بمتعةٍ طاهرة . اسمعي ! أريد لك اسماً لم يكن لأحد ، كالعاطفة التي نذرنا نفسينا لها .

فقالت :

ــ هذا كثير ، ولكني لست صغيرة كما تظن . فالسيد دي مورتسوف يدعوني بلانش . وهناك شخص وحيد في العالم أحببته أكثر من الجميع، خالتي المحبوبة ، كانت تدعوني هنرييت. إذن فسأعود عندك هنرييت .

فأخذت يدها وقبلتها ، فتركَتها لي بتلك الثقة التي تجعل المرأة متفوقة علينا . الثقة التي ترهقنا . واتكأت على الحاجز القرميدي وتطلعت الى الأندر وقالت :

ـ ألم تكن مخطئاً يا صديقي بسيرك الى نهاية المهمة من أول وثبة ؟ لقد استنفدت ، باندفاعك القلبي الاول ، الكأس المقدمة اليك بسلامة نية . ولكن العاطفة الصادقة لا تنقسم ، فهي اما أن تكون كاملة أو لا تكون .

ثم قالت بعد فترة صمت :

ـ السيد دي مورتسوف ، فوق كل شيء ، وفيٌّ أنوف . ومن الممكن أن تحاول، لأجلي ، نسيان ما قال ؛ واذا كان لا يدري شيئاً عن ذلك فسأعلمه غداً . لا تظهر في كلوشيغورد لبعض الوقت فإن اعتباره لك سيزداد . وسيذهب اليك بنفسه نهار الاحد القادم عند خروجه من الكنيسة ؛ اني أعرفه ، فسيصلح أخطاءه ، وسيحبك لأنك تصرفت حياله كتصرفك حيال رجلٍ مسؤول عن أعماله وأقواله .

ــ خمسة أيام دون أن أراك ، دون أن أسمع صوتك !..

فقالت :

ــ لا تضع أبداً هذه الحرارة في ما تقوله لي من كلام .

درنا حول السطيحة مرتين بصمت . ثم قالت بلهجة آمرة أثبتت لي انها امتلكت نفسي :

ــ لقد تأخرنا فلنفترق .

أردت أن أقبل يدها ، فترددت ، ثم مدتها إلي وقالت بصوت فيه رجاء :

ــ لا تأخذها إلا حين أقدمها لك ، دع لي حرية التصرف والا كنت ملكاً لك ، وهذا ما لا يجب أن يكون.

فقلت لها : وداعاً .

وخرجت من الباب الصغير في الاسفل وقد فتحته لي. وبعد أن أغلقته عادت وفتحته ، ومدت يدها إلي قائلة :

– بالحقيقة كنت كثير الطيبة هذا المساء ، فقد بعثت العزاء في مستقبلي كله ، خذ يا صديقي خذ . . .

فقبلت يدها تكراراً ؛ وحين رفعت رأسي رأيت الدموع في عينيها . وصعدت الى السطيحة وتطلعت إلي برهة خلال المرج. وحين أصبحت على طريق فرابسل ، رأيت ثوبها الابيض المضاء بالقمر ؛ وبعد لحظات أضاء النور غرفتها ، فقلت لنفسي :

– اوه يا هنرييتي ! لك الحب الاطهر الذي لم يتألق مثله على هذه الارض ! . .

بلغت فرابسل وانا التفت ورائي عند كل خطوة. وشعرت في داخلي بانشراح فائق الوصف لا ادري كنهه . فقد انفتح أخيراً مقلع هام للتفاني كبير في قلب فتى ، ظل عنده قوة مجمدة لمدة طويلة ! .. لقد اصبحت مكرساً ، منذوراً ، كالكاهن الذي يندفع في حياة جديدة، بخطوة واحدة. ان كلمة «نعم يا سيدتي» البسيطة جعلتني التزم في ان احفظ لنفسي وحدي ، وفي قلبي ، حباً لا يقاوم ، وان لا أسيء استعمال الصداقة فأقود هذه

المرأة بخطى صغيرة الى الحب . ان جميع العواطف النبيلة المستيقظة جعلت اصواتها المشوشة تسمع في داخلي . وقبل ان اجد نفسي في حيز الغرفة الضيق ، اردت ان ابقى ، بدافع اللذة ، تحت السماء المبذورة بالنجوم لأسمع في داخلي مرة ثانية هديل اليمام المجروح ، والنبرات البسيطة لتلك المناجاة الصادقة ، واجمع من الهواء تبخرات هذه النفس التي يجب ان تأتي كلها اليّ . كم بدت لي كبيرة هذه المرأة بنسيانها العميق لي ، وبوفائها للكائنات المجروحة ، الضعيفة او المتألمة . وباخلاصها الملطف للقيود الشرعية . كانت هناك ، مشرفة على محرقة القديسة والشهيدة ! اعجبت بوجهها الذي بدا وسط الظلمات ، حين ظننت انني عرفت معنى كلامها ، معنى غامضاً جعلها بنظري كاملة السمو . هل ارادت ان أكون لها كما هي لعالمها الصغير ؟ ام ان تستخرج مني قوتها وعزاءها . وبهذا تضعني في دائرتها على مستواها او أكثر علواً ؟ يقول بعض بنّائي العالم الجريئين ان الكواكب تتبادل الحركة والنور . وقد رفعتني هذه الفكرة الى مرتفعات اثيرية . فوجدت نفسي في سماء احلامي القديمة ، وفسرت آلام طفولتي بالسعادة الواسعة التي اسبح فيها .

عبقريات مطفأة بالدموع ، وقلوب مجهولة القدر ، وقديسات كلاريس هارلو مجهولات ، واولاد غير معترف بهم ، ومحكومون بالموت ابرياء ، انتم كلكم يا من دخلتم الى الحياة من هذه القفار ، انتم يا من طالعتكم في كل مكان الوجوه الباردة والقلوب المعلقة ، والآذان المسدودة ، لا تشتكوا ابداً ! فانتم وحدكم تستطيعون معرفة لا نهاية الفرح عندما ينفتح لكم قلب وتسمعكم أذن ، وتجيبكم نظرة . إن يوماً واحـــداً يمحو الايام السيئة . والآلام والتأملات ، واليأس ، والكآبات التي مضت ولم يغيبها النسيان هي خيوط ترتبط بها النفس بالنفس التي باحت . حسناء رغباتنـا المكبوتـــة امرأة ترث زفرات وغراميات ضائعة ، فتعيد الينا جميع العواطف المخدوعة مضخمة، وتفسر الاحزان السابقة بانهـا النصيب الذي يتطلبه القدر للغبطة الابدية، وتعطيه هذا النصيب يوم عقد خطبة الروح . الملائكة وحدهم يقولون الاسم الجديـد الذي يجب ان يطلق على هذا الحب المقدس ، كما أنـكم ، أنتم وحدكم ، يا اعزائي الشهداء تعرفون ما آلت اليـــه السيدة دي مورتسوف بالنسبة الي ، انا البائس الوحيد !

هذه الحادثة جرت يوم الثلاثاء ، وقد انتظرت حتى الاحد دون ان اجتاز ألأندر في نزهاتي. وأثناء هذه الأيام الخمسة بلغت كلوشيغورد احداث عظيمة . فقد تلقى الكونت براءة بتعيينه ماريشال المعسكر ، وصليب القديس لويس[1] ، ومرتباً قيمته اربعة الآف فرنك. والدوق دي لينانكور – جيفري المعين برتبة امير فرنسة استرجع ملكية غابتين واستأنف خدمته في البلاط ، وعادت زوجته الى املاكها غير المبيعة ، وكانت جزءاً من املاك التاج الامبراطوري . وبهذا اصبحت الكونتس دي مورتسوف واحدة من اثرى الوارثات في مقاطعة الماين وكانت امها قد جاءت تحمل اليها مئة الف فرنك من مداخيل جيفري ، وكذلك مجمل بائنتها التي لم تكن قد دفعت ، والتي لم يتحدث الكونت عنها ابداً رغم ضائقته . ان سلوك هذا الرجل في امور الحياة الخارجية يشهد انه مثال في النزاهة والتجرد . وبضم ما

---

(١) وسام انشأه لويس الرابع عشر مخصص للضباط الكاثوليك. الغته الثورة الفرنسية واعاده لويس الثامن عشر . والغي نهائياً علم ١٨٣٠ .

اقتصده الى هـــذا المبلغ استطاع ان يشتري عقارين مجاورين يدرّان دخلًا سنويًا يقارب التسعة آلاف ليرة. ولما كان على ابنه ان يحل محل جده في الامارة فقد فكر ان يعين له ارضاً ذات لقب شرف تتألف من ثروة العائلتين الارضية دون ان يلحق الضرر بمادلين التي سيؤمن لها انعام الدوق دي ليناكور زواجاً مناسباً. هذه الترتيبات وهذه السعادة القت شيئاً من البلسم على جراح المهاجر . ووجود الدوقة دي ليناكور في كلوشيغورد كان حدثاً في البلاد . لقد فكرت بكثير من الالم ان هـــذه المرأة كانت سيدة عظيمة ، وشاهدت عندئـــذٍ في ابنتها روح طائفة ذات امتيازات حجبت عن عيني نبـــل عواطفها . من اكون ، انا الفقير الذي لا مستقبل لي سوى شجاعتي ومواهبي ؟ إني لم أفكر بنتائج عودة الملكية عليّ ولا على الآخرين. ونهار الاحد ، اذ كنت في الكنيسة مـــع السيد والسيدة دي شيسل والاب دي كيليس ، القيت من مقعدي نظرات جشعة عـــلى مقعد آخر جانبي تجلس عليه الدوقة وابنتها والكونت والولدان. وقبعة القش الـــتي كانت تغطي معبودتي لم تتحرك ، وقد دل

نسياني نفسي على تعلقي بها اكثر من الماضي كله . وهنريت دي لينانكور العظيمة هذه ، التي اصبحت الآن عزيزتي هنريت التي اريد ان انور حياتها ، كانت تصـــلي بحرارة نفذت الى قلبي . وكان الايمان يضفي على هيئتها شيئاً من التورط والخضوع يجعلها كتمثال ديني .

ووفقاً لعادة الخورنيات في القرية وجب ان تتلى صلاة المساء بعيد القداس . وعند الخروج مـن الكنيسة كان من الطبيعي ان تعرض السيدة دي شيسل على جيرانها قضاء ساعتي الانتظار في فرابسل بدلًا من اجتياز الاندر والمرج مرتين في ذلك الطقس الحار . وكان الطلب مقبولًا . فقدم السيد دي شيسل ذراعه للدوقة، والسيدة دي شيسل قبلت ذراع الكونت، وقدمت ذراعي للكونتس ، وللمرة الاولى شعرت بهذه الذراع النضرة على خاصرتي. واثناء العودة من القرية الى فرابسل ، عبر غابات ساشيه حيث النور المتسرب من خلال الاوراق يخلق على رمل الممرات تلـــك الايام الجميلة التي تشبه امسيات مرسومة ، شعرت بكبرياء وبافكار سببت لي ارتعاشات عنيفة . وقد قالت

لي بعد بضـــع خطوات مشيناها بالصمت الذي لم اجرؤ على قطعه :

ـ ما بك ؟ ان قلبك ينبض بسرعة .

فقلت لها :

ـ لقد علمت بما حدث لـكم من احداث سعيدة ، وانتابتني مخاوف غامضة كأولئك الذين يحبون بقوة . وبعد الا تفسد هذه العظمة صداقتك ؟

فأجابت :

ـ انا ؟ ... فكرة كهذه ايضاً ولن احتقرك ، بل كنت انساك الى الابد .

وتطلعت اليها وانا فريسة نشوة انتقلت ولا بد إليّ منها .

ـ اننا نستفيد من مغانم قوانين لم نحركهـــا ولم نطلبها ، ولكننا لن نكون مستجدين ولا جشعين؟ ومع ذلك فأنت تعلم

انا لا نستطيع الخروج من كلوشيغورد ، لا السيد مورتسوف ولا انا . وبناء على نصيحتي فقد رفض القيادة التي هي من حقه في البيت الاحمر[1] . ويكفينا ان لأبي منصبه !

ثم قالت وهي تبتسم بمرارة :

ـ ان تواضعنا المفرط خدم ولدنا . فالملك ، الذي يشغل والدي وظيفته بقربه ، قال بكثير من اللطف انه سيشمل جاك بالانعام الذي ابيناه . وتربية جاك التي يجب ان نفكر بها هي الآن موضوع مناقشة هامة ؛ انه سيمثل بيتين ، بيت ليناكور وبيت مورتسوف . ولا يمكن ان يتملكني الطمع الا لأجله ، هذه اذن همومي المتزايدة . وجاك ليس فقط يجب ان يعيش ، بل يجب ايضاً أن يصبح جديراً باسمه، وهما طريقتان تتعارضان . اني حتى الآن اكفي لتربيته اذا قسنا الاعمال الى قواه، ولكن فيما بعد أين أجد المؤدب الذي يلائمني ؟ وفيما بعد ايضاً وأيضاً ،

(١) فرقة من الدرك تابعة لبيت الملك ولباس افرادها احمر.

اي صديق سيحفظه لي في باريس المخيفة التي كل شيء فيها شرك للنفوس وخطر على الجسد ؟

ثم قالت بصوت متأثر :

– من لا يستشف فيك احد تلك العصافير التي يجب ان تسكن الاعالي إذا نظر الى عينيك وجبهتك ؟ سر في اندفاعك وكن عراب ولدنا العزيز بعد حين . اذهب الى باريس . وإذا لم يساعدك أخوك او ابوك فان عائلتنا ، وعلى الخصوص امي التي تتمتع بعبقرية الاعمال ، ستكون بالتأكيد ذات نفوذ عظيم؛ إستفد من مكانتنا ! وحينئذٍ لن يعوزك سند ولا معونة في السلك الذي ستختاره ! ضع إذن فائض قواك في مطمع نبيل .

فقلت لها مقاطعاً :

– لقد اصغيت اليك ، ومطمعي سيصبح سيداً لي . انا لست بحاجة لهذا لأكون لك بكليتي. كلا ، لا اريد ان اكافأ على حكمتي هنا بمكانة انالها هناك . سأذهب ، وسأكبر وحدي ، بنفسي . إني أقبل كل شيء منك ، اما من الآخرين فلا .

فقالت متمتمة ولكن دون ان تعرف كيف تخفي ابتسامة الرضا :

ـ صبيانيات !

فقلت :

ـ ومع ذلك فقد نذرت نفسي . وبعد تأمل وضعيتنا فكرت ان أرتبط بك بأربطة لا يمكن ان تحل أبداً .

فارتعشت قليلاً ووقفت تنظر الي، وقالت وقد تركت من يسبقوننا واحتفظت بولديها :

ـ ماذا تريد ؟

فأجبت :

ـ أيه ! حسناً ! اخبريني بصراحة كيف تريدين ان احبك ؟

ـ أحببني كما أحبتني خالتي اني باسمها منحتك الحق بان تدعوني بالاسم الذي اختارته من بين أسمائي .

ـ سأحب اذن دون امل ، باخلاص كامل . أيه ! حسناً ، نعم ، سأفعل ، في سبيلك ما يفعله الانسان في سبيل الله . الم تطلبي ذلك ؟ سأدخل احد الاديرة واخرج منه كاهناً ، وسأربي جاك. سيكون ولدك جاك أنا آخر : فهم سياسي ، فكر ، حمية ، صبر ، سأعطيه كل شيء . وهكذا ابقى بقربك دون ان يشتبه احـــد بحبي الذي يصبح في الدين كصورة من الفضة في وعاء من البلور . وليس عليك ان تخشي شيئاً من تلك الحرارات المتطرفة التي تستولي عـــلى الانسان والتي جعلتني ذات مرة في الماضي اغلب عـــلى امري . سأحرق نفسي في اللهب واحبك حباً مطهراً .

فشحب لونها وقالت بكلمات متعجلة :

ـ لا ترتبط يافليكس بأربطة تكون ذات يوم حائلًا دون سعادتك . اني اموت من الغم لكوني سبب هذا الانتحار . ايها الطفل ، هل اليأس في الحب هو دعوة الى الحياة الرهبانية اذن؟ انتظر تجارب الحياة لتحكم على الحياة ؛ اني اريد ذلك ، وآمر

به. لا تتزوج من الكنيسة ولا من امرأة، لا تتزوج بأي طريقة، اني امنعك من ذلك . إبق حراً . انت في الحادية والعشرين من عمرك ، لا تكاد تعرف ما يخبىء لك المستقبل . يا الهي ! هل اخطأت في حكمي عليك ؟ ومع ذلك فانا اعتقد ان شهرين يكفيان لمعرفة بعض النفوس .

فقلت لها وعيناي تقذفان البريق :

– اي املٍ لك ؟

– يا صديقي ، اقبل معونتي ، ارتفع ، اجمع ثروة وستعرف ما هو املي .

واخيراً قالت كأنها تفشي سراً :

– لا تترك يد مادلين التي تمسك بها في هذه اللحظة .

فقلت : – مادلين ! ابداً .

القتنا هاتان الكلمتان في صمت مليء بالاضطرابات . وكانت

نفسانا فريسة هـذه الانقلابات التي تحدثها وتترك فيها طابعاً ابدياً. كنا على مرأى من باب خشبي يدخل منـــه الى حديقة فرابسل ؛ حيث لا يزال يبدو لي اني ارى الركيزتين المتهدمتين، وقد غطتها النباتات المعرشة والطحالب والاعشاب والعوسج. وفجأة مرت في دماغي فكرة كالسهم ، هـــي موت الكونت ، فقلت لها :

ـ اني افهمك .

فأجابت بنبرة جعلتني ارى اني عرضت عليها فكرة لم تخطر لها ببال :

ـ هذا مدعاة للسعادة .

فانتزعت طهارتها مني دمعة اعجاب ، جعلتها انانية الحب كثيرة المرارة . وبعودتي الى نفسي فكرت انها لم تحبني حباً كافياً لتتمنى حريتها . وما دام الحب يتراجـــع امام جريمة فيبدو لنا ان له حـــدوداً ، ويجب ان يكون الحب لا نهائياً . وشعرت بانقباض شديد في قلبي ، وقلت مفكراً :

– انها لا تحبني .

وحتى لا ادعها تقرأ ما في نفسي قبّلت شعر مادلين ، وقلت للكونتس هادفاً الى متابعة الحديث :

– اني اخاف امك .

فأجابت بحركة ملأى بالصبيانيات :

– وانا ايضاً. ولكن لا تنس ان تدعوها دائماً السيدة الدوقة وان تكلمها بصيغة الغائب . ان الشبيبة الحالية فقدت عادة هذه الشكليات المهذبة، وعليك ان تستعيدها ؛ افعل ذلك من اجلي. ومع ذلك فان من حسن الذوق احترام النساء مهما كان عمرهن، والاعتراف بالميزات الاجتماعية دون وضعها موضع بحث. اليست الدرجات السامية التي تسبغها على الرتب الرفيعة المقرّرة هي الضمان لما انت تستحقه ؟ كل شيء متضامن في المجتمع . كان الكاردينال لاروفير ورافييل دوربان قوتين محترمتين في الماضي . انك رضعت حليب الثورة في مدارسك ، وافكارك

السياسية يمكن ان تتأثر بها ، ولكن حين تتقدم في الحياة فستتعلم كم ان مبادىء الحرية السيئة التحديد عاجزة عن خلق سعادة الشعوب . وقبل ان افكر ، كابنة لآل لينانكور ، بماهية الارستقراطية او بما يجب ان تكون ، فان حسي السليم كفلاحة يقول لي ان المجتمعات لا توجد الاّ بنظام متسلسل الرتب. انت في فترة من الحياة توجب عليك ان تحسن الاختيار ! كن من حزبك . ثم اضافت ضاحكة : وعلى الخصوص حين ينتصر .

تأثرت بشدّة من هذا الكلام الذي يختفي عمقه السياسي تحت حرارة المودة . انه مزيج يكسب النساء قدرة على الاغواء ؛ وجميعهن يعرفن ان يضفين اشكال العاطفة على البراهين الحادة . وبدا ان هنرييت ، في رغبتها بتبرير اعمال الكونت ، استشفت الانعكاسات التي يمكن ان تنفجر في نفسي في اللحظة التي رأيت فيها لأول مرة مفعول الزلفى . فالسيد دي مورتسوف ، الملك في قصره ، المحاط بهالته التاريخية ، اتخذ في نظري ابعاداً عظيمة ، واعترف اني دهشت بشكل غريب من المسافة التي وضعها بين الدوقة وبينه ، بأساليب فيها الكثير من الافراط في المجاملة. ان

للعبد صلفه ، فهو لا يريد ان يطيع الآّ اكبر المستبدين؛ وشعرت بالمهانة لرؤيتي انحطاط هذا الذي جعلني ارتجف بسبب امتلاكه كل حبي . وهـــذه الحركة الداخلية جعلتني ادرك عذاب النساء اللواتي اقترنت نفوسهن الكريمة بنفس رجلٍ يقمن بدفن جبنه كل يوم . والاحترام حاجز يحمي الكبير والصغير على السواء ، وكل من جهته يستطيع ان يرى نفسه مواجهة . كنت احترم الدوقة بسبب صغر سني ، ولكن حين كان الآخرون يرون فيها دوقة فاني كنت ارى فيها ام هنرييت وأضع شيئاً من القداسة في احترامي. دخلنا الى باحة فرابسل الكبرى حيث وجدنا رفاقنا. وقدمني الكونت دي مورتسوف بكثير من اللطف الى الدوقة التي تفحصتني ببرودة متحفظة . كانت السيدة دي لينانكور آنذاك في السادسة والخمسين من سنها ، شديدة المحافظة وذات تصرفات نبيلة . وحين رأيت عيناها بزرقتها القاسية ، وصدغيها المخططين ، ووجهها الهزيل المنقوع ، وقامتها المهيبة المستقيمة ، وحركاتها القليلة ، وبياضها الاشقر الذي نجده وضاءً في ابنتها ، تعرفت الى العرق البارد الذي انبثقت منه امي ، بالسرعة التي

يتعرّف بها عالم المعادن الى الحديد السويدي. كانت لغتها لغة البلاط القديم. وكانت تلفظ oit بشكل ait، وتقول frait بدلًا من froid و porteux بدلًا من porteurs. لم اكن متملقاً ولا متكلفاً الرصانة بل تصرفت جيداً بحيث همست الكونتس في اذني ونحن ذاهبون الى الصلاة:

ـ انت في غاية الاتقان.

وجاء الكونت اليّ واخذ يدي وقال:

ـ لسنا غاضبين، يافليكس؟ اذا ظهر مني بعض الحدّة فستغفرها لصديقك الكبير. سنبقى هنا لتناول الطعام على الارجح، وسندعوك نهار الخميس، عشية رحيل الدوقة. وانا ذاهب الى تور لأنهي فيها بعض الاعمال، لا تهمل كلوشيغورد. انك تعرفت الى حماتي واحثك على الاحتفاظ بها، فصالونها في ضاحية سان جرمان قدوة للناس، ولها تقاليد الطبقة العظمى، وهي ذات ثقافة واسعة،وتعرف شعارات الشرف الخاصة بأول وآخر نبيل في اوروبا.

ان ذوق الكونت السليم، وربما نصائح عبقريته البيتية، ظهرت في الظروف الجديدة التي وضعه فيها نجـــاح قضيته. لم يكن تهذيبه متفطرساً ولا جارحاً، كان بدون نخفخة، وكانت الدوقه غير متظاهرة بالحماية. اما السيد والسيدة دي شيسل فقد قبلا الدعوة الى الطعام نهار الخميس القادم شاكرين. يبدو اني رقت للدوقة فقد اعلمتني نظراتها انها تتفحّص فيَّ رجلاً كلمتها ابنتها عنه. وحين عدنا من الصلاة استفسرت عن عائلتي، وسألتني هل امتّ بصلة قربى الى احد افراد عائلة فاندنيس الذي يشغل وظيفة دبلوماسية. فقلت لها: — انه اخي. وحينئذٍ ابدت لي نصف مودتها. واعلمتني ان خالتي الكبرى المركيزة دي ليستومير المرمة هي من عائلة غراندلييه. واصبحت تصرفاتها مهذبة كما كانت تصرفـــات السيد دي مورتسوف يوم رآني لأول مرة. وفقدت نظرتها سمة التعالي التي يجعلك بها امراء الارض تقيس المسافة بينك وبينهم. ولم اكن اعرف شيئاً عن عائلتي. فأعلمتني الدوقة ان عمي الكبير، وهو كاهن كبير لا اعرف اسمه، كان عضواً في مجلس الشورى الخاص، وان اخي نال الترقية؛ واخيراً

فان ابي اصبح المركيز دي فاندنيس بموجب مادة في القانون الاساسي الذي لم اكن اعرفه بعد. وقلت للكونتس هامساً:

ـ انا لست الا شيئاً واحداً، مملوك كلوشيغورد.

وعودة الملكية تمت بسرعة اذهلت الاولاد الذين ترعرعوا في ظل العهد الامبراطوري. وهذه الثورة لم تكن شيئاً بالنسبة الي. فأقل كلمة وأبسط حركة من السيدة دي مورتسوف هي الحادث الوحيد الذي اعيره أهمية. كنت اجهل ما هو مجلس الشورى الخاص؛ ولم اكن أعرف شيئاً عن السياسة ولا عن امور العالم؛ ولم يكن لي اي مطمع إلا في ان أحب هنرييت أفضل مما احب بترارك لور. وهذه اللامبالاة جعلت الدوقة تعتبرني ولداً. وجاء كثير من الناس الى فرابسل، وكنا ثلاثين شخصاً على الطعام. اي نشوة تستولي على الشاب حين يرى ان المرأة التي يحبها هي اجمل الجميع، وأن تصبح محط الانظار الولهى، وأن يعلم انه الوحيد الذي يتلقى بريق عينيها المحتشم بطهارة ويعرف فوارق صوتها معرفة كافية ليجد في كلامها، الخفيف الساخر في الظاهر،

الادلة على تفكير ثابت ، حتى لو شعر في قلبه بغيرة آكلة من ذهول الناس . كان الكونت سعيداً لانه أصبح موضع الانتباه ، وكان لا يزال شاباً ، وأملت زوجته من جراء ذلك بعض التغير في خلقه ؛ وكنت أضحك مع مادلين ، وهي الشبيهة بالاولاد الذين يزح الجسم عندهم تحت ضغط الروح ، فقد جعلتني اضحك من ملاحظات مدهشة مليئة بروح السخرية دون خبث ، ولكنها لا توفر احداً . لقد كان ذلك النهار جميلًا . إنها كلمة ، انه أمل وُلِد في الصباح فجعل الطبيعة متألقة ، وها أنا سعيد لأن هنريت سعيدة .

وقالت لي في الغد : إن هذه السعادة خلال حياتها القاتمة الغائمة تبدو لها متناهية الحسن .

وكان من الطبيعي أن أقضي نهار الغد في كلوشيغورد ، لقد كنت مبعداً عنها طوال خمسة أيام . كنت متعطشاً لحياتي ، وكان الكونت قد ذهب الى تور منذ الساعة السادسة ليسجل عقود حقوقه . وقد نشب خلاف بين الام والابنة حول موضوع هام .

فالدوقة تريد ان تتبعها ابنتها الى باريس حيث تحصل لها على وظيفة في البلاط ويستطيع الكونت ان يشغل وظائف عالية إذا رجعت عن رفضها. ولكن هنرييت التي تظاهرت بأنها امرأة سعيدة لم تكن تريد ان تكشف لأحد، حتى ولا لقلب الأم، عن الآلام الرهيبة، ولا عن عجز زوجها. ولكي لا تنفذ الام الى سر بيتها، فانها ارسلت السيد دي مورتسوف الى تور، إذ كان عليه ان يتباحث مع كتاب العدل. لقد كنت انا وحدي، كما قالت، اعرف اسرار كلوشيغورد. بعد ان اختبرت الكونتس كم ان نقاء الهواء وزرقة السماء في هذا الوادي يهدئان من هيجان الروح أو من آلام المرض الموجعة، وما تأثير البقاء في كلوشيغورد على صحو ولديها، كانت تعارض برفض معلل تناهضه الدوقة، وهي امرأة متسلطة لم تشعر بالحزن ولا بالمهانة من زواج ابنتها غير الموفق. ورأت هنرييت أن أمها قليلة الاهتمام بجاك ومادلين، وهو اكتشاف رهيب! وكانت الدوقة تنهج نهجها بواسطة اعتبارات لا تقبل اي جواب، كجميع الامهات المعتادات على ممارسة استبدادهن على المرأة المتزوجة كما

كن يمارسنه عليها وهي لا تزال فتاة عزبـــة ؛ وكانت تتظاهر أحياناً بصداقة خادعـــة لتنتزع استحساناً لوجهات نظرها ، وتتظاهر حيناً آخر ببرودة لاذعة لتنال بواسطة الخوف ما لم تنله باللطف . وحين رأت أن جهودها لم تأتِ بالفائدة المرجوة اظهرت روح السخرية نفسها التي لاحظتها عند امي . وعرفت هنرييت في مــــدى عشرة أيام جميع المشاق التي يسببها للنساء الشابات التمرد الضروري لاقرار استقلالهنّ . وانتم الذين كان لكم ، لحسن حظكم ، افضل امهات لن تستطيعوا ادراك هذه الامور . ولتكوين فكرة عن هذا الصراع بين امرأة جافة ، باردة متبصرة ، طماعة ، وبين ابنتها الملأى بالطيبة ، العذبة ، النضرة التي لا تفسد أبداً ، عليكم ان تتصوروا الزنبقة ، التي ما فتىء قلبي يقارنها بها ، مسحوقة بدواليب آلة مصقولة الحديـــد. لم يكن لدى هذه الام شيء يتلاءم وابنتها. كانت لا تستطيع ان تدرك اية صعوبة من الصعوبات الحقيقية التي تضطر هذه الابنة ألا تستفيد من منافع عودة الملكية ، وان تستمر في حياة العزلة . كانت تعتقد بوجود شيء من الحب بين ابنتها وبيني .

وهذه الكلمة، التي استعملتها لتوضح شكوكها فتحت بين هاتين المرأتين مهاوي لن يملأها شيء. ومهما حاولت العائلات ان تعتني بإخفاء هذه الخلافات المتصلبة، فانفذ اليها ؛ تجد في معظمها جراحاً عميقة لا تشفى، تنقص العواطف الطبيعية : اما ان يكون هذا من العواطف الحقيقية المشفقة التي جعلها توافق الطباع خالدة والتي توجه للموت ضربة معاكسة لا تمحى آثارها السوداء ؟ واما احقاد دفينة تجمد القلب ببطء وتجفف الدموع يوم الوداع الابدي. هذه النفس المسكينة المعذبة بالأمس، والمعذبة اليوم، والمضروبة من الجميع حتى من ملاكيها المتعذبين الذين لم يكونا مذنبين لا بالآلام التي يتحملانها ولا بالتي يسببانها، كيف لا تحب هذا الذي لم يوجه اليها ضربة، والذي يريد ان يحيطها بسياج مثلث من الشوك ليقيها الزوابع، وكل احتكاك وجرح ؟ ولئن تعذبت من هذه المشادات فقد كنت سعيداً بها أحياناً شاعراً انها ستلتي بنفسها في قلبي، لأن هنرييت أسرّت الي بهمومها الجديدة. وقد استطعت حينذاك أن اقدر همومها في الألم، والصبر العزوم الذي عرفت ان تبديه. وكنت

كل يوم ازداد علماً بمعنى هـــذه الكلمات :
ـ احببني كما أحبتني خالتي .

وقالت لي الدوقة بنبرة قاسية ونحن على الطعام :

ـ اما لك إذن اي مطمع ؟

فأجبتها وأنا أرمقها بنظرة جدية :

ـ أشعر يا سيدتي ان لدي قوة تستطيع اخضاع العـــالم ؛ ولكني لم اتجاوز الواحدة والعشرين ، وأنا وحيد .

فنظرت الى إبنتها بدهشة . كانت تعتقد ان ابنتها أطفأت في نفسي كل طمع لتبقيني بقربها . إن إقامة الدوقة دي ليناكورد في كلوشيغورد فترة تعذيب دائم . وكانت الكونتس قد أمرتني بمراعاة اللباقة ، وكانت تخاف من قول يقال بنعومة فوجب التسلح بالمداجاة لارضائهـــا . وجاء الخميس الكبير ، وكان يوم احتفال مضجر ، انه من تلك الايام التى يكرهها العشاق المعتادون على الملاطفات اليومية المباحة ، والمعتادون على رؤية مقعدهم في

مكانه وسيدة البيت منصرفة اليهم بكليتها. ان الحب ينفر من كل ما عداه. وذهبت الدوقة للتمتع بأبهة البلاط وعاد كل شيء الى مكانه في كلوشيغورد.

كان من نتيجة خلافي التافه مع الكونت ان مكانتي تأصّلت اكثر من ذي قبل: صرت استطيع المجيء في كل لحظة دون اثارة اي حذر، وسابقات حياتي جعلتني ان امتدّ، كنبتة معرّشة، في النفس الجميـــلة حيث ينفتح امامي عالم العواطف المتبادلة الساحر. في كل ساعة، ومن لحظة الى اخرى، كان زواجنا الأخوي المؤسس على الثقة يزداد تلاحماً؛ لقد استقرّ كل منا في وضعيته: فالكونتس غلفتني بوقايات مرضعية، بأقمشة الحب الاموي البيضاء؛ بينما حبي، الملائكي بحضورها، يصبح وانا بعيـــد عنها أكّالًا، ملتهباً كحديدة محمّاة؛ احببتها حباً مزدوجاً كان يرشق الف سهم من الرغبة دورياً ويضيعها في السماء حيث تتلاشى في اثير لا يمكن اجتيازه. واذا ما سألتني لمـاذا بقيت ضمن معتقدات الحب الافلاطوني المخالفـــة للشريعة وانا شاب مليء بالميول الشديدة الحمية، فسأعترف لك انني لم اصبح

رجلًا بعد لأعذب هذه المرأة الدائمة الخوف من بعض المصائب تحل بولديها، المنتظرة دائماً انفجاراً او تغييراً عاصفاً في مزاج زوجها ؛ كانت تصدم به حين لا تكون مغمومة بسبب مرض جاك او مادلين ، وتجلس بجانب سرير احدهما حين يدعها زوجها، ابان هدوء ثورته، تأخذ قسطاً من الراحة. ان نبرة حادة تهز كيانها ، ومطلق رغبة تجرحها ؛ يجب ان اكون بالنسبة اليها حباً مقنعاً ، وقوة ممزوجة بالحنو ، اي كل ما كانت هي للآخرين. ثم اني سأقول لك ، انت المرأة ، ان في هذه الوضعية خدراً ساحراً ، ولحظات من الحلاوة الالهية ، والمسرات التي تلي التضحيات الخفية . كان ضميرها ناقلًا للعدوى ، واخلاصها الذي لا ينتظر مكافآت ارضية يفرض نفسه بديمومته ؛ وتلك التقوى الحارة الخفية المستعملة كرباط لفضائلها الاخرى ، تعمل في ما حولها كبخور روحي . ثم اني كنت صغيراً، صغيراً بما فيه الكِفاية لأحصر طبيعتي في القبلة التي كانت نادراً ما تسمح لي ان اطبعها على يدها ولم تكن تريد ان تعطيني سوى ظهر هذه اليد لا راحتها ، وهو حد تبدأ عنده اللذات الجسدية في نظرها . واذا

لم تعتنق نفسان بمثل هذه الحرارة فليس ثمة جسد ، اخضع بمثل هذه الشجاعة ولا بمثل هذا الانتصار . واخيراً تعرفت الى سبب هذه السعادة الطافحة . في مثل سني ، ليس ما يختلس قلبي ، ولا مطمع يجتاز مجرى العاطفة المتفلتة من قيودها كالسيل وكأنها موجة جارفة . نعم ، فيما بعد نحب المرأة في امرأة ؛ بينما نحب كل شيء في اول امرأة احببناها : اولادهـــا هم اولادنا ، بيتها بيتنا ، مصالحها مصالحنا ؛ مصيبتها مصيبتنا الكبرى ؛ نحب ثوبها واثاث بيتها ؛ ونغضب لرؤية قمحها المهراق اكثر مما نغضب حين نعرف ان اموالنا ضاعت ؛ نحن على استعداد لتوبيخ الزائر الذي يقطع علينا نوادرنا امام الموقد . ان هذا الحب المقدس يجعلنا نعيش في كائن آخر ، بينما ، فيما بعد ويا للاسف ! نجتذب حياة اخرى الى نفوسنا اذ نطلب الى المرأة ان تغـــني خصائصنا المفتقرة بعواطفها الفتية . لقد صرت من البيت ، وشعرت لأول مرة باحـــدى تلك العذوبات اللانهائية التي هي للنفس المتعبة كالحمّام للجسد المنهوك ؛ عندئذ تستعيد النفس نضارتها عـــلى جميع مستوياتها ، وتشعر بملاطفـة عمت حناياها . لا يمكنكن فهمي ،

فأنتن نساء ، والامر هنا يتعلق بـعادة تعطينها دون ان تنلن مقابلًا لها . ان الرجل وحده يعرف السرور اللذيذ الذي يولده وجوده في قلب بيت غريب يكون هو المفضل عنـــد سيدته ومركز السر في عواطفها : فالكلاب لا تنبح عليك ، والخدم يعرفون ، كما تعرف الكلاب ، العلامات المخبأة التي تحملهـــا ؛ والاولاد الذين لم يزيف شيء عندهم ، والذين يعلمون ان نصيبهم لا ينقص مطلقاً ، وانك محسن لنور حياتهم ، هؤلاء الاولاد يملكون عقلًا متكهناً ويصنعون من انفسهم هرآ لك ، وعندهم من تلك الظلامات الحسنة التي يحتفظون بها للكائنات المحبـــة المحبوبة ؛ وعندهم فطنة روحية وهم مذنبون ابرياء ؛ يأتون اليك على رؤوس اصابعهم ، فيبتسمون لـك ويذهبون دون ضجة . لاجلك كل شيء يسير بسرعة ، وكل شيء يحبك ويضحك لك . العواطف الصادقة تبدو ازهاراً جميلة تزيد النظر متعة كلما عقت ارضها . ولئن حصلت على مكاسب عذبة بهذا الانتساب الى عائلة وجدت فيها اهلًا حسب اهواء قلبي فقد ترتبت علي اعباء. فالسيد دي مورتسوف تحملني بلطف حتى الآن . لم اكن رأيت سوى

اكداس عيوبه؛ وشعرت بتطبيق هذه العيوب على اوسع مدى، ورأيت كم كانت الكونتس متساهلة بكثير من النبل حين وصفت لي خلافاتها البيتية . وعندئذٍ عرفت جميع نواحي هـذا الطبع الذي لا يحتمـــل : سمعت الصيحات المستمرة بسبب لا شيء، والشكاوى بسبب آلام لم تظهر اية علامـــة خارجية تدل على وجودها ، وذلك الاستياء الذي ازال بهاء الحياة ، وتلك الحاجة الدائمة الى التسلط التي جعلته يلتهم كل سنة ضحايا جديدة . حين كنا نتنزه مساء كان يقود النزهة بنفسه ؛ ولكن ايا كانت هذه النزهة فانه يظل دائم الضجر ؛ وعند عودته الى البيت يضـــع على الآخرين اثقال سأمه ؛ وتكون زوجته هي السبب لأنها تصحبه رغماً عنـه الى حيث تريد الذهاب ، ناسياً انه هو الذي سار بنا ، فيشكو انها تحكمه في اتفـــه امور الحياة ، وبأنه لا يستطيع الاحتفاظ لنفسه بأية ارادة او فكرة ، وانه صفر في بيته . اما اذا لاقت قساواته صبراً صامتاً فانه يغضب شاعراً بحدّ لسلطانه ؛ وكان يسأل بشراسة هل الدين لا يأمر النساء بارضاء ازواجهن ، وهل من المناسب احتقار ابي اولادهن . كان ينتهي

دائماً بمهاجمة وترٍ حسَّاس عند زوجته ، وحين يجعله يرن يبدو عليه انه تذوّق سروراً خاصاً بهذا العجز الميال الى التسلط. وكان في بعض الاحيان يتظاهر بصمت عبوس ، وخورٍ مرضي يخيف زوجته فتحوطه بعنايات مؤثرة . وكان يتدلل كجاك ومادلين اللذين كان يغار منهما ، شأنه شأن الولد المغناج الذي يمارس سلطته دون اهتمام بذعر امه . واخيراً ، ومع مرور الايام، اكتشفت ان الكونت يتصرّف حيال خدمه وولديه وزوجته ، في اكبر الظروف واصغرها ، كما يتصرف معي في لعبة النرد . وفي اليوم الذي احطت فيه بجذور هذه المصاعب واغصانها التي تخنق ، كالمعرّشات ، وتضغط على حركات هذه العائلة وتنفسها ، وتقمط بخيوط دقيقة ، ولكنها متعددة ، سير البيت ، وتؤخر نمو الثروة بتعقيد الاعمال الاكثر ضرورة ، شعرت برعب اعجابي سيطر على حبي واعاده قسراً الى قلبي . من اكون ، يا الهي ؟ ان الدموع التي شربتها ولدت في نفسي نشوة سامية ، ووجدت السعادة في ان انقطع الى آلام هذه المرأة . خضعت اولاً لاستبدادات الكونت كما يدفع المهرب غراماته ؛ ومن الآن

فصاعداً اقـــدم نفسي طوعاً لضربات المستبد لأكون بقرب هنريت. وادركت الكونتس مقصدي، وتركتني آخذ مكاني الى جانبها، وكافأتني بأن وعدتني بأن اشاطرها آلامها، كما حصل على نعمة الموت في الميدان ذلك الجاحد النادم الذي رام ان يطير الى السماء مع اخوانه .

وقالت لي هنريت ذات مساء، كان الكونت، كالذباب في يوم شديد الحرارة، اكثر قرصاً ولذعاً وتقلباً من المعتاد :

ــ لولاك لمتُّ،

كان الكونت نائماً . فبقينا، هنريت وانا، خلال قسمٍ من الامسية تحت اشجار الطلـــح ؛ والطفلان يلعبان حولنا وهما سابحان في اشعة المغيب. وقـــد كشفت لنا احاديثنا القليلة، والندائية البحتة، تبادل الافكار التي ارتحنا بواسطتها من آلامنا المشتركة . وحين كانت تعوزنا الكلمات كان الصمت يخدم نفسينا باخلاص بحيث تدخل الواحدة الى الاخرى دون عائق، لكن دون ان تدعوهما القبلة ؛ اما وقد تذوقت الاثنتان سحر خدرٍ

وجوم فقد خاضتا تموجات حلم واحـــد، وغطستا معاً في النهر وخرجتا منه وقد استعادتا نشاطهما كحوريتين متحدتين اتحاداً كاملاً كما تشاء الغيرة ولكن بدون رباط ارضي. وسرنا في مهواة لا قرار لها، وعدنا الى السطح فارغي الايدي، متسائلين بنظرة.
— «ايكون لنا يوم واحد بين الايام الكثيرة؟» لماذا يتذمّر الجسد حين تقطف لنا اللذة من هذه الازهار الطالعة دون جذور؟ رغم شاعرية المساء الموهنة التي تكسب آجر الحاجز تلك الالوان الليمونية، المهدئـــة، الصافية؛ ورغم ذلك الجو الديني الذي لطّف صراخ الطفلين وجعلنا مرتاحين، فان الرغبة تلوّت في شراييني كإشارة الاسهم النارية. بعد ثلاثـــة اشهر بدأت الّا اكتفي بالدور الذي عيّن لي، وداعبت بلطف يد هنرييت محاولاً ان انقل اليها اللذات الغنية التي تحرقني. فعادت هنرييت هي السيدة دي مورتسوف وسحبت يـدها مني؛ فجالت بعض الدموع في عيني رأتها، فألقت علي نظرة فاترة رافعة يدها الى شفتي وقالت:

— اعلم جيداً ان هذه تكلفني دموعاً. والصداقة التي تريد عطفاً كهذا خطرة جداً.

فانفجرت ، وتدفقت باللوم ، تكلمت عن عذابي وعن القليل من المخفف الذي طلبته لأحتمل هذا العذاب . وتجرأت ان اقول لها انه في مثـــل سني اذا كانت الحواس كلها نفس فان للنفس ايضاً جنساً؛ وانني سأعرف ان اموت ، ولكني لن اموت مطبق الشفتين . ففرضت علي الصمت بان حدجتني بنظرتها الانوف التي خلتني قرأت فيها عبارة كاسيك : « وانا ، هل انا على الورود؟ » لربما اخطأت . منذ اليوم الذي نسبت اليها فيه امام باب فرابسل تلك الفكرة التي جعلت سعادتنا تولد من قبر، خجلت من تلويث نفسها بتمنيات مطبوعة بالعاطفة العنيفة . وتناولت الكلام . وقالت لي بشفة معسّلة انها لا تستطيع ان تكون كل شيء لي ، وعلي ان اعرف ذلك . فأدركت منذ قالت هذا الكلام انني لو اطعتها لحفرت هوة بيننا . خفضت رأسي . وتابعت قائلة ان عندها اليقين الديني انها تستطيع ان تحب اخاً دون ان تهين الله والناس؛ وان هناك بعض الحلاوة في ان ُيصنع من هذا المذهب صورة حقيقية للحب الالهي الذي هو حياة العـــالم حسب قول سان مارتان. واذا لم استطع ان اكون لها شيئاً كمعرفتها القديم،

اقل من عشيق ، ولكن اكثر من اخ ، فيجب الاّ نلتقي . وقد تعرف ان تموت حاملة الى الله هذا المزيد من العذابات الشديدة التي تحملتها بدموع وتمزق وانهت كلامها :

ـ لقد أعطيت أكثر مما يجب حتى لا أترك شيئاً للأخـــذ . وقد عوقبت على ذلك قبلًا .

وتحتم علي أن أهدئها وأعد بأن لا أسبب لها أي غم ، وأن احبها وأنا في العشرين من سني كما يحب الشيوخ طفلهم الاخير . وفي الغد أتيت باكراً . وإذ لم يعد لديها زهور لآنية صالونها الاشهب ، إنطلقت الى الحقول ، إلى الكروم ، وبحثت فيها عـــن زهور أؤلف منها باقتين. ولكنني فكرت وأنا أقطفها واحدة واحدة ، وأقطعها من الاسفل ، واعجب بها لأن في أوراقها وألوانها تناسقاً ، فيها شعر يبرز في الادراك ويفتن النظر ، كما توقظ الجمـــل الموسيقية الف تذكار في اعماق القلوب المحبة المحبوبة . وإذا كان اللون هو النور المنظم الا يجب ان يكون له معنى كما لاخلاط اللحن ؟ وبمساعدة جاك ومادلين ، وكنا ثلاثتنا سعداء بإعداد

مفاجأةٍ لعزيزتنا ، باشرت صنع باقتين على الدرجات الأخيرة من السلم حيث أقمنا مقرنا العام ، وحاولت أرسم بهما عاطفة معينة . تصوري ينبوعاً من الأزاهير خارجاً من آنيتين بفوران، يتساقط أمواجاً مخملية ، وتندفع أمنياتي من قلب هذا النبع ووروداً بيضاء وزنابق ذات كأس فضي . وتتألق على هذا القماش الناضر أزهار الترنشباه ، وأذن الفار ، وزهرة الافعى ، وجميع الازهار الزرقاء التي اكتسبت ألوانها من السماء ، بحيث تتلاءم تماماً مع الابيض ، أليس في هذا براءتان ، براءة لا تعرف شيئاً واخرى تعرف كل شيء . فكرة طفل ، وفكرة شهيد ؟ ان للحب شعاره ، وقد حلّت الكونتس رموزه خفية . رمقتني باحدى نظراتها النافذة التي تشبه صرخة مريض مُس جرحه : كانت خجلة ونشوى في الوقت نفسه . ما أروع هذه النظرة ! ويا لها من تشجيع الان أجعلها سعيدة وأنعش قلبها ! إبتدعت إذن نظرية الاب كاستل لمصلحة الحب ووجدت لاجلها علماً مفقوداً في أوروبا تحل فيه زهور المحبرة محل الصفحات المكتوبة في الشرق مع الوان معطرة. أي سحرٍ في ان يعبر المرء عن أحاسيسه بخيوط الشمس ،

اخوات الزهور المنفتحة تحت أشعة الحب !... تفاهمت حالًا مع إلهة أزهار الحقول كما يتفاهم رجل رأيته فيما بعد في غرانليو مع النحل .

أثناء مدة إقامتي في فرابسل ، كنت اعاود مرتين في الاسبوع ذلك العمل الطويل لهذا الصنيع الشعري الذي يحتاج إكماله الى مختلف النباتات النخيلية التي درستها درساً معمقاً كشاعر أكثر مني عالماً بالنباتات ، درست روحها أكثر من شكلها . ولإيجاد زهرة في مكانها كنت غالباً ما أذهب بعيدا جداً، على ضفاف المياه في الاودية ، على قمم الصخور ، في الاراضي البور ، جانياً البنفسج الثالوثي في قلب الغابات ومنابت الخلنج . وقد اطلعت في هذه الرحلات على مسرات يجهلها العالم الذي يعيش في التأمل ، والزارع المهتم بالخصوصيات ، والصانع المسمر في المدن ، والتاجر المربوط الى منضدة بضائعه ، ولكنها معروفة من بعض المختصين بالغابات ، والحطابين وبعض الحالمين . ان في الطبيعة معلومات ليس لمعانيها حدود ، ترتفع الى مستوى اكبر المدارك العقلية . فهنا مثلًا نبتة خلنج مزهرة ، تلعب فيها الشمس ، مغطاة بماس

الندى الذي يبللها ، إنها امتداد رحب مزين لنظرة واحدة تلق عليها عرضاً . وهناك زاوية من غاب تكتنفها صخور متلفة ، مقطعة بالرمل ، ترتدي الطحالب المزينة بشجر الوعر ، تستولي عليك بما لا أدري من وحشي ، ومتنافر ، ومخيف ، ينبعث منها صراخ العقاب البحري . وهنالك أرض بور كثيرة الحرارة ، خالية من النبات ، صخرية ، ذات حواشي صلبة ، تشبه آفاقها آفاق القفر ، التقيت فيها بزهرة سنية وحيدة ، ذات صوان من الحرير البنفسجي منشور على نسيجها الذهبي ؛ صورة مؤثرة لمعبودي الأبيض، المنفرد في واديه. وثمة مستنقعات مياه كبيرة القت الطبيعة عليها بقعاً خضراء. نوع من الاتصال بين النبات والحيوان ، تصل الحياة اليها ببضعة ايام ، ونباتات وحشرات عائمة ككون في عالم الاثير !.. وثمة ايضاً كوخ مع حديقته الملأى بالملفوف ، وكرمته وسياجه ، معلق فوق مستنقع محاط ببعض حقول الجاودار الضامرة، صورة لكثير من الحيوات الوضيعة ! وممر طويل من الاشجار شبيه بصحن كنيسة ، حيث الاشجار أعمدة ، واغصانها تشكل عقود القنطرة ، وفي نهايته بقعة جرداء

بعيدة ذات نهارات ممزوجة بالظلال او منوعة الالوان بصبغات المغيب الحمراء كبقعة خلال الاوراق ، وتبدو كالزجاج الملون لخورس مليء بالعصافير المغردة . ثم نخرج من هذه الغابات النضرة الملتفة الى أرض بور طبشورية حيث الافاعي الشبعى على الطحالب المتأججة الرنانة تعود الى أوكارها رافعة رؤوسها الانيقة الناعمة . ألقِ على هذه اللوحات تارة سيولًا من الشمس السائلة كأمواج مغذية ، وطوراً أكداساً من السحب الشهباء المصفوفة على خط مستقيم كالغضون في جبهة الشيخ ، وأحياناً صبغات باردة لسماء تكاد تكون برتقالية اللون ، مخططة بعصائب زرقاء شاحبة ؛ ثم اصغ : تسمع أنغاماً لا يدرك كنهها وسط سكون مشوش. أثناء شهري ايلول وتشرين الاول لم أصنع أية باقة تكلفني بحثاً اقل من ثلاث ساعات ، كنت شديد الاعجاب ، مع استرخاء الشعراء اللذيذ بتلك الرموز الهاربة ، التي كنت أرى فيها رسوم الوجوه الأكثر تناقضاً في الحياة الانسانية ، ومشاهد مهيبة تعود الآن ذاكرتي لتجوس خلالها . واليوم ، في أغلب الاحيان أضم الى هذه المشاهد العظيمة تذكار النفس المنثورة آنذاك على

الطبيعة . وأنزه فيها أيضاً السلطانة التي كان ثوبها الابيض يتموج في الغابات ، ويخفق على الارض الخضراء، حيث يرتفع التفكير ، كثمرة موعودة ، من كل شمم مليء بالإبر العاشقة .

مامن تصريح ، وما من برهان على عاطفة مجنونة فيه عدوى أقوى من سمفونيات الزهور تلك، حيث جعلتني رغبتي المخدوعة أبذل الجهود التي عبر عنها بيتهوفن بألحانه؛ تفكرٌ وفحص ضمير، وانطلاقات عجيبة نحو السماء. لم تكن السيدة دي مورتسوف سوى هنرييت عند مرآها ، كانت تعود اليها دون انقطاع ، وتتغذى منها ، وتستعيد منها جميع الافكار التي وضعتها فيها. وحين تتلقاها كانت ترفع رأسها من فوق نول النسيج قائلة :
— يا إلهي ، ما أجمل هذا ! سوف تفهمين هذه المراسلة اللذيذة من خلال باقة كما تفهمين الشاعر سعدي[1] من خلال قطعة شعر . هل تنشقت في المروج خلال أيار ذلك العطر الذي يوصل الى جميع الكائنات نشوة الخصب ، ويجعلك تغمسين يديك في الموجة

(١) شاعر فارسي مؤلف «بستان الاشجار» و«بستان الورد» .

وأنت في زورق، وتعرضين شعرك للريح، ويعاود أفكارك الاخضرار كأشجار الغاب؟ ان عشبة صغيرة، النجيل العطري، هي واحدة من أمثال مبادئ هذا النغم المقنّع. وما من شخص يستطيع الاحتفاظ به قربه بلا عقاب. ضعي نصالها المصقولة، المخططة كثوب ذي خيوط بيضاء وخضراء، في باقة، فان عبقاً لا ينضب يحرك في أعماق قلبك الورود ذات البرعم الذي سحقه الحياء. وافترضي حول عنق البورسلين الواسع وجود هامش مؤلف فقط من باقة بيضاء خاصة بعرشات الكروم في التورين؛ صورة مبهمة لاشكال متمناة مطوية كأشكال عبدة خاضعة. وتخرج من هذه الجلسة لولبيات اللبلاب ذات الاجراس البيضاء، والاغصان الدقيقة لنبات الحمارية الوردي، مختلطة ببعض نبات الخنشار، وببعض فروع صغيرة من السنديان ذات أوراق ملونة بشكل بديع لماع؛ كل هذا يتقدم ساجداً، خاضعاً كالصفصاف الباكي، خجلًا متوسلًا كالصلاة. وانظري فوق، الى الالياف المحلولة المزهرة، المهتزة دون انقطاع لزهرة أرجوانية تسكب مآبرها شبه الصفراء على موجات؛ والاهرام الثلجية من كلإٍ

الحقول والمياه، وشعر «البروم» الاخضر الخالي من المنفعة، والزينات المهدَّبة لهذه النجيليات المسماة سنابل الريح؛ انها آمال بنفسجية تتوج بها الاحلام الاولى تنفصل على أرضية الكتان الزرقاء حيث النور يتألق حول هذه الاعشاب المزهرة لكن هناك في الاعالي بعض ورود البنغال المتناثرة بين تخاريم الدوقيس المجنونة، وريش نبات السعديات، وجُبَساء ملكة المروج، وخيميّات البقدونس البري، وشعر ياسمين البر المثمر الاشقر، والاشكال الظريفة للصليبيات ذات البياض الحليبي وخيم زهرة القنديل الزهرية، والسيقان المنتشرة لكزبرة الحمام ذات الزهور الوردية والسوداء، وأوراق الكرمة، وقش أشجار زهر العسل المعوجّ؛ وأخيراً كل ما عند هذه المخلوقات البسيطة من مشعث وممزق، ومن مشارط ونبال مثلثة، ومن أوراق رمحية الشكل مقطعة، وسوقٍ معذبة كالرغبات الملفوفة في أعماق النفس. ومن قلب هذا السيل الطامي من الحب المتدفق يتوثب خشخاش جميل مزدوج أحمر مصحوب ببلوطة الذي كاد يتفتح، ناشراً شرر حريقه فوق الياسمين الزاهر ومهيناً على مطر

اللقاح المستمر ، سحابة جميلة تتحرك في الهواء عاكسة النهار في شذراتها الكثيرة اللامعة ! أية امرأة منتشية بأريج أفروديت المختبئة في النجيل العطري ، لا تفهم هذا الترف من الافكار المروضة ، وذلك الحنو الابيض الذي تعكره حركات لا ضابط لها ، ورغبة الحب الحمراء التي تطلب سعادة مرفوضة في صراع العاطفة المكبوتة الابدية التي لا تكل ، والذي استؤنف مئة مرة ؟ ضعي هذا الخطاب في ضوء نافذة لتظهر تقاطيعه الفضة ، والمتناقضات الدقيقة ، والمشجرات ، لكي تري فيها الملكة المتأثرة زهرةً أكثر تفتحاً ، وتسقط دمعة ! وتصبح قريبة من الاستسلام ، ولا بد من ملاك أو صوت ولدها ليمسك بها على حافة الهاوية . ماذا يعطى لله ؟ عطور ، نور ، أغانٍ ، وهي أطهر المعبرات في طبيعتنا . إيه ! ألم نقدم للحب كل ما قدم لله في تلك القصيدة من الزهور الساطعة التي تطن أنغامها دون انقطاع في القلب ، ملاطفةً فيه لذات مخبأة ، وآمالًا مكتومة ، وأوهاماً تلتهب وتنطفئ كخيوط العذراء في ليلة حارة ؟ . .

هذه التسليات الحيادية قدمت لنا معونة كبيرةً لخداع

الطبيعة المهتاجة بسبب هذه النظرات التي تستمتع وهي ترسل أشعتها حتى أعماق الاشكال المخترقة . وكان هذا بالنسبة إلي، ولا أجرؤ على القول بالنسبة اليها ، كتلك الشقوق التي تسيل منها المياه خلال سد منيع ، والتي تمنع في أغلب الاحيان المصيبة إذ تترك شيئاً للضرورة . ان للتعفف إستنزافات مميتة تدل عليها بعض الفتائت الساقطة واحدة واحدة من هذه السماء التي تعطي المسافر المنّ من دان[1] حتى الصحراء الكبرى . ومع ذلك كنت أفاجىء هنرييت ، عند رؤية هذه الباقات ، متدلية الذراعين ، غارقة في تلك الاحلام العاصفة التي أثناءها تملأ الافكار والصدر ، وتحيي الجبهة ، وتأتي على موجات ، وتنبجس مزبدة ، مهددة ، وتترك سأماً موهناً . ولم أصنع إذ ذاك أية باقة لأحد ! وحين خلقنا هذه اللغة لاستعمالنا الخاص شعرنا بسرور يشبه سرور العبد الذي يخدع سيده .

اثناء ما بقي من هذا الشهر ، وحين كنت مسرعاً عن طريق

(١) مدينة في فلسطين .

الحدائق كنت أرى وجهها الملتصق بالزجاج ؛ وحين أدخل الى الصالون كنت أجدها أمام نولها . وحين لا أصل في الساعة المناسبة دون أن نعينها سابقاً ، فان شكلها الابيض كان يهيم على السطيحة : وحين افاجئها هناك كانت تقول لي :

ـ ها انا أتيت إلى أمامك . ألا يجب ان يكون عندي شيء من الدلال للولد الاخير ؟

كانت العاب النرد الجافية قد انقطعت بين الكونت وبيني . وكانت مكاسبه الاخيرة . تضطره الى الكثير من السير ، والاستطلاعات ، والتحقيقات ، ووضع علامات الحدود ، ومسح الأراضي ، كان مهتماً بأوامر يعطيها ، وبأعمال في الحقول تقتضي وجود صاحب الملك وقد بت فيها بينه وبين زوجته . وكنا نذهب في أغلب الأحيان ، الكونتس وأنا ، لنلقاه في أملاكه الجديدة مع ولديه اللذين كانا طوال الطريق يطاردان الحشرات والفراشات ويصنعان أيضاً باقات زهور ، بل حزمات زهور لأكون أكثر دقة . نزهة مع المرأة التي تحبها ، وتقديم ذراعك

لها ، والقيام باختيار طريقها ! هذه المسرات غير المحدودة تكفي لأي حياة . والحديث الحميم ! . . . كنا نذهب وحدنا ونعود مع الجنرال ، وهو لقب سخرية عذب أطلقناه على الكونت حين يكون صافي المزاج . هـــذان النهجان نقطع بها الطريق كانا ينوعان سرورنا باعتراضات لا يعرف سرهـــا سوى القلوب المنكدة في اتحادها . وفي العودة كانت الغبطات نفسها ، نظرة ، ضغطة على اليد . وكانت كلها ممزوجة بالقلق . والحديث الكثير الحرية أثناء الذهاب كان يصبح في العودة ذا معانٍ غامضة ، حين يجد أحدنا بعد برهة وجيزة جواباً على أسئلة ماكرة ، او حين نتابع مناقشة بدأنا بها تحت هذه الاشكال اللغزية التي اعتادهـا لساننا جيداً والتي تخلقها النساء بكثير من البراعة . من الذي لم يتذوق السرور في التفاهم بهذا الشكل كما في كرة مجهولة تنفصل فيها ألارواح عن الجمهور وتتحـد خادعة القوانين المتداولة؟ ساورني ذات يوم أمل جنوني تبدد بسرعة بسبب سؤال الكونت ، أراد به ان يعرف موضوع حديثنا . لقد أجابت هنرييت بعبارة ذات معنى مزدوج اقتنع بها . هذه الدعابة البريئة سرت مادلين

واحمر وجه أمها التي علمتني بنظرة صارمة انها تستطيع أن تسحب مني روحها كما سحبت يدها في السابق ، مصرة عـــلى أن تبقى الزوجة الحصينة . ولكن هذا الاتحاد الروحي البحت فيه الكثير من الجاذبية لأننا عدنا في الغد الى ما كنا عليه .

الساعات ، الايام ، الاسابيع كانت تمر هكذا مليئة بالسعادة المتجددة . ووصلنا الى موسم قطف العنب وهو عيد حقيقي في التورين. ففي اواخر ايلول سمحت الشمس التي كانت اقل حرارة مما كانت عليه طوال الموسم بالبقاء في الحقول . دون خوف من لفحة الريح ولا من التعب . وقطف العناقيد اسهل من حصاد القمح ، لأن الاثمار كلها ناضجة . وتم الحصاد ، واصبح الخبز اقل نفقة ، وهذا الخير الوافر جعل الحياة سعيدة . واخيراً فان المخاوف التي توحيها اشغال الحقول ، التي تذهب بكثير من المال والعرق ، قد اختفت امام الاهراء الملأى والسقائف التي على وشك الامتـــلاء . فقطف العنب اذن كالنهاية البهيجة لوليمة مجتناة ، والسماء تبتسم دائماً في التورين حيث فصول الخريف بديعة . وقاطفو العنب في تلك البلاد المضيافة يأكلون في بيت

صاحب العمل . وهذه الولائم الوحيدة التي يحصل فيها المساكين على مآكل مغذية جيدة الصنع كل سنة ، يتناولها هؤلاء كالاولاد في اعياد العائلات الشريفة التذكارية . وهم يسرعون الى البيوت حيث يعاملهم اصحابها بـــدون تقتير . فالبيت يمتلىء بالناس والمؤونة . والمعاصر مفتوحة باستمرار ، ويبدو ان الحياة دبت في كل شيء بسبب حركة صانعي البراميل ، وبالعربات المحمّلة بالصبايا الضاحكات ، وبالناس الذين يغنون في كل مناسبة لأنهم قبضوا اجورهم افضل مما يقبضون في بقية السنة . ومع ذلك فهناك سبب آخر للسرور ، فقـــد امتزجت الطبقات : نساء ، اولاد ، سادة وعامة من الناس ، فالجميع يسهمون في القطاف الالهي . وهذه الظروف المتنوعة يمكن ان تفسر القهقهة المنتقلة من جيل الى جيل ، والتي تنمو في تلك الايام الجميلة الاخيرة من السنة ، والتي اوحت ذكراها في السابق الى رابليه الشكل « الباخوسي » لمؤلفه الكبير . اما الولدان المريضان دائماً ، جاك ومادلين ، فلم يكونا في قطاف العنب ؛ وكنت مثلهما . انهما يشعران بما لا ادري من السرور الصبياني حين يريان ان هناك

من يشاطرهما تأثرهما ؛ وكانت امهما قد وعدتهما بان يصحبانا . وقد ذهبنا الى فيلان حيث تصنع سلال البلاد وطلبنا ان تصنع لنا سلال جميلة . كان علينا ان نقوم نحن الاربعة بقطاف بعض قطع من الكروم احتفظ بها لمقصاتنا ؛ ولكن كان من المتفق عليه ألّا نأكل كثيراً من العنب. واكل عنب التورين في الكروم لذيذ جداً جعلنا نكره اجمل عنب على المائدة . لقد جعلني جاك اقسم ألّا اذهب لرؤية القطاف في اية ناحية ، وان احتفظ بنفسي لمزرعة كلوشيغورد . وهذان الكائنان الصغيران ، المريضان الشاحبان عادة ، لم يكونا مرة ناضرين متوردين ولا عاملين متحركين كما كانا طوال هذا الصباح . كانا يثرثران لمجرد الثرثرة ، ويذهبان ، ويقفزان ، ويعودان بدون سبب ظاهر ، ولكن يبدو انهما ، كبقية الاولاد يملكان كثيراً من الحيوية يريدان تحريكها ؛ والسيد والسيدة دي مورتسوف لم يشاهداهما ابداً هكذا . لقد كنت ولداً معهما ، وربما اكثر طفولة منهما لأني كنت ايضاً اؤمل بحصادي . ذهبنا الى الكروم في اجمل طقس وبقينا فيها نصف النهار . وكم كنا نتجادل حول من وجد اجمل

العناقيد منّاً، ومن منّاً ملأ سلته اسرع من غيره ! وكان لنا ذهاب واياب من الجفنـــة الى الام . ولم يقطف اي عنقود دون ان يعرض عليها لتراه . واخذت تضحك ضحكاً جميلاً مليئاً بشبابها حين وصلت الى قرب ابنتها مع سلتي وقلت لها مثل مادلين :

ــ وعني يا امي ؟

فاجابتني :

ــ يا ولدي العزيز ، لا تتحمس كثيراً !

ثم امرّت يدها على عنقي وشعري ، وربتت على خدي ، وقالت :

ــ انت سابح بالعرق !

وكانت المرة الاولى التي سمعت فيها هذه الملاطفة في صوتها ، اي صيغة المفرد التي يستعملها العشاق . تطلعت الى السياج الجميل المغطى باثمار العليق الحمراء ، وسمعت صراخ الاولاد ، وتأملت

جمهور قاطفي العنب ، والعربات الملأى بالبراميـــل ، والرجال المحملين بالقفف ! آه ! لقد حضرت كل شيء في ذاكرتي ، كل شيء حتى شجرة اللوز الصغيرة التي كانت تقف تحتها ناضرةً متورّدة ، ضاحكة تحت مظلتها المفتوحة . ثم انصرفت الى قطف العنب وتعبئة سلتي ، والذهاب لأفرغها في برميل القطاف . بجهد جسدي صامت مستمر ، وبخطى بطيئـــة موزونة جعلت نفسي حرة . تذوقت سروراً فائق الوصف بعمل خارجي يقود الحياة ضابطاً مجرى العاطفة التي تحرق كل شيء لولا هـــذه الحركة الآلية . وعرفت كم هناك من حكمة في الجهد الموحد ، وفهمت الانظمة الرهبانية .

لأول مرة ، ومنذ وقت طويل . لم يكن الكونت عابساً ولا فظاً . فصحة ولده جيدة ، ودوق لينانكور – مورتسوف المستقبل ، الابيض الوردي ، الملوث بالعنب اعاد السرور الى قلبه . كان هذا النهار آخر القطاف . وقد وعد الجنرال باقامة حفلة رقص في المساء امام كلوشيغورد في شرف البوربون العائدين ؛ وبهذا تكون الحفلة تامة لجميع الناس . وعند العودة اخـــدت

الكونتس ذراعي ، واتكأت علي بطريقة يجعل قلبي يشعر بثقلها كله ، انها حركة امٍّ تريد اشراك الناس في فرحها . وهمست في اذني :

ــ لقد جلبت لنا السعادة !

هذا اكيد ، فانا العارف بلياليها التي لم تذق فيها طعم النوم، وبهمومها وحياتها الماضية حين كانت تسندها يد الله ، وحين كان كل شيء جديباً متعباً ، فان هذه العبارة التي لفظتها بصوتها الكثير الغنى بينت في نظري مسراتٍ لا تستطيع امرأة في العالم ان تعيدها الي . وقالت لي بعد فترة :

ــ لقد انقطعت رتابة ايامي البائسة . فالحياة اصبحت جميلة مع الآمال . اوه ! لا تتركني ! لا تخيّب تفاؤلي البريء ! كن الابن البكر الذي يعنى باخوته !

هنا يا ناتالي ، لا يوجد شيء مختلف : فلا اكتشاف لانهاية العواطف العميقة عندها ، لا بد ان نلتي في الصغر مسباراً في تلك

البحيرات الكبيرة التي نعيش على ضفافها . واذا كانت العواطف عند كثير من الكائنات سيولًا من مقذوفات البراكين السائلة بين ضفاف مجففة ، اليس ثمة نفوس ذات عاطفة كتمتها صعوبات تذلل ، قد ملأت فوهة البركان بماء نقي ؟

لقد كان لنا عيد مشابه ايضاً. فالسيدة دي مورتسوف كانت تريد ان تعوّد ولديها على امور الحياة وتجعلهم يعرفون الجهود المضنية التي تبذل للحصول على المال؛ فأنشأت لهم مداخيل خاضعة لحظوظ الزراعة : لجاك منتوج الجوز ، ولمادلين منتوج الكستناء. وبعد ايام حان جمع غلة الكستناء والجوز. الذهاب لجمع كستناء مادلين ، وسماع صوت الاثمار وهي تسقط وقشورها تثب على الارض الجاحدة المخملية الجافة حيث تنبت شجرة الكستناء ، ورؤية الرصانة الجدّية التي تفحص بها الابنـــة الكومة مقدرةً قيمتها التي تمثل بنظرها المسرات التي ستأخذ نفسها بها دون رقيب؛ وتهنئة مانيت ، المرأة التي تقوم بالاعباء ، وتنوب وحدها عن الكونتس عند الولدين؛ والدروس التي تكسب من رؤية الجهود اللازمة لقطاف اقل محصول يكون في الغالب في خطر

عند تعاقب المناخ، كل هـــذا مشهد تبدو فيه سعادة الطفولة الساذجة فاتنة وسط الصبغات المتجهمة لخريف اطلت تباشيره. كان لمادلين مخزنها الخاص بها، حيث كنت اود ان اراها وهي تضم ثروتها السمراء، واشاطرها سرورها. ايه! اني لا ازال ارتعش اليوم حين اتذكر الجلبة التي تحدثها كل قفة من الكستناء وهي تتدحرج على البراعم الصفراء المزوجة بتراب مفروش على الارض. كان الكونت يعتبرها ملكاً للبيت؛ وكان الوكلاء والناس وكل فرد حول كلوشيغورد، يأتون الصغيرة بمشترى، والصغيرة نعت للصديقة يمنحه الفلاحون في البلاد عن طيبة خاطر حتى للاجانب، ومع هذا بدا كأنه يخص مادلين وحدها.

اما جاك فقد كان اقـل سروراً بقطاف جوزه، فقد ظلّ يبكي اياماً. ولكنني هوّنت عليه بان نصحته ان يحتفظ بجوزه ليبيعه فيما بعد. وقد اخبرني السيد دي شيسل ان الجوز لم ينتج شيئاً في البريعونت وفي بلاد امبواز وفوفراي. وزيت الجوز يستعمل كثيراً في التورين. وعلى جاك ان يحصل على اربعين فلساً من كل شجرة جوز، وعنده مائتا شجرة. فالمبلغ اذن

كبير ! كان يريد ان يشتري عدة لركوب الحصان. وقد اثارت رغبته مناقشة عامة حيث ابدى له والده بعض الملاحظات حول عدم استقرار المدخول، وضرورة ايجاد مدخرات للسنوات التي تمحل فيها الاشجار، ولكي يحصل على مدخول وسط. وتعرفت الى روح الكونتس في صمتها؛ كانت فرحة لرؤية جاك مصغياً لوالده، والأب مستعيداً شيئاً من التقديس الذي كان ينقصه، بفضل تلك الكذبة الرائعة التي اعدتها. الم اقل وانا ارسم لك هذه المرأة، ان اللغـــة الارضية تعجز عن تصوير ملامحها وعبقريتها؟ حين تحدث هذه الانواع من المشاهد تتذوق النفس ملذاتها دون ان تحللها؛ ولكن بأية قوة تنفصل هذه المشاهد فيما بعد على الغور المظلم لحياةٍ مضطربة! انها كقطع الماس، تتألق مرصعةً بأفكار ملأى بمزيج حسرات ذائبة في تذكار السعادة الراحلة. لماذا يؤثر بي إسما قطعتي ارض اشتريتا حديثاً ويهتم بهما السيد والسيدة مورتسوف كثيراً، لا كاسين ولاريتوريير، اكثر مما تؤثر بي اجمل اسماء الارض المقدسة او اليونان؟ لقد هتف لافونتين: «من يحب، يعلن حبـــه». هذه الاسماء تتضمن

الفضائل الطلسية للكلام المنثور المستعمل في الدعوات. انها تفسر لي السحر، وتوقظ صوراً نائمة فتقف حالًا وتكلمني، انها تضعني في ذلك الوادي السعيد وتخلق سماء ومناظر طبيعية؛ ولكن الا تجري الدعوات دائماً في مناطق العالم الروحي؟ لا تندهشي اذن ان رأيتني انقل اليك مشاهد مألوفة. فأقل تفاصيل هذه الحياة البسيطة شبه المشتركة هي روابط ضعيفة في الظاهر أتحد بواسطتها اتحاداً وثيقاً بالكونتس.

ان مصالح الولدين سببا للكونتس من الغم ما سببته صحتها الضعيفة. وقد عرفت حالًا حقيقة ما كانت قالته لي حول دورها الخفي في اعمال البيت التي اطلعت عليها شيئاً فشيئاً باطلاعي على تفاصيل عن البلاد يجب ان يعرفها رجل الدولة. بعد عشر سنوات من الجهود غيرت السيدة دي مورتسوف زراعة اراضيها؛ فقد «ربّعت» هذه الاراضي. وهو تعبير يستعمل في البلاد ليفسر نتائج الطريقة الجديدة التي بموجبها لا يزرع الفلاحون القمح إلاّ كل اربع سنوات، وذلك ليجعلوا الارض تغل كل سنة. وللتغلب على عناد الفلاحين كان لا بد من فسخ عقود

الايجار ، وتقسيم الاراضي الى أربعة أقسام كبيرة وإعطائها مناصفة ، وهي طريقة الايجار في التورين والبلاد المجاورة. ويقدم المالك المسكن والابنية الخاصة بالاستثمار ، والبذار الى مزارعين حسني الاستعداد يقتسم معهم نفقات الزراعة والمنتوجات . وهذه القسمة يراقبها وكيل ، وهو المكلف بأخذ النصف العائد لصاحب الملك ، وهي طريقة كثيرة التكاليف معقدة بحسابات تنوعها طبيعة القسمة في كل لحظة . وقد زرعت الكونتس بواسطة السيد دي مورتسوف مزرعة خامسة مؤلفة من ارض احتفظ بها حول كلوشيغورد ، هادفةً الى أن تثبت فعلياً لمزارعيها المناصفين ميزة الاساليب الجديدة بقدر ما تهدف الى إشغال وقتها. ولما كانت حرة التصرف في قيادة الاعمال الزراعية فقد عملت بتؤدة ، وبصبر المرأة ، على استصلاح قطعتين من الاراضي المعدة للايجار على نسق مزارع الارتوا والفلاندر . وكان قصدها واضحاً . بعد انتهاء مدة عقود المناصفة ارادت الكونتس تكوين مزرعتين جميلتين من اقسامها الاربعة لتؤجرهما نقداً الى اناس اذكياء ، وذلك لتبسيط مداخيل كلوشيغورد .

وخوفاً من ان تموت قبل زوجها عمدت الى أن تترك له مداخيل سهلة التحصيل ، ولولديها املاكاً لا يعرضها عدم الكفاءة للخطر. في تلك الفترة كانت الاشجار المثمرة المغروسة منذ عشر سنوات في اوج دخلها . وقد غرس السياج الذي يقي الاراضي في المستقبل من كل منازعة . واشجار الحور والدردار ، وكل شيء كان متقناً . وصار من المحتمل ان تعطي ارض كلوشيغورد المقسمة الى اربعة اقسام منها اثنان بقيا في طريق الانشاء ، بمكتسباتها الجديدة ، وبادخال طريقة الاستثمار الحديثة في كل مكان ، ستة عشر الف فرنك نقوداً باعتبار اربعة آلاف فرنك لكل مزرعة؛ دون حساب الكروم ولا المائتي «أربانت»[1] التي تضاف اليها ، ولا المزرعة النموذجية . وكانت طرق مزارعها الاربع تقود الى جادة كبيرة تسير من كلوشيغورد بخط مستقيم وتتشعب على طريق شينون . وكانت المسافة خمسة اميال بين هذه الجادة وتور ، والمزارعون لا يخطئونها وخصوصاً حين كان الناس كلهم

(١) اربانت : مقياس مساحة قدرها خمسة آلاف متر مربع .
ــ المعرب ــ

يتحدثون عن التحسينات التي ادخلها الكونت ، وعن نجاحه ، وعن اصلاح اراضيه . وفي قطعتي الارض التي اشترتها ، كانت الكونتس تريد ان تلقي بمـــا يقارب الخمسة عشر الف فرنك لتحول بيوت صاحب الملك الى مزرعتين كبيرتين تؤجرهما بسعر حسن بعد ان تزرعها طوال سنة او سنتين ، وذلك بان تعين لها رجلًا يدعى مارتينو كوكيل ، وهو افضل واصلح وكلاء اعمالها ، وقد اصبح بدون عمل لأن عقود المناصفة لمزارعها قد انتهت ، وقد ازف موعد جمعها في مزرعتين وتأجيرهما نقداً . وكانت افكارها البسيطة ، التي ترمي الى انفاق الثلاثين وبعض الالف من الفرنكات ، موضوع مناقشة بينها وبين الكونت ؛ منازعات رهيبة لم تستند فيها الا الى مصلحة ولديها . وهذه الفكرة : — « ماذا يحدث لو مت غداً ؟ » كانت تبعث الرعشة في اوصالها . فالنفوس الدمثة الوديعة التي لا تعرف الغضب ، والتي تريد ان يسيطر السلام الداخلي العميق حولها ، تعرف وحدها مقدار القوة التي تلزمها في هذا الصراع ، واي امواج زاخرة من الدم تسيل من القلب قبل أن تبدأ المعركة ، واي عياء يستحوذ

على الكائن حين لا يحصل على شيء بعد ان يصارع. حين كان ولداها اقل هزالًا ونحولًا واكثر هشاشة لأن فصل الاثمار اظهر اثره فيهما، وحين كانت تتبعهما بعين دامعة في لعبهما، شاعرة بسرور جدد قواها اذ انعش قلبها، فان هذه المرأة المسكينة كانت تحتمل مجادلات مهينة وحملات موجعة من معارضة شرسة. فالكونت الذي هالته هـــذه التغييرات كان ينكر فوائدها وامكانياتها بعناد كبير، وكان يجيب على البينات الدامغـــة باعتراض طفل يناقش في تأثير الشمس ايام الصيف. وتغلبت الكونتس عليه. وانتصار العقل الرشيد على الجنون هدأ كلومها وانساها جراحها. لقد ذهبت هـــذا النهار للنزهة في كاسين ولاريتوريير وللفصل في امر البناء فيها. وكان الكونت يسير وحده في المقدمة، والولدان يفصلان بيننا وبينه، وكنا نحن الاثنان في المؤخرة نتبعهم ببطء. وكانت تحدثني بتلك النبرة العذبة المنخفضة التي تجعل عباراتها تشبه الامواج الصغيرة التي يتمتمها البحر على رمل ناعم.

لقد قالت لي انها واثقة من النجاح. وستقام منافسة للنقل

بين تور وشينون شرع بها رجل عامل ، رسول ، ابن عم مانيت الذي يريد مزرعة كبيرة على الطريق . كانت عائلته كثـــيرة العدد: فالابن البكر يقود العربات ، والثاني ينقل البضائع عليها؛ والاب ، ومركزه سيكون على الطريق في رابيلاب ، احدى المزارع المعدة للايجار والواقعة في الوسط ، يستطيع السهر على المحطـــات ، ويزرع الاراضي فيصلحها بالسماد الذي توفره له اصطبلاته . اما المزرعة الثانية ، لابود ، وهي على خطوتين من كلوشيغورد ، فان احد فلاحيها الاربعة ، وهو رجل نزيه ، ذكي ، عامل ، يشتمُّ فوائد الزراعة الحديثة ، قدم عرضاً لأخذها بعقد ايجار . اما كاسين ولاريتوريير فان اراضيهما كانت أفضل اراضي البلاد ؛ وما ان تبنى المزارع وتصبح الزراعة في أوج قيمتها حتى يعلن عنها في تور. وفي سنتين اصبحت كلوشيغورد تعطي ما يقارب الاربعة والعشرين الفاً من الفرنكات ايراداً . اما لاغرافيلوت ، تلك المزرعة الموجودة في المابن ، والـــتي استعادها السيد دي مورتسوف فقد أخــــذت بسبعة آلاف فرنك لمدة تسع سنوات ؛ وكانت جعالة ماريشال المعسكر اربعة آلاف فرنك ؛

واذا كانت هذه المداخيل لم تشكل ثروة بعد فانها أوجدت رخاء كبيراً ؛ وفيما بعد ، فان تحسينات اخرى يمكن ان تتيح لها الذهاب الى باريس ذات يوم لتراقب تعليم جاك ، وذلك في مدى سنتين حين تصبح صحة الوريث المعين متينة » .

بأية رعشة لفظت كلمة « باريس » ! لقد كنت في صلب هذا المشروع ، وكانت تريد أن تبتعد أقل ما يمكن عن الصديق . وعند هذه الكلمة اشتعلت ، وقلت لها انهـا لا تعرفني ؛ وانني بدون أن أحدثها عن ذلك نويت أن أكمل تعليمي مشتغلاً ليلَ نهار لكي أكون مؤدباً لجاك ؛ لانني لا أحتمل فكرة وجود شابّ في بيتها . وعند سماعها هذه الكلمات ترصنت وقالت :

كلا يا فليكس . فهذا لا يعني سوى أنك ستصبح كاهناً . إذا كنت بكلمة واحدة بلغت أعماق قلب الأم، فإن المرأة تحبك بكثير من الصدق ولن تدعك تكون ضحية محبتك . ان بدل هذا الاخلاص سيكون فقد الخطوة الذي لا بد منه . وليس لي في ذلك حيلة . اوه ! كلا ، لن أكون شؤماً عليك في شيء !

أنت الفيكونت دي فاندنيس مؤدب أولاد؟ أنت! الذي شعاره النبيل: «لا يبيع نفسه!» حتى لو كنت ريشليو فانك تضع حاجزاً لحياتك الى الابد. وستسبب أكبر غمّ لعائلتك. أنت لا تعرف يا صديقي كيف ان امرأة كأمي تعرف كيف تضع الوقاحة في نظرة، والانحطاط في كلمة، والاحتكار في تحية.

– ما همني العالم لو أحببتني؟

فتظاهرت بعدم السمع وقالت متمتمة:

– مهما يكن والدي ممتازاً ومستعداً لمنحني كل ما أطلبه منه، فانه لن يغفر لك وضع نفسك في مركز غير لائق بين الناس وسيرفض أن ينشر حمايته عليك. إني لا أريد أن أراك مؤدباً حتى لوليّ العهد! اقبل المجتمع كما هو، ولا ترتكب أخطاء في الحياة. يا صديقي، ان هذا العرض الملعون من...

– الحب.

هكذا قلت بصوت منخفض . فقالت وهي تمسك دموعها :

– كلا ، من الاحسان . هذه الفكرة الجنونية جعلتني أفهم خلقك : إن قلبك سيلحق بك الضرر . وإني منذ هذه اللحظة ألتمس الحق في ان أعلمك بعض الامور ؛ دع لعينيّ كامرأة ، مهمة النظر في سبيلك أحياناً . نعم ، من أعماق كلوشيغورد أريد أن أشهد نجاحك صامتة منتشية . وفي ما يتعلق بالمؤدب كن مطمئناً ، فسنجد كاهناً طيباً متقدماً في السن ، أحد العلماء اليسوعيين القدماء ؛ وسيخصص أبي مبلغاً من المال لتعليم الولد الذي يجب أن يحمل اسمه . ان جاك هو كبريائي . – ثم أردفت بعد وقفة قصيرة : – انه مع ذلك في الحادية عشرة ، ولكن شأنه كشأنك ، فحين رأيتك قدرت سنك بثلاث عشرة سنة .

كنا قد وصلنا الى كاسين ، وكنا نتبعها ، جاك ومادلين وأنا ، كما يتبع الصغار أمهم ؛ ولكننا سببنا لها القلق ، فقد تركتها للحظة وذهبت الى البستان حيث كان حارسها مارتينو البكر

ومارتينو الثاني والوكيل ينظرون هل يجب قطع الاشجار أم لا ؛ كانوا يناقشون هذه النقطة كأن الامر يتعلق بأملاكهم الخاصة . وعندئذ رأيت مبلغ محبة الناس للكونتس ، وأوضحت ما يساورني من أفكار لعامل يومي مسكين كان يصغي الى دهاقين علم الزراعة ورجله على رفشه وذراعه على المسكة ، وقد أجابني :

— آه ! نعم يا سيد ، انها امرأة طيبة ، غير متكبرة كجميع أولئك السعدانات في آزاي اللواتي كن يشاهدننا نموت كالكلاب ولا يعطيننا فلساً مقابل حفر تواز[1] في الخندق ! ستبكي العذراء ، ونحن أيضاً ، في اليوم الذي ستترك فيه هذه المرأة البلاد . انها تعرف من هو مدين لها ، ولكنها تعرف أيضاً أتعابنا وتراعيها .

وبسرور عظيم أعطيت كل ما معي من نقود لهذا الرجل !

بعد عدة أيام جاء لجاك حصان صغير حيث أراد والده ،

---

(١) تواز : مقياس قديم بطول ستة أقدام . (المعرب)

وهو خيال ممتاز، أن يعوّده رويداً رويداً على متاعب الفروسية. وحصل الولد على ملابس خيال جميلة اشتريت له من محصول الجوز. وكان الصباح بالنسبة الى الكونتس اول عيد كبير لأمومتها، فقد تلقى جاك درسه الاول مصحوباً بوالده، على صراخ مادلين المندهشة التي كانت تقفز على العشب فيما كان جاك يركض حوله. وكان لجاك طوق طرزته أمه، ومعطف صغير من جوخ أزرق سماوي مشدود بحزام من الجلد المدهون، وبنطلون أبيض ذو طيات، وقلنسوة إيكوسية يتفلت شعره الرمادي منها بخصل كبيرة: كان فتنة للنظر. وقد تجمهر جميع من في البيت مقتسمين هذه السعادة المنزلية. وكان الوريث الغني يبتسم لأمه حين يمر، وينتصب دون خوف. هذا العمل الاول يقوم به كرجل ذلك الولد الذي كان الموت قريباً منه في أغلب الاحيان، أمل مستقبل جميل تجلى في هذه النزهة التي أظهرته كثير الجمال والبهاء والنضارة، يا لها من مكافأة لذيذة! وسرور الأب الذي عاوده الشباب وابتسم لاول مرة منذ وقت طويل، والسعادة المرسومة في عيون جميع سكان البيت، وصرخة

سائس هرم من سواس آل لينانكور كان عائداً من تور، والذي قال للولد وهو يرى الطريقة التي يمسك بها اللجام : — «برافو يا سيدي الفيكونت» . كل هذا كان كثيراً ، فقد فاضت دموع السيدة دي مورتسوف، اذ وجدت نفسها ، وهي الكثيرة الهدوء في آلامها ، ضعيفةً على احتمال السرور وهي تظهر اعجابها بولدها الذي يمتطي الحصان على هذا الرمل حيث كانت تبكيه مقدماً وهي تنزهه في الشمس . في هذه اللحظة استندت الى ذراعي دون خوف من تبكيت الضمير وقالت لي :

— أعتقد انني لم أتعذب أبداً . لا تتركنا اليوم .

وانتهى الدرس ، وارتمى جاك بين ذراعي أمه فتلقته وأبقته في حضنها بالقوة التي يوجبها فرط اللذة. وكانت قبلات وملاطفات لا نهاية لها . وذهبت مع مادلين لنصنع باقتين بديعتين نزين بهما المنضدة على شرف الفارس . وحين عدنا الى الصالون قالت لي الكونتس :

— ما من شك في ان الخامس عشر من تشرين الاول

سيكون يوماً عظيماً ! ففيه تلقى درسه الاول بالفروسية ، وغرزت آخر قطبة في نسيجي .

وقال الكونت ضاحكاً :

ــ هيه ! حسناً يا بلانش ، أريد أن أدفع لك ثمنه .

وقدم لها ذراعه ، وسار بها الى الباحة الاولى حيث رأت عربة كان والدها قد أعطاها اياها ، وقد اشترى لها الكونت جوادين من انكلترا جيء بهما مع جياد الدوق دي ليناكور . وكان السائس الهرم قد أعد كل شيء في الباحة أثناء الدرس . وجرى تدشين العربة بذهابنا فيها لنرى تخطيط الجادة التي يجب أن تسير بخط مستقيم من كلوشيغورد الى طريق شينون والتي تتيح مكتسباتها الحديثة العهد السير خلال الاملاك الجديدة . وفي العودة قالت لي الكونتس بهيئة كلها كآبة :

ــ أنا سعيدة جداً ، والسعادة لي كالمرض ، انها تنهكني وأخشى ان تمّحي كالحلم .

كنت أحبها بكثير من الشغف وهذا ما جعلني غيوراً، ولا أستطيع أن أعطيها شيئاً! كنت في غيظي أبحث عن وسيلة للموت في سبيلها. وسألتني عن الافكار التي تغشى عيني فأخبرتها بسذاجة، وقد أثر فيها ذلك أكثر من جميع الهدايا، وقد ألقت بلسماً على قلبي حين همست في أذني بعـــد أن سارت بي على الدرج:

– أحببني كما كانت تحبني خالتي الا يكون ذلـــك كأنك أعطيتني حياتك ؟ . . .

وإذا أخذتها بهذه الطريقة ألا يعني ذلك جعلي مدينة لك في كل ساعة؟

قالت وهي تدخـــل الصالون حيث قبلت يدها كأنني أجدد قسمي :

– لقد حان أن أنهي نسيجي وقد لا تعرف يا فليكس لماذا فرضت على نفسي هذا الشغل الطويل. إن الرجال يجدون في

شواغل حياتهم وسائل ضد الهموم ، وحركة الأعمال تبعثهم على النسيان ؟ ولكننا نحن النساء ليس لنا في نفوسنا أي مستند ضد آلامنا . ولكي أستطيع الابتسام لولديّ ولزوجي حين أكون فريسة صور كئيبة ، فقد شعرت بحاجة لضبط العذاب بحركة جسدية . وهكذا تجنبت إنحطاط القوى الذي يأتي على أثر تبديد كبير للقوة وعلى أثر ومضات الحماس . إن ممارسة رفع الذراع في أوقات متساوية هدهد فكري ونقل الى نفسي ، حيث تزأر العاصفة ، سلام المد والجزر وضبط تأثرها أيضاً . وكل قطبة فيها شيء من أسراري ، فهل تفهم ؟ هيه ! حسناً . حين صنعت أريكتي الاخيرة فكرت بك كثيراً ! نعم ، كثيراً جداً ياصديقي . وإن ما وصفته في باقاتك قلته انا لرسومي .

كان الغداء مرحاً . وجاك ، كجميع الاولاد الذين هم موضع اهتمام ، وثب الى عنقي حين رأى الزهور التي قطفتها له بدلًا عن التاج . وتظاهرت امه بالحرد مني بسبب هذه الخيانة ؛ انت تعرفين بأية كياسة قدم الولد العزيز الى امه هذه الباقة التي كانت مدعاة للغيرة . في المساء لعبنا نحن الثلاثة بالنرد ، أنا بمفردي ضد السيد

والسيدة دي مورتسوف ، وكان الكونت جذاباً ، وأخيراً ، في نهاية النهار، اوصلوني حتى طريق فرابسل في إحدى تلك الامسيات الهادئة حيث ربحت العواطف العميقة بالانسجام ما خسرته بالحدة. لقد كان يوماً فريداً في حياة هذه المرأة المسكينة ، وبقعة لامعة تأتي في الغالب لتداعب ذكراها في الساعات العصيبة . وبالفعل فقد اصبحت دروس الفروسية موضوع خلاف . كانت الام على حق في خوفها من توجيه الكلام القاسي من الاب الى الابن . وكان جاك يهزل ، واحيطت عيناه الجميلتان بدائرة زرقاء . وكان يتعذب صامتاً لئلا يسبب غماً لأمه . ووجدت دواء لآلامه في ان يقول لوالده إنه تعب ، حين يكون هذا في سورة غضبه . ولكن هذه المخففات الوقتية كانت غير كافية او وجب أن ينوب السائس المرم عن الاب الذي لم يسلم بانتزاع تلميذه منه الا بعد اخذ ورد وعاد الصياح بدون سبب ، والمناقشات الى سابق عهدها ووجد الكونت شواهد على شكاويه في نكران الجميل عند النساء ؛ وحوالي عشرين مرة باليوم قذف العربة والجياد وثياب الخدم الرسمية في وجه إمرأته . وأخيراً حدث احد تلك الحوادث

التي تحب السجايا التي من هذا الجنس والامراض التي من هـذا النوع ان تتعلق بها؛ فقد تجاوزت النفقة ما كان مقدراً في كاسين ولاريتوريير بقيمة النصف ، إذ انهـارات تخشيبات وجدران سيئة . وجاء أحد العمال يعلن بحمق هـذا النبأ للسيد دي مورتسوف بدلًا من أن يقوله للكونتس . وكان هـــذا سبب شقاق ابتدأ بهدوء ثم استعر على درجات فعادت سوداء الكونت التي هدأت منذ ايام تطالب بمتأخراتها من هنرييت المسكينة .

في هذا النهار تركت فرابسل في الساعة العاشرة والنصف بعد الفطور الى كلوشيغورد لأصنع باقة مع مادلين . وقـد جاءت الابنة بالإنائين الى درابزين السطيحة ، أما أنا فسرت الى الحدائق في الجوار ، راكضاً وراء زهور الخريف النادرة الكثيرة الجمال، وحين عدت من نزهتي الاخيرة لم أجد ضابطي الصغير ذا الحزام الوردي والمعطف الصغير المزين بالمخرمات ، وسمعت صراخاً في كلوشيغورد .

ــ الجنرال .

هذا ما قالته مادلين وهي تبكي . وهــذه الكلمة عندها انطوت على كراهية لأبيها .

إن الجنرال يوبخ والدتنا فاذهب ودافع عنها .

وطرت على السلالم ، ووصلت الى الصالون دون أن يراني او يسلم علي الكونت ولا امرأته . وحين سمعت صراخ المجنون الحاد سرت وأقفلت جميع الابواب ثم عدت ، فرأيت هنرييت بيضاء كثوبها . قال لي الكونت .

- لا تتزوج يا فيلكس أبـداً ، فالمرأة تسير وفقاً لوصايا الشيطان ؛ وأكثرهن فضيلة تخترع الشر إن لم يكن موجوداً. كلهن بهائم عجماوات .

وسمعت حينئذٍ حججاً لا بداية لها ولا نهاية . وردد الكونت دي مورتسوف ، مفتخراً برفضه السابق ، حماقـات الفلاحين الذين يرفضون الاساليب الجديدة . وزعم انه لو هو ادار العمل في كلوشيغورد لتضاعف غناه . وكان يصوغ هـذه التجديفات

بشكل عنيف ومهين ، ويقسم ، ويثب من مقعد الى آخر ، ويغير المقاعد ، ويضرب عليها ؛ ثم قاطع نفسه وهو في منتصف جملة ليتحدث عن دماغه الذي يلتهب ، وعن مخيخه الذي سال على موجات كما سالت نقوده . لقد افلسته امرأته . وهدرت له اكثر من عشرين الفاً من الالوف الثلاثين وبعض الالف من الفرنكات التي كان يملكها . واملاك الدوق والدوقة التي يزيد ريعها عن الخمسين الف فرنك قد احتفظت بها لجاك . وأثناء ذلك كانت الكونتس تتألم وتتطلع الى السماء . وصرخ الكونت :

ـ نعم يا بلانش ، انت جلادي ، لقد قتلتني . اني عبء عليك ، انت تريدين التخلص مني ، انت مسخ ماكر . انها تضحك ! اتدري لماذا تضحك يا فيلكس ؟

لزمت الصمت وخفضت رأسي . أما هو فتابع مجيباً نفسه :

ـ هذه المرأة حرمتني كل سعادة . انها أكثر مما هي لي ، وتزعم انها زوجتي ! انها تحمل اسمي ولا تقوم بأي واجب

تفرضه عليها القوانين الالهية والانسانية . انها إذن تكذب على الناس والله. انها تنهكني في الركض وتتعبني لأتركها وحدها ؛ صارت تنفر مني ، إنها تكرهني وتكرس كل فنها لتبقى فتاة ؛ لقد جعلتني مجنوناً من الحرمان الذي تسببه لي لان كل شيء ينتقل الى رأسي المسكين ؛ انهـــا تقتلني ببطء وتعتقد نفسها قديسة ، وتتناول القربان كل شهر .

وكانت الكونتس تبكي في تلك اللحظة بكاءً حاراً. لقد امتهنت من انحطاط هذا الرجل ، وكان جوابها الوحيد :

– يا سيد ! يا سيد ! يا سيد !

وان كان كلام الكونت جعلني أحمر خجلًا عنه وعن هنرييت إلا انه حرك قلبي بعنف لانه تجاوب مع عواطف الطهـــارة والرقة التي هي ثوب الغراميات الاولى. وكان الكونت يقول :

– انها عذراء على حسابي .

وصرخت الكونتس عند سماع هذه العبارة :

ـ يا سيد!

فقال :

ـ وما هو سيدك الآمر هذا؟ ألست السيد؟ وهل يجب أن أعلمك ذلك؟

وتقدم نحوها مظهراً رأساً كرأس الذئب الابيض الذي أصبح شنيعاً، لان عينيه الصفراوين كان فيهما تعبير جعله يشبه وحشاً جائعاً خارجاً من الغاب. وانزلقت هنرييت عن مقعدها الى الارض لتتلقى الضربة التي لم تصل؛ كانت متمددة على الارض فاقدة الوعي، محطمة تماماً. وكان الكونت كالقاتل الذي يشعر بسيلان دم ضحيته على وجهه، فبقي في بلاهته. وأخذت المرأة المسكينة بين ذراعي، وتركني الكونت أقوم بذلك كأنه رأى نفسه غير جدير بحملها؛ ولكنه سار أمامي ليفتح لي باب الغرفة الملاصقة للصالون، الغرفة المقدسة التي لم أدخلها أبداً. وألفيت الكونتس واقفةً وأمسكتها بذراع واحطت قامتها بالاخرى بينما كان السيد دي مورتسوف يرفع

الغطاء الزائف ، واللحاف المحشو بالزغب ، وجهاز السرير ؛ ثم رفعناها ومددناها بملابسها . وحين استردت وعيها رجتنا بإشارة أن نحل حزامها ، ووجد السيد دي مورتسوف مقصاً قص به الحزام كله ، وانشقتها ملحاً ففتحت عينيها . وذهب الكونت خجلًا أكثر منه حزيناً. ومضت ساعتان في صمت عميق . كانت يد هنريت في يدي تضغط عليها دون ان تستطيع الكلام . كانت ترفع عينيها من وقت لآخر لتقول لي بنظرة انها تريد ان تبقى هادئة بدون ضجة؛ ثم كانت لحظة من الراحة استوت فيها على مرفقها وهمست في أذني :

ـ الشقي ! لو تعلم . . .

وألقت رأسها على الوسادة . ان تذكار همومها الماضية المضافة الى آلامها الحالية اصابها بتشنجات عصبية لم أهدئها الا بمغناطيس الحب ؛ مفعول كان لا يزال مجهولًا لدي لكن استعملته بالغريزة. أمسكتها بقوة يلطفها الحنو ، وأثناء هذه النوبة الاخيرة رمقتني بنظرة جعلتني أبكي . وحين انتهت هذه الحركات

العصبية رتبت شعرها المشعث الذي لمسته للمرة الوحيدة في حياتي. ثم أخذت يدها من جديد وتأملت طويلًا هذه الغرفة السمراء الشهباء معاً، وهذا السرير البسيط ذا الستائر الفارسية. وهذه المنضدة المغطاة بغطاء مزخرف حسب الطراز القديم، وتلك الاريكة الحقيرة ذات الحشية المخرمة. ما أكثر الشعر في هذا المكان! وأي إهمال فخمٍ تحوط به نفسها! كانت فخامة الغرفة في نظافتها العظيمة، زنزانة نبيلة لراهبة متزوجة ملأى بالاستسلام المقدس زينتها الوحيدة صليب سريرهـــا، وفوقه صورة خالتها؛ وعلى جانبي جرن الماء المقدس صورتا ولديها رسمتها بالقلم الرصاصي يبدو فيهما شعر الولدين يوم كانا صغيرين. أي عزلةٍ لامرأة يكسف ظهورها في المجتمع أجمل الجميلات! هكذا كان البهو الذي كانت تبكي فيه دائماً سليلة عائلة شهيرة، الغارقة في هذه اللحظة بالمرارة، عازفة عن الحب الذي قد يجلب لها العزاء. بؤس خفي لا يمكن اصلاحه! دموع الضحية فى سبيل الجلاد، ودموع الجلاد في سبيل الضحية. وقد خرجت حين دخل الاولاد والوصيفة. وكان الكونت ينتظرني، وكان في

السابق يرضى بي وسيطاً بين زوجته وبينه ؛ أمسك بيدي وصرخ :

– إبق ، إبق يا فيلكس !

فقلت له :

– آسف . فالسيد دي شيسل عنده زائرون وليس من المناسب ان يبحث المدعوون اسباب غيابي ؛ ولكني سأعود بعد الغداء .

وخرج معي ، وقادني الى الباب الاسفل دون ان يقول لي كلمة ، ثم رافقني حتى فرابل دون ان يدري ماذا فعل ، وأخيراً قلت له :

– بحق السماء يا سيدي الكونت ، دعها تدر بيتك اذا كان هذا يرضيها ولا تزد تعذيبها !

فقال بلهجة رزينة :

– لم يبق لي وقت طويل أحياه، ولن تتعذب طويلًا بسببي . أشعر ان رأسي ينفجر .

وتركني في نوبة من الانسانية اللاإرادية . وبعد الغداء عدت أتنسم أخبار السيدة دي مورتسوف فوجدتها احسن من ذي قبل . اذا كانت هذه هي مسرات الزواج عندها ، واذا كانت المشاهد المماثلة تتجدد في اغلب الاحيان، فكيف تستطيع العيش ؟ يا لها من عملية قتلٍ بطيئة بدون قصاص ! لقد عرفت اثناء تلك الامسية عذاب عديم النظير يوهن به الكونت زوجته . وأمام أية محكمة تقدم دعاوى كهذه ؟ لقد خبلتني هذه الافكار ولا استطيع ان اقول شيئاً لهنرييت ؛ لكني قضيت الليل أكتب اليها . ومن الرسائل الثلاث او الاربع التي كتبتها بقيت لي هذه البداية التي لم اكن راضياً عنها ؛ ولكن اذا بدا لي انني لم اوضح شيئاً ، او تحدثت كثيراً عن نفسي بينما يقضي الواجب ان اهتم بها ، فان هذه البداية توضح لك حالة نفسي .

الى السيدة دي مورتسوف

«كم من أشياء كنت أريد قولها لك عند وصولي، وقد فكرت بها أثناء الطريق ونسيتها حين رأيتك ! نعم ، حين رايتك يا عزيزتي هنرييت لم أجد كلماتي منسجمة مع انعكاسات أنوار نفسك التي تجعل جمالك عظيماً ، ثم اني اشعر بسعادة لا نهاية لها حين أكون بقربك ، حتى إن العاطفة الحالية تمحو عواطف الحياة السالفة . في كل مرة اولد لحياة اكثر اتساعاً واكون كالسائح الذي يتسلق أحد الصخور فيكتشف افقاً جديداً في كل خطوة فاضيف الى كنوزي غير المتناهية كنزاً جديداً في كل حديث جديد ؟ وهنا كما اعتقد سر المودات الطويلة التي لا تنضب . اني لا أستطيع إذن أن أُحدثك عنك إلا بعيداً عنك. في حضورك أنبهر كثيراً فلا أرى ، وأكون كثير السعادة فـــلا أستجوب سعادتي ، كثير الامتلاء منك فلا أكون أنا نفسي ، وكثير الفصاحة بك فلا أتكلم ، وكثير الاهتمام باغتنام الفرصة الحاضرة فلا أتذكر الماضي . اعرفي جيداً ذلك السكر الدائم لتغفري لي

الضلال . بقربك لا أستطيع سوى ان اشعر . ومع ذلك فسأجرؤ على ان اقول لك يا عزيزتي هنرييت بأني لم أشعر في المسرات العديدة التي سببتها لي بغبطة شبيهة باللذات التي ملأت نفسي البارحة حين عدت إلي وحدي بعد تلـــك العاصفة الفظيعة التي ناضلت فيها ضد الشر بشجاعة تفوق طاقة البشر ، وسط غرفتك المضاءة قليلًا ، حيث قادني ذلك الحادث المشؤم . انا وحـــدي عرفت بأي اشعة تستطيع امرأة ان تتألق حين تعود من ابواب الموت الى ابواب الحياة ، وحين يلون جبهتها فجر ولادة جديدة . كم كان صوتك رخيماً ! وكم بدت لي الكلمات ، حتى كلماتك ، صغيرة بينما كانت احساسات الالم الماضي الغامضة تعود الى الظهور في رنة صوتك المعبود ، ممزوجة بالتعزيات الإلهية التي سكنت روعي بهـــا بأن اسررت الي بافكارك الاولى . كنت اعرفك متألقة بكل البهاء الانساني؟ ولكني استشففت البارحة هنرييت جديدة ستكون لي اذا شاء الله . لقد استشففت البارحة لا ادري اي كائن منعتق من القيود الجسدية التي تمنعني من تحريك نيران النفس . كنت بارعة الجمال في وهنك الكثير الجلال . لقد وجدت

البارحة شيئاً اجمل من جمالك ، شيئاً أعذب من صوتك ، وأنوار اسطع من نور عينيك ، وعطوراً لا توصف ؛ لقد كانت نفسك البارحـــة خاضعة للنظر واللمس . آه ! لقد تألمت كثيراً لعجزي عن فتح قلبي لك لتعيدي اليه الحياة . لقد تخليت البارحة عن الرعب الاحترامي الذي توحيه الي . الم يقرب هذا الاعماء بيننا ؟ لقد عرفت معنى التنفس حين تنفست معك ، حين اتاحت لك الازمة ان تتنشق هواءنا . كم من صلاة ترفع الى السماء في لحظة . ولئن لم أمت وأنا أقطع المسافات لأذهب واسال الله ان يبقيك لي فلأن ما من احد يموت من الفرح أو من الألم . لقد تركت لي هذه اللحظة ذكريات دفنت في نفسي ولن تظهر على صفحتها دون أن تتبلل عيناي بالدموع ؛ كل فرح سيزيد من عمق الثلم وكل ألم يجعله أعمق.. نعم ، ان المخاوف التي بعثت الاضطراب في نفسي البارحة ستكون موضوع مقارنة لجميع آلامي الآتية كما ان الافراح التي غمرتني بها ، يا فكرة حياتي العزيزة الابدية ستهيمن على جميع الافراح التي ستتفضل يد الله وتسبغها علي . لقد جعلتني افهم الحب الالهي ، هذا الحب الاكيد الذي لايعرف اي شكوك ولا غيرات وهو المليء بقوته وديمومته . »

كانت الكآبة العميقة تنخر نفسي ، فمشهد تلك الحياة الداخلية كان جارحاً لقلب فتي وجديد على الاضطرابات الاجتماعية ؟ وجود هذه الهاوية على مدخل الدنيا ، هاوية لا قرار لها ، بحر ميت . لقد أوحت الي هذه الحفلة الفظيعة من سوء الحظ افكاراً لا نهاية لها ، وكان لي عند خطوتي الاولى في الحياة الاجتماعية قياس كبير تكون الحوادث الاخرى الآتية صغيرة بالنسبة اليه . وحزني جعل السيد والسيدة دي شيسل يدركان اني بائس في غرامي ، وكنت سعيداً لان عاطفتي لم تلحق اي ضرر بهزيمتي الكبيرة .

وفي الغد حين دخلت الصالون كانت وحيدة ؛ فتأملتني هنيهة وهي تمد يدها الي وقالت :

ـ اذن سيكون الصديق دائماً كثير الرأفة .

وابتلت عيناها بالدمع ، ونهضت . ثم قالت لي بلهجة رجاء بائس :

ــ لاتكتب الي هكذا بعد الآن .

ولجأ السيد دي مورتسوف الى المجاملة . واستعادت الكونتس شجاعتها ، واستعادت جبهتها إشراقها ؛ ولكن صبغتها أنبأت عن آلام الامس التي هدأت دون ان تنطفىء . وقالت لي في المساء ونحن نتنزه خلال اوراق الخريف الجافة التي كانت ترن تحت أقدامنا :

ــ الالم لا نهاية له . اما الفرح فله حدود .

كلمة تنبىء عن آلامها اذا قورنت هذه الآلام بسعادتها الهاربة .

وقلت لها :

لا تعيبي الحياة ، فأنت تجهلين الحب مع ان له لذات تشع حتى في السماوات .

فقالت :

اسكت لا اريد ان اعرف شيئاً عنه . الغرينلندي يموت في

ايطاليا ! وأنا هادئة وسعيدة بقربك ، واستطيع ان اقول لك جميع افكاري، فلا تهدم ثقتي . لماذا لا تكون لك طهارة الكاهن وسحر الرجل الحر ؟

فقلت وانا اضع يدها على قلبي الذي كان ينبض بسرعة :

ــ انك تسقين كؤوس السم .

فصرخت وهي تسحب يدها كأنها احست بألم حاد :

ــ ايضاً ! . . . اتريد اذن ان تحرمني السرور الحزين في ان اوقف سيلان دماء جراحي بيد صديقة ؟ لا تزدني ألماً على آلامي فانــــك لا تعرفها كلها ! . . . والاكثر سرية منها هي الاكثر صعوبة في الاغضاء عنها . لو كنت امرأة لأدركت في اية كآبــة ممزوجة بالتقزز تنغمس نفس ذات كبرياء، بينما ترى نفسها موضوع انتباه لا يصلح شيئاً في الوقت الذي يُظن به ان هذا الانتباه يصلح كل شيء . سيعود الى تملقي خلال بضعة ايام هادفاً الى ان اغفر له خطأه . وحينئذ استطيع الحصول على ما يرضي ابعــــد

المطالب عن الصواب . انا مهانة بهذا الذل ، بهذه الملاطفات التي تنتهي يوم يظن اني نسيت كل شيء . كأنك لا تستحق حسن الالتفات من سيدك الا في حالة ارتكابه الاخطاء...

فقلت بحرارة :

جرائه .

فقالت وهي تقذفني بابتسامة حزينة :

— أليس ذلك شرطاً مخيفاً للوجود؟ ثم اني لا أعرف ان استفيد من هذه السلطة العابرة في تلــك اللحظة . فأنا اشبه الفرسان الذين لا يجهزون على خصمهم الذي يقع . ان نرى على الارض من يجب ان نعتبره، وننهضه لنتلقى منه ضربات جديدة، ونتألم لسقوطه اكثر مما يتألم هو نفسه ، ونُشان اذا استفدنا من هذا النفوذ العابر حتى في هدف مفيد، ونبذر قوانا ، ونستنفد كنوز النفس في هذا الصراع غير النبيل ، ولا نستولي على الملك الا ساعة نتلقى جراحاً مميتة ! ان الموت افضل من هذا ! لو لم

أولادي لتركت نفسي اسير في مجرى هذه الحياة ؛ ولكن ماذا كان يحصل لولا شجاعتي المجهولة؟ يجب ان اعيش لأجلهم مهما تكن الحياة مؤلمة. انت تحدثني عن الحب؟ اوه! يا صديقي، فكر اذن في اي جحيم سأتردى لو اعطيت هذا الكائن العديم الشفقة، شأن جميع الناس الضعفاء، الحق في ان يحتقرني. اني لا احتمل اي ريبة! وطهارتي وسلوكي يشكلان قوتي. وللفضيلة يا ولدي العزيز مياه مقدسة يغمس المرء نفسه فيها ويخرج منها متجدداً بمحبة الله!

ـ اسمعي يا عزيزتي هنريت، لم يبق لي هنا سوى اسبوع، واريد ان ...

فقالت مقاطعة:

ـ آه! تتركنا ...

ـ ولكن الا يجب ان اعرف ماذا صمم ابي بشأني؟ ها قد مرت ثلاثة اشهر.

ـ اني لم اعدّ الايام .

هكذا اجابتني باستسلام امرأة متأثرة . ثم عادت الى نفسها وقالت :

ـ لنمشِ ، لنذهب الى فرابسل .

ونادت الكونت وولديها ، وطلبت شالها ؛ ولما اصبح كل شيء جاهزاً اصبح لها فعّالية المرأة الباريسية ، هي الكثيرة البطء والهدوء ، وسرنا أفواجاً الى فرابسل لنقوم بزيارة لم تكن الكونتس مدينة بها . وقد بذلت جهدها لتحدث السيدة دي شيسل التي كانت لحسن الحظ مسهبةً في اجوبتها . وتحدث الكونت والسيد دي شيسل عن اعمالها . كنت خائفاً ان يتباهى دي مورتسوف بعربته وخيوله ، ولكنه كان كامل الذوق ؛ سأله جاره عن الاعمال التي باشر بها في كاسين ولاريتورييرِ. وحين سمعت السؤال تطلعت الى الكونت معتقداً انه سيتفادى موضوع الحديث المشؤوم الذكرى ، الشديد المرارة بالنسبة اليه ؛ لكنه اقرّ ضرورة تحسين حالة الزراعة في الاقليم ، وبناء مزارع

جميلة في المنطقة تكون اماكنها سليمة وصحية ؛ واخيراً خص بالفخر افكار زوجته . وتأملت الكونتس وانا احمر خجلًا . ان فقدان الرقة عند انسان يظهر الكثير منها في بعض المناسبات ، وهذا النسيان للحادث القاتل . وذلك الاستحسان لافكار قاومها بكثير من العنف ، وذلك الايمان بالنفس ، كلها اذهلتني .

وحين سأله السيد دي شيسل :

ـ اتعتقد انك تستطيع استعادة نفقاتك ؟

اجاب بحركة تأكيدية :

ـ وزيادة !

ان نوبات كهذه لا تفسر الا بكلمة « جنون كامل » . وكانت هنرييت ، المخلوقة الالهية ، مشرقة ، الم يظهر الكونت انه رجل رأي ، وقيماً جيداً ، وزراعياً ممتازاً ؟ كانت تداعب بنشوة شعر جاك ، سعيدة بنفسها ، وسعيدة بولدها . اي مهزلة مرعبة ، وأي

مأساة ضاحكة ! كنت فزعاً من ذلك . وفيما بعد ، حين ارتفع الستار امامي عن المشهد الاجتماعي ، كم رأيت من امثال دي مورتسوف ، اقل منه ومضات شهامة ، واقل ديناً ! واية سلطة فريدة ولاذعة تلك التي تلقي بصورة مستمرة ملاكاً الى مجنون ، وتلقي الى رجل الحب ، الصادق الشاعري ، امرأة سيئة ، والى الصغير كبيرة ، والى القرد مخلوقة جميلة سماوية ، والى جوان النبيلة الكابتين ديار ؛ الذي عرفت تاريخه في بوردو[1] ؛ والى السيدة دي بوزيان من يدعى أجودا[2] ، والى السيدة ديغليمون زوجها[3] ، والى المركيز ديسبار زوجته[4]. اعترف لك انني بحثت طويلاً عن معنى هذا اللغز . اني نبشت الكثير من الغوامض ، واكتشفت سبب عدة قوانين طبيعية ، ومعنى بعض الكتابات

(١) اشارة الى اقصوصة لبلزاك بعنوان « Les marrana »

(١) انظر « الاب غوريو » و « المرأة المهجورة » .

(٣) انظر « المرأة ابنة الثلاثين » .

(٤) انظر « التحريم L'interdiction» .

الهيروغليفية الالهية؛ اما من هذا فلم اعرف شيئاً. لقد درسته دائماً كصورة لمحطم رؤوس هندي حيث احتفظ البراهمة لانفسهم بالبناء الرمزي. ان روح الشر تظهر هنا جيداً، انها السيد، ولا اجرؤ على اتهام الله. شقاء لا دواء له، من اذن يتلهى بنسجك؟ هل كانت هنريت وفيلسوفها المجهول[١] اذن على حق؟ وهل تحتوي صوفيتهما على معنى الانسانية العام؟

كانت الايام الاخيرة التي قضيتها في تلك البلاد هي ايام الخريف ذي الاوراق المتساقطة، ايام مظلمة بالغيوم التي تغطي احياناً سماء التورين الدائمة الصفاء والحرارة في هذا الفصل الجميل. وليلة رحيلي سارت بي السيدة دي مورتسوف الى السطيحة قبل الطعام وقالت لي بعد دورة قمنا بها صامتين تحت الاشجار العارية:

ــ سوف تدخل يا عزيزي فليكس الى الدنيا واريد ان

(٥) لقب السيد سان مارتن الذي مرّ ذكره.

ارافقك اليها بتفكيري. ان الذين تعذبوا كثيراً عاشوا كثيراً ؛ لا تعتقد ان النفوس المنعزلة لا تعرف شيئاً عن هذه الدنيا . انها تقاضيها. واذا وجب ان اعيش بصديقي فلا اريد ان اكون متضايقة في قلبه ولا في ضميره ؛ من الصعب جداً تذكر جميع القواعد في غمرة المعركة ، فاسمح لي ان اسديك بعض التعاليم من ام الى ولدها . سأودعك رسالة طويلة يوم رحيلك يا ولدي العزيز تجد فيها افكاري كامرأة عن الدنيا ، عن الناس ، عن مجابهة الصعوبات في بلبلة المصالح الكبيرة هذه ؛ عدني بألا تقرأها الّا في باريس . ان الصلاة هي تعبير عن احد اهواء العاطفة . هذه الاهواء التي هي سرنا نحن النساء ، ولا اعتقد ان فهمها مستحيل ، ولكن من الممكن ان نشعر بالحزن حين نعرف انها فُهمت ؛ دع لي تلك الطرقات الصغيرة الضيقة التي تحب المرأة ان تتنزه وحدها فيها .

فقلت لها وانا اقبل يديها :

ــ وعدتك .

فقالت :

ــ آه! لي ايضاً قسم اطلبه منك، ولكن تعهد مقدماً بالقبول به .

فقلت لها ، معتقداً ان الامر يتعلق بقضية الاخلاص :

ــ اوه! نعم .

فأجابت ــ وهي تبتسم بمرارة :

ــ الامر لا يتعلق بي . لا تقامر يا فليكس ابداً في صالون مهما كان ، ولا استثني صالون احد .

فأجبتها : لن اقامر مطلقاً .

ــ حسناً . لقد وجدت لك افضل ما تقضي به وقتك الذي تبدده في القمار؛ سترى انك ستربح دائماً ، عاجلًا ام آجلًا ، حيث يخسر الآخرون .

ــ كيف ؟

فأجابت بهيئة دعابة تسبل على تعليماتها سيماء الجد التي ترافق تعليمات الشيوخ من الاهل عادةً :

ـ الرسالة ستقول لك .

وحدثتني الكونتس ما يقارب الساعة وأثبتت لي عمق مودتها بأن كشفت لي بأي اعتناءٍ كانت تدرسني خلال تلك الاشهر الثلاثة الاخيرة؛ انها تغلغلت الى آخر خفايا قلبي، محاولة ان تطبق قلبها عليه؛ وكانت لهجتها منوعة، مقنعة، وكان كلامها يتساقط من شفة ام، ويظهر بالنبرة اكثر مما يظهر بالمادة مدى الروابط بيننا .

وقالت منهيةً حديثها :

ـ لو تعرف بأي قلقٍ سأتبعك في طريقك، واي سرور اذا سرت مستقيماً، واي بكاء اذا اصطدمت بالزوايا. صدقني، ان محبتي لا مثيل لها؛ انها لا ارادية ومختارة معاً . آه ! لكم احب ان اراكِ سعيداً ، قادراً، معتبراً، انت الذي ستكون لي حلماً حيًّا .

لقد ابكتني . فقد كانت عذبة ومخيفة معاً ؛ وقد احتاجت عاطفتها الى الكثير من الجرأة لتنكشف وكانت اكثر طهارة من ان تتيح اقل امل ٍ للشاب المتعطش الى اللذة . وبدلًا من لحمي المتروك مزقاً في قلبها سكبت لي الاضواء المستديمة التي لا تفسد من ذلك الحب الالهي الذي لا يرضي سوى الروح . لقد صعدت الى مرتفعات حيث اجنحة الحب الكثيرة الالوان التي جعلتني التهم كتفيها لا تستطيع ان تحملني اليها ؛ ولكي يصل انسان اليها يجب ان يكون قد حصل على اجنحة الساروفيم البيضاء .

وقلت لها :

– في جميع الامور ، سأفكر : ماذا تقول هنرييت ؟

– حسناً ، اريد ان اكون النجمة والمعبد .

قالت ذلك مشيرة الى احلام طفولتي ومحاولةً ان تحقق هذه الاحلام لتخدع رغباتي .

وهتفت :

ـ ستكونين ديني ونوري ، ستكونين كل شيء .

فأجابت :

ـ كلا ، لا استطيع ان اكون مصدر لذّاتك .

وتنهدت، وابتسمت لي ابتسامة الهموم الخفية، ابتسامة العبد الذي ثار ذات لحظة. ومنذ ذلك لم تعد المحبوبة، بل المحبوبة أكثر من كل شيء ؛ انها لم تكن في قلبي كامرأة تريد مكاناً، امرأة تحفره بالتفاني او بفرط اللذة ! كلا ، ان لها القلب كله ، وكانت شيئاً ضرورياً للعب العضلات ؛ لقد أصبحت ما كانته بياتريس الشاعر الفلورنتي ، ولور الشاعر الفينيسي[1] الطاهرة، أم الافكار العظيمة والسبب المجهول للتصميات المنقذة، وسند المستقبل ، والنور الذي يلمع في الظلام كالزنبقة في الاوراق الداكنة . نعم ، انها

(١) اشارة الى بترارك الذي لم يكن شاعراً فينيسياً بل توسكانياً .

أملت تلك المقاصد السامية التي تقطع النصيب بالنار ، وتصلح الشيء المعرّض للخطر ؛ لقد منحتني ذلك الجلد على طريقة كوليني لأغلب الغالبين ، ولأنهض من الهزيمة ، وانهك أشد المصارعين قوة .

وفي الغد ، بعد ان تناولت الفطور في فرابسل وودعت مضيفيّ اللذين كان كثيري المجاراة لانانية حبي ، عدت الى كلوشيغورد . وقد عزم السيد والسيدة دي مورتسوف على السير معي الى تور حيث أسافر ليلًا الى باريس . كانت اثناء الطريق صامتة بألم . زعمت اولًا انها مصابة بصداع ، ثم احمر وجهها من هذه الكذبة ، ثم خففتها فجأة بقولها انها لم تكن تراني اذهب الا وتشعر بالحسرة . ودعاني الكونت للعودة اليه حين اشعر برغبة في رؤية وادي الاندر في غياب السيد دي شيسل . وافترقنا ببطولة ، دون دموع ظاهرة ، ولكن كبعض الاولاد المرضى . وانّى جاك بحركة حسية جعلته يذرف بعض الدموع . بينما ضغطت مادلين ، التي اصبحت كبيرة ، على يد أمها .

وقالت الكونتس وهي تقبل جاك بحنو :

ـ يا صغيري العزيز !

وحين صرت وحيداً في تور ، انتابتني بعد الغداء احدى سورات الغضب التي لا تفسير لها والتي لا يُشعر بها الا في مقتبل العمر . استأجرت حصاناً وقطعت المسافة بين تور وبون دي روان في ساعة وربع الساعة . وهناك وقد شعرت بالخجل من إبداء جنوني ، قطعت الطريق راكضاً على قدمي ووصلت كالجاسوس تحت السطيحة بخطى الذئب . ولم تكن الكونتس هناك . فخيل الي انها تتعذب ، وكنت قد احتفظت بمفتاح الباب الصغير فدخلت ؛ كانت في تلك اللحظة تهبط الدرج مع ولديها لتستنشق الهواء ، حزينة متمهلة ، والكآبة الهادئة تترك طابعها على هذه المناظر الطبيعية عند مغيب الشمس .

وقالت مادلين :

ـ هذا فليكس يا أمي .

فهمست في اذنها :

ــ نعم ، انا . تساءلت لماذا أبقى في تور مع انه لا يزال من السهل عليّ ان اراك . ولماذا لا ألبي رغبة لم استطع تحقيقها في ثمانية ايام؟

وقالت مادلين :

ــ اسكت . انك ستجذب الجنرال الى هنا .

وقالت الكونتس :

ــ هذا عمل لا يدل على حكمة . انه جنون !

قالت هذه السجعة بصوتها ودموعها ، انه تسديد لما يسمى حسابات المراباة في الحب . وقلت مبتسماً :

ــ لقد نسيت ان اعيد اليك هذا المفتاح .

فقالت : ــ اذن لن تعود ابداً ؟

فسألت ، وانا ألقي عليها نظرة جعلتها تخفض جفونها لتخفي جوابها الصامت :

ــ وهل نحن افترقنا ؟

وذهبت بعد لحظات مضت في ذلك الخدر السعيد لنفوس وصلت الى حيث ينتهي الهوس ويبتدىء الذهول . سرت بخطى بطيئة ملتفتاً دون انقطاع . وحين تأملت الوادي للمرة الاخيرة من قمة الهضبة ، دهشت من التناقض الذي بدا لي حين قارنته بين ما هو عليه وما كان فيه حين أتيته : ألم يكن مخضراً ، ألم يكن متوهجاً حينذاك كما كانت تتوهج وتخضر رغباتي وآمالي ؟ انه مطلع الآن على اسرار داكنة كئيبة لهذه العائلة ، مشاطر قلق «نيوبه» مسيحية ، حزين مثلها ، منقبض النفس ، لقد وجدت الوادي في هذه اللحظة على وتيرة افكاري . في هذه اللحظة كانت الحقول جرداء ، واوراق الحور تتساقط ، وما بقي منها كان بلون الصدإ ؛ وكانت اغصان الكروم محترقـــة ، وذرى الغابات تبدو ذات صبغة وقور بذلك اللون المدبوغ الذي كان

الملوك في السابق يختارونه لملابسهم ، والذي كان يخفي أرجوان السلطـــة تحت سمرة الغموم . والوادي الدائم الانسجام مع افكاري حيث تموت الاشعة الصفراء لشمس فاترة ، كان يمثل لي صورة حية لنفسي . ان ترك امرأة محبوبة يشكل وضعية فظيعة او بسيطة ، حسب الطبائع ؛ اما أنا فوجدت نفسي فجأة كأنني في بلاد اجنبية اجهل لغتها ؛ لم أكن استطيع التعلق بشيء وانا ارى اشياء لا اشعر ان نفسي متعلقة بها. وانتشر حينئذٍ امتداد حبي . وارتفعت هنرييتي العزيزة بكل سموها في هذا القفر الذي لم اعش فيه الا بذكراها . كانت صورة معبودة بشكل ديني جعلتني اصمم ان ابقى دون دنس بحضور معبودي السري وان ارتدي بشكل مثالي ثوب اللاويين الابيض ، مقلّداً بترارك الذي لم يمثل ابداً امام لور دي نوف الا وهو يرتـــدي البياض بكليته . بأي فراغ صبر انتظرت الليلة الاولى لأستطيع ، وانا عائد الى أبي ، ان اقرأ الرسالة التي كنت ألمسها طوال الرحلة كما يلمس البخيل مبلغاً من النقود الورقية التي اضطر الى نقلها معه . لقد قبلت اثناء الليل الورقة التي اظهرت هنرييت ارادتها فيها

حيث استمدت الفوح العجيب المتفلت من يدها ، والــتي منها تندفع نبرات صوتها في ادراكي المكتسب. ما قرأت أبداً رسائلها إلا كما قرأت الرسالة الاولى ، في السرير، وسط سكون مطلق ؛ ولا ادري كيف يمكن بغير ذلك قراءة رسائل كتبها شخص محبوب ؛ ومع ذلك فهناك رجال غير جديرين بأن يكونوا محبوبين ، يمزجون قراءة هذه الرسائل بشواغل اليوم ، يتركونها ويعودون اليها باطمئنان مقيت . اليك يا ناتالي الصوت المعبود الذي رن فجأة في سكون الليل ، اليك الصورة السامية التي انتصبت لتريني باصبعها الطريق الحقيقي عند مفترق الطرق الذي وصلت اليه :

«أي سعادة يا صديقي في ان اجمع العناصر المبعثرة لتجربتي لأنقلها اليك وأسلحك بها ضد اخطار الدنيا التي يجب ان تسير خلالها بمهارة ! لقد شعرت باللذات المسموح بها لمحبة الام وانا اهتم بك خلال بعض الليالي. واثناء كتابة هذه الرسالة جملةً جملة ، ناقلةً نفسي مسبقاً الى الحياة التي ستحياها ، كنت اذهب احياناً الى نافذتي. وحين ارى من هناك ابراج فرابسل على

ضوء القمر ، كنت غالباً ما اقول لنفسي : « انه ينام وانا اسهر في سبيله !...» احساسات جذابـــة ذكرتني بسعادتي الاولى في حياتي ، بينما كنت اتأمل جاكِ النائم في مهده منتظرة استيقاظه لأعطيه حليبي . ألست رجـــلًا – طفلًا يجب ان تنتعش نفسه ببعض التعاليم التي لم تستطع ان تتغذّى بها في تلك المدارس المخيفة التي تعذبت فيها كثيراً ؛ ولكننا نحن النساء نملك مزية تقديمها لك ! ان هذه التوافه تؤثر في نجاحك ، انها تهيئه وتمكنه. ألا تعد أمومة روحية سوى تلك الولادة لاسلوب يرجع الانسان اليه اعمال حياته ، امومة يفهمها الطفل جيداً ؟ دعني يا عزيزي فليكس ، حتى ولو ارتكبت هنا بعض الاخطـــاء ، ان ارسم لصداقتنا التجرد الذي سيقدسها: اليس في تسليمك للدنيا تنكر لك؟ ولكنني احبك حباً يكفي ليجعلني اضحي بمسرّاتي في سبيل مستقبلك الجميل. منذ اربعة اشهر جعلتني افكر بشكل غريب في القوانين والعادات التي تحكم عصرنا . فالاحاديث التي تبادلتها مع خالتي والتي يتناولك مغزاها ، انت الذي حللت محلها ! وحوادث حياتها التي قصها عليّ السيد دي مورتسوف ؛

واقوال ابي الذي كان البلاط مألوفاً لديه ، واكبر الظروف كأصغرها ، كل هذا انبجس في ذاكرتي لفائدة ولدي بالتبني الذي اراه على أهبة الانطلاق بين الناس شبه وحيد؛ على وشك السير دون مشورة في بلاد هلك فيها العديدون بسبب صفاتهم الطيبة المنشورة بطيش ونجح البعض بسبب قبائحهم المستعملة بشكل حسن .

قبل كل شيء ، تأمل التعبير الموجز عن رأيي في المجتمع ككل ، لان القليل من الكلام يكفي معك . اني اجهل هل للمجتمعات اصول الهية ام ان الانسان هو الذي ابتدعها، واجهل ايضاً في اي اتجاه تتحرك ؛ اما ما يبدو لي اكيداً فهو وجودها. ومنذ ان تقبل بها بدلاً من ان تعيش منعزلاً عليك ان تأخذ اوضاعها التكوينية كأنها صالحة ، وسيعقد في الغد شبه اتفاق بينها وبينك . هل مجتمع اليوم يستخدم الانسان اكثر مما يفيده ؟ اعتقد ذلك ؛ اما ان يجد الانسان فيه من الاعباء اكثر من الارباح ، او ان يشتري الفوائد التي يجنيها منه بثمن باهظ ، فهذه المسائل تعني المشترعين لا الفرد . وحسب رأيي ، عليك ان

تطيع القانون العام في كل شيء دون ان تناقشة سواء أأساء الى مصاحتك او افادها . وهذا المبدأ صعب التطبيق مهما بدا لك بسيطاً ؛ فهو كالنسغ الذي يجب ان يجري في أدق الانابيب الشعرية ليحيي الشجرة، ويحفظ لها اخضرارها ، وينمي زهورها، ويحسن اثمارها بشكل بهي لتثير الاعجاب التام . يا عزيزي ، ليست القوانين كلها مكتوبة في كتاب ، فالاخلاق ايضاً تخلق قوانين . والمعروفة اقل من غيرها هي الاهم ؛ وليس هناك اساتذة، ولا ابحاث، ولا مدرسة لهذه القوانين التي تحكم اعمالك، واحاديثك ، وحياتك الخارجية ، وطريقة تقديم نفسك للناس او للوصول الى الثروة . والانتقاص من هذه القوانين الخفية يعني البقاء في اعماق الحالة الاجتماعية بدلًا من السيطرة عليها . وحتى لو كانت هذه الرسالة تشكل تأكيدات لأفكارك فارجو ان تدعني اودعك سياستي كامرأة .

ان تفسير المجتمع بنظرية السعادة الفردية المأخوذة بمهارة على حساب الجميع هو مذهب مشؤوم حيث تحمل الاستنتاجات القاسية الانسان على الظن ان كل ما انتحله سرًا بدون ان

يشعر القانون والناس او الفرد بالضرر ، هو حسن او مكتسب بالشكل المطلوب . وبموجب هذا القانون فان اللص الحاذق بريء ، والمرأة التي تهمل واجباتها دون ان يعرف عنها شيء هي سعيدة وحكيمة ؛ اقتل رجلًا دون ان تحصل العدالة على اي دليل ، فاذا اكتسبت بهذه الطريقة تاجاً على طريقة مكبث تكون قد احسنت التصرف ؛ وتصبح مصلحتك قانوناً سامياً ، فالقضية تقوم بدون شهود ولا أدلّة ، على قلب الصعوبات التي تضعها الاخلاق والقوانين بينك وبين رغباتك . ومشكلة الحصول على ثروة يا صديقي تتحول عند من يرى المجتمع بهذا الشكل الى لعب (برتيته) حيث يكون راس مال اللعب اما مليوناً واما النفي ، إما مركزاً سياسيًّا واما العار . والطاولة الخضراء لا تحتوي دائماً على القماش الكافي لجميع المقامرين . ولاعداد ضربة موفقة يلزم نوع من العبقرية. اني لا أكلمك عن المعتقدات الدينية ولا عن العواطف ، فالامر هنا يتعلق بدواليب آلة من ذهب وحديد. والناس يهتمون بنتائجها المباشرة. يا ابن قلبي العزيز ، لو قاسمتني رعدتي حيال نظرية المجرمين هذه

لماً توضح المجتمع لعينيك إلا كما يتوضح في كل ادراك سليم ، بواسطة نظرية الواجبات . نعم ، ستلزم البعض حيال البعض الآخر تحت الف شكل متنــــوع . وحسب رأيي فان الدوق والامير مدينان للصانع او للفقير بينما الصانع والفقير غـــير مدينين للدوق والامير . ان الالتزامات المعقودة تزداد بسبب المكاسب التي يقدمها المجتمع للانسان ، وبموجب هذا القانون ، الصحيح في التجارة كما في السياسة ، فان اهمية الجهود في كل مكان تماشي اتساع الارباح . وكل فرد يدفع دينه على طريقته . حين يأتي رجلنا المسكين في مزرعة لاريتوريير لينام منهوكاً من اعمال الحراثة ، اتعتقد انه لم يقم بواجبات ؟ لقد أتم واجباته بالتأكيد افضل من كثير من الناس ذوي المراتب العالية . فاذا نظرنا بهذه النظرة الى المجتمع الذي تريد فيه مكاناً متناسباً مع ذكائك ومزاياك ، فعليك ان تضع هذه النصيحة كمبدإٍ رئيسي : لا تسمح لنفسك بشيء ضد ضميرك وضد الضمير العام . ومهما بدا لك إلحاحي سطحياً فاني ارجوك ، نعم ، هنرييتك ترجوك ، ان تزن جيداً معنى هذين القولين . انهما بسيطان في الظاهر ،

وهما يعنيان يا عزيزي ان الاستقامة والشرف والامانة والتهذيب هي المعدات الاكثر تأكيداً والاكثر سرعة لنجاحك. هناك جمهور من الناس في هذا المجتمع الاناني يقول لك بأن المرء لا يشق طريقه بالعواطف، وان الاعتبارات الاخلاقية المحترمة جداً تؤخر سيره؛ وسترى أناساً سيئي التربية، قليلي الادب او عاجزين عن قياس المستقبل، ينكدون على صغير، ويصبحون مذنبين من جراء عدم تهذيبهم حيال امرأة عجوز، ويرفضون ان يضجروا لحظة مع شيخ طيب بحجة ان جميع هؤلاء لا يفيدونهم بشيء. ستشاهد هؤلاء الناس فيما بعد معلقين بأشواك لم يقطعوا رؤوسها، ويخسرون ثرواتهم في سبيل لا شيء؛ بينما الانسان المتمرس منذ اول الامر بنظرية الواجب هذه لن يلاقي عوائق ابداً؛ ومن الممكن ان يصل بسرعة أقل، ولكن ثروته ستكون متينة، وستبقى، بينما تنهار ثروات الآخرين.

حين اقول لك ان تطبيق هذا المذهب يتطلب قبل كل شيء علم السلوك فمن الممكن ان تشتم في تفقهي هذا رائحة البلاط والتعاليم التي تلقيتها في بيت دي لينانكور. اوه! يا

صديقي، اني اعلق اكبر اهمية على هذا التعليم، الصغير في الظاهر. فعادات الجماعات الكبيرة ضرورية لك كما يمكن ان تكون المعارف الواسعة المتنوعة التي تتحلى بها. انها مطلوبة في الغالب: فبعض الجهـــلة بالفعل، ولكنهم متحلون بروح طبيعية معتادة على وضع تتمة لافكارهم، يصلون الى عظمة تهزم من هم اكثر جدارة منهم. لقد درستك جيداً يا فليكس لاعرف هل كانت تربيتك التي اكتسبتها مشتركة في المدارس، لم تفسد شيئاً عندك. واي فرح انتابني حين عرفت انك تستطيع اكتساب القليل الذي ينقصك. الله وحده يعلم! ان طرق السلوك هي خارجية محضة عند كثير من الاشخاص الذين نشأوا في هذه التقاليد، لان التهذيب الطيب، والتصرفات الحسنة كلها تأتي من القلب ومن عاطفة كبيرة للقيمة الشخصية. هذا هو سبب وجود لهجة سيئة عند بعض النبلاء رغم تربيتهم، بينما بعض الاشخاص من اصل بورجوازي لهم بالطبيعة ذوق حسن وليس عليهم إلا ان يتلقوا بعض الدروس ليظهروا بتصرفات ممتازة دون اي تقليد اخرق. صدّق من امرأة بائسة لن تخرج

ابداً من واديها هذه اللهجة النبيلة ، وتلك البساطة الظريفة المطبوعة في الكلام ، في الحركة ، في الهيئة ، وحتى في البيت ، وتقوم كقصيدة مادية فتنتها لا تقاوم ؛ احكم على قوتها حين تستمد منشأها من القلب . والتهذيب يا ولدي العزيز يقوم على ان ينسى المرء نفسه في سبيل الآخرين ؛ وهو عند كثير من الناس كِشرة اجتماعيــــة تناقض نفسها حالما تُهدد المصلحة ، وعندئذٍ يصبح الكبير قزماً . ولكن التهذيب الحقيقي يا فليكس ، واريدك ان تكون كذلك ، يتضمن فكرة مسيحية ؛ انه كزهرة الاحسان ، ويقضي بان ينسى المرء نفسه واقعياً . ولذكرى هنرييت ، لا تكن اذن ينبوعاً دون ماء ، وليكن لك الروح والشكل ! لا تخشَ ان تكون في اغلب الاحيان احمق هذه الفضيلة الاجتماعية ، فعاجلًا ام آجلًا ستقتطف ثمرة كثير من الحبوب التي تبدو في الظاهر انها القيت في الهواء . لقـــد لاحظ ابي فيما مضى ان الحنث بالوعد هو احد التصرفات الجارحة في التهذيب المساء فهمه . فحين يطلب منك شيء لا تستطيع القيام به فارفض بصراحة ولا تترك اي امل خادع ؛ ثم امنح

بسرعة ما تريـــد منحه ؛ وبهذا تكسب فضل الرفض وفضل الاحسان ، شهامة مزدوجة ترفع من قيمة السجية بشكل رائع. ولا ادري اذا كان الناس لا يحقدون علينا بسبب امل مضاع اكثر من رضاهم عنا بسبب منّة. على الخصوص يا صديقي ، لأن هذه الامور الصغيرة من اختصاصي واستطيع ان اشدد الكلام على ما اعتقد انني اعرفه ، لاتكن متواكلًا ، ولا مبتذلًا ، ولا مسارعاً. انها ثلاثة مهالك ! فالتواكل المفرط يُنقص الاحترام ، والابتذال يكلفنا الاحتقار ، والحماس يجعلنا صالحين لأن نُستغل . وقبلًا يا ولدي العزيز لا يكن لك اكثر من صديقين او ثلاثة في مجرى حياتك ، فثقتك الكاملة هي كل ما يملكون ؛ ألا يعد منحها لأناس عديدين خيانةً لهم ؟ واذا كانت صداقتك لبعض الناس اكثر متانةً من صداقتك لغيرهم ، فكن كتوماً ، كن دائم التحفظ كما لو انهم سيكونون منافسين لك ذات يوم ، كأخصام ، كأعداء . ان صدف الحياة تريد هكذا . احتفظ اذن بهيئة لا تكون باردة ولا حارة ، اعرف ان تجد هـــذا الخط الوسط الذي يستطيع المرء ان يبقى عليه دون ان يعرّض شيئاً

للخطر . نعم ، اني اعتقد ان الانسان الشهم هو ايضاً بعيد عن مجاملة «فيلانت» الجبانة بعده عن فضيلة «ألسست» الخشنة . ان عبقرية الشاعر الهزلي تتألق في الدلالة على الوسط الحقيقي الذي يدركه المتفرجون النبلاء ؛ وبالتأكيد فالجميع يميلون نحو مضحكات الفضيلة اكثر من ميلهم نحو السلطان المحتقر المخبإ تحت سذاجة الانانية ؛ ولكنهم يعرفون كيف يتقون هذا وذاك . اما الابتذال ، فاذا جعلت بعض الحمقى يقولون عنك انك رجل جذاب ، فان الناس المعتادين على سبر الغور ، على تقييم الكفاءة الانسانية ، سيستنتجون عيوبك وسيسقط اعتبارك بسرعة ، لان الابتذال هو وسيلة الضعفاء ؛ والضعفاء ، مع الاسف ، محتقرون من مجتمع لا يرى في جميع اعضائه سوى اجزاء من آلة ، ومع ذلك فالطبيعة على حق في ان تقضي بالموت على الكائنات الناقصة . ومن الممكن ايضاً ان الوقايات المؤثرة التي تقوم بها امرأة قد نشات عن اللذة التي تجدها في الصراع ضد قوة عمياء ، وعن جعلها ذكاء القلب ينتصر على شراسة المادة . ولكن المجتمع ، وهو امرأة اب اكثر منه أم ،

يعبـــد الاولاد الذين يطرون باطله . اما الحماس ، ذلك الخطأ الاول السامي للصبا ، والذي يجد سروراً حقيقياً في اظهار قوته وبهذا يبدأ بأن يكون احمق عند نفسه قبل ان يكون احمق عند الغير . فاحفظه لعواطفك المقتسمة ، احفظه للمرأة وللرب. لا تحمل الى سوق الدنيا ولا الى مضاربات السياسة كنوزاً يعطونك بدلًا منها قطعاً زجاجية . عليك ان تؤمن بالصوت الذي يأمرك بالنبل في كل شيء ، بينما يرجوك ان لا تبذره دون فائدة : فالناس ، مع الاسف ، يعتبرونك بسبب فائدتك لهم دون ان يحسبوا حساباً لقيمتك . ولاستعمال صورة تنحفر في ذهنك الشاعري ، ليكن الرقم ذا كبر لا قياس له ، مرسوماً بالذهب ؛ مكتوباً بالقلم الرصاصي ، فانه لن يكون سوى رقم. وقد قال رجل من ذلك العصر : «لا تكن ابداً ذا حماس[1] !» ، فالحماس يلامس الخداع ، انه يسبب خيبات الامل ؛ ولن تجد ابداً فوقك حرارة تنسجم مع حرارتك ؛ فالمـــلوك كالنساء

---

(١) تاليران .

يعتقدون ان كل شيء مدين لهم . ومهما كان هذا المبدأ مؤسفاً فهو صحيح . ولكنه لا يزيـــل بهاء النفس . ضع عواطفك الطاهرة في اماكن صعبة المنال حيث تكون زهورها موضع الاعجاب الشديد ، وحيث الفنان يحلم بالطرفة الفنية بشغف . الواجبات يا صديقي ليست عواطف . وعمل ما يجب غير عمل ما يرضي . فمن الرجـــال من يذهب ليموت ببرود في سبيل بلاده ، ويستطيع ان يعطي حياته لامرأة بكل سعادة . وهناك قاعدة من أهم القواعد في علم السلوك ، هي الصمت شبه المطلق عن نفسك . مثّل المهزلة ذات يوم بأن تتحدث عن نفسك لاناس ذوي معارف بسيطة ، حدثهم عن آلامك ، عن مسرّاتك او عن اعمالك وتر اللامبالاة تعقب الاهـــتمام المزيف ؛ ثم يأتي السأم اذا لم تقاطعك صاحبة البيت بأدب ، وسيبتعد كل منهم تحت اعذار ماهرة . ولكن اتريد ان تحشد حولك كل ما هنالك من تعاطف ، وتصبح رجلًا محبوباً ولطيفاً ، ذا تجارة أكيدة الربح ؟ حادثهم عن انفسهم . ابحث عن وسيلة لتجعلهم ابطال المشهد ، حتى بإثارتك اسئلة لا تتوافق في الظاهر مع الافراد ؛

وعندئذٍ تنتعش الجباه، والافواه تبتسم لك، وحين تغادرهم ينهال الثناء عليك من كل فرد منهم. وسيدلك ضميرك وقلبك على الحد الذي يبدأ عنده جبن الاطراء وتنتهي طلاوة الحديث. وكلمة اخرى حول الحديث للجمهور. ان الشباب يا صديقي يميل دائماً الى ما لا ادري من السرعة في الحكم، سرعة تكسبه شرفاً ولكنها تنزله عن موضعه؛ ومن هنا يأتي الصمت الذي كانت تفرضه التربية في الماضي على الصغار الذين يقومون بفترة تدريب بجانب الكبار ويدرسون الحياة اثناء ذلك. لان النبلاء في الماضي كالفن، لهم تلامذتهم، وخدمهم المخلصون لاسيادهم الذين يقدمون لهم الطعام. اما اليوم فالشباب يملك علماً ذا مدفأة حامية، وبالتالي كلها «آسيد»، يحمله على ان يحكم بقسوة على الاعمال والافكار والكتابات؛ انه يقطع بحد شفرة لم تستعمل بعد. لا تكن صاحب هذا الاعوجاج، وإلا فستكون احكامك تأنيباً يجرح كثيراً من الاشخاص حولك، وقد يغفر الجميع لك إلا جرحاً خفياً سببته بخطإٍ الحديث امام الناس. والشبان لا يرحمون لانهم لا يعرفون شيئاً عن الحياة

ولا عن صعوباتها . والنقد القديم طيب وهادىء ، والنقد الحديث حقود ؛ فهذا لا يعرف شيئاً وذاك يعرف كل شيء . ومع ذلك ففي اساس جميع الاعمال الانسانية معضلة العقول التي تبت بالامور والتي احتفظ لها الله بالحكم النهائي . لا تكن صارماً إلا على نفسك . وحظك اصبح امامك . ولكن ما من احد في العالم يستطيع ان يصنع حظه بدون معونة ؛ افتح اذن بيت أبي ، فالمدخل قد اكتسبته ، والعلاقات التي تخلقها فيه تحترمك في الف مناسبة ؛ ولكن اياك ان تتخلى فيه عن قيراط من الارض لامي ، انها تسحق من يستسلم وتعجب بأنفة من يقاوم ؛ انها تشبه الحديدة التي يمكن ان تلتصق بحديدة اخرى اذا طُرّقت ، ولكنها تحطم باحتكاكها كل ما ليس له صلابتها . راعِ اذن والدتي : فاذا ارادت لك الخير تدخلك الى الصالونات التي تكتسب فيها علم الدنيا المحتوم ، فن الاستماع ، والكلام ، والجواب ، وتقديم نفسك ، والخروج ؛ واللغة المختصرة ، هذه الا «لا اعرف ماذا» التي ليس لها التفوق كما ان الملابس لا تنشىء العبقرية ، ولكن اجمل موهبة بدونها لا تكون مقبولة

ابداً. اني اعرفك معرفة كافية تجعلني أؤكد انك لا تخدعني بأن أراك سلفاً كما اتمنى ان تكون: بسيط في تصرفاتك، هادىء النبرة، انوف دون غطرسة، تحترم الشيوخ، وتستميل القلوب دون ذل، ورزين على الخصوص. انشر روحك ولكن لا تقم بتسلية الآخرين لان تفوقك اذا اهان رجلًا عاديًّا، وارجو ان تعلم ذلك جيداً، فانه سيسكت ثم يقول عنك. «– انه مسلٍّ جداً!» وهي عبارة احتقار. ولا تسع لمجاراة افكار الناس. وانصحك في علاقاتك معهم، ببرود يصل الى حد الوقاحة التي لا يستطيعون ان يغضبوا منها؛ فالجميع يحترمون من يستهين بهم وهذه الاستهانة ستستميل اليك جميع النساء اللواتي يحترمنك بسبب القليل مما تفعله مع الرجال. لا تقبل بقربك اناساً فاقدي الحظوة، حتى حين يكونون لا يستحقون هذه السمعة لان العالم يسألنا حساباً عن صداقاتنا وعن كرهنا؛ وبهذا الصدد زن احكامك طويلًا وبنضج، ولكن لتكن قطعية. وحين يبرر الرجال الذين ابعدتهم عنك نفورك منهم، فان احترامك يصبح منشوداً؛ وبهذا توحي ذلك الاحترام

المضمر الذي يجعل الرجل كبيراً بـين الناس. ها انت متسلح بالشباب المرضي، والظرف المغري، والحكمة التي تحتفظ بالمكاسب. وكل ما قلته لك يختصر بكلمة قديمة: «النبل يُلزم».

طبق الآن هذه المفاهيم على سياسة الاعمال. تسمع العديد من الاشخاص يقولون ان الكياسة هي عنصر النجاح، وان الوسيلة لاختراق الجمهور هي ان تقسم الناس لتجد مكاناً. كانت هذه المبادىء صالحة يا صديقي في القرون الوسطى، حين كان للامراء قوى معادية، وذلك لإبادة هؤلاء بأولئك. اما في يومنا هذا فكل شيء يتم في يومه. وهذه الطريقة تقدم اليك خدمات سيئة جداً. وبالفعل ستلاقي امامك اما رجلاً شهماً صادقاً واما عدواً خائناً، رجلاً يعمل بالنميمة والغيبة والمخاتلة. ايه! عليك ان تعلم انه ليس لك من مساعد قوي إلا هذا، فهذا الرجل هو عدو نفسه؛ وتستطيع محاربته باستعمالك سلاحاً شريفاً. وسيصبح محتقراً ان عاجلاً او آجلاً. اما الاول فان صراحتك ستكسبك اعتباره؛ وسيخدمك حين تصبح مصالحك موفقة (لان كل شيء يتصلح). لا تخف من ان تخلق لك اعداء،

والشقاء لمن ليس له اعداء في العالم الذي تسير اليه؛ ولكن حاول الا تستهدف للضحك ولقلة الاعتبار. واقول حاول، لان الرجل في باريس لا يملك نفسه دائماً، انه خاضع لظروف محتومة؛ ولن تستطيع فيها ان تتجنب وحل الساقية، ولا القرميدة الساقطة. ان للاخلاق سواقيها ومن هنا يحاول فاقدو الشرف ان يريقوا على انبل الاشخاص الوحل الذي يغرقون فيه، ولكنك تستطيع دائماً ان تفرض احترامك بظهورك في كل الحلقات صامداً في عزماتك الاخيرة. في معترك المطامع هذا، وسط تلك الصعوبات المتضاربة، سر دائماً مستقيماً في العمل، وامش بعزم الى المشكلة ولا تحارب ابداً إلا على مركز واحد، وبكل قواك. انت تعلم مقدار كراهية السيد دي مورتسوف لنابليون، كان يلاحقه بلعنته، ويسهر عليه كما تسهر العدالة على المجرم، ويسأله كل مساء عن الدوق دانجيان، عن الشقاء الوحيد، عن الميت الوحيد الذي اجرى دموعه؛ إيه! انه يعجب به كأجرإ القادة، وفي اغلب الاحيان كان يشرح لي فنه الحربي. الا يمكن هذه الستراتيجية ان تطبق في حرب

المصالح؟ انها تقتصد في الوقت كما ان الآخر يقتصد في الرجال والوقت؛ فكر بهذا، لان المرأة غالباً ما تخطىء في هــذه الامور التي نقاضيها بالغريزة والعاطفة. واستطيع الالحاح على نقطة: كل حيلة وكل خدعة تكتشف وتنتهي بالاذى بينما كل وضعية تبــدو لي اقل خطراً حين يضع المرء نفسه على صعيد الصراحة. ولو استطعت ان اقدم نفسي كمثل لقلت لك انني في كلوشيغورد مجبرة بسبب طباع السيد دي مورتسوف ان أتوقع كل منازعة، وان افصل حالًا بالمخاصمات التي تكون له كمرض يتلذذ اذا مات به. كنت انهي بنفسي كل شيء سائرة رأساً الى العقدة، قائلة للخصم: لنحلّ او لنقطع! ويحدث لك احياناً ان تكون مفيداً للآخرين، ان تقدم لهم خدمات وقليلًا ما تكافأ عليها؛ ولكن لا تقلد اولئك الذين يشكون من الناس ويتباهون بأنهم لم يجدوا سوى ناكري الجميل. اليس ذلك كمن يجلس على قاعدة تمثال؟ ثم اليس في الاعتراف بقلة معرفه الناس شيء من البلاهة؟ ولكن هل تفعل الخير كمرابٍ يقرض امواله؟ الا تفعله للخير نفسه. « النبل يُلزم! » ولكن

لا تسدي خدمات كهذه تضطر الناس الى انكار المعروف ، فهؤلاء يصبحون لك اعداء لا يمكن مسالمتهم : فهناك يأس الاضطرار كما ان هناك يأس الخراب الذي يعطي قوى لا يستطاع حسابها . اما انت فاقبل اقل ما تستطيع من الناس . لا تكن اقطاعيّ اي نفس ، ولا تنهض إلا بنفسك ، اني لا أعطيك يا صديقي رأياً إلا حول أمور الحياة الصغيرة . وكلٌّ يغيّر مظهره في عالم السياسة ، والقواعد التي تدير شخصك تنحني امام المصالح الكبرى . ولكن اذا توصلت الى الدائرة التي يتحرك فيها الرجال العظام فستكون كالرب ، القاضي الوحيد لنواياك . وحينئذٍ لن تكون انساناً ، بل ستكون القانون الحي ، ولن تكون فرداً بل ستجسد فيك الامة . ولكن اذا حاكمت فستحاكم ايضاً . وستمثل فيما بعد امام العصور ، وانت تعرف من التاريخ ما يكفي لتقدير العواطف والاعمال التي تلد العظمة الحقيقية .

وأصل الى القضية الهامة ، الى سلوكك حيال النساء . ليكن

مبدأك في الصالونات التي ستذهب اليها ألا تنصرف الى حيل التدلل الصغرى. فأحد الرجال الذين نالوا اكبر نجاح في العصر الماضي كان من عادته الا يهتم بسوى شخص واحد في نفس السهرة، وان يتعلق بأولئك اللواتي يظهرن مهملات. هذا الرجل يا ولدي العزيز سيطر على عصره. لقد اجرى حسابه بحكمة ورأى ان جميع الناس سيثنون عليه باصرار في وقت ما. ومعظم الشبان يخسرون اجمل ثرواتهم في الوقت اللازم ليخلقوا لانفسهم علاقات هي نصف الحياة الاجتماعية؛ ولما كانوا معجبين بأنفسهم فان عندهم القليل مما يعلمونه ليتعلق الناس بمصالحهم؛ ولكن هذا المبدأ سريع، فاعرف كيف تجيد استعماله. خالط اذن النساء ذوات النفوذ، فالنساء النافذات هن النساء العجائز، انهن سيعلمنك المصاهرات، واسرار جميع العائلات، والطرق المقربة التي توصلك بسرعة الى الهدف. انهن سيكنّ لك بقلوبهن والحماية هي حبهن الاخير حين لا يكنّ ورعات؛ سيخدمنك بشكل رائع، وسيعظمن من شأنك ويعملن منك رجلًا مرغوباً به. اهرب من النساء الشابات!.. ولا تعتقد ان هناك اقل

مصلحة شخصية فيما اقوله لك . فالمرأة ابنة الخمسين تعمل لاجلك كل شيء، اما ابنة العشرين فلا شيء؛ فهذه تريد حياتك، والاخرى لا تطلب منك سوى لحظة، سوى انتباه. اسخر من النساء الشابات. خذ منهن كل شيء بالمزاح، فهن غير قادرات على تكوين فكرة جدية. والنساء الشابات يا صديقي هن انانيات، صغيرات، لا صداقة حقيقية لهن. انهن لا يحببن سوى انفسهن. ويضحينك في سبيل نجاح. ومع ذلك فكلهن يطلبن الاخلاص ووضعيتك تحتم عليهن الاخلاص: ادعاءان لا يمكن التوفيق بينهما. ليس بينهن واحدة لها خبرة بمصالحك. والجميع يفكرن بأنفسهن وليس بك. والجميع يلحقن بك الضرر بزهوهن اكثر مما يخدمنك بمحبتهن؛ انهن يلتهمن وقتك دون وازع من ضمير، ويجعلنك تخسر ثروتك، ويهدمنك بأفضل كياسة في العالم. ولئن شكوت فان اكثرهن حمقاً ستثبت لك ان قفازها يساوي الدنيا، وان ليس هناك مجلبة للمجد افضل من خدمتها. كلهن يقلن لك انهن يعطين السعادة ويحملنك على نسيان اقدارك الجميلة: ان سعادتهن متغيرة، اما عظمتك

فستكون اكيدة . انت لا تعرف بأي فن غادرٍ يتوسلن ليرضين اهواءهن ، ليحولن ذوقاً عابراً الى حب يبدأ على الارض ليستمر في السماء . ويوم يتركنك يقلن لك ان كلمة «لا احب من بعد» تبرر الاهمال ، كما ان كلمة «أحب» بررت حبهن ، وان الحب لاإرادي . مذهب غير معقول يا عزيزي!.. صدّق ان الحب الحقيقي ابدي، لانهائي يشبه نفسه دائماً؛ انه متزن وطاهر دون براهين عنيفة . تراه بالشعر الابيض فتيّ القلب دائماً. ولا شيء من هذه الامور لدى نساء العصر ، فهن يمثلن كل المهازل : هذه تستميلك بمصائبها ، وتظهر انها الاكثر طيبة والاقل تطلباً بين النساء؛ ولكن حين تصبح ضرورية لك فانها تسيطر عليك بتؤدة وتجعلك تنفذ رغباتها ؛ انت تريد ان تكون دبلوماسياً ، ان تذهب ، وتعود ، وتدرس الناس والمصالح والبلدان ... كلا . ستبقى في باريس أو على ارضها . انها ستشدك بخيط الي تنورتها: وكلما ازددت اخلاصاً لها ازدادت عقوقاً. وتلك تحاول استمالتك بخضوعها، فتجعل من نفسها خادماً لك ، وتتبعك بحيلة الى آخر الدنيا ، وستعرض نفسها للخطر لتحتفظ بك فتصبح حجراً في

عنقك . ستغرق نفسك ذات يوم اما المرأة فتسبح . ان اقل النساء حيلة لهن اشراك لا نهاية لها ؛ واكثرهن بلاهة تنتصر بالقليل من الخداع الذي تثيره ، واقلهن خطراً امرأة مغناج تحبك دون ان تدري لماذا وتتركك دون سبب ، وتستعيدك بدافع الزهو . لكن كلهن يؤذينك عاجلًا ام آجلًا . وكل امرأة شابة تسير في العالم ، وتعيش من اللذات والمسرات التي لا طائل تحتها ، هي امرأة نصف فاسدة وستفسدك . فهنا لن تكون المخلوقة العفيفة الخاشعة التي ستملك في نفسها دائماً . آه !... انها ستكون منعزلة تلك التي ستحبك : اجمل اعيادها ستكون نظراتك ، وستعيش بكلامك لانك ستكون كل شيء لها ؛ احببها جيداً ولا تسبب لها حزناً ولا منافسات ، لا تثر غيرتها . فأعظم سعادة يا عزيزي هي ان تكون محبوباً ، «ان تكون مفهوماً» . واتمنى ان تذوقها، لكن لا تفسد زهرة روحك . كن واثقاً تماماً من قلب تضع فيه محبتك . هذه المرأة لن تكون قط هي ، يجب عليها ان لا تفكر ابداً بنفسها ، بل بك ؛ انها لن تجادلك في شيء ، ولن تستجيب قط لمصالحها الخاصة ،

وستعرف كيف تشتمّ لاجلك رائحة الخطر حيث لا ترى انت شيئاً، وحيث تنسى كل شيء لها: واخيراً، اذا تعــذبت فستتعذب دون شكوى ولن يكون لها زينــــة شخصية، بل ستحترم ما تحبه منها. استجب لهذا الحب بتجاوزه. اذا كنت سعيداً بما فيه الكفاية لتلتقي ما ينقص صديقتك المسكينة، حباً مستلهماً، حباً تُشعر به بالتساوي، ففكر مهما كان كمال هذا الحب، ان هناك في احد الاودية أمّاً تعيش لأجلك حُفر قلبها بالعاطفة التي ملأته بها، وبأنك لن تصل ابداً الى قراره. لله، اني احمل لك محبة لا تستطيع ان تعرف اتساعها؛ ولكي تبدو كما هي، يجب ان تبذل ذكاءك الجميل، ومع هذا لن تعرف الى اين يمكن ان يصل اخلاصي. هل انا متهمة اذا قلت لك تجنب النساء الشابات، فكلهن إلى حد ما محتالات، ساخرات، مزهوات، تافهات، مبذرات؛ وتعلّق بذوات المكانة من النساء، بأولئك الارامل الثريات الوقورات، المليئات بالشعور كما كانت خالتي، واللواتي يخدمنك جيداً ويدافعن عنك ضد الاتهامات السرية بتهديمها، واللواتي يقلن عنك ما لا تستطيع ان تقوله

عن نفسك ؛ واخيراً ، ألست كريمة بأن امرتك ان تحتفظ بحبك لملاك القلب الطاهر ؟ اذا كانت كلمة «النبل يُلزم» تحتوي على جزء كبير من وصاياي الاولى ، فان آرائي حول علاقاتك بالنساء تختصرها كلمة الفروسية هذه : «اخدمهن كلهن ولا تحب منهن سوى واحدة».

ان ثقافتك واسعة ، وقلبك الذي حفظه الألم ، بقي ناصعاً ؛ كل شيء جميل ، وكل شيء جيد فيك. أرِد اذن!... ان مستقبلك هو الآن في هذه الكلمة الوحيـــدة ، كلمة الرجال العظام. اليس يا صديقي انك ستطيع هنرييتك ، وانك ستسمح لها ان تستمر في قول رأيها فيك وبعلاقاتك بالناس ! لدي في نفسي عين ترى المستقبل لك كما تراه لولدي ، دعني اذن استعمل هذه الموهبة لمصلحتك ، انها هبة خفية منحتني السلام في حياتي ، وهي بدون ان تضعف ، تناجي في الوحدة والسكون. اني اطلب منك ان تمنحني سعادة كبرى عند عودتك : اريد ان اراك وقد كبرت بين الرجال دون ان يجعلني اي نجاح تناله اغضن جبهتي ؛ اريد ان تضع حظك بسرعة على مستوى اسمك

وتستطيع ان تقول لي اني ساهمت بأفضل من الرغبة في بناء عظمتك . هذا التعاون السري هو السرور الوحيـــد الذي استطيع ان اسمح لنفسي به . سأنتظر . لن اقول لك وداعاً . نحن مفترقان ، ولن تستطيع ان تأخذ يدي تحت شفتيك ؛ لكنك تستطيع ان تعرف تماماً اي مكان تشغله في قلب

هنرييتك . »

حين انهيت هذه الرسالة شعرت بقلب ام يخفق تحت اصابعي ساعة كنت متجمداً من استقبال أمي الصارم. عرفت لماذا منعتني الكونتس من قراءة هذه الرسالة في التورين . كانت تخاف دون شك ان ترى رأسي يسقط عـلى قدميها ، وان تشعر بهمـا وقد تبللا بدموعي .

تعرفت اخيراً بأخي شارل الذي بدا حتى الآن غريباً بالنسبة الي ؛ كان ذا عجرفـة في اقل علاقاته تجعـل مسافة بيننا وتمنعنا من ان نتحاب كأخوين ؛ ان جميع العواطف الهادئـة

تستند الى مساواة النفوس وليس بيننا اية نقطة تلاحم. كان يعلمّني بلهجة «دكتور» تلك التوافه التي تدركها الروح او القلب؛ وفي كل مناسبة كان يبدو حذراً مني؛ ولو لم يكن حبي سندي لجعلني اخرق وحيواناً متظاهراً بالاعتقاد اني لا اعرف شيئاً. ومع ذلك فقد قدمني الى الناس ليجعل بلاهتي قيمةً لصفاته. ولولا شقاء طفولتي لاعتبرت زهوه كحام لي كأنها الصداقة الاخوية؛ ولكن العزلة المعنوية تنتج نفس المفاعيل التي تنتجها العزلة الارضية: فالصمت يتيح فيها تقويم اخف الرنات، وعادة هرب الانسان الى نفسه من شأنها ان تنمي حساسية تكشف دقتها عن اقل درجات المودة التي تؤثر فينا. كانت نظرة قاسية واحدة تجرحني قبل ان اعرف السيدة دي مورتسوف، ولهجة كلمة عنيفة تصيبني في قلبي؛ وكنت ابكي منها دون ان اعرف شيئاً عن حياة الملاطفة؛ اما بعد رجوعي من كلوشيغورد فقد صرت استطيع ان اقوم بمقارنات تكمل علمي المبكر. والملاحظة التي تستند الى عذاب احسه المرء تكون ناقصة، ناهيك بان للسعادة نورها ايضاً. لقد تركت نفسي

انسحق بملء ارادتي تحت تفوق حق البكورية مع انني لم اكن مغشوشاً بشارل .

ذهبت وحدي الى الدوقة دي ليناكور حيث لم اسمع احداً يتحدث عن هنرييت ، ولم يكلمني اي شخص باستثناء الدوق العجوز الطيب الذي هو البساطة نفسها ؛ ولكني عرفت وصايا ابنته السرية من الطريقة التي استقبلني بها . وحين بدأت افقد الدهشة البلهاء التي يسببها منظر العظماء لكل مبتدئ ، وحين توقعت سروره بادراكه الوسائل التي يقدمها لذوي المطامع ، عدا عن انني كنت مسروراً في ان اضع نصائح هنرييت قيد الاستعمال معجباً بحقيقتها العميقة ، حدثت حوادث العشرين من آذار[1]. فلحق اخي بالبلاط الى غاند ؛ اما انا فرافقت الدوق دي ليناكور وفقاً لنصيحة الكونتس التي كنت اراسلها

(١) افتتح مؤتمر فيينا في اول تشرين الثاني ١٧١٤ ، ومهارة تاليران الذي فصل انكلترا والنمسا عن بروسيا وروسيا جعلت افرنسا مركزاً هاماً في اوروبا الجديدة .

وحدي باستمرار . واصبح تلطف الدوق المعتاد حمايةً صادقةً حين رآني متعلقاً بالبوربونيين قلباً ورأساً وقدماً ؛ فقدمني بنفسه الى صاحب الجلالة . ان بطانة المصيبة تكون قليلة العـــدد ؛ وللشباب اعجاب غير مموه ، واخلاصي لا حساب له ؛ وكان الملك يعرف ان يحكم عـــلى الاشخاص؛ وما لم يكن يخضع للملاحظة في التويلري خضع الملاحظات الكثيرة في غاند. وكان من حسن حظي انني نلت اعجاب لويس الثامن عشر . ووردت رسالة من السيـدة دي مورتسوف الى ابيها حملهـا رسول اهالي الفانديه مع برقيات اخرى ، وفيها كلمة لي تخبرني ان جاك كان مريضاً ، وان السيد دي مورتسوف بلغ ذروة اليأس لمرض ولده ورؤيته هجرة جديدة تبدأ بدونه. وقد اضاف الكونت الى الرسالة بعض الكلمات التي جعلتني اعرف وضعية حبيبتي . كان يعذبها دون شك حين تقضي كل لحظاتها بجانب سرير جاك ، لا تستريح لا ليلًا ولا نهاراً ؛ انها اسمى من المناكدات لكنها اعجز من ان تسيطر عليها ما دامت تنذر وجودها للاعتناء بولدها . فكأنها شاءت نجدة صداقة خففت من ثقل حياتها ، أقـــله

لإلهـــاء السيد دي مورتسوف. في الماضي ذهبت بالكونت عدة مرات الى الخارج حين كان يهدد بتعذيبها؛ انها حيلة بريئة عاد علي نجاحها ببعض النظرات التي تفصح عن امتنان شديد كان الحب يرى فيها وعداً. مهما تعجلت لأسير عـــلى اثر شارل المبعوث حديثاً الى مؤتمر فيينا، ومهما اردت ان احقق نبؤات هنرييت، مخاطراً بحياتي، وهو يتجاوز الاقطاعية الاخوية، فان مطامعي، ورغباتي في الاستقلال، ومصلحتي في ان لا اترك الملك، كلها شحبت امام صورة السيدة دي مورتسوف المتألمة؛ لذا عزمت على ترك بلاط غاند لأذهب واخدم السلطانة الحقيقية. وقد كافأني الله. كان الرسول المبعوث من قبل اهالي الفانديه لا يستطيع العودة الى فرنسا. وكان الملك يريد رجلًا يبـــذل نفسه في حمل تعليماته اليهم. وكان الدوق دي لينانكور يعلم ان الملك لن ينسى ابداً من يقوم بهذه المجازفة، فجعلني اقبل دون استشارتي، وقبلت، وكنت سعيداً جداً بأن اجد نفسي مرة ثانية في كلوشيغورد اخدم في الوقت عينه القضية الصالحة.

بعد ان حظيت بمقابلة الملك ، وأنا في الحادية والعشرين ، عدت الى فرنسا حيث كنت سعيداً بتنفيذ مقاصد جلالته ، سواء في باريس او في الفاندي . وفي اواخر ايار ، حين لاحقتني السلطات البونابرتية التي أعطيت اوصافي لها ، اضطررت الى الهرب كرجل يبدو انه عائد الى بيته ، سائراً على قدميه من ارض الى ارض ، ومن غابٍ الى غاب ، خلال الفانديه العليا ، وبوكاج ، وبواتو ، مبدلًا الطريق وفقاً للمصادفات . وبلغت سومير . ومنها الى شينون . ومن شينون بلغت غابة نوياي في ليلة واحـــدة فالتقيت بالكونت على جواده في قطعة من اراضيه . فاردفني خلفه ، وسار بي الى بيته دون ان نرى احداً يمكن ان يعرفني . وكانت كلمته الاولى : لقد تحسنت صحة جاكِ .

واعترفت له بوضعي كجنـــدي راجل دبلوماسي مطارد كحيوان ضار ، وتسلح النبيل بتعصبه للملكية ليجادل السيد دي شيسل بخطر استقبالي . وحين شاهدت كلوشيفورد خيل الي ان الاشهر الثمانيــة المنصرمة كانت حلماً . وحين قــال الكونت لزوجته وهو يتقدمني :

ـ احزري بمن اتيتك ؟ فليكس ...

فسألت وذراعاها متدليتان ، ووجهها مليء بالذهول .

ـ هل هذا ممكن ؟

وأظهرت نفسي ، وبقينا كلانا جامدين ، هي مسمرة على مقعدها ، وانا على عتبة بابها ، واخذ كل منا يتأمل الآخر بثبات جشع لعاشقين يريدان ان يعوضا بنظرة واحدة كل الوقت المضاع ؛ لكنها خجلت من مفاجأة كشفت القناع عن قلبها ، فنهضت ، واقتربت ، وقالت وهي تمد يدها الي لأقبلها :

ـ لقد صليت كثيراً من اجلك .

وسألتني عن والدها ، واذ ادركت تعبي ذهبت تهتم بمرقدي بينما دعاني الكونت الى الطعام لاني كنت على وشك الموت جوعاً . كانت غرفتي فوق غرفتها ، اي في غرفة خالتها ؛ قادني الكونت اليها بعد ان وضعت قدمها على الدرجة الاولى من السلم

متسائلة هل ترافقني؛ والتفتّ فاحمر وجهها، وتمنت لي نوماً هادئاً، وانسحبت بسرعة. وحين نزلت للغداء، عرفت بكارثة واترلو وهرب نابليون، وزحف الحلفاء على باريس وعودة البوربونيين المرجحة. هذه الحوادث كانت كلها تهم الكونت ولم تكن شيئاً بالنسبة الينا. هل تعرفين ما هو اعظم خبر، بعد ملاطفة الولدين؟ اني لا اكلمك عن قلقي حين رأيت الكونتس شاحبة هزيلة؛ وكنت اعرف الضرر الذي تسببه علامة دهشة، لذلك لم اظهر غير السرور عند رؤيتها. اما الخبر العظيم بالنسبة الينا فقد كان: «— سيكون عندك ثلج!». لأنها كانت في السنة الماضية تغتاظ في الغالب لعدم وجود ماء بارد لي عندها، لان الماء مشروبي الاوحد لذلك كنت احبه مثلجاً، والله يعلم بأي ثمن من الالحاح بنت ثلاجة! انت تعلمين افضل من اي شخص ان الحب تكفيه كلمة، نظرة، تغيير صوت، انتباه خفيف في الظاهر؛ واجمل ميزة له هو انه يبرهن عن نفسه بنفسه. وكلمتها، ونظرتها، وسرورها، كلها كشفت لي امتداد عواطفها كما قلت لها سابقاً عن عواطفي بسلوكي في لعبة النرد. لكن الادلة البسيطة

على حنوها فاضت : ففي اليوم السابع لوصولي عاودتها النضارة ، ونورت صحةً وسروراً وشباباً . ولقيت زنبقتي العزيزة متجملة وافضل تفتحاً ، ووجدت ايضاً كنوز قلبي قد زادت . ألا يقلل الغياب من العواطف ، ويمحو ملامح النفس ، وينقص من جمال الشخص المحبوب عند صغار النفوس فقط او في القلوب الوضيعة؟ وعند المخيلات المحتدمة ، عند الكائنات التي يمر الحماس في دمها ، صبغة ارجوان جديد ، وتأخذ العاطفة عندها اشكال الاستمرار ، اليس للغياب مفعول العذابات التي وطدت دعائم الايمان عند المسيحيين الاوائل وجعلت لهم الله منظوراً ؟ اليس في قلبٍ مليء بالحب تمنيات دائمة ترفع الاشكال المرغوبة فتجعلها تتخيل انها ملونة بوهج الاحلام ؟ ألا يشعر المرء بفورات توصل الجمال المثالي الى الملامح المعبودة اذ تشحنها بالافكار ؟ ان الماضي المستعاد تذكاراً فتذكاراً يكبر ، والمستقبل يتأثث بالآمال . والمواجهة الاولى لقلبين حيث تفيض الغيوم الكهربائية ، تصبح زوبعة محسنة تعيد الحياة الى الارض وتخصبها اذ تحمل اليها اضواء الصاعقة الفجائية . كم من مسرة عذبة تذوقتها برؤيتي ان هذه

الافكار وتلك الاحساسات متبادلة بيننا ؟ بأي عين مفتوحة تتبعت نمو السعادة عند هنرييت ! ان امرأة تعود الى الحياة تحت انظار المحبوب تعطي اكبر برهان من العاطفة كتلك التي تموت قتيلة الشك ، او يابسة على فرعها لأفتقار النسغ : ولا ادري من منا كان اكثر تأثراً . ان احياء السيدة دي مورتسوف كان طبيعياً كتأثير شهر ايار على المروج . كتأثير الشمس والمياه على الزهور المقطوعة . كان لهنرييت شتاؤها كوادي غرامنا ، ومثله عادت الى الحياة في الربيع . نزلنا قبل الغداء الى سطيحتنا العزيزة ، وهناك ، وهي تداعب رأس ولدها المسكين الذي اصبح اكثر هزالاً مما كنت اراه ، والذي يسير بجانب امه صامتاً كأنه لا يزال يحتضن مرضاً ، حدثتني عن لياليها امام سرير ولدها ، وقالت لي انها عاشت حياة داخليــــة بحتة طوال تلك الاشهر الثلاثة ، كانت كأنهـا تسكن قصراً داكناً خائفـة من الدخول الى اجنحة فخمة تتألق فيها الاضواء ، او تقام حفلات محظورة عليها ، وقد وقفت على بابها ، عين على ولدها والاخرى عــــلى صورة غير واضحة ، أذنٌ لسماع الآلام واخرى لسماع صوت .

لقد قالت قصائد اوحتها الوحدة كما لم يبتدع اي شاعر ؛ كل هذا ببساطة دون ان تعرف ان فيه اقل اثر للحب ، ولا اي اثر لفكرة شهوانية ، ولا قصائد شهية على الطريقة المشرقية كوردة من فرنجيستان. وحين لحق الكونت بنا ظلت متابعة بنفس النبرة كامرأة فخور بنفسها تستطيع ان تلقي نظرة كبرياء على زوجها ، وتضع قبلة على جبين ولدها دون ان تخجل . لقد صلت كثيراً ، وابقت جاك ليالي بكاملها تحت يديها المضمومتين لا تريد ان يموت ، وقالت :

– ذهبت حتى باب المعبد اطلب حياته من الله .

كانت لها رؤى قصتها عليّ ؛ ولكن في اللحظة التي لفظت فيها بصوتها الملائكي هذه الكلمات المذهلة :

– حين انام كان قلبي يسهر .

أجابها الكونت مقاطعاً :

ـ يعني انك كنت شبه مجنونة .

فسكتت، وأصيبت بألم حاد كأنه الجرح الاول الذي تتلقاه، وكأنها نسيت انه منذ ثلاث عشرة سنة ما انفك هذا الرجل يرشقها بسهم في القلب. عصفور سماوي أصيب في طيرانه بتلك الخردقة الخشنة، وسقطت فريسة خورٍ احمق. وقالت بعد فترة صمت :

ـ هيه ! ايها السيد . ألا تجد اية كلمة من أقوالي رحمةً في محكمة روحك؟ اما عندك اي رأفة بضعفي او فهمٍ لأفكاري كامرأة ؟

وتوقفت . لقد ندم هذا الملاك عـلى تمتمته وقاس ماضيه ومستقبله بنظرة؛ اتستطيع ان تكون مفهومة ؟ اما تكاد تسيل كلاماً ساماً موجهاً؟ كانت أوردتهـا الزرقاء تنبض بعنف في صدغها، ولم يكن هناك اي دمع لكن خضرة عينيها أصبحت شاحبة؛ ثم خفضت نظراتها الى الارض حتى لا ترى في عينيّ همها

الكبير وعواطفها التي عُرفت، ونفسها التي تداعبها نفسي؛ ولاسيما تلك الرأفة الغاضبة لحبٍّ فتيٍّ مستعد، ككلب مخلص، ان يلتهم من يجرح سيدته، دون مناقشة المهاجم وصفته. لو رأيت في هذه اللحظات الحرجة شكل التفوق الذي اتخـــذه الكونت: فقد اعتقد انه انتصر على امرأته فأرهقها ببَرَدٍ من العبارات تكرر نفس الفكرة، وتشبه ضربات فأس تردد الصوت عينه.

قلت لها بعد ان تركنا الكونت قسراً حين طلبه سائسه:

ــ اذن هو نفسه دائماً؟

فأجابني جاك: ــ دائماً.

ــ دائماً ممتاز، يا ولدي ــ قالت ذلك لجاك محاولة ان تنقذ السيد دي مورتسوف من حكم ولديه ــ انت ترى الحاضر وتجهل الماضي، لن تنتقد والدك دون ان ترتكب شيئاً من الظلم؛ اما اذا تألمت حين ترى والدك يرتكب خطأً فان شرف العائلة يقضي بأن تدفن اسراراً كهذه في اعمق صمت.

وسألتها لأنقذها من أفكارها المرة :

– كيف تسير التغييرات في كاسين ولاريتورييو ؟

فقالت :

– فوق ما كنت آمل . فالابنية انتهت ، وقد وجدنا مزارعين ممتازين اخذا واحدة بأربعة آلاف وخمسمائة فرنك ، والضرائب مدفوعة ، والاخرى بخمسة آلاف فرنك؟ والايجار مقبول لخمس عشرة سنة . وقد غرسنا ثلاثة آلاف قدم من الاشجار حول المزرعتين الجديدتين . وسرّ قريب مانيت كثيراً لحصوله على ربيلاي . ومارتينو اخذ لابود . واملاك فلاحينا الاربعة تتألف من مروج وغابات لا يحملون اليها شيئاً ، كما يفعل بعض المزارعين القليلي الوجدان ، من سمادنا المخصص لاراضينا المحروثة . وهكذا تتوجت جهودنا بأجمل نجاح . فكلوشيغورد ، بدون اراضي الاحتياط التي دعوناها مزرعة القصر ، وبدون الغابات والاراضي المسيّجة ، تغل تسعة عشر

الف فرنك ، والاغراس وفرت لنا ما يفي بالديون المقسطة سنوياً. وقد دخلت في معركة لكي اعطي اراضي الاحتياط لحارسنا مارتينو الذي يستطيع الآن ان يقيم ولده مكانه . وقد عرض فيها ثلاثة آلاف فرنك اذا شاء السيد دي مورتسوف ان يبني له مزرعة في لاكومانديري . اذن فسوف نستطيع ان نسترجع ضواحي كلوشيفورد وننهي جادتنا الممتدة حتى طريق شينون ، ولا يبقى لنا سوى كرومنا وغاباتنا نعتني بها . وراتبنا سيعود اذا عاد الملك . وتصبح ثروة جاك غير معرضة للتلف . وحين نحصل على هذه النتائج سأترك السيد يدخر لمادلين التي سيدفع الملك بائنتها كما جرت العادة . ان ضميري مرتاح ؛ ومهمتي تمت .

ثم قالت لي : وانت ؟ ...

شرحت لها مهمتي ، وجعلتها ترى كم كانت نصيحتها مثمرة وحكيمة . فهل كانت تملك حاسة نظر ثانية لتستشف الحوادث ؟ قالت :

ـ ألم أكتب اليك عن ذلك؟ لأجلك وحدكِ استطيع ان أمارس قوة مذهلة لم اتحدث عنها إلا الى السيد ديلابرج، مرشدي، والتي فسرها بتدخلٍ إلهي. في الغالب، وبعد تأملات عميقة تثيرها المخاوف بسبب حالة ولديّ، تغلق عيناي عن اشياء الارض وتنظران في منطقة أخرى: حين اشاهد فيها جاكِ ومادلين مشرقين، يكونان بصحة جيدة لوقتٍ ما، واذا رأيتهما مغلفين بالضباب، فان المرض يصيبهما على الاثر. اما انت فأراكِ، ليس فقط دائم التألق، بل اسمع صوتاً عذباً يفسر لي دون كلام، باتصال ذهني، ما يجب عليك ان تفعل. فبأي ناموس لا استطيع ان استعمل هذه الهبة العظيمة إلا لأولادي ولك! ـ قالت ذلك وقد استغرقت في احلامها. ثم تساءلت بعد فترة صمت:

ـ اريد الله ان يكون اباً لهما!

فقلت لها:

ـ دعيني اعتقد انني لن اطيع سواكِ.

فرشقتني باحدى تلك الابتسامات اللطيفة التي كانت تسبب لي نشوة عظيمة في القلب فاعود لا اشعر بضربة مميتة . وأردفت :

— حين يصبح الملك في باريس[1] اذهب اليها . اترك كلوشيغورد. بقدر ما يُعد مخزياً البحث عن مراكز، يُعد مضحكاً فوات فرصة قبولها . سوف تحدث تغييرات عظيمة ، والرجال الاكفاء ، الثقة ، سيكونون لازمين للملك . فلا تدع ذلك يفوتك ؛ ستدخل صغيراً في حقل الاعمال وستجد نفسك ممتازاً فيها ، لان هناك اشياء من المهنة ، سواء كان لرجال الدولة ام للممثلين ، لا تكشفها العبقرية ، بل يجب تعلمها . وقد اخذ ابي ذلك عن الدوق دي شوازيل . ثم قالت بعد وقفة قصيرة : — فكِّر بي ، دعني اتذوق لذة التفوق في نفسٍ هي لي برمتها . ألست ولدي ؟

(١) عاد لويس الثامن عشر الى باريس في ٨ تموز ١٨١٥ .

فأَجبت بلهجة حردة : — ولدكِ ؟

فقالت ساخرة مني :

— لا شيء سوى ولدي . ألا يكسبك ذلك مركزاً جميلًا في قلبي ؟

ورن جرس الطعام ، فأخذت ذراعي واستندت اليها على سبيل الملاطفة ، وقالت لي ونحن نصعد الدرج :

— لقد كبرتَ ...

وحين بلغنا الدرجات المسطحة هزت ذراعي كأن نظراتي أصابتها بشدة ؛ كانت ولو خفضت عينيها ، تعرف جيداً اني لا انظر إلا اليها ؛ فقالت لي بتلك اللهجة التي تتصنع فارغ الصبر ، بكثير من الظرف والدلال :

— هيا ، تطلع قليلًا الى وادينا العزيز !

واستدارت ، ووضعت مظلتها المصنوعة من الحرير الابيض

فوق رؤوسنا، ملصقة جاك بها، وقد اثبتت حركة الرأس التي ارتني بها الاندر، والقارب، والمروج، انها كانت منذ اقامتي ونزهاتنا تتفاهم مع هذه الآفاق الملأى بالدخان، مع هـــذه المنعطفات الملأى بالبخار. كانت الطبيعة هي المعطف الذي تلجأ اليه افكارها. انها تعرف الآن ما يتأوهه البلبل اثناء الليالي، وما يردده مرتل الغياض وهو ينغم ألحانه النائحة.

في الساعة الثامنة مساء كنت شاهداً على منظر اثر في نفسي تأثيراً عميقاً وما كان بإمكاني ان اراه ابداً، لأنني كنت ابقى دائماً العب مع السيد دي مورتسوف، بينما كانت هي تذهب الى غرفة الطعام قبل ان ينام الولدان. لقد رن الجرس عشر دقات وجاء جميع من في البيت. فقالت لي وهي تقودني بيدي، بلهجة السخرية البريئة التي تميز النساء التقيات حقاً.

ــ انت ضيفنا، فهل تخضع لقانون الدير؟

ولحق بنا الكونت. وركع رؤساء العمال والاولاد والخدم، عراة الرؤوس بعد ان اتخذوا اماكنهم المعتادة. وكان على

مادلين تلاوة الصلاة؛ فتلتها العزيزة الصغيرة بصوتها الطفولي حيث النـــبرات الساذجة تنفصل بوضوح وسط صمت الجمهور المنسجم، وكانت سلامة النية المقدسة في الطفلة البريئة، هبة الملائكة تلك، تدخل في الجمل. لقد كانت هذه الصلاة أشد الصلوات التي سمعتها تأثيراً. وكانت الطبيعة تتجاوب مع كلام الطفلة بألقٍ من أصوات المساء. وهذا كله مصحوب بأرغن كان يمس مساً خفيفاً. كانت مادلين عن يمين الكونتس وجاك عن يسارها. وبين شعر هذين الرأسين الظريف ارتفع شعر الام المضفور، وكان يعلو الجميع شعر السيد دي مورتسوف الابيض وجمجمته الصفراء، فيؤلف كل ذلك لوحة تعيد ألوانها الى الروح، بشكلٍ ما، الافكار التي ايقظتها انغام الصلاة؛ واخيراً لاتمام شروط الوحدة التي تشير الى السمو فان هذه الجماعة الغارقة في التأمل كانت مغلفةً بنور المغيب الملطف حيث كانت الصبغات الحمراء تلون الغرفة، تاركة النفوس، سواء أكانت شاعرية ام مؤمنة بالخرافات، تظن ان نيران السماء كانت تزور خدم الله المخلصين هؤلاء، الراكعين هناك

دون تمييز في الطبقة ، بل بالمساواة التي ارادتها الكنيسة . وحين عدت بالذاكرة الى أيام الحياة الابوية اكبرت افكاري هذا المشهد العظيم ببساطته . وحياً الولدان اباهما تحية المساء ، وحيَّانا الناس . وذهبت الكونتس ممسكة كل طفل بيد ، وعدت الى الصالون مع الكونت . فقـــال لي مشيراً الى طاولة النرد .

ــ سنعمل لخلاصك هناك ، ولجحيمك هنا .

ولحقت بنا الكونتس بعد نصف ساعة ، وأدنت نولها من منضدتنا ، وقالت وهي تنشر (الكانيفا) :

ــ هذه لك . ولكن الشغل اصبح بطيئاً منذ ثلاثة اشهر اذ مرض ولدي بين هذه القرنفلة وهذه الوردة .

وقال السيد دي مورتسوف :

ــ هيا ، هيا ، لندع الحديث عن هذا . « شيش بيش » ، يا حضرة مبعوث الملك .

حين نمت ، جمعت افكاري لأسمعها وهي تروح وتجيء في غرفتها. فإن هي ظلت هادئة ونقية فقد كنت انا مسوقاً بأفكار جنونية اوحتها رغباتي التي كانت احر من الجمر. وكنت أقول لنفسي: لماذا لا تكون لي؟ لربما تكون مثلي غارقة في فورة الحواس العاصفة؟ نزلت عند الساعة الواحدة، واستطعت ان امشي دون ان احدث ضجة، ووصلت امام بابها، واتكأت عليه وأذني على الشق، فسمعت تنفسها المنتظم الهادىء كأنه تنفس طفل. وحين شعرت بالبرد صعدت، وعدت الى السرير، ونمت بهدوء حتى الصباح. لا أدري الى اي اختيار للمجد السماوي، الى أية طبيعة يجب ان اعزو السرور الذي شعرت به بتقدمي حتى حافة المهاوي، وسبري غور لجة الشر، واستجواب قعرها، والشعور بالبرد ثم انسحابي وانا كثير التأثر. هذه الساعة من الليلة الماضية على عتبة بابها، حيث بكيت من الغضب دون ان تعرف مطلقاً انها تمشي في الغد على دموعي وقبلاتي، وعلى فضيلتها التي هي بالتناوب مهدمة ومحترمة، ملعونة ومعبودة؛ ان تلك الساعة، الحمقاء في نظر

الكثيرين ، هي وحي من تلــك العاطفة المجهولة التي تدفع العسكريين ، وقد قال لي بعضهم انهم خاطروا بحياتهم هكذا ، إلى إلقاء انفسهم امام بطارية من المدفعية ليعرفوا هل ينجون من المدفع الرشاش ، وهل يصبحون سعداء باجتيازهم على الخيل هاوية الاحتمالات هكذا ، وهم يدخنون كجان بارت على برميل بارود . في الغد ذهبت لأقطف الزهور واضع منها باقتين أعجب بهما الكونت وهو الذي لا يؤثر فيه شيء من هذا النوع ، حتى كأن كلمــة شامبسينيتز[1] : «ان يصنع سجوناً في اسبانيا» قيلت فيه .

قضيت بضعة ايام في كلوشيغورد لا اذهب الى فرابسل إلا في زيارات قصيرة ، وقد تناولت الطعام هناك ثلاث مرات . وجــاء الجيش الفرنسي واحتل تور[2] . فرجتني السيدة

(١) المركيز دي شامبسينيتز ، مساعد ريفارول واقل حظاً منه ، فقد قتل بالمقصلة عام ١٧٩٤ لانه كتب مقالات انتقادية عنيفة ضد الثورة .

(٢) الواقع ان الامر هنا يتعلق بالتراجع المفروض عــلى الجيوش الفرنسية بعد معركة واترلو ، بينما كان الحلفاء يحتلون باريس .

دي مورتسوف ، مع اهتمامي بحياتها وصحتها ، ان اسير الى شاتورو لأعود بأقصى سرعة الى باريس عن طريق ايسودون واورليان . واردت ان امانع فأمرت قائلةً ان العبقرية المألوفة تكلمت ؛ واطعت . وكان وداعنا هذه المرة مغمساً بالدموع ، كانت تخاف ان تجتذبني الدنيا التي سأعيش فيها . اما كان يجب الدخول جدياً في دوامة المصالح والاهواء والملذات التي تجعل من باريس بحراً كثير الخطر على الحب الطاهر ونقاوة الضمير ؟ وعدتها ان أكتب اليها كل مساء عن حوادث النهار وافكاره ، حتى اتفهها . وعند هذا الوعد اسندت رأسها المتعب الى كتفي وقالت :

ـ لا تنس شيئاً فكل شيء يهمني .

واعطتني رسائل للدوق والدوقة ، فذهبت اليهما في اليوم التالي لوصولي . فقال لي الدوق :

ـ حظك كبير. تناول الطعام هنا وتعال معي هذا المساء الى القصر . لقد نلت ما تتمناه فقد ذكرك الملك هذا الصباح قائلاً :

«انه شاب، كفء، مخلص!» وكان الملك يأسف لأنه لا يعلم هل انت حيّ ام ميت، وفي اي مكان اودت بك الحوادث بعد ان قمت بمهمتك خير قيام.

في المساء كنت في وظيفة مقدم العرائض لمجلس الدولة، وكان لي عمل سري لدى الملك لويس الثامن عشر دام طوال عهد حكمه، هو مركز ثقة، دون نفوذ ظاهر، ولكن دون خطر على زوال الحظوة، وضعني في قلب الحكومة وكان مصدر نجاحي. لقد كانت السيدة دي مورتسوف على صواب، اذن فأنا مدين لها بكل شيء: السلطة والثروة والسعادة والعلم؛ كانت تقودني وتشجعني، وتطهر قلبي، وتوحد مؤهلاتي بوحدة تتبذر بدونها القوى والشباب بلا فائدة. وفي ما بعد صار لي زميل. فكان كل منا يقوم بالخدمة ستة اشهر، ويستطيع احدنا ان ينوب عن الآخر عند الحاجة؛ كان لنا غرفة في القصر وكذلك عربتنا ومكافآت كبيرة لنفقاتنا حين نضطر الى السفر. انه، وايم الحق، لوضع غريب! ان نكون التلامذة السريون لملكٍ استصوب خصومه سياسته بعد تبرئة مشهورة، وان اسمعه يفصل في كل

شيء في الداخل والخارج ، وان اكون بلا اثر ظاهر واستشار احياناً كما كان موليير يستشير لافوريه ، وان اشعر بعوامـــل تردد تجربة قديمة، مكنها ضمير الشباب . كان الملك يعطيني الف فرنك شهرياً على صندوقه ، عدا رواتبي كمقـــدم عرائض التي كانت تدفع من ميزانية مجلس الدولة ، وغالباً ما كان يذكرني ببعض الهبات. ومع ان الملك شعر ان شاباً في الثالثة والعشرين لن يستطيع البقاء طويلًا في العمل المرهق ، فان زميلي ، وهو اليوم امير فرنسا ، لم يقع الاختيار عليه إلا في شهر آب ١٨١٧. وكان هذا الاختيار شاقاً لان وظيفتنـــا تتطلب الكثير من الصفات لذلك قضى الملك وقتاً طويلًا قبل ان يستقر على رأي. وقد منحني شرفاً اذ سألني اي شاب اتفق معه اكثر بين الشبان موضوع الاختيار . وكان بينهم احد رفاقي في بنسيون لبيتر فلم اشر اليه ابداً ، وقد سألني جلالته عن السبب فقلت له :

ـ لقد اختار الملك رجالًا متساوين في الاخلاص ولكنهم ذوو مقدرات تختلف . وقد عينت من اظنه الامهر ، ومن آمن ان اعيش معه على وفاق دائم .

وطابق رأيي رأي الملك وكان يعرف انني ارضى دائماً بالتضحية. فقال لي بهذه المناسبة : — ستصبح السيد الاول . ولم يخف هذه المناسبة عن زميلي الذي صادقني عند عودته من تلك المهمة . لقد كان الاعتبار الذي ميزني به الدوق دي ليناكور مقياساً للاعتبار الذي احاطني الناس به .

وهذه الكلمات : « الملك مهتم جداً بهذا الشاب ؛ ان لهذا الشاب مستقبلًا باهراً ، الملك يستحسنه » حلت محل المواهب ولكنها تضفي ما لست ادري مما يمنح السلطة على الحفاوة ، اللطيفة التي يكون الشبان موضوعها . وقد تعرفت شيئاً فشيئاً باشخاص هم الاكثر نفوذاً في ضاحية سان جرمان سواء عند الدوق دي ليناكور ، او عند اختي التي تزوجت في ذلك الوقت من ابن عمها المركيز دي ليستومير ابن قريبتي الهرمة التي ذهبت الى بيتها في جزيرة سان لويس .

وبعد قليل وضعتني هنرييت في قلب المجتمع المسمى « القصر الصغير » بجهود الاميرة بلامونت — شوفري قريبتها . فقد

كتبت اليها بحرارة عني . فدعتني الاميرة على الاثر لرؤيتهـــا ! وثابرت عـلى التردد عليها ، وعرفت كيف انال استحسانها ، فـلم تعد حاميةً لي فقط بل صديقة كان في عواطفها شيء من الامومة. واخذت الاميرة العجوز على عاتقها ان تصلني بابنتهـــا السيدة ديسبار ، والدوقة دي لانجيه ، والفيكونتس دي بوزيان ، والدوقة دي موفرينيز ، نساء كن يتناوبن صولجان (الموضة)، وكن كثيرات الكياسة معي ، وكنت غير مغرور معهن ودائم الاستعداد لأكون لطيفاً حيالهن. اما اخي شارل فلم يعد يتنكر لي بل اصبح يعتمد علي . لكن هذا النجاح السريع اوحى اليه غيرة خفية سببت لي فيما بعد كثيراً من الهموم . وفوجىء ابي وامي بهذا الحظ المفاجىء ، وشعرا بزهوهما واتخذاني اخيراً ابناً لهما . ولما كانت عاطفتهما سطحية عـــلى نوع ما ، حتى لا اقول مزيفة ، فقد كان لهذه العودة اثر ضئيل في قلبي المجروح . فالمحبة الملوثة بالانانية قلما تثير التعـــاطف ؛ اذ القلب يمقت الحسابات والمكاسب اياً كان نوعها .

وكنت اكتب بامانة الى هنرييت العزيزة فتجيبني برسالة او

اثنتين كل شهر. وبهذا كانت روحها تحوم فوقي وافكارهـــا تجتـــاز المسافات وتنقي لي الجو. ولم يكن هناك اية امرأة تستطيع ان تأسرني. وعرف الملك تحفظي، وقد كان من مدرسة لويس الخامس عشر من هذه الجهة، فأطلق علي اسم الآنسة دي فاندنيس وهو يضحك. ولكن الحكمة في سلوكي ارضته كثيراً. وكنت على يقين من الصبر الذي اعتدته اثناء طفولتي، وخصوصاً في كلوشيغورد، ساعد كثيراً على اجتذاب عطف الملك الذي كان دائماً رائع التصرف معي. وما من شك في انه كان يهوى قراءة رسائلي لانه لم يظل طويلًا مخدوعاً بحياتي كآنسة. وذات يوم كان الدوق في الخدمة، وكنت أكتب والملك يملي علي، وحين رأى الدوق دي ليناكور يدخل رمقنا بنظرة خبيثة وقال بصوته الفضي الجميل الذي يعرف ان يشرك فيه عند الحاجة لاذع الهجاء:

ـ هيه! اذن فهذا الشيطان دي مورتسوف يريد دائماً ان يعيش؟

فأجاب الدوق : ــ دائماً .

فقال الملك :

ــ الكونتس دي مورتسوف ملاك وكنت اريد ان أراها هنا ؛ ولكن اذا لم استطع شيئاً فان حافظ اختامي ــ قال ذلك واستدار نحوي ــ سيكون اسعد مني . امنحك إجازة ستة أشهر ، وقد عزمت ان اعين الشاب الذي حدثتني عنه زميلًا لك . تسلَّ جيداً في كلوشيغورد يا سيد كاتون !
وتدحرج خارج القاعة وهو يبتسم .

وطرت كسنونوة في التورين . لأول مرة ذهبت لأري نفسي لتلك التي أحببتها ، وأنا ليس فقط اقل غباوة بل في جهاز شاب انيق تكونت أساليبه في أرقى الصالونات ، وأتمت تربيته اكيس النساء ، ونال اخيراً ثمن عذابه ، ووضع موضع الاستعمال تجربة اجمل ملاك أوكلت اليه السماء حراسة ولد . انت تعرفين كيف كنت مجهزاً اثناء الاشهر الثلاثة لاقامتي الاولى في فرابسل . وحين عدت الى كلوشيغورد اثناء مهمتي

في الفانديه كنت لابساً كصياد، ارتدي سترة خضراء ذات ازرار بيضاء تخالطها حمــــرة، وبنطلوناً ذا خطوط، وراناً جلدياً وحذاء. وقد افسد هندامي السير في الادغـــال بحيث اضطر الكونت الى اعارتي ملابس داخلية. اما هذه المرة، فسنتان من الاقامـــة في باريس، وعادة وجودي مع الملك، وضروب السعادة، ونمو جسمي التام، ومحيًا فتي تلقى رونقاً لا يمكن شرحه من وداعة نفس اتحدت مغناطيسياً بنفس كلوشيغورد الطاهرة التي كانت تشع عليّ، كل هذا غيرني من هيئة الى اخرى؛ كنت رابط الجأش دون اختيال، واشعر برضى داخلي لاني وجدت نفسي في ذروة المهام رغم صغر سني؛ وكنت اشعر بأنني سأكون السند الخفي لأحبّ امرأة كانت هناك املي المكتوم. قد اكون اتيت بحركة صغيرة من الخيلاء حين فرقع سوط سائق العربة في الجادة الجديدة الموصلة الى كلوشيغورد من طريق شينون؛ حيث يقوم حـــاجز من القضبان المشبكة لم أكن أعرفه، ينفتح وسط سور دائري مبني حديثاً. لم أكتب بوصولي الى الكونتس آملًا ان اجعلها

مفاجأة لها ، وكنت مخطئاً مرتين : أولًا ، شعرت بتأثير يحدثه سرور مرتقب منذ امد طويل ولكنه يعتبر في عداد المستحيل، ثم انها أثبتت لي سوء المفاجآت المدبرة .

حين رأت هنرييت شاباً لا ولداً كما ألفت ، خفضت بصرها نحو الارض بحركة ذات بطء فاجع ، وتركتني آخـــذ يدها وأقبلها دون ان يظهر ذلك السرور الخاص الذي أُنذرتُ به من ارتعاشها الحساس المستحي ؛ وحين رفعت وجهها لتعيد النظر الي وجدتها شاحبة .

قال لي السيد دي مورتسوف الذي لم يتغير ولم يهرم :

ــ هيه ! اذن لم تنس اصدقاءك القدماء ؟

ووثب الولدان الى عنقي . وشاهدت على الباب وجه الأب دومينيس الوقور مؤدب جاك . وقلت للكونت :

ــ نعم ، سيكون لي من الآن فصاعـــداً ستة اشهر من الحرية اصرفها عندكم .

وقلت للكونتس وانا امد ذراعي لأطوق قامتها واسندها بحضور جميع افراد عائلتها :

ــ هيه ! ما بك ؟

فقالت وهي تثب : ــ أوه ! دعني . هذا لا شيء .

فقرأت في نفسها، واجبت عن تفكيرها السري : ــ اذن لم تعرفي عبدك المخلص ؟

فأخذت ذراعي وتركت الكونت ، وولديها ، والكاهن ، والناس الذين اسرعوا ، وسارت بي بعيداً عن الجميع ودرنا حول ملعب الكرة ، لكن بقينا على مرأى من الجميع ، وحين وثقت ان صوتها لم يعد مسموعاً قالت :

ــ فليكس ، يا صديقي . اغفر الخوف لتلك التي ليس لها سوى خيط لتذهب في متاهة تحت الارض ، والتي ترتجف لرؤية هذا الخيط منقطعاً . اعد علي انني بنظرك هنريت الى الابد

وانك لن تتركني ، وان لا شيء يتغلب علي ، وانك ستكون دائماً صديقاً مخلصاً . لقد رأيتك فجأة في المستقبل ، ولم تكن انت هناك كأنك دائماً ، متألق الوجه وعيناك علي ، وكنت تدير لي ظهرك .

— هنرييت . ايها المعبود الذي فاقت عبادته عبادة الله .

ايتها الزنبقة ، يا زهرة حياتي ، كيف لم تعرفي ، انت وجداني ، انني تجسدت في قلبك ، وان روحي هنا بينما شخصي في باريس ؟ ايجب اذن ان اقول لك انني جئت في سبع عشرة ساعة ، وان كل دورة من الدولاب كانت تأخذ معها عالماً من الافكار والرغبات انفجر كالعاصفة حالما رأيتك ...

— قل ، قل ، انا واثقة من نفسي ، استطيع ان اسمعك دون جريمة . ان الله لا يريد ان اموت ، فقد ارسلك الي كما يوزع انفاسه على مخلوقاته ، كما ينثر امطار السحب على ارض قاحلة ؛ قل ! قل ! أتحبني بقداسة ؟

ـ بقداسة .

ـ الى الابد ؟

ـ الى الابد .

ـ كالعذراء مريم التي يجب ان تبقى في أستارها وتحت تاجها الابيض ؟

ـ كالعذراء مريم منظورة .

ـ كأُخت ؟

ـ كاخت محبوبة جداً .

ـ كأُم ؟

ـ كأُم تشتهى سراً .

ـ حبا شريفاً دون امل ؟

ـ حبًّا شريفاً مع الامل .

– وأخيراً كأنك لم تتعد العشرين من عمرك وترتدي ثوب الرقص الصغير الشرير الازرق ؟

– اوه ! افضل من ذلك . احبك هكذا ، واحبك ايضاً مثل ... – ونظرت إليّ بإدراك حاد – مثلما كانت تحبك خالتك .

فقالت وهي تعود نحو العائلة المندهشة من حديثنا السرّي :

– أنا سعيدة ؛ لقد بددت مخاوفي . ولكن كن ولداً هنا لانك لا تزال ولداً . واذا كان هدفك ان تكون رجلاً مع الملك فاعلم ايها السيد ان سياستك هي ان تبقى ولداً . وببقائك ولداً ستكون محبوباً ! اني سأقاوم دائماً قوة الرجل اما الولد فماذا ارفض له ؟ لا شيء ؛ انه لا يمكن ان يريد شيئاً واعجز عن منحه اياه .

ثم قالت وهي تتطلع الى الكونت بهيئة خبيثة عادت فيها تلك الفتاة الصغيرة ذات السجية البدائية :

– لقد بحنا بالاسرار . وأتركك الآن لأرتدي ثيابي .

منذ ثلاث سنوات لم اسمع قط صوتها المليء بالسعادة . وللمرة الاولى عرفت هذه الصرخات الجميلة للسنونوة ، وتلك الانغام الصبيانية التي حدثتك عنها . كنت قد جلبت معي عدة صيدِ لجاكِ وعلبة اشغال لمادلين كانت امها تستعملها دائماً ؛ لقد أصلحت اخيراً الشح الذي كان تقتير امي قد قضى علي بــــه . والسرور الذي أظهره الولدان السعيدان ، حين كان الواحد منهما يري الآخر هديته ، بدا انه ازعج الكونت الذي يصاب بالغم دائماً حين لا يكون موضع اهتمام . فأشرت الى مادلين اشارة خفية ، ولحقت بالكونت الذي يريد ان يتحدث عن نفسه معي . فسار بي نحو السطيحة ولكننا كنا نتوقف على الدرج عند كل حدث هام كان يحدثني عنه . وقال لي :

– يا صديقي فليكس المسكين . انت تراهم كلهم سعداء وصحتهم جيدة : اما انا فظلٌ للوحة . كنت آخذ آلامهم وأباركِ الله الذي أعطاني اياهم . كنت اجهل ما بي في السابق ،

ولكني اليوم اعرف ذلك. اني مصاب بداء المعدة ولا أهضم شيئاً.

فقلت له مبتسماً :

– بأي صدفة اصبحت عالماً كأستاذ في مدرسة الطب؟ لا شك ان طبيبك قليل الفطنة اذ يقول لك ذلك.

فهتف، مظهراً النفور الذي يشعر به معظم مرضى الوهم حيال الطب :

– لينجني الله من استشارة الاطباء.

واحتملت عند ذاك حديثاً جنونياً افضى إليَّ في اثنائه باسرارٍ جدّ مضحكة. اشتكى من زوجته، من رجاله، من ولديه ومن الحياة، شاعراً بلذة واضحة بترديد أقواله التي يقولها كل يوم لصديق قد يثير دهشته اذا لم يكن يعرفه، فيضطره التهذيب الى الإصغاء اليه باهتمام. وعلى هذا وجب ان يكون مسروراً

مني لانني أعرته انتباهاً عميقاً ، محاولًا النفاذ الى هذ المزاج الذي لا يفهم ومعرفة الآلام الجديدة التي ألحقها بزوجته ولم تحدثني عنها . وقد وضعت هنرييت حداً لهذا الحديث الذي كان من جانب واحد بظهورها على الدرج . شاهدهـــا الكونت فهز رأسه وقال لي :

– لقد اصغيت الي انت يا فليكس ؛ ولكن ما من شخص هنا يرثي لي .

وذهب كأنه شعر بالتشويش الذي احدثه في محادثتي لهنرييت، او كأنه عرف، بفروسيته اليقظى، انه يسرها ان نبقى وحدنا . ان سجيته تختم الامور بنتائج لا تشرح، لانـــه كان غيوراً كجميع الضعفاء ، ثم ان ثقته بقداسة امرأته لا حدود لها ؛ وقد تكون آلام انانيته الجريحة من تفوق هذه الفضيلة السامية قد ولدت معارضته الدائمة لمشيئة الكونتس ، فكان يثيرها كما يثير الاولاد معلميهم او امهاتهم . كان جاك يتلقى دروسه ومادلين تقوم بزينتها : اذن استطيع ان انتزه وحدي مع الكونتس طوال ساعة على السطيحة . قلت لها :

ـ ايه ! يا ملاكي . هل زاد ثقل القيد ، والتهبت الرمال ، وتضاعفت الاشواك ؟

فقالت، وقد ادركت الافكار التي القاها حديثي مع الكونت في ذهني :

ـ اسكت . انت هنا ، فكل شيء قد نُسي . اني لا اتألم ولست متألمة .

وخطت بضع خطوات خفيفة كأنها تريد ان يلامس الهواء زينتهـــا البيضاء ، او تعرض للنسيم خلاياها المصنوعة من التول الثلجي ، وكميها المسترسلين، واوشحتها الخفيفة، ومعطفها القصير ورباطات شعرها المتدلية على طريقة مدام دي سفينيه : ولاول مرة رأيتها صبية، مرحة بمرحها الطبيعي، مستعدة كالطفل للعب، وعرفت عندئذٍ دموع السعادة والفرح التي يشعر بها الانسان وهو يمنح السرور . وقلت لها :

ـ ايتها الزهرة البشرية الجميلة التي يداعبها فكري وتقبلهـا روحي !..

يا زنبقتي ! الحصينة دائماً والمستقيمة على فرعها ، الدائمة البياض ، الفخور ، المعطرة ، المنعزلة .

فقالت وهي تبتسم :

ــ كفى يا سيد . حدثني عن نفسك . قص علي كل شيء .

وكان لنا آنذاك، تحت تلك القنطرة المتحركة من الاوراق المرتعشة ، حديث طويل مليء بالجمل المعترضة ، نبدأ به، ونتركه، ثم نعود اليه ، فاطلعتها على حياتي ومشاغلي ! ووصفت لها شقتي في باريس لأنها كانت تريد معرفة كل شيء ، ومن حسن الحظ الذي لا يقدر بثمن انه لم يكن لدي ما اخفيه عنها. وحين عرفت نفسي وجميع تفاصيل هذه الحياة الملأى بالاعمال المنهكة ، وحين علمت باتساع هذه الوظائف بحيث يمكن الخداع وبلوغ الغنى بسهولة لو لم يكن هناك نزاهة صارمة . ولكني امارسها بكثير من الشدة حتى ان الملك ــ كما قلت لها ــ كان يدعوني « الآنسة دي فاندنيس » . حين علمت ذلك امسكت بيدي وقبلتها بعد ان سقطت من عينها دمعة فرح . ان هذا التبديل المفاجيء

بالادوار، وهذا الثناء السخي، وهذه الفكرة التي اوضحت بسرعة وفُهمت بسرعة اكبر : «هـــذا هو السيد الذي كنت اريده، هذا هو حلمي !» وكل ما في هذا العمل من اعترافات، حيث التنازل عظمة، وحيث الحب كشف عن نفسه في منطقة ممنوعة على الحواس، وهذه الزوبعة من الاشياء السماوية سقطت على قلبي وسحقتني. فشعرت انني صغير، واريد ان اموت على قدميها. قلت :

ــ انتن تتفوقن علينا في كل شيء. كيف تستطيعين ان تشكي بي؟ لقد شككت بي يا هنرييت.

فأجابت وهي تنظر إلي بعذوبة لا توصف حجبت نور عينيها:

ــ كلا في الوقت الحاضر، لكن حين رأيتك كثير الجمال قلت لنفسي : ــ ان مشاريعنا حول مادلين ستعكرها احدى النساء التي ستكتشف الكنز المخبأ في قلبك، وتعبدك، وتسرق منا فليكسنا، وتحطم كل شيء هنا.

فقلت وانا اظهر دهشة لم تحزنها إلا قليلًا :

ــ دائماً مادلين ! أوَ تعتقدين اذن ان كل هــذا الاخلاص كان لمادلين ؟

وغرقنا في صمتٍ قطعه السيد دي مورتسوف بمفاجأة سيئة . فاضطررت وقلبي مفعم ، ان اعمد الى حديث كثير المصاعب ، فاصطدمت اجوبتي الصادقـة عن السياسة التي كان يتبعهـا الملك آنذاك بأفكار الكونت الذي اجبرني على ايضاح مقاصد صاحب الجلالة . ورغم اسئلتي عن خيوله ، وعن وضعية اعماله الزراعية ، وهل هو مسرور من مزارعه الخمس ، وهـل قطع اشجار الجادة القديمة . فقد كان يعود دائماً الى السياسة بلجاجة عانس وإلحاح طفل ، لأنه مثل هذه العقول التي تصطدم مختارةً بالاماكن التي يتألق فيها النور . وتعود اليها دائماً وهي تطنّ دون ان تخترق شيئاً ، وتتعب النفس كما تتعب الذبابات الكبيرة الاذن وهي تدندن على الزجاج. وصمتت هنرييت. ولكي اطفئ هذا الحديث الذي يمكن ان تشعله حرارة الصبا ، كنت اجيب بكلمــات

استحسان ذات مقطع واحد، متجنباً بذلك مناقشات عقيمة. ولكن السيد دي مورتسوف كان من الذكاء بحيث شعر بما في تهذيبي من الاستهانة. وحين احتد واغتاظ لأني جعلته دائماً على حق، تحرك حاجباه وغضون جبهته، وبرقت عيناه الصفراوان، وازداد احمرار انفه الذي كان بلون الدم، كما حدث يوم شهدت لأول مرة احدى نوبات جنونه الكامل؛ فألقت علي هنرييت نظرة توسل جعلتني افهم انها لن تستطيع ان تظهر سلطتها، التي كانت تستعملها دائماً، لمصلحتي تبريراً او دفاعاً عن ولديها. فأجبت الكونت حينئذ باتخاذي موقفاً جاداً حياله، وعالجت روحه المتعكرة بمهارة فائقة.

ـ يا عزيزي المسكين، يا عزيزي المسكين!

تمتمت عدة مرات هاتين الكلمتين اللتين وصلتا الى اذني كالنسيم. وحين ظننت انها تستطيع التدخل بنجاح قالت لنا وهي تنهض:

ـ اتعلمان ايها السيدان انكما مضجران تماماً؟

وحين عاد الكونت بهذا السؤال الى الطاعة التي توجبهـــا الفروسية للنساء انقطع عن التحدث بالسياسة ؛ وأضجرناه بدورنا ونحن نتحدث بالتوافه ، فتركنا نتنزه احراراً زاعماً ان رأسه يدور من الطواف باستمرار في نفس المكان .

وصحت ظنوني الحزينة . فالمناظر الطبيعية الهادئة ، والجو الفاتر ، والسماء الجميلة ، والشاعرية المسكرة في هذا الوادي الذي هـــدّأ اوهام ذاك المريض الناخرة طوال خمس عشرة سنة ، اصبحت اليوم بدون فعالية . في تلك الفترة من العمر التي تذوب فيها عادة الخشونات عند الرجال ، وتستدير الزوايا ، فان خلق هذا النبيل العجوز ازداد شراسة عن ذي قبل . فمنذ بضعة اشهر كان يعارض لأجل المعـــارضة ، بدون سبب ، وبدون تفسير آرائه : كان يسأل عن سبب كل شيء ، ويجزع لتأخير او لتوكيل ، ويتدخل بالامور الداخلية في كل مناسبة ، ويحسب حساباً لأقل الترهات المنزلية بطريقة تتعب امرأته ورجاله ، لانه لا يترك لهم حرية التصرف . كان في الماضي لا يهتاج ابداً دون سبب يبدو وجيهاً ، اما الآن فهياجه صار مستمراً . وقد يكون اعتناؤه

بثروته ، ومضاربات الزراعة ، وحياته المليئة بالحركة حولت حتى ذلك الوقت مزاجه السوداوي الى تغذية مخاوفه ، واستخدام فعالية عقله؛ وقد يكون فقدان ما يشغله اليوم وضع مرضه وجهاً لوجه مع نفسه ؛ وبما ان هـذا المريض لم يظهر في الخارج فقـد تجسد في افكار ثابتة ، « فالأنا » المعنوية استحوذت عـلى « الأنا » الجسدية . وهكذا اصبح طبيب نفسه ؛ كان يبحث عن كتب الطب ويظن انه مصاب بالامراض التي يقرأ اوصافها ويتخـــذ حينئذٍ لصحته احتياطات غريبة متنوعة يستحيل فهمها، وبالتالي يستحيل ارضاؤها. فأحياناً لا يريد ضجة، وحين تفرض الكونتس صمتاً مطلقاً حوله ، فانه يشكو الصمت فجـــأة وكأنه في قبر ، فيقول ان ثمة حالة وسطى بين اثارة الضجة والعدم في القبر . ويتظاهر احياناً بلامبالاة تامة بالاشياء الارضية ، فيتنفس البيت بكامله ، ويلعب ولداه ، وتتم الاعمال المنزلية دون نقد ؛ واذ به فجأة ، يصرخ شاكياً في وسط الجلبة : ـ « يريدون قتلي ! » وكان يقول لزوجته ، ويزيد من ظلم هذه الاقوال بواسطة النبرة الفظة الباردة التي ترافقها : ـ « لو تعلق الامر بولديك يا عزيزتي

لعرفت جيداً ما يزعجهما ». وكان يرتدي ملابسه ويخلعها في كل لحظة ، دارساً اخف تقلب في حالة الجو ، وكان لا يفعل شيئاً دون الرجوع الى ميزان الحرارة. ورغم اعتناءات زوجته كأم فبات لا يجد اي غذاء لذوقه ، فيزعم ان معدته خربة وعمليات الهضم المؤلمة تسبب له ارقاً مستمراً ؛ ومع هذا كان يأكل ويشرب ويهضم وينام باتقان يثير عجب نطس الاطباء. ومطاليبه المتغيرة كانت تمنع الخدم ، وهم معتادون على الرتابة شأن جميع الخدم ، عن التكيف وفقاً لتطلبات الانظمة المتناقضة باستمرار. كان الكونت يأمر بإبقاء النوافذ مفتوحة بحجة ان الهواء اصبح ضرورياً للصحة بعد الآن ؛ وبعد بضعة ايام يصبح الهواء الكثير الرطوبة او الكثير الحرارة غير محتمل؛ وحينئذٍ يوبخ، ويشرع بالشجار ، ولكي يكون على حق كان ينكر امره السابق. وهذا العيب في الذاكرة ، أو سوء النية يجعله يربح القضية في جميع المناقشات حين تحاول زوجته أن تظهر مناقضاته لنفسه. لقد اصبح السكن في كلوشيغورد غير محتمل حتى إن الاب دي دومينيس ، وهو رجل راسخ القدم في العلم ، أخذ يبحث

بدوره عن حلٍّ لبعض المشاكل، وكان يلجأ الى ألهيات متكلفة يلهيه بها. ولم تكن الكونتس تأمل، كما في الماضي، ان تستطيع ابقاء اعراض هذه الغضبات المجنونة في دائرة العائلة. ففي الماضي كان خدم البيت شهوداً على احداث كان فيها غضب هذا العجوز المبكر يتجاوز الحدود؛ وكانوا كثيري الاخلاص للكونتس لا يفشون شيئاً في الخارج؛ لكنها كانت تخشى كل يوم انفجاراً لهذا الهذيان الذي لا ترضى به الكرامــــة الانسانية. وعلمت فيما بعد تفاصيل رهيبة عن سلوك الكونت حيال امرأته؛ فبدلاً من مؤاساتها كان يرهقها بنبوءات مشؤومة ويحملها تبعة المصائب الآتية لانها كانت ترفض الادوية الجنونية التي يريد ان يخضع ولديه لها. واذا تنزهت الكونتس مع جاك ومادلين فان الكونت يتوقع لها زوبعــــة رغم صفاء السماء! واذا صدف ان بررت الحوادث تكهناته فان ارضاء حب الذات يجعله غير شاعر بألم ولديه؛ واذا تعكر مزاج احدهما فانه يشغل كل عقله لايجاد سبب لهذا الالم في الطريقة التي اختارتهـــا زوجته للعناية بالولد وينتقدها في أدق التفاصيل، ويلخص دائماً بهذه الكلمات: «إذا أصاب المرض

ولديك فلأنك أردت ذلك . » ويتصرف هذا التصرف في أقل التفاصيل المتعلقة بالادارة المنزلية بحيث لم يكن يرى سوى الناحية السيئة من الامور ، ويجعل من نفسه في كل مناسبة « محامي الشيطان» وفقاً لتعبير حوذيه العجوز . وكانت الكونتس قد عينت لجاك ومادلين اوقاتاً للطعام تختلف عن أوقاته وبهذا أنقذتهما من مفعول مرض الكونت المخيف مجتذبة جميع الزوابع نحوها . وكان جاك ومادلين لا يريان والدهما إلا نادراً . والكونت، بسبب الاوهام الخاصة بالانانيين، لم يكن يدرك الألم الذي كان هو سببه . وفي أحاديثنا كان يشكو انه كثير الطيبة مع اهل بيته . كان اذن يحرك المصيبة ، ويهدم ، ويحطم كل شيء حوله كما يفعل القرد ؛ ثم ينكر انه مس ضحيته بعد أن يجرحها. وعندئذٍ ادركت من أين جاءت الخطوط التي كأنها مرسومة بحد موسى على جبهة الكونتس ، والتي شاهدتها بعد عودتي . إن للنفوس النبيلة حياء يمنعها من ابداء آلامها ، فتخفيها بكبرياء عمن تحب مدفوعة بعاطفة الاحسان العذبة .ولم أستطع ، رغم إلحاحي ، ان أنتزع هذا السر دفعة واحدة من هنرييت . كانت

تخشى أن تسبب لي الغم ، وقد أفضت الي باعترافات قطعها خجل مفاجىء ؛ ولكني أدركت فيما بعد الخطورة التي جلبتها بطالـــة الكونت الى الهموم المنزلية في كلوشيغورد . وقلت لهنرييت بعد بضعة ايام مبرهناً لها انني أدركت عمق بؤسها الجديد !

ـ هنرييت ، ألم ترتكبي خطأ بتنظيم ارضك بحيث لم يعـد الكونت يجد ما يشغله ؟

فقالت وهي تبتسم :

ـ يا صديقي العزيز ، إن وضعي حرج يسترعي كل انتباهي .

صدق انني درست جميع الوسائل جيداً ، وقد استنفدتهـــا كلها . ولا يخفى ان المنكدين على الناس يكثرون دائماً . وبما انني والسيد دي مورتسوف نتقابل باستمرار فاني لم استطع اضعافهم بتوزيعهم على عدة نقاط ، وكل شيء يظل مؤلماً بالنسبة الي . وقد فكرت في إلهاء السيد دي مورتسوف بان أشرت عليه أن يؤسس في كلوشيغورد مكاناً لتربيـة دود الحرير حيث بعض

اشجار التوت، أثر من الصناعة القديمة في التورين؛ ولكني عرفت بأنه سيظل المستبد في البيت واني سأضيف الى متاعبي الوف متاعب هذا المشروع . اعلم ايها المراقب ان الرجل وهو في مقتبل العمر يكتم الصفات القبيحة بين الناس ويوقت تقدمها لتقلب الاهواء، ويضيق عليها الاحترام الانساني ؛ اما فيما بعد ، في العزلة، وعندما يكبر في السن، فان العيوب الصغيرة تكون مخيفة بنسبة الوقت الذي كانت مكبوحة فيه . والضعف البشري جبان أساساً فهو لا يحتمل سلاماً ولا مهادنة ، وما منحته اياه بالامس يطلبه اليوم أو غداً أو دائماً؟ انه يتوطد بالتساهل ويتطور . والقدرة رحيمة ، وهي تجنح الى الوضوح . انها عادلة دمثة ، بينما العواطف المتولدة من الضعف لا ترحم ؛ وتكون سعيدة حين تستطيع التصرف على نسق الاولاد الذين يفضلون الثمرة المسروقة خفيةً على الاثمار التي يستطيعون اكلها على المائدة؟ وهكذا أيشعر السيد دي مورتسوف بفرح حقيقي حين يغافلني ، هو الذي لا يخدع احداً ، فيخدعني بلذة شرط أن تبقى الحيلة في قرارة نفسه .

بعد وصولي بشهر تقريباً، وبينما كنت خارجاً، ذات صباح، من تناول الفطور، اخذت الكونتس ذراعي، وهربت من باب ذي شقوق يوصل الى البستان، واسرعت بي الى الكروم قائلة: —آه! انه سيقتلني. ومع ذلك اريد ان أعيش، لا لشيء إلا لأولادي! أليس هناك يوم راحة! اني أسير دائماً في الاشواك متوقعة السقوط في كل لحظة، وفي كل لحظة أجمع قواي لأحفظ توازني. ليس هناك مخلوق يقدر على هذا التبذير في النشاط. واذا كنت أعرف جيداً الارض التي يجب ان انقل اليها جهودي، واذا كانت مقاومتي غير محدودة، فان النفس تنوء بذلك؛ ولكن كلا. فان المهاجمة تغير طابعها كل يوم وتفاجئني وانا بدون دفاع، وليس ألمي واحداً. انه متعدد. فليكس، فليكس، لن تستطيع تصور الشكل البغيض الذي اتخذه استبداده، واي متطلبات وحشية توحي اليـــه كتبه الطبية. اوه! يا صديقي — قالت ذلك وهي تسند رأسها الى كتفي دون ان تتم مناجاتها. ثم تابعت وهي تنتفض للتخلص من الفكرة التي لم توضحها: — ماذا يحلّ بي؟ ما العمل؟ كيف

أقاوم؟ انه سيقتلني . كلا ، سأقتل نفسي ، ومع ذلك فهذه جريمة ! أأهرب؟ وأولادي؟ أأنفصل عنه؟ ولكن كيف ، أأقول لأبي بعد خمسة عشر عاماً من الزواج انني لا أستطيع البقاء مع السيد دي مورتسوف ، الذي يصبح رصيناً ، عاقلاً ، مهذباً ، لطيفاً حين يأتي أبي وأمي . ومع ذلك فهل للنساء المتزوجات آباء؟ أمهات؟ انهن لأزواجهن جسداً ومالاً . كنت أعيش براحة بال ان لم أكن سعيدة ، وكنت استمد بعض قواي من عزلتي الطاهرة ، وأعترف بذلك ؛ ولكن ان حرمت من تلك السعادة السلبية أصبح مجنونة ، ومقاومتي تستند الى أسباب قوية ليست خاصة بي . أليس من الجريمة ان نلد مخلوقات مسكينة حكم عليها مسبقاً بآلام دائمة؟ ومع ذلك فسلوكي يثير مشاكل مهمة لا أستطيع ان أبت بها وحدي ؛ فأنا قاضٍ وطرف في النزاع . سأذهب غداً الى تور لأستشير الاب بيروتو مديري الجديد لأن عزيزي الفاضل الأب ديلابرج قد مات ، لقد كان صارماً ولكني سأفتقد دائماً قوته الرسولية . اما خلفه فملاك بلطفه يرحم ولا يلوم ؛ ومع ذلك فأي شجاعة لا تنمو في قلب

الدين ، واي عقل لا يترسخ بصوت الروح القدس؟ وتابعت وهي تجفف دموعها وترفع عينيها الى السماء : — يا إلهي ، بماذا تعاقبني؟ ثم قالت وهي تسند أصابعها الى ذراعي : — ولكن يجب ان نؤمن به ، نعم ، لنؤمن به يا فليكس ، علينا أن نمــر في بوتقة محماة قبل ان نصل الى الملكوت الاعلى قديسين وكاملين. أيجب ان أسكت؟ أتمنعني يا إلهي ان اودع صرختي صدر صديق؟ هل أحببته كثيراً؟ — وشدتني الى قلبها كأنها تخاف ان تفقدني — من سيحل لي هذه الشكوك؟ ان ضميري لا يؤنبني بشيء. والنجوم تشع على الناس من فوق ، والنفس ، هذه النجمة البشرية ، لماذا لا تغلف بنيرانها صديقاً ما دامت لا توجه اليه سوى الافكار الطاهرة؟

كنت اسمع هذا الصياح الهائل بصمت ، ممسكاً يدها الرطبة بيدي الاكثر رطوبة ؛ ضغطت عليها بقوة اجابتني عليهــا هنرييت بقــوة متعادلة. وصرخ الكونت وهو آت نحونا عاري الرأس :

ــ إذن أنتما هنا ؟

منذ عودتي كان يريد بإصرار ان يتدخل في أحاديثنا ، إما أملًا بأن يجد فيها بعض التسلية ، واما اعتقاداً بأن الكونتس تحدثني عن آلامها وتفرغ شكاويها في صدري ، واما غيرة من لذة لم يقاسمها . وقالت بلهجة يأس :

ــ انه يتبعني باستمرار ! هيا لنرى تصوينة المزرعة . يجب ان ننحني على طول السياج لئلا يرانا .

وجعلنا من السياج الكثيف متراساً ، وبلغنا التصوينة راكضين ، واصبحنا بعيدين عن الكونت في ممر من شجر اللوز . قلت لها حينذاكِ وانا أشد ذراعها الى قلبي وأقف لأتأملها في آلامها :

ــ عزيزتي هنريت في السابق سرتِ بي بحكمة خلال مسالك الدنيا الخطرة . فاسمحي لي ان اسديك بعض المعلومات لأساعدكِ على وضع حدٍّ لهذه المبارزة التي لا شهود لها ، والتي

ستسقطين فيها دون شك لأنك لا تحاربين بسلاح متعادل؛ لا تناضلي طويلًا ضد مجنون...

– أسكت !

قالت ذلك وهي تمسح الدموع المتدحرجة من عينيها .

– إسمعيني يا عزيزتي ! إن تفكيري يتشوش، ورأسي ثقيل بعد ساعة من هذا الحديث الذي اضطررت الى تحمله في سبيل حبي اياكِ . لقد جعلني الكونت اشك بذكائي ، فنفس الكلمات المرددة تنحفر في دماغي رغماً عني . ان الجنون في شيء واحد والمعين تعييناً دقيقاً ، ليس ناقلًا للعدوى ؛ ولكن حين يكمن الجنون في طريقة النظر الى الامور ويختبىء تحت مناقشات مستمرة فقد يسبب أضراراً لأولئك الذين يعيشون بقربه . ان صبركِ سامٍ. ولكن الا يقودكِ الى الخبل ؟ وهكذا ، فلأجلك، ولأجل ولديك ، يجب ان تغيري طريقتك مع الكونت . ان ملاطفتك التي تستحق العبادة انمت أنانيته ، فقد عاملته كما تعامل الام ولداً تدلله ؛ فلئن أردت اليوم ان تعيشي ، وكنت

تريدينه – قلت ذلـــك وانا انظر اليها – فابسطي سيطرتك عليه. انت تعلمين انه يحبك ويخافك ، فزيدي من خوفــــه إياكِ ، عارضي إرادته المشتتة في عدة وجهات بارادة مستقيمة. إبسطي مقدرتك كما عرف هو ان يمدد الامتيازات التي منحتها إياه ، واحبسي مرضه في دائرة معنوية كما يحجرون على المجانين.

قالت وهي تبتسم بمرارة :

– يا ولدي العزيز. ان امرأة دون قلب وحدها تستطيع ان تلعب هذا الدور. انا أُم ، فهل أَصبح جلاداً سيئاً؟ نعم ، اني اعرف ان اتعذب ، ولكن ان اجعل الآخرين يتعذبون! فهذا ما لا أَفعله حتى ولو كان ذلك في سبيل الحصول على نتيجة مشرفة وعظيمة. ومع ذلك ، ألا يجب عليَّ ان أجعل قلبي يكذب ، وان أغيّر صوتي ، وأسلّح جبهتي ، وافسد حركتي؟ لا تطلب مني أكاذيب كهذه. اني لا استطيع ان اضع نفسي بين السيد دي مورتسوف وولديه ، وسأتلقى ضرباته حتى لا

يصيب احداً هنا ، هذا كل ما استطيعه لكي اوفق بين كثير من المصالح المتضاربة .

فقلت وانا أضع ركبتي على الارض مقبلًا ثوبها ، ماسحاً به دموعي التي طفرت الى عينيّ :

ــ دعيني اعبدكِ ! ايتها القديسة . ثلاث مرات قديسة .

ثم قلت لها :

ــ ولكن اذا قتلك ؟

فشحب لونها واجابت وهي ترفع عينيها الى السماء :

ــ ستكون مشيئة الرب .

ــ أتعرفين ماذا قال الملك لأبيك بشأنك ؟ « اذن فهذا الشيطان دي مورتسوف لا يزال حياً ! »

فأجابت : ان ما يعتبر مزاحاً من فم الملك يعتبر جريمة هنا .

وتبعنا الكونت على الاثر رغم احتياطاتنا ، فوصل وهو مبلـــل بالعرق الى تحت شجرة جوز كانت الكونتس قد وقفت عندها لتقول لي هذا الكلام الخطير ؛ وحين رأيته صرت أتكلم عن قطاف العنب . هـــل كان ذا شكوك سيئة ؟ لا أدري ؛ لكنه بقي يتفحصنا دون ان يفوه بكلمة ، ودون ان يحتاط للرطوبة التي تقطر من أشجار الجوز . وبعد لحظة قضيناها في أقوال لا معنى لها ، تقطعها وقفات ذات معنى ، قال الكونت انه يشعر بألم في قلبه ورأسه . كان يشتكي بلطف دون ان يطلب شفقتنا ، وبدون ان يرسم لنا آلامه بصورة مفرطة . لم نعره اي اهتمام . وعند العودة شعر بتزايد الالم . قال انه سيلازم سريره ، ولازمه ببساطة ، بشكل طبيعي لم يكن من عادته . واغتنمنا فرصة الهدنة التي اتاحها لنا مزاجه السوداوي ، فنزلنا الى سطيحتنا العزيزة تصحبنا مادلين .

قالت الكونتس بعد بضع دورات :

ــ لنذهب ونتنزه على صفحة الماء . سنذهب ونحضر عملية صيد السمك التي يقوم بها الحارس لأجلنا اليوم .

وخرجنا من الباب الصغير ، وبلغنا الزورق ، وقفزنا اليه ، وها نحن نصعد في الاندر ببطء ، كثلاثة أطفال يتلهون بـــلا شيء . ونظــــرنا الى اعشاب الضفاف ، والفراشات الزرقاء والخضراء ، ودهشت الكونتس لاستطاعتها تذوق مسرات هادئة وسط احزانها الممضة ؛ لكن هدوء الطبيعة غـــير المهتم بكفاحنا ، ألم يمارس علينا فتنة مؤاسية ؟ ان تحرك حب مليء بالرغبات المكبوتة ينسجم مع تحرك الماء ، والازهار التي لم تشوشها يـــد الانسان تفسر احلامها الاكثر سرية ، وهدهدة الزورق اللذيذة تقلد ، بشكل غامض ، الافكار التي تطفو على صفحة النفس . شعرت بالتأثير المخدر لتلك الشاعرية المزدوجة . والكلام المتصاعد وفقاً لانغام الطبيعة يذيع طلاوة غريبة ، والنظرات الرائعة الاشعة تساهم مع النور الذي تسكبه الشمس بسخاء في المروج الملتهبة . وكان النهر كطريق طرنا عليـــه . وأخيراً لم تكن روحنا ملتهية بالحركة التي يتطلبها السير على الاقدام ، فاستحوذت على الابداع . الس السرور الصاخب لفتاة صغيرة متحررة من القيـــود ، كثيرة الظرف في حركاتها

وكثيرة الازعاج في اقوالها ، هو التعبير الحي عن نفسين حرتين يرضيهما ان يمثلا تلك المخلوقة البديعة التي حلم بها افلاطون ، والمعروفة من جميع الذين افعم شبابهم حب سعيد؟ ولكي اصور لك تلك الساعة ، ليس بتفاصيلها التي لا توصف ، بل بمجموعها ، فاني اقول لك اننا تحاببنا في جميع الكائنات ، في جميع الاشياء المحيطة بنا ! وكنا نشعر خارج انفسنا بالسعادة التي تمناها كل منا ؛ وقد تغلغلت هذه السعادة فينا بشدة بحيث ان الكونتس خلعت قفازها واسقطت يديها الجميلتين في الماء كأنها تنعش نشاطاً خفياً . كانت عيناها تتكلمان ، لكن فمها الذي ينفتح كوردة للهواء كان ينطبق على رغبة . انت تعرفين نغم الاصوات الثقيلة المتحدة اتحاداً تاماً مع الاصوات المتصاعدة . فهو يذكرني دائماً بنغم روحينا في تلك اللحظة التي لن تعود ابداً . قلت لها :

ـ اين تصيدين السمك اذا كنت لا تستطيعين الصيد إلا على الضفاف التي هي لك ؟

فقالت :

ـ بالقرب من بون دي روان . ها ! ان النهر لنا الآن من بون دي روان حتى كلوشيغورد ، فقد اشترى السيد دي مورتسوف اربعين «اربانت» من المروج بما أدخره في هاتين السنتين ومن متأخر راتبه . فهل هذا يدهشك ؟

فهتفت : ـ أنا ، اني اريد ان يكون الوادي كله لك .

فاجابتني بابتسامة . ووصلنا الى تحت جسر دي روان حيث يصبح الاندر عريضاً فيمكن صيد السمك .

وقالت : هه ! مارتينو ؟

ـ آه يا سيدتي الكونتس ، لقد لازمنا سوء الحظ . نحن هنا منذ ثلاث ساعات وقد صعدنا من الطاحونة هناك ، ولم نلتقط شيئاً .

نزلنا الى البر لنشاهد طرحات الشبكة الاخيرة ، ووقفنا

نحن الثلاثة في ظل شجرة هي نوع من الصفصاف جذورها بيضاء تنمو على الدانوب واللوار وعلى جميع الانهار الكبيرة تقريباً، وتلقي في الربيع قطناً أبيض حريرياً هو غلاف زهرتها. كانت الكونتس قد استعادت رونقها الجميل، وربما ندمت لانها كشفت لي عن آلامها ولأنها صرخت كأيوب بدلًا من ان تبكي كالمجدلية، مجدلية بدون حب، ولا حفلات ولا انهاك في الملاذ، ولكن ليس بدون عطور وجمال. وكانت الشبكة التي جيء بها اليها ملأى بالسمك، شبوط، بوري، سمك كراكي، وفيها شبوط كبير يقفز على العشب. قال الحارس:

– هذا عمل شبه مقصود.

وحملق العمال بعيونهم معجبين بهذه المرأة التي تشبه جنيةً مست عصاها الشبكة. وفي هذه اللحظة ظهر السائس وهو يسير خلال المروج راكضاً على جواده فسببت لها رؤيته ارتجافات مخيفة. لم يكن جاك معنا، وأول ما تفكر به الام،

كما قال فرجيل شعريًّا، هو ان تضم اولادها الى صدرها عند أقل حادث . وصرخت :

– جاك ! اين جاك ؟ ماذا حدث لولدي ؟ .

انها لم تكن تحبني ! ولو أحبتني لظهر عليها عند آلامي هذا التعبير الذي يشبه تعبير لبؤة في حالة اليأس .

– ان حالة الكونت سيئة يا سيدتي الكونتس .

وتنفست الصعداء . وركضت معي تتبعنا مادلين ، وقالت لي :

– عودا متمهلين لئلا تصاب هذه العزيزة الصغيرة بالحمى . وها انت ترى ان ركض السيد دي مورتسوف في هذا الطقس الشديد الحرارة جعله يتصبب عرقاً . وربما كان وقوفه تحت شجرة الجوز سبب المصيبة .

ان هذه الكلمة التي قيلت اثناء اضطرابها تتهم طهارة نفسها.

ان موت الكونت مصيبة ! بلغت كلوشيفورد بسرعة ، ومرت من ثلمة في حائط ، واجتازت التصوينة . اما انا فرجعت بالفعل متمهلًا . لقد انارتني اماثر هنرييت ولكن كما تنير الصاعقة الحصاد المخزّن في الاهراء . لقد شعرت انني المفضل عندها طوال هذه النزهة على الماء . وقد شعرت في كثير من المرارة ان كلماتها كانت عن سلامة نية . والحبيب الذي ليس هو كل شيء هو لا شيء. اذن كنت وحدي احب برغبات حبٍ يعرف كل ما يريد، ويقتات مسبقاً بملاطفات مرتجاة ويكتفي بملذات الروح لانه يمزج بها الملذات التي يحتفظ المستقبل له بها . لو كانت هنرييت تحب لما كانت تعرف شيئاً، لا من ملذات الحب ولا من عواصفه. كانت تعيش بالعاطفة كقديسة مع الله . كنت المادة التي ترتبط بها افكارها واحساساتها المجهولة كما يرتبط القفير بغصن شجرة مزهرة ؛ ولكني لم اكن المبدأ ، بل طارئاً في حياتها . وكملك مخلوع يسأل عمن يستطيع ان يعيد الي مملكتي . وفي غمرة غيرتي المجنونة لمت نفسي لأنني لم اجرؤ على شيء ، لانني لم اشد روابط حنوٍ بدا لي حينذاك رقيقاً اكثر منه حقيقياً بسبب قيود الحق الوضعي الذي يخلقه الامتلاك .

ان تعكر مزاج الكونت الذي نتج تقريباً عن البرد تحت شجرة الجوز اصبح خطيراً ببضع ساعات . فذهبت الى تور في طلب طبيب مشهور هو السيد اوريجه[1] . الذي لم استطع ان أعود به الا في السهرة ، ولكنه بقي طوال الليل والغد في كلوشيغورد . لقد ارسل في طلب كمية كبيرة من العلق لانه قرر ان الفصد ضروري ولكن ليس معه محجم . فركضت حالّا الى آزاي في طقس مخيف . وايقظت الجراح السيد ديسلاند وارغمته على المجيء بسرعة عصفور . ولو تأخرنا عشر دقائق لكان الكونت مات ، ولكن الفصد انقذه . ورغم هذا النجاح الاول فان الطبيب توقع الاصابة بالحمى الالتهابية الاكثر خطراً ، وهي احد تلك الامراض التي يصاب بهـا الناس الذين ظلوا بصحة جيدة طوال عشرين سنة . والكونتس التي صرعها الحادث كانت تعتقد انها هي سبب هذه النوبة المشؤومة ، ولم تكن تملك القوة لتشكرني فاكتفت بارسال بعض الابتسامات الي كان تعبيرها

(١) شخص حقيقي . فالدكتور جان اوريجه كان في تور طبيباً لعائلة بلزاك .

يعادل القبلة التي طبعتها على يدي ! وقد حاولت ان اقرأ فيها توبيخ الضمير بسبب حب محرم ، ولكنها كانت عمل توبة لنادم يرتكب المنكر حين ينظر في نفس كثيرة الطهارة . كانت امتداداً لحنو يخالطه الاعجاب بهذا الذي تنظر اليه كنبيل ، متهمة نفسها وحدها بارتكاب جريمه وهمية . بالتأكيد ، كانت تحب كما كانت لور دي نوف تحب بترارك ، وليس كما كانت فرنسيسكا دا ريمني تحب باولو : انه اكتشاف مخيف لهذا الذي يحلم باتحاد هذين النوعين من الحب ! . كانت الكونتس مضطجعة ، واهنة الجسم ، متدلية الذراعين على مقعد قذر في تلك الغرفة التي تشبه مأوى خنزير بري . وفي مساء الغد ، وقبل ان يذهب الطبيب ، قال للكونتس ، التي قضت الليل ساهرة ، ان تتخذ حارساً لأن امد المرض يمكن ان يطول . فاجابت :

ـ حارس ! . . نحن سنعتني به ـ قالت ذلك وهي تنظر الي ـ نحن ملزمون بانقاذه .

وعند هذه الصرخة القى علينا الطبيب نظرة متفحص ، مليئة

بالدهشة ، فتعبير هذا الكلام كان من طبيعته ان يجعله يشك بوجود اتفاق لم ينجح. فوعد بأن يعود مرتين بالاسبوع ، وذكر للسيد ديسلاند ما يجب عمله، وحدد الاعراض الخطرة التي تستدعي دعوته من تور. ولكي تستطيع الكونتس ان تنام ليلة بعد ليلة على الاقل ، قد طلبت اليها ان اتناوب واياها السهر على الكونت. وهكذا ارغمتها على الذهاب لتنام في الليلة الثالثة ، بعد ان بذلت بعض الجهد. وحين هدأ كل شيء في البيت، واثناء غفوة الكونت ، تناهت الي آهات مؤلمة من غرفة هنرييت ، فازداد قلقي وذهبت اليها ! كانت راكعة امام مصلاها تسكب الدموع ، وتتهم نفسها وتصرخ : — يا الهي اذا كان هذا العقاب ثمناً للتذمر فلن اشكو ابداً.

وقالت وقد رأتني : — اتركته ؟

— سمعتك تبكين وتتأوهين فخفت عليك .

— اوه ! انا ، انا بصحة جيدة .

وارادت ان تتأكد من نوم السيد دي مورتسوف ، فنزلنا ونظرنا اليه على ضوء قنديل ؛ كان الكونت ضعيفاً اكثر منه نائماً بسبب فقدان الدم الذي سال بغزارة . كانت يداه المرتجفتان تحاولان رفع غطائه ، فقالت :

— يزعمون ان هذه حركات محتضر . آه . . لو مات بهذا المرض الذي سببناه له فلن اتزوج ابداً ، واقسم على ذلك .

اضافت ذلك وهي تمد يدها الى رأس الكونت بحركة جليلة . فقلت لها : — لقد فعلت كل شيء لانقاذه .

فقالت: — آه !.. انت، انت طيب. اما انا، فالمجرمة الكبيرة.

وانحنت على تلك الجبهة المتفككة ماسحة عنها العرق بشعرها، وقبلتها بقداسة؛ ولكن رأيت ، بفرح خفي ، انها كانت تبرىء ذمتها بهذه الملاطفة وكأنها كفارة .

قال الكونت بصوت منطفىء :

— بلانش ، اريد ان اشرب .

فقالت وهي تقدم له كوباً :

— ها انت ترى انه لا يعرف غيري .

وكانت بلهجتها وبوسائلها الودود تحاول ان تهين العواطف التي تربطنا فتضحيها في سبيل المريض . قلت لها :

— هنرييت، اذهبي وخذي قسطاً من الراحة، ارجوكِ .

فقاطعتني بلهجة آمرة :

— لا تقل هنرييت .

— نامي لئلا تمرضي . ان ولديك ، وهو نفسه ، يأمرونك ان تعتني بذاتك . فهناكِ حالات تكون الانانية فيها فضيلة سامية .

قالت : — نعم .

وذهبت . واوصتني بزوجها بإشارات تدل على هذيان قريب

لو لم يكن فيها ملاحة الطفولة ممزوجة بقوة الندم المتضرعة . لقد هالني هذا المشهد المخيف اذا قسناه بالحالة العادية لتلك النفس الطاهرة . خفت من هوس ضميرها . وحين عاد الطبيب كشفت له عن وساوس السمُّور النافر ، تلك الوساوس القابضة على هنرييتي البيضاء . وقد ازال هذا الاعتراف الرصين شكوك السيد اوريجه ، وهدأ هيجان تلك الروح الجميلة قول الكونت : مهما كان السبب ، فانه كان سيتعرض لهذه الازمة . ووقوفه تحت شجرة الجوز كان نافعاً اكثر منه ضاراً في تحديد المرض .

ظل الكونت بين الموت والحياة طوال اثنين وخمسين يوماً . وقد سهر عليه كل منا بدوره ، هنرييت وانا ، ستاً وعشرين ليلة . ولا شك ان السيد دي مورتسوف مدين بنجاته لعنايتنا ، وللدقة العظيمة التي كنا ننفذ بها اوامر السيد اوريجه . وكأولئك الاطباء الفلاسفة الذين تدعوهم ملاحظات ثاقبة الى الشك بالاعمال الحسنة حين لا تكون سوى قيام سري بالواجب ، فان هذا الرجل ، وهو يحضر معركة البطولة الجارية بين الكونتس وبيني ، لم يستطع

منـــع نفسه من مراقبتنا بنظرات فاحصة حين كان خائفاً ان يكون مخدوعاً في اعجابه بنا . وقد قال لي اثناء زيارته الثالثة :

— في مرض كهذا يجد الموت مساعداً نشيطاً في المعنويات ، حين يجد نفسه متعطشاً بشكل خطير، كما هي معنويات الكونت. فالطبيب والحارس والناس المحيطون بالمريض يمسكون حياته بأيديهم ، لأن كلمة واحدة ، او رهبة تظهرهـــا حركة تفعل فعل السم .

وفيما كان اوريجه يحدثني كان يدرس وجهي وهيئتي ، فرأى في عيني تعبيراً واضحاً عن نفس سليمة الطوية : وبالفعل ، فطوال هذا المرض القاسي لم تخطر ببالي واحدة من الفكرات السيئة اللاإرادية التي تخدد احياناً اطهر الضمائر. ولدى من يتأمل الطبيعة تأملاً واسعاً يميـــل كل شيء الى التوحيد بواسطة التمثل . والعالم الاخلاقي يجب ان يحكم بمبدأ مشابه . اذ كل شيء نقي في دائرة نقية . فبالقرب من هنرييت يتنشق المرء عطراً من السماء، ويبدو كأن رغبةً محرمة تبعدك عنها الى الابد . وبهذا ، فهي لم

تكن السعادة فقط بل الفضيلة ايضاً . حين كان الطبيب يرانا متنبهين ومعتنين دائماً كنت اشعر ان هناك شيئاً من الورع والعطف في اقواله وتصرفاته ؛ كان يبدو كأنه يقول لنفسه : — هذان هما المريضين الحقيقيين، انهما يخبئان جراحهما وينسيانهما !.. وبتناقض عادي جداً عند المرضى كان السيد دي مورتسوف صبوراً ، مليئاً بالطاعة ، لا يشكو مطلقاً ، هو الذي لم يكن في صحته يقوم بأي عمل مهما كان بسيطاً دون الف ملاحظة . اما شر هذا الخضوع للطب الذي كان ينكره كثيراً في السابق فهو خوفه الخفي من الموت ، وهذا تناقض آخر عند رجل ذي شجاعة لا ترد ! وهذا الخوف يمكن ان يفسر عدة امور مستغربة من المزاج الجديد الذي اكسبته اياه مصائبه

اني اعترف لك يا ناتالي ، فهل تصدقين ؟ كانت هـــذه الايام الخمسون والشهر الذي تلاها اجمل لحظات حياتي . فالحب في أبعاد النفس اللامتناهية كالنهر الكبير في وادٍ جميل تنتهي اليه الامطار والسواقي والسيول ، وتسقط الاشجـــار والزهور ، وحصباء الضفة واكثر المناطق الصخرية ارتفاعاً ؛ انه يكبر

بالزوابع اكثر مما يكبر بالعطاء الضئيل من الينابيع الصافية. نعم، عندما يحب المرء كل شيء يصل الى الحب . الاخطـــار الاولى الكبيرة قد مرت ، واعتدنا انا والكونتس على المرض. ورغم الفوضى الدائمة التي سببها ما يتطلبـــه الكونت من عناية فان غرفتها التي وجدناها قذرة اصبحت نظيفة مزينة ، وقد كنا فيها ككائنين هابطين في جزيرة مقفرة؛ فالمصائب لا تعزل فقط بل تسكت ايضاً مواطآت المجتمع الحقيرة. ثم ان مصلحة المريض اضطرتنا الى نقاط اتصال بحيث يمنع حصول اي حادث آخر. كم مرة تلاقت يدانا الحييتان سابقاً ونحن نقوم ببعض الخدمات للكونت! الم يكن علي ان اسند ، ان اعاون هنرييت! كانت غالباً ما تحملها ضرورة تشبه ضرورة الجندي الواقف للحراسة ، فتنسى ان تأكل؛ فاحضر لها الطعام وأضعه على ركبتيها . فتتناوله على عجلة . كانت تحتاج الى الكثير من العنايات الصغيرة. انه منظر طفولة بجـــانب قبر مفتوح. كانت تأمرني بحرارة لأقوم ببعض الاعدادات التي تجنب بعض العذاب ، وتستخدمني في كثير من الاشغال الصغيرة. واثناء الفترة الاولى حيث كانت

شدة الخطر ، كما هو الامر طوال معركة ، تخفي المميزات الدقيقة التي تحلي اعمال الحياة العادية ، فقد كانت تخلع بالضرورة تلك اللياقة التي تحتفظ بها كل امرأة ، حتى المرأة الاكثر طبيعية في كلامها ، ونظراتها ، وهيئتها حين تكون مع الناس او مع عائلتها ، والتي ليس لها زيّ وهي عارية . ألم تكن تأتي لتوقظني عند اولى اغاريد العصافير وهي في ملابسها الصباحية التي تتيح لي ان ارى احياناً الكنوز الباهرة التي كنت اعتبرها ملكاً لي وانا في ذروة آمالي الجنونية . ولئن بقيت وقورة ذات كبرياء فهل تستطيع إلا ان تكون اليفة ؟ في الايام الاولى ، خلع الخطر كل معنى عاطفي عن الدالة المفرطة الناتجة عن اتحادنا الشخصي الذي لم تر فيه اي سوء . ولما جاء دور التفكير ، ظننت انه قد يكون اهانة لها ولي ان غيرنا تصرفاتنا . ووجدنا انفسنا لاشعورياً متآلفين ، متزوجين نصف زواج . وقد بدت واثقة بنبل ، واثقة بي وثوقها بنفسها . اذن فقد تغلغلت في قلبها ، وعادت الكونتس هي هنرييتي ، هنرييت مجبرة على ان تزيد من حبها لهذا الذي سعى ليكون نفسها الثانية . ولم اعد انتظر يدها

التي كانت تتركها لي دون مقاومة عند اقل نظرة التماس؛ وكنت استطيـــع ، دون ان تتوارى عن نظري ، ان اتبع بنشوة خطوط اشكالها الجميلة ساعات طويلة تكون اثناءها صاغيـــة لاغفاءة المريض . ان هذه اللذات الهزيلة التي منحناها لانفسنا ، هذه النظرات اللطيفة ، والاقوال الملفوظة همساً حتى لا توقظ الكونت ، والمخاوف ، والآمال المُقالة والمكررة ، واخيراً آلاف حوادث هذا الذوبان التام لقلبين منفصلين منـــذ امد طويل ، كانت كلها تطفو على ظلال المشهد الحالي المؤلمة . لقد عرفنا نفسينا حتى الاعماق في هذا الاختبار الذي غالباً ما تموت فيه احر المودات والتي لا تصمـد امام امكانية النظر في جميـع الساعات ، والتي تنفصل وهي شاعرة بذلك التلاحم الثابت حيث تكون الحياة فيه اما ثقيلة واما خفيفة الحمل . انت تعلمين اي ضرر يسببه مرض صاحب العمل ، واي انقطاع يصيب الاعمال ، فكل شيء بحاجة الى وقت؛ فحياته المرتبكة تشوش حركات بيته وحركات عائلته . ومع ان كل شيء كان على عاتق السيدة دي مورتسوف ، فقد كان الكونت مفيداً في الخارج ؛ اذ كان يحاور المزارعين ،

ورجال الاعمال ، ويتلقى الاموال ؛ اذا كانت هي الروح فقد كان هو الجسد . وقد جعلت من نفسي وكيلاً لها لكي تستطيع الاعتناء بالكونت بدون ان تعرض شيئاً في الخارج للخطر . لقد رضيت بكل شيء بدون تكليف ، بـــدون شكر . فكانت شراكة حلوة يضاف اليها اقتسام اعمال البيت ، وكانت الاوامر تنقل باسمها . كنت ابادلها الحديث في غرفتها اغلب الاحيان ، فنتناول مصالحها ومصالح ولديها . كانت هذه الاحاديث تكسب زواجنا الزائل مظهراً آخر . ولا تعلمي بأي فرح عظيم كانت هنرييت تدعني العب دور زوجها ، وتدعني اشغل مكانه عـــلى المائدة ، وترسلني لأكلم الحارس ؛ كل ذلك ببراءة تامة ، ولكن ليس بدون ذلك السرور الخاص الذي تشعر به اطهر النساء حين تجد خطاً منحرفاً تجتمـــع فيه المراعاة الدقيقة للقوانين مـــع ارضاء رغباتها المكبوتة . والكونت الذي لاشاه المرض لم يعـــد يثقل على زوجته ولا على بيته ؛ وحينئذٍ عادت الكونتس هي نفسها ، واصبح من حقها ان تهتم بي اكثر من ذي قبـل . اي فرح غمرني حين اكتشفت فيها الفكرة المفهومة بشكل غامض

تقريباً، والموضحة بشكل لذيذ، فكرة كشفت عن قيمة شخصيتها وصفاتها، وجعلتني اشاهد التبديل الذي يطرأ عليها حين تكون مفهومة! هذه الزهرة المطبقـــة دائماً في جو بيتها البارد، تفتحت بنظراتي ولأجلي وحدي؛ كان فرحها بهذا التفتح يعادل فرحي بالنظر اليها. لقد اثبتت لي بكل توافه الحياة مدى حضوري في تفكيرها. فيوم كنت انام متأخراً بعد ليلة ساهرة عند سرير المريض، كانت هنرييت تنهض باكراً قبل الجميع، فتفرض حولي صمتاً مطلقاً. وكان جاك ومادلين يلعبان بعيـداً دون ان تنذرهما امهما. وكانت تلجأ الى الف حيلـة لتكتسب حق وضع غطائي بنفسها؛ وأخيراً بأي فرح شديد كانت تقوم على خدمتي بل بأي رقة سنونوة او بأي لون قرمزي على الخدين، وبأي ارتجاف في صوتها، وبأي ادراك لسرائر الغير! وهل يمكن تصوير انطلاقة النفس هذه؟ في اغلب الاحيان كان ينهكها التعب، ولكن اذا صدف ثمة امراً يتعلق بي، فانها كانت تجد قوى جديدة، لأجلي ولأجل ولديها، وتندفع سريعة، حيّة فرحة. كأنها كانت تحب ان تقذف حنوها اشعةً في الهواء! آه!

يا ناتالي ، نعم ، ان بعض النساء يقتسمن هنا على الارض ميزات الارواح الانجيلية ، وينشرن مثلهن ذلك النور الذي قال عنه القديس مارتان الفيلسوف المجهول ، انه يكون ألمعياً ، منغماً ، معطراً . وهنرييت الواثقة من رصانتي رضيت ان ترفع لي الستار الثقيل الذي يخفي المستقبل عنا ، فجعلتني ارى فيها امرأتين : امرأة مقيدة اغوتني رغم جفائها ، وامرأة تخلد دماثتها حبي . وما اشد الفرق ! كانت السيدة دي مورتسوف هي الطائر البنغالي المنقول الى اوروبا الباردة ، المستند بشكل حزين الى عصاه ، الصامت والمحتضر في قفصه ، وحارسه احد علماء الطبيعيات ؛ كانت هنرييت هي العصفور الذي ينشد قصائده الشرقية في غابته على ضفة نهر الكنج ، كحجر كريم حي ، يطير من غصن الى غصن بين ورود الفولكاميريا[1] الكبيرة المزهوة دائماً، فازداد جمالها وانتعشت روحها . هذه النار المستمرة من الفرح كانت سراً بين روحينا ، لأن عين الاب دي دومينيس ، ذلك الممثل

(١) نبتة من البلاد الحارة .

للدنيا ، كانت تخيف هنرييت اكثر من عين السيد دي مورتسوف؛ لكنها مثلي كانت تسر كثيراً بان تعطي تفكيرها ادواراً حاذقة؛ كانت تخبئ سرورها تحت ستار المزاح وتغطي براهين حنوها بخيمة لامعة من الاعتراف بالجميل . كانت تقول على المائدة :

– لقد وضعنا صداقتك موضع اختبارات قاسية يا فليكس! انستطيع يا سيدي الاب ان نسمح له بما نسمح به لجاك ؟

فاجاب الكاهن الصارم بالابتسامة المحبوبة للرجل التقي الذي يقرأ في القلوب فيجدها طاهرة ؛ وكان يظهر للكونتس الاحترام الممزوج بالعبادة التي توحيها الملائكة . في هذه الايام الخمسين تقدمت الكونتس مرتين الى ما وراء الحدود التي حصرت فيها محبتنا . لكن هذين الحادثين كانا مغلفين بقناع لا يرتفع إلا يوم الاعترافات النهائية . فذات صبـــاح ، في الايام الاولى لمرض الكونت ، وفي اللحظة التي ندمت فيها على معاملتي بقساوة بان سحبت مني الامتيازات البريئة الممنوحة لحنوي الطاهر ، كنت انتظرها ، وكان عليها ان تحل محلي . واذ كنت تعباً جداً فقد

نمت ورأسي مسند الى الحائط . ثم استيقظت فجأة حين شعرت بجبهتي وقد لامسها شيء رطب لا ادري كنهه ، اكسبني شعوراً شبيهاً بشعور وردة استندت اليهـا . رأيت الكونتس على بعـد ثلاث خطوات مني تقول لي : « اتيت ! » فذهبت متمنياً لهـــا صباحاً سعيداً ، وأخذت يدها وشعرت بها ندية رطبة مرتعشة . فقلت لها :

ــ اتشعرين بالم ؟

فقالت : ــ ولماذا تسألني هذا السؤال ؟

ورأيتها خجلة مضطربة فقلت : ــ كنت احلم .

وذات مساء اثناء زيارات السيد اوريجه الاخيرة ، وقـد اعلن ان الكونت دخل في دور النقـاهة عـلى وجه التأكيد ، وكنت مع جاك ومادلين تحت الدرج المسطح مضطجعين ، نحن الثلاثة ، على الدرجات ، وموجهين انتباهنا للعبة مسلية صنعناها من انابيب القش وشناكل مسلحـة بدبابيس ، وكان السيد دي

مورتسوف نائماً. والطبيب يتحدث مع الكونتس بصوت منخفض في الصالون بانتظار تجهيز جواده. وقد ذهب السيد اوريجه دون ان انتبه الى رحيله، وبعد ان شيعته هنريت اتكأت على النافذة وكانت تتاملنا دون شك لفترة من الوقت دون ان نعلم. وكانت واحدة من تلك الامسيات الحارة التي تصبح السماء فيها بلون النحاس فترسل الحقول عبر الاصداء الف ضجة مشوشة. وتلاشى آخر شعاع للشمس على السطوح، وتعطر ازهار الحدائق الهواء، وترن جلاجل الماشية العائدة الى الحظائر في البعيد. امتثلنا بصمت هذه الساعة كاتمين صراخنا خوفاً من ان نوقظ الكونت، وفجأة، ورغم حفيف الثوب المتموج، سمعت انقباضاً حنجرياً لآهة كتمت بعنف؛ فأسرعت الى الصالون، فرأيت الكونتس جالسة في فرجة النافذة وعلى وجهها منديل؛ وعرفت خطوتي فأتت بإشارة تطلب مني ان اتركها لوحدها. وجئت، وقد نفذ الخوف الى القلب، واردت انتزاع منديلها بالقوة، وكان وجهها سابحاً في الدموع، وهربت الى غرفتها ولم تخرج منها إلا للصلاة. منذ خمسين يوماً، وللمرة

الاولى، سرت بها الى السطيحة وسألتها عن سبب تأثرها؛ فتصنعت المرح الاكثر جنوناً، وبررت هـذا المرح بالخبر الجيد الذي نقله اليها اوريجه . فقلت لها :

ـ هنرييت . هنرييت . حين رأيتـك تبكـين كنت تعرفين هذا الخبر . والكذبة بيننا شنيعة . لمـاذا منعتني من مسح هذه الدموع؟ الم تـكن لي؟

قالت :

ـ كنت افكر ان هذا المرض هو بالنسبة الي فترة استراحة في غمرة الألم . والآن، بعـد ان سكن خوفي عـلى السيد دي مورتسوف اصبح من اللازم ان اخاف على نفسي .

كانت على حق . فصحة الـكونت اعلنت عن نفسها بعودة مزاجه الجامح: فقد بدأ يقول ان زوجته وانا والطبيب لم يعرف احد منا ان يعتني به ، واننا نجهـــل كل شيء عن مرضه وعن مزاجه ، وعن آلامه والادوية المناسبة . فأوريجه المولع بمذهب

لا اعرفه كان يرى ظهور علاقات في الامزجة بينما كان عليه ألا يهتم بفم المعدة. وذات يوم نظر اليها بخبث كرجل كان يراقبنا او يعرف سرنا، وقال مبتسماً:

— ايه! يا عزيزتي، لو مت لأسفت علي دون شك. ولكن اعترفي، هل كنت صبرت على المصيبة؟

فاجابت وهي تضحك لتسكت زوجها:

— كنت ارتديت حداد البلاط، الوردي والابيض.

ولكن كان هناك، بصدد الغذاء الذي عينه الطبيب بحكمة معارضا ما يرضي جوع الناقه، مشاهد عنف وصراخ لا يمكن مقارنتها بشيء مما كان يجري في الماضي لان طبع الكونت كان مخيفاً بمقدار ما كان راكداً اذا صح القول. وتجاسرت الكونتس على المقاومة، مستمدة القوة من وصفات الطبيب وطاعة رجالها، وبتحريض مني لاني رأيت في هذا الصراع وسيلة لاعلمها ان تبسط سيطرتها على زوجها. انها تعرف ان تعارض الجنون

والصراخ بجبهة هادئة . وقد اعتادت على سماع نعوته المهينة ، فاعتبرته كما هو ، كولد . وكان من دواعي سروري اني رأيتها تتولى اخيراً حكم هذه الروح المريضة . كان الكونت يصرخ ، لكنه كان يطيع ، ويطيع على الخصوص بعد ان يكثر من الصراخ . ورغم وضوح النتائج فقد كانت هنرييت تبكي احياناً لرؤية هذا العجوز الهزيل ، ذي الجبهة الاكثر اصفراراً من ورقة على وشك السقوط ، والعينين الشاحبتين ، واليدين المرتجفتين ؛ كانت تلوم نفسها على قساوتها . وفي اغلب الاحيان لم تكن تقاوم الفرح الذي تراه في عيني الكونت حين تتجاوز ممنوعات الطبيب وهي تكيل له طعامه . وكانت تبدو كثيرة اللطف والكياسة معه اكثر مما هي معي ؛ الا ان هنالك فروقات تملأ قلبي بفرح لا يحد . ولم تكن معصومة من التعب ، وتعرف ان تنادي رجالها لخدمة الكونت حين تتوالى نزواته بسرعة ويشكو من انه لم يُفهم .

ارادت الكونتس ان تذهب وتقدم شكرها لله بسبب إبلال السيد دي مورتسوف من مرضه ، فأقامت قداساً ، وتأبطت

ذراعي لتذهب الى الكنيسة ، وسرت بها اليها ، لكني اغتنمت الوقت الذي استغرقه القداس فجئت لأرى السيد والسيدة دي شسل . وعند عودتي ارادت ان تؤنبني فقلت لها :

—هنريت، انا غير قادر على الكذب. بامكاني ان القي بنفسي في الماء لأنقذ عدوي المشرف على الغرق، واعطيه معطفي لأدفئه، واخيراً اسامحه ، لكن دون ان انسى الاهانة .

فلزمت الصمت ، وشدت ذراعي الى قلبها ، فقلت متابعاً :
—انت ملاك، ويجب ان تكوني صادقة في شكرك. لقد انقذت احدى الامهات امير السلام من ايدي جمهور هائج يريد قتلها ، وحين سألها الملك: — « ماذا كنت تفعلين ؟ » اجابت: — «كنت اصلي لأجلهم !» والمرأة هكذا . اما انا فرجل ، وبالضرورة غير كامل .

فقالت وهي تهز ذراعي بعنف :

— اياك ان تفتري. من الممكن ان تكون افضل مني .

فأجبت :

ـ نعم ! لأني اتنازل عن خلود الابدية مقابل يوم واحد من السعادة ، وانت !

ـ وانا ؟

قالت ذلك وهي تنظر الي بكبرياء . فلزمت الصمت وخفضت بصري لأتحاشى الصاعقة في نظراتها . وتابعت :

ـ انا ! عن اي « انا » تتكلم ؟ اني اشعر بكثير من « الأنا » في داخلي .

واضافت مشيرة الى مادلين وجاك : هذان الولدان هما «انا» .

ثم قالت بنبرة تمزق القلب :

ـ اتظنني اذن انانية يا فليكس ؟ اتعتقد اني اضحي بالابدية كلها مكافأةً لمن نذر لي حياته ؟ هذه فكرة فظيعة ،

انها تهين العواطف الدينية الى الابد . وهل تستطيع امرأة تسقط بهذا الشكل ان تنهض ، وهل يمكن لسعادتها ان تغفر لها؟ ستجعلني فيما بعد ابتّ في هذه المسائل ! نعم ، اني افضي اليك اخيراً بسر من اسرار ضميري : هـذه الفكرة جالت في قلبي في اغلب الاحيان ، وكنت اكفر عنها بندامة قاسية . انها سببت لي دموعاً سألتني حساباً عنها اول البارحة .

ــ لا تعلقي كثيراً من الاهمية عـــلى اشياء تصفها النساء المتبذلات بثمن مرتفع ، وان عليك . . .

فقالت تقاطعني :

ــ أوه ! وهل تعطيهن انت ثمناً اقل؟

وأوقف هذا المنطق عمل العقل كله . ثم تابعت :

ــ هيه ! نعم . يمكن ان يكون عندي من الجبن ما يجعلني اترك هذا العجوز المسكين الذي انا حياته ! لكن يا صديقي ،

هذان المخلوقان الصغيران الضعيفان اللذان يتقدماننا ، مادلين وجاكِ ، الا يظلان مع والدهما ؟ وهل تعتقد ، وأسألك ذلك ، هل تعتقد انهما يعيشان ثلاثة اشهر تحت سيطرة هـذا الرجل الملعونة ؟ اني اذا اخللت بواجباتي فالامر لا يتعلق إلا بي . . . — وأفلتت منها ابتسامة رائعة — لكن أليس في ذلك قتـــل لولديّ ؟ ان موتهما يصبح مؤكداً . يا الهي ، لماذا نتكلم في هذه الامور ؟ تزوج ودعني اموت .

كانت تقول هذه الكلمات بنبرة مرة كثيرة العمق اطفأت ثورة عاطفتي .

— انكِ صرختِ هناك فوق، تحت شجرة الجوز، وصرخت انا تحت شجرة الحور الرومي هذه ، هذا كل شيء . وسأسكت من الآن فصاعداً .

فقالت وهي ترفع عينيها الى السماء :

— ان مكارمك تقتلني .

وكنا قد وصلنا الى السطيحة، فوجدنا الكونت جالساً هناك في مقعد تحت الشمس . ان منظر هذا الوجه الذائب، المنتعش قليلًا بابتسامة ضعيفة ، اطفأ اللهيب الصاعد من الرماد. اتكأت على الحاجز متأملًا اللوحة التي قدمها لي هذا المحتضر بين ولديه الضعيفي البنية ، وزوجته الشاحبة من السهر ، الهزيلة بسبب الاشغال المفرطة وبسبب الهموم وربما بأفراح هذين الشهرين المرعبين. ولكن تأثير هذا المشهد لونها بافراط . عند مرأى هذه العائلة المتعذبة ، المغمورة بالاوراق المرتجفة التي يمر خلالها نور اشهب لسماء خريفية ملأى بالغيوم ، شعرت في نفسي بانحلال الروابط بين الجسد والروح. وللمرة الاولى شعرت بتلك السويداء المعنوية التي يعرفها ، كما يقال ، اقوى المصارعين وهم في اوج معاركهم ، انه نوع من الجنون البارد يجعل من اشجع الرجال جباناً ، ومن الكافر ورعاً ، ويجعله لامبالياً حيال كل شيء حتى بالعواطف الاكثر حيوية ، وبالشرف والحب ؛ لان الشك ينتزع منا معرفة انفسنا ويجعلنا نتقزز من الحياة. ايتها المخلوقات المسكينة العصبية التي يستسلم غنى تركيبها دون دفاع

الى ما لا ادري من عبقرية مشؤومة ، اين امراؤكم وقضاتكم ؟ لقد عرفت كيف ان الشاب الجريء الذي كان يمد يده الى عصا الماريشالية في فرنسا ، وهو مفاوض حاذق اكثر منه قائداً شجاعاً ، استطاع ان يكون القاتل البريء الذي كنت اراه ! ايمكن ان تكون لرغباتي المتوجة اليوم بالورود هذه النهاية؟ لم استطع ان امسك دمعتين جرتا على خدي وقد هالتني القضية أكثر من نتيجتها ، سائلاً كالكافر أين كانت العناية الإلهية هنا .
قالت مادلين بصوتها الطفولي :

ــ ما بك يا فليكس الطيب ؟

ثم اتمت هنرييت تبديد هذه الابخرة السوداء وتلك الظلمات بنظرة اهتمام شعت في نفسي كالشمس . وفي تلك اللحظة حمل اليّ السائس العجوز رسالة من تور انتزعت رؤيتها صرخة دهشة مني ، وبعثت الارتعاش في السيدة دي مورتسوف من تأثير الصدمة . رأيت خاتم مجلس الوزراء ، فالملك يستدعيني . وناولتها الرسالة فقرأتها بلمحة . وقال الكونت .

ــ أهو ذاهب !

قالت لي وهي تشاهد للمرة الاولى قفرها بدون شمس :

– ماذا سيحل بي ؟

وبقينا في حالة ذهول فكري ضغط علينا معاً ، لاننا لم نشعر ابداً كهذه المرة اننا ضروريان احدنا للآخر . وكانت للكونتس وهي تحدثني في جميع الامور حتى المتشابهة منها ، رنة صوت جديد ، كأن الآلة الموسيقية فقدت بعض اوتارها ، وان الاوتار الاخرى قد ارتخت . كانت حركاتها جامدة ونظراتها بلا بريق . رجوتها بان تسر لي بافكارها ، فقالت :

– وهل عندي افكار ؟

وسارت بي الى غرفتها واجلستني على مقعدها ، وبحثت في درج منضدة الزينة ، وركعت امامي وقالت لي :

– هذا شعري الذي سقط منذ سنة . خذه ، فهو ذو فائدة لك ، وستعرف ذات يوم كيف ولماذا .

وانحنيت ببطء نحو جبهتها فلم تخفض رأسها لتتفادى شفتي، واسندتهما بقداسة ، وبدون نشوة مجرمة ، بدون لذة مدغدغة ، بل بحنو جليل . اكانت تريد ان تضحي بكل شيء ام تذهب فقط الى حافة الهاوية كما فعلت انا؟ لو كان الحب اوصلها الى الاستسلام لما كان لها هذا الهدوء العميق ، وتلك النظرة الدينية، ولما كانت قالت لي بصوتها النقي : — اتحقد عليّ ؟

ذهبت عند بدء الليل، وارادت ان ترافقني على طريق فرابسل. وقفنا تحت شجرة الجوز فأريتها اياها قائلاً كيف شاهدتها من هنا منذ اربع سنوات . وهتفت :

— كان الوادي كثير الجمال .

فاجابت بحرارة : — والآن ؟

فقلت : — انت تحت شجرة الجوز ، والوادي لنا .

خفضت رأسها ، وكان وداعنا هناك . فصعدت الى عربتها مع مادلين ، وصعدت الى عربتي وحيداً . وكان من حسن حظي

عند عودتي الى باريس انني انهمكت في اشغال ملحة اكسبتني سهواً شديداً واضطرتني الى الابتعاد عن العالم الذي نسيني . تبادلت الرسائل مع السيدة دي مورتسوف، فكنت ارسل اليها مذكراتي اسبوعياً فتجيبني مرتين بالشهر . انها حياة مظلمة وملأى، شبيهة بتلك الاماكن المورقة، المزهرة المجهولة التي كنت اعجب بها سابقاً في اعماق الغابات وانا اصوغ قصائد جديدة من الزهور اثناء الاسبوعين الاخيرين .

اوه، انتم الذين تحبون ! افرضوا على انفسكم تلك الالتزامات الجميلة، واهتموا بقواعد تقومون بها كالالتزامات التي تفرضها الكنيسة كل يوم على المسيحيين . انها لأفكار عظيمة تلك القوانين الصارمة التي اوجدها الدين الروماني، فهي ترسم دائماً ومسبقاً في النفس اثلام الواجب بواسطة ترديد افعال الايمان التي تحتفظ بالامل والخوف، ان العواطف تجري دائماً حية في هذه السواقي المحفورة التي تحفظ المياه وتنقيها، وتنعش القلب باستمرار، وتخصب الحياة بالكنوز الوافرة من الايمان المخفي، ينبوع الهي تتضاعف فيه الفكرة الوحيدة لحب وحيد .

ان حبي الذي اعاد عهـــد القرون الوسطى واعاد عصر الفروسية الى الاذهان اصبح معروفاً ولا ادري كيف ؟ ومن الممكن ان الملك والدوق دي لينانكور تحدثا عنه . لقد انتشرت دون شك ، من هذه الدائرة العليا ، في ضاحية سان جرمان ، القصة الخيالية البسيطة معاً . قصة شاب يعبد بورع امرأة جميلة لا جمهور لها ، كبيرة في العزلة ، مخلصة دون سند من الواجب . في الصالونات كنت اجد نفسي موضع انتباه مزعج لان لبساطة الحياة ميزات اذا اختبرت مرة تجعل بريق الظهور الدائم غير محتمل ، كالعيون التي يجرحها طلوع النهار لانها تعودت ألا ترى سوى الوان هادئـة . وهناك ايضاً بعض النفوس التي لا ترضى عن المتناقضات الشديدة . هكذا كنت آنذاك . وتستطيعين ان تدهشي اليوم من ذلـــك . لكن اعتصمي بالصبر لأن غرائب فاندنيس الحالية سوف تتوضح . وجدت اذن النساء لطيفات والناس في غاية الكمال حيالي . بعـــد زواج الدوق دي بري[1]

---

(١) تزوج عام ١٨١٦ من ماري كارولين دي بوربون ابنة فرديناند الاول ملك نابولي .

استعاد البلاط ابهتـــه ، وعادت الحفلات الفرنسية وانتهت الشواغل الخارجية ، وعـــاد الازدهار الى الظهور ، واصبحت الملذات ممكنة . وتدفق اشخاص مشهورون بطبقتهم الاجتماعية ، او معتبرون بسبب ثرواتهم ، من جميع انحاء اوروبا الى عاصمة العقل حيث يجدون ميزات البلدان الاخرى وعيوبها مكبرة ، وقد شحذتها الروح الفرنسية . بعد خمسة اشهر على رحيلي عن كلوشيغورد في الشتاء كتب الي ملاكي الطيب رسالة يائسة يحدثني فيها عن مرض خطير اصاب الولد ونجا منه . لكنه ترك مخاوف للمستقبل ! وقد تحـــدث الطبيب عن احتياطات يجب اتخاذها لوقاية الصدر . وهي كلمة مرعبة لفظها العلم لتصبغ بالسواد كل ساعات الأم . وما كادت هنرييت تتنفس ، وما كاد جاك يدخل في دور النقاهة ، حتى اثارت اخته القلق . فمادلين ، تلك الغرسة الجميلة التي تتجاوب تماما مع ثقافة امها ، تعرضت لأزمة منتظرة ، لكنها مخيفة لبنية واهنة كهـذه . والكونتس التي ُصرعت في السابق بسبب المتاعب التي سببها مرض جاك الطويل ، عادت لا تملك الشجاعة لتحمل هذه الضربة الجديدة ، والمشهد الذي

مثله لها هذان الكائنان العزيزان جعلها غــــير شاعرة بالآلام المضاعفة الناتجة عن طبــــع زوجها . وهكذا كانت الزوابع المتزايدة المحملة بالحصى تقتلع بامواجها الشرسة الآمال المغروسة في اعماق قلبها . فاستسلمت لاستبداد الكونت الذي انتقل من الحرب الباردة الى الارض المفقودة . وكتبت الي تقول :

« ما دامت قوتي كلها تحيط بولديّ فهل استطيع استعمالها ضد السيد دي مورتسوف ، وهــــل استطيع الدفاع عن نفسي وارد هجومه وانا ادافع ضد الموت ؟ حين امشي اليوم وحيدة هزيلة بين الكآبتين الجميلتين اللتين ترافقانني اصاب بتقزز من الحياة لا يقهر . اية ضربة لا اشعر بها وعلى أية كراهية اجيب حين ارى جاك جامداً على السطحية ليس فيه ما يشهد على الحياة سوى عينيه الجميلتين وقد كبرتا من الهزال ، المقعرتين كعيني عجوز ، وحيث الذكاء السابق لأوانه ؛ وهذا نذير شؤم ، يتعارض مع الضعف الجسدي . وحين ارى الى جانبي مادلين الجميلة الكثيرة الحيوية واللطف واللون اصبحت الآن بيضاء كالميتة ، وشعرها وعيناها شاحبة ، تدير نحوي نظرات ذابلة كأنها تريد ان تودعني ؛

وما من طعام يستميلها ، او اذا رغبت ببعض المأكولات فان غرابة شهيتها تخيفني ؛ وهذه المخلوقة الطاهرة تحمر خجلاً وهي تسر لي ذلك مع انها ترعرعت في قلبي : لا استطيع تسلية ولديّ رغم جهودي ؛ كل منهما يبتسم لي لكن هذه الابتسامة كانت تنتزع منهما بسبب مزاحي معهما ، ولا تأتي منهما عفواً . انهما يبكيان لعدم استطاعتهما الاستجابة لمداعباتي . لقد ارخى العذاب كل شيء في نفسيهما حتى الروابط التي تربط بيننا . وبهذا تَرَ ان كلوشيغورد حزينة ؛ فالسيد دي مورتسوف يحكم فيها دون مانع .

وقد كتبت لي في مكان آخر : آه يا صديقي ! انت مجدي ، عليك ان تحبني جيداً لتظل تحبني ، ولتحبني عادمة الحركة ، جاحدة المعروف ، متحجرة من الألم . »

في تلك الاثناء ، حينما شعرت انني لم أصب ابداً كما أصبت به اليوم في احشائي ، وحيث لم اكن اعيش الا في تلك النفس التي كنت احاول ان ارسل اليها نسيم الصباح المتألق وامل

الامسيات الارجوانية ، التقيت في صالونات الاليزيه – بوربون[1] باحدى تلك السيدات الشهيرات اللواتي هن نصف ملكات ، ذات ثراء طائل ، وولادة في عائلة ظلت منذ الفتح بعيدة عن كل زواج غير متكافىء ، وزواج من احد اولئك الشيوخ الاكثر بروزاً في الامارة الانكليزية ، وكل هذه الميزات لم تكن سوى لواحق ترفع من شأن جمال هـــذه الشخصية ، وكياستها ، وتصرفاتها ، وروحها ، ولا ادري اي تألق يبهر قبل ان يخلب . كانت معبود هذه الايام ، تسيطر على المجتمع الباريسي لانها تملك الصفات اللازمة لانتصاراتها ، كانت اليد الحديدية تحت قفاز مخملي التي تحدث عنها برنادوت . انت تعرفين شخصية الانكليز الغريبة،

(١) قصر الاليزه بناه المهندس موله ، وتعاقب على ملكيته بالتتابع هنري دي لاتور دوفرنيه ، الكونت ديفروه، مدام دي بومبادور وأخوها المركيز دي ماريني ، الدوقة دي بوربون ، ميرا ونابليون . وامتلكه الدوق دي بري من تاريخ عودة الملكية حتى موته . وقد تركته الدوقة دي بري عام ١٨٢٠ بعد مقتل زوجها . ولم يصبح الاليزه قصراً للرئاسة الا في عهد الجمهورية الثانية ، وقد زيد عليه وجدد بناؤه بواسطة لاكروا عام ١٨٥٦ .

ذلك المانش الفخور الذي لا يمكن اجتيازه ، وتلك القناة الباردة، قناة القديس جاورجيوس التي يضعونها بينهم وبين الناس الذين لم يُقدَّموا اليهم ؛ والانسانية تبدو كوكر نمل يمشون عليه؛ ولا يعرفون من نوعهم الا الناس المقبولين منهم ؛ اما الآخرون، فلا يفهمون لغتهم ؛ انها شفاه تتحرك وعيون ترى ، ولكن لا الصوت ولا النظرة تصل اليهم ؛ واولئك الناس ، بنظرهم ، كأنهم لم يكونوا . ان الانكليز يقدمون بهذا صورة عن جزيرتهم حيث القانون يحكم كل شيء ، وحيث كل شيء على نمط واحد في كل دائرة ، وحيث تبدو ممارسة الفضائل لعبة ضرورية للدواليب التي تسير في صورة معينة . والتحصينات الفولاذية المصقولة القائمة حول امرأة انكليزية مسجونة في منزلها بخيوط ذهبية حيث معلفها ومشربها ، وحيث عكاكيزها ومرعاها من العجائب ، ان هذه التحصينات تضفي عليها جاذبية لا تقاوم . وليس هناك شعب افضل منهم هيأ المداهنة للمرأة المتزوجة بوصفها في كل مناسبة بين الموت والحياة الاجتماعية ؛ فـفي نظرها لا منزلة بين العار والشرف . فإما ان يكون الخطأ تاماً واما لا يكون ؛ « كن

او لا تكن !» كما قال هملت . وهذا التعاقب الدوري ، مضافاً الى الازدراء الدائم الذي تعودتـــه الاخلاق يجعل من المرأة الانكليزية كائناً على حدة في العالم . انها مخلوقة مسكينة فاضلة بالقوة ومستعدة لان تفسد ، مدانة بكذبات مستمرة مخبأة في قلبها ، لكنها عذبة الشكل ، لان هذا الشعب وضع كل شيء في الشكل . ومن هنا جاء الجمال الخاص بنساء تلك البلاد ؛ هوس في حنوٍ يختصر لهن الحياة . ومبالغة في عنايتهن بأنفسهن ، ودقة حبهن المصورة بكياسة في مشهد روميو وجوليت حيث عبقرية شكسبير اوضحت المرأة الانكليزية بجرة قلم . اليك انت التي تنفثين عليهن كثيراً من الاشياء ، اقول انك لا تعرفين شيئاً عن الجنيات البيضاوات اللواتي لا يمكن النفاذ اليهن في الظاهر ، ومع ذلك فهن معروفات ، واللواتي يعتقدن ان الحب يكفي للحب ، ويحملن السأم الى المتع بأن لا ينوعنها ابداً ، حيث ليس للنفس سوى نغمة ، وليس للصوت سوى مقطع ، اوقيانوس من الحب يجهل ولا شك من لم يسبح فيه شيئاً عن شاعرية الحواس ، مثل ذلك الذي لم ير البحر فتنقص قيثارته اوتاراً . انت تعرفين

اسباب هذا الكلام. فمغامرتي مع الليدي ديدلي كان لها شهرة مشؤومة. ففي السن التي يكون فيها للحواس كثير من السيطرة على مقاصدنا، وعند شاب كبتت حرارة مقاصده بشكل عنيف، فان صورة القديسة التي كانت تتعذب من استشهادها البطيء في كلوشيغورد، شعت بقوة بحيث استطعت مقاومة الاغواء. وكان هذا الاخلاص هو المصباح الذي وجه الي انتباه الليدي ارابيل. ومقاومتي زادت من حمية عاطفتها. وما كانت ترغب به، كالكثيرات من الانكليزيات، هو البريق غير العادي. كانت تريد بهاراً، فلفلاً لغذاء قلبها كما يريد الانكليز التوابل الحارة لايقاظ شهيتهم. ان انحطاط القوى الذي يضعه في حياة هؤلاء النساء الاتقان الدائم للاشياء والانتظام المنسق في العادات يقودهن الى عبادة ما هو خيالي وصعب. اني لا اعرف ان اقاضي هذا الطبع، فكلما انطويت على نفسي في احتقار بارد ازدادت عاطفة الليدي ديدلي اشتعالاً. وهذا الصراع الذي جعلت منه مجداً، اثار فضول بعض الصالونات، وهيأ لها اول سعادة تلزم الانتصار. آه! كان يمكن ان انجو لو

اعاد احد اصدقائي على مسمعي الكلمة الشرسة التي افلتت منها عن السيدة دي مورتسوف وعني ، اذ قالت :

ـ انا قلقة من تنهدات اليمامة هذه !

سأجعلك تلاحظين يا ناتالي ، دون ان اقصد تبرير جريمتي هنا ، ان للرجل من وسائل مقاومة امرأة اقل مما تملكه للنجاة من ملاحقاتنا . ان اخلاقنا تأبى على جنسنا عنف الزجر الذي هو طعم للعاشق عندكن ، والذي تفرضه عليكن اللياقات ؛ اما نحن فعلى النقيض ، اني لا اعرف اي اجتهاد غرور لدى الذكور يجعل من تحفظنا سخرية. نحن نترك لكنَّ احتكار الحشمة ليكون لكن امتياز الافضال ؛ لكن إقلبي الادوار فيسقط الرجل تحت ضربة الهزء. اني وان كنت محروساً بعاطفتي فلم اكن في سن يبقى فيها المرء غير شاعر بالاغواءات المثلثة : الكبرياء والتفاني والجمال . لقد وضعت الليدي ديدلي على قدمي ، في حفلة راقصة كانت هي ملكتها ، جميع ما تلقت من مظاهر الاكرام ، وكانت تلاحظ نظراتي لترى هل زينتها تلائم ذوقي ، فترتعش من

السرور حين تنال استحساني . وكنت متأثراً من تأثرها . ومع ذلك فقد كانت تقف على ارض لا استطيع الهرب منها. كان من الصعب علي ان ارفض بعض الدعوات التي هي جزء من الوسط الدبلوماسي ؛ وقد فتحت لها سجيتها جميع الصالونات ، وبتلك المهارة التي تبديها النساء للحصول على مايرضيهن جعلت سيدة البيت تجلس بقربي ؛ ثم همست في اذني قائلة : — « لو كنت محبوبة كالسيدة دي مورتسوف لضحيت كل شيء في سبيلك . » كانت توفر لي وهي تضحك اكثر الشروط الاكثر ضعة ، وتعدني برصانة تتحدى التجارب ، او تطلب مني ان ارضى بان تحبني . وقالت لي ذات يوم هـــذه الكلمات التي ترضي جميع تضحيات ضميرٍ ورع والرغبات المكبوتة لشاب : — « انا صديقتك دائماً وعشيقتك ساعة تشاء ! » واخيراً عزمت حتى على استغلال شهامة خلقي في سبيل التغلب عليّ ، فاستمالت خادم غرفتي. وبعد سهرة بدت فيها جميلة وواثقة من اثارة رغباتي ، وجدتها في بيتي. وقد دوى هذا الانفجار في انكلترة ، فوجمت ارستقراطيتها وجوم السماء عند سقوط اجمل ملاك فيها . لقد تركت الليدي

ديدلي سحابتها في السماء البريطانية واكتفت بحظها وارادت ان تكسف بتضحياتها تلك التي سببت فضيلتها هذه الكارثة الشهيرة. وشعرت الليدي ديدلي باللذة، كالشيطان على قمة الهيكل، في ان تريني اغنى البلدان في ملكوتها المتأجج.

اتوسل اليك ان تقرأيني بتسامح ، فالامر هنا يتعلق باحدى اهم المشاكل في الحياة الانسانية ، بأزمة أخضع لها اكبر عدد من الرجال ، والتي اريد ان اشرحها لا لشيء سوى إضاءة منارة على هذه الصخرة. فهذه الليدي الجميلة ، الكثيرة الرشاقة ، السريعة العطب ، هذه المرأة التي هي من الحليب ، المنكسرة ، القابلة للكسر ، المعذبة ، ذات الجبهة اللطيفة ، المتوجة بشعر اشقر كثير النعومة ، هذه المخلوقة التي يبدو بريقها فوسفورياً عابراً ، هي مركبة من الحديد. فما من جواد مهما كان شديد الهياج يقاوم قبضتها العصبية ، تلك اليد الرخوة في الظاهر ، والتي لا يتعبها شيء. قدمها قدم وعلة ، قدم صغيرة جافة عضلية تحت حماية غشاء لا يوصف. هي ذات قوة لا يخيفها شيء في صراع ، وما من رجل يستطيع اللحاق بها على الحصان ، وقد تربح

جائزة «قفز الحواجز» على «سنتور» (حصان ـ انسان)، وهي تجر الايائل والوعول دون ان توقف جوادها. جسدها لا يعرف العرق، يستنشق النار في الجو ويعيش في الماء تحت عقوبة عدم الحياة. عاطفتها افريقية تماماً؛ ورغبتها تسير كعاصفة في القفر، القفر الذي يرتسم اتساعه المحتدم في عينيها، القفر المليء باللازورد والحب، بسمائه التي لا تتغير، ولياليه الرطبة المليئة بالنجوم. يا له من تناقض مع كلوشيغورد! الشرق والغرب، واحدة تجتذب نحوها اقل الاجزاء الرطبة لتتغذى منها، والاخرى تجعل روحها ترشح، وتغمر اتباعها المخلصين بجوٍ متألقٍ؛ هذه حية رشيقة، وتلك بطيئة شحيحة. واخيراً هل فكرت بمعنى الاخلاق الانكليزية العام؟ أليس تأليهاً للمادة، وابيقورية محددة، مدروسة، مطبقة بمعرفة؟ مهما فعلت انكلترا او قالت فهي مادية، وربما بدون ان تعلم. ان لها ادعاءات دينية واخلاقية تغيب عنها الروحية الالهية والروح الكاثوليكية، ولا يمكن ان تستبدل الكياسة المثمرة بأي مداجاة مهما كان مكرها متقناً. انها تملك حتى اعلى درجة من علم الحياة ذلك

الذي يصلح اكثر اجزاء المادية صغراً ، ويجعل من حذائك اجمل حذاء في العالم ، ويكسب بياض منزلك مذاقاً فائق الوصف ، ويبطن خزائنك بخشب الارز ويعطرها ، ويسكب في الساعة المعينة شاياً لذيذاً معروضاً بمعرفة، ويزيل الغبار ويسمّر الطنافس منذ اول درجة حتى آخر عطفات البيت ، و « يفرشي » جدران الاقبية ، ويصقل مدقة الباب ، ويلين نوابض العربة ، ويجعل من المادة لباً مغذياً ، لامعاً ونظيفاً تموت النفس في صدره تحت وطأة المتعة ، وينتج رتابة الراحة الرهيبة ، ويمنح حياة لا معارضة فيها خالية من البداهة ويجعلك آلة اذا اجملنا القول . هكذا عرفت فجأة في قلب هذه الفخفخة الانكليزية امرأة وحيدة في جنسها تقريباً ، وقد غمرتني بشبكة هذا الحب المبعوث حياً بعد احتضاره فحملت الى إسرافه عفة صارمة ، هذا الحب ذو الجمال المضي ، المليء بالكهرباء ، والذي غالباً ما يدخلك الى السموات من ابواب تهويمته العاجية ، او يختطفك ويردفك وراءه على اصلابه المجنحة . حب عاق بشكل هائل ، يضحك على جثث قتلاه ، حب لا ذاكرة له ، حب طاغ يشبه السياسة الانكليزية

يقع فيه جميع الرجال تقريباً. ها انت الآن تفهمين المشكلة. ان الرجل مركب من مادة وروح، فيه تنتهي الحيوانية ليبدأ الملاك. ومن هنا كان الصراع الذي نشعر به كلنا بين مصير مستقبلي نحاول استكشافه وذكريات غرائزنا السابقة التي لم ننفصل عنها كلياً؛ حب جسدي وحب إلهي. هناك رجل يذيبهما في واحد، وآخر ينزه نفسه عن ذلك؛ هذا لينبش الجنس بكامله باحثاً فيه عمّا يرضي شهياته السابقة، وذاك يتمثله في امرأة واحدة يختصر الكون فيها؛ البعض يطفون طائرين بين لذات المادة ولذات الروح؛ والآخرون يحولون اللحم الى روح طالبين منه ما لا يعرف ان يعطيه. اذا اقمت وزناً، وانت تفكرين بخطوط الحب العامة هذه، للاندفاعات والملاءمات الناتجة عن تنوع البنيات، والتي تفسخ العهود المقطوعة بين اولئك الذين لم يصقلهم الاختبار؛ ولو ضممت اليها الاخطاء الناتجة عن آمال الناس الذين يعيشون خصوصاً بالروح، بالقلب او بالعمل، الذين يفكرون، ويشعرون او يتحركون، وحيث دعوات الرب خُدعت وجُهلت في مجتمع فيه كائنان مزدوجان؛ ستشعرين

بتسامح عظيم حيال المصائب التي لم تثر شفقة المجتمع . ايه ! حسناً ، فالليدي ارابيل ترضي الغرائز ، والاعضاء ، والشهيات ، والعيوب ، والفضائل في المادة الدقيقة التي جُبلنا منها ؛ كانت عشيقة الجسد اما السيدة دي مورتسوف فزوجة الروح . والحب الذي يرضي العشيقة له حدود ، فالمادة تنتهي ، ولخصائصها قوى مدّبرة فهي خاضعة لما يشبعها بشكل لا يمكن تجنبه ؛ وغالباً ما اشعر بما لا ادري من فراغ في باريس بالقرب من الليدي ديدلي. ان اللانهائي هو ملك القلب ، ولقد كان الحب بدون حدود في كلوشيغورد. كنت احب الليدي اربيل بشغف ، واذا كانت البهيمية فيها رفيعة الشأن فان لها ايضاً تفوق الذكاء ؛ فحديثها الساخر يحيط بكل شيء . لكني مع هذا اعبد هنرييت . كنت في الليل ابكي من السعادة وفي الصباح ابكي من توبيخ الضمير. لبعض النساء من العلم ما يكفي ليخفين غيرتهن تحت الطيبة الملائكية ؛ انهن اللواتي تجاوزنا الثلاثين من العمر ، مثيلات الليدي ديدلي . فهؤلاء النسوة يعرفن ان يشعرن ويحسبن ويعصرن كل عصارة الحاضر ويفكرن بالمستقبل ؛ انهن يستطعن ان يخمدن

الزفرات التي تطابق في الغالب نشاط الصياد الذي لا يعبأ بجرحه وهو يلاحق صرخة الصيد الحادة . وكانت ارابيل تحاول ان تقتل السيدة دي مورتسوف في نفسي حيث كانت تجدها دائماً بدون ان تتحدث عنها ، وكانت عاطفتها تنتعش من نسمة هذا الحب الذي لا يقهر . ولكي تنتصر بواسطة مقارنات كانت لصالحها لم تظهر انها شاكية ولا منكدة ولا فضولية كما هن معظم النساء الشابات ؛ لكنها كانت تسهر على الا يعكر سعادتها شيء وتحتفظ بي كفتح غير خاضع، كاللبؤة التي امسكت بشدقها فريسة وحملتها الى عرينها لتقضمها . كنت اكتب الى هنرييت تحت نظرها وما من مرة قرأت سطراً واحداً او حاولت بأي وسيلة ان تعرف العنوان المكتوب على رسائلي . لقد كنت حراً وكانت تبـــدو كأنها تقول لنفسها : اذا فقدته فلن اتهم سوى نفسي . كانت تستنـد بكبرياء الى حب شديد الاخلاص بحيث تمنحني حياتها دون تردد لو طلبتها منها . واخيراً جعلتني اعتقد انها ستقتل نفسها فوراً ان تركتها. فهي بهذا تمجد عادة الارامل الهنديات اللواتي يحرقن انفسهن عـــلى محرقة ازواجهن . وقد قالت لي :

— «مع ان هذه العادة في الهند ميزة محفوظة لطبقة الاشراف وانها من هذه الجهة قد لا يفهمها الاوروبيون غير القادرين على ادراك عظمة هذا الامتياز البغيضة ، فيجب ان تعترف ان الارستقراطية في اخلاقنا الحديثة السهلة لا يمكن ان تعود الى النهوض الا بغير المألوف من العواطف . كيف استطيع ان اعلم البورجوازيين ان دم أوردتي لا يشبه دمهم ان لم امت بخلاف ما يموتون ؟ ان النساء الوضيعات الاصل يستطعن الحصول على الماس والاثواب والخيول وحتى على ترس الشرف الذي يجب ان يُحفظ لنا وحدنا ، لان من الممكن شراء اسم ! لكن ان تحب مرفوعة الرأس بشكل مناقض للقانون ، وتموت في سبيل المعبود المختار فتفصل كفناً من اغطية سريره ، واخضاع العالم والسماء لرجل ، مختلسةً من الله الحق في صنع إله ، لا تخون في سبيل شيء حتى في سبيل الفضيلة ؛ لان رفضها ان تكون له باسم الواجب يعني استسلامها لشيء آخر غيره . ليكن رجلًا او فكرة فهناك دائماً خيانة ! هذه هي الامور العظيمة التي لا تبلغهـــا النساء العاميات ؛ فهن لا يعرفن سوى طريقين مشتركين، اما طريق

الفضيلة الكبير ، واما طريق البغاء الموحل الضيق !» . انها كما ترى تسير سيرتها بواسطة الكبرياء ، وتجمّل جميع الاباطيل بأن تتحداها . وقد وضعتني في مكان مرتفع جداً بحيث لا تستطيع العيش إلا على ركبتي . وكان جميع ما في روحهـــا من مغويات موضحاً بموقفها كعبد وبخضوعها التام . كانت تعرف ان تظل ممدودةً على قدمي يوماً كاملاً ، وهي صامتة ، مهتمة بالنظر الي ، مترقبة ساعة اللذة وتقدم موعدها بغنج حاذق ، ويبدو كل شيء فيها انه ينتظر تلك الساعة . بأي كلمات اصور الاشهر الستة الاولى التي كنت اثناءها فريسة مسرات موهنة لحب خصب بالملذات ، كانت تنوعها بالمعرفة الناتجة عن التجربة ، ولكنها كانت تخفي علمها تحت فوران العاطفة . هـــذه الملذات ، وهي الكشف المفاجيء عن شاعرية الحواس ، تشكل الرباط المتين الذي يربط الشبان الى النساء اللواتي يكبرنهم سناً ، لكن هذا الرباط هو سلسلة المحكوم بالاشغال الشاقة ، يترك في النفس طابعاً لا يمحي ، ويثير فيها نفوراً مسبقاً من الغراميات الطازجة ، السليمة النية ، الغنية بالزهور فقط والتي لا تعرف ان تقـــدم

الكحول في كؤوس ذهبية منقوشة بشكل غريب ومحلاة بالحجارة الكريمة حيث تلمع انوار لا تنطفئ. لم تكن تعوزني المناقضات لأبرر نفسي لنفسي عن رضاي في الشرب من هذه الكأس الجميلة. وفي اغلب الاحيان كانت نفسي المنعتقة من الجسد، الضائعة في لانهاية السأم، كانت تطير بعيداً عن الارض. كنت اظن ان هذه الملذات وسيلة لالغاء المادة واعادة الروح الى طيرانها السماوي. والليدي ديدلي، ككثير من النساء، غالباً ما كانت تستفيد من الهوس الناتج عن السعادة المفرطة لتربطني بالمواثيق وتنتزع مني، بتأثير فورة رغبة، تجديفاً بحق ملاك كلوشيغورد. لقد كنت خائناً مرة، فأصبحت غشاشاً. وكنت اتابع الكتابة الى السيدة دي مورتسوف كما لو انني لا ازال ذاك الولد ذا الملابس الزرقاء الصغيرة التي كانت تحبها دائماً؛ لكن هبتها في المقابلة الثانية، ارهبتني لأنني فكرت بالمصائب التي قد يسببها عدم الرصانة لقصر آمالي الجميل. وفي اغلب الاحيان، وانا في غمرة سروري، كان الم فجائي يجمدني، كنت اسمع اسم هنرييت يلفظه صوت في الاعالي مثل: — «قايين، اين هابيل؟» كما جاء

في الكتاب المقدس . وظلت رسائلي دون جواب ، فانتابني قلق فظيع ، واردت الذهاب الى كلوشيغورد . لم تبد ارابيل اية معارضة ، لكنها قالت بشكل طبيعي انهـا تريد مرافقتي الى التورين . ان نزوتها التي استحثتها الصعوبة ، وشعورها بحوادث المستقبل التي سوغتها سعادة غير مأمولة ، كل هذا ولد عندها حباً حقيقياً كانت ترغب في ان تجعله فريداً . وقد ارتها عبقريتهـا النسائيـة في هذه الرحلة وسيـلة لفصلي نهائياً عن السيدة دي مورتسوف ؛ بينما انا الذي كنت اعمى من الخوف ، مسلوب الارادة ببساطة العاطفـة الصادقة ، لم ار الفخ الذي سأقع فيه . واقترحت علي انها تقنع بالقليل ، وتداركت جميع الاعتراضات ورضيت ان تبقى بالقرب من تور متنكرة في حقل مجهول دون ان تخرج في النهار ، واختارت لمواعيدنا ساعات الليـل حيث لا يمكن ان يلتقينا احد . سرت من تور الى كلوشيغورد عـلى الجواد . وكان لدي عذري في مجيئي هكذا لأن غزواتي الليلية تحتاج الى جواد وكان جوادي حصاناً عربياً ارسلته الليـدي استير ستانهوب الى المركيزة ، فقايضتني به على تلك اللوحة

الشهيرة لرامبرانت، الموجودة في صالونها في لندن، والتي حصلت عليها بطريقة غريبة . اخذت الطريق الذي كنت اطوف فيه راجلًا منذ ست سنوات ، ووقفت تحت شجرة الجوز . ومن هناك رأيت السيدة دي مورتسوف في ثوب ابيض على حافة السطيحة ، فاندفعت نحوها حالًا بسرعة البرق وبلغت اسفل الجدار في بضع دقائق ، بعد ان قطعت المسافة بخط مستقيم ، كما في سباق الحواجز ، فسمعت وثبات سنونو القفر المدهشة . قالت لي حين وقفت في زاوية السطيحة :

ـ آه ! اهذا انت !

وانقضت علي هذه الكلمات الثلاث كالصاعقة . انها على علم بمغامرتي . فمن أعلمها بها ؟ امها . اذ أرتني فيما بعد رسالتها المقيتة ! ان الضعف اللامبالي في هذا الصوت المليء بالحياة سابقاً، والشحوب الكامل في الرنة كشفا عن ألم ناضج ، وعبقا برائحة زهر مقطوع دون رجعة . ان اعصار الخيانة الشبيه بفيضانات اللوار التي تملأ الارض بالرمل الى الابد قد مر على نفسها وجعل

من المكان الذي كانت تخضر فيـــه المروج الغنية قفراً بلقعاً . أدخلت جوادي من الباب الصغير ، فنام على العشب كما امرته ، وهتفت الكونتس التي تقدمت بخطى بطيئة : ـ يا للحيوان الجميل ! ثم وقفت مكتوفة الذراعين حتى لا آخذ يدها وقد عرفت قصدها . قالت وهي تتركني :

ـ انا ذاهبة لأخبر السيد دي مورتسوف .

بقيت واقفاً مضطرباً . تركتها تسير وانا اتأملها ، انها دائماً كما هي ، نبيلة ، بطيئة ، فخورة ، واكثر بياضاً مما كنت أراها ، لكنها تحتفظ على جبهتها بالطابع الاصفر الخاتم كآبة مريرة ، ورأسها منحنٍ كزنبقة اثقلها المطر . واذا بي أصرخ بهياج رجل شعر انه يموت :

ـ هنرييت !

لم تلتفت ولم تقف . لقد اشمئزت ان تقول انها سحبت اسمها مني ، وانها لن تجاوب اذا ناديتها بهذا الاسم ، وواصلت

سيرها. في هذا الوادي الرهيب حيث تقف ملايين الشعوب التي أصبحت غباراً والتي تنعش روحها الآن سطح الكرة، استطيع ان اجد نفسي صغيراً في خضم هذا الجمهور المضغوط تحت تلك الارجاء الفسيحة المتألقة التي تنيره بمجدها؛ لكني أصبح أقل تحطماً مما كنت امام هذا الشكل الابيض الصاعد كما يصعد فيضان لا ينثني في شوارع مدينة، الصاعد بخطى متساوية الى قصره في كلوشيفورد، حيث مجد وعذاب ديدون المسيحية هذه. قذفت أرابيل بلعنة واحدة لو سمعتها لقتلتها، هي التي تركت كل شيء في سبيلي كما يترك كل شيء في سبيل الله!... ظللت ضائعاً في عالم من الافكار، وانا أشاهد لانهاية الالم في جميع الجهات، وحينئذٍ رأيتهم كلهم يهبطون. كان جاك يركض بالاندفاع الصادق لمن كان في سنه. ومادلين، الغزالة ذات العينين الميتتين، كانت ترافق امها. فضممت جاك الى قلبي ساكباً عليه دفقات النفس والدموع التي رفضتها أمه. وجاء السيد دي مورتسوف نحوي، ومد لي يده، وضمني اليه، وقبلني على الخدين وهو يقول لي:

ــ انا اعلم يا فليكس انني مدين لك بحياتي !

أدارت السيدة دي مورتسوف ظهرها لنا اثناء هذا المشهد متعللةً بانها تري الحصان لمادلين الـــتي استولت عليها الدهشة . وصرخ الكونت غاضباً :

ــ يا للشيطان ! النساء هكذا ، انهن يتفحصن جوادك .

التفتت مادلين وجاءت إلي فقبلت يدهـــا وانا انظر الى الكونتس التي احمر وجهها . وقلت :

ــ ان صحة مادلين حسنة .

فأجابت الكونتس وهي تقبلها في جبينها :

ــ يا للابنة المسكينة !

أجاب الكونت :

ــ نعم ، كلهم الآن بصحة جيدة . انا وحدي يا عزيزي فليكس متهدم كبرج قديم متداع .

فقلت وانا انظر الى السيدة دي مورتسوف :

ــ يبدو ان للجنرال فرسانه السود دائماً .

فأجابت :

ــ كلنا لنا شياطيننا الزرق ، أليست هذه هي العبارة الانكليزية .

صعدنا نحو التصوينة نتنزه معاً ، شاعرين ان حادثاً فظيعاً قد حدث . لم يكن لها أية رغبة في ان تظل وحيدة معي . اخيراً أصبحت ضيفها . وقال الكونت حين خرجنا :

ــ على فكرة ، وحصانك ؟

فقالت الكونتس :

ــ سترى انني مخطئة بتفكيري به ، ومخطئة إن لم أعد افكر به .

فقال : طبعاً ، يجب عمل كل شيء في حينه .

قلت حين رأيت هذا الاستقبال البارد غير المحتمل :

ـ انا ذاهب اليه ، انا وحدي استطيع ان اخرجه وأرتبه كما يجب فخادمي آت بعربة شينون ، وسيسوسه .

فقالت :

ـ وهل الخادم آتٍ ايضاً من انكلترا ؟

فأجاب الكونت الذي أصبح مرحاً حين رأى زوجته حزينة :

ـ لا يعتنى به إلا هناك .

كان برود زوجته فرصة للمعاكسة ، فقد ارهقني بصداقته. وعرفت ما اثقل محبة الزوج . لا تعتقدي ان اللحظة التي تقتل فيها مجاملاتهم النفوس النبيلة هي الوقت الذي تبذل فيه نساؤهم محبة تبدو انها سرقت منهم ؛ كلا ! انهم ممقوتون ولا يحتملون يوم يطير هذا الحب . حينئذٍ يظهر الذكاء الجيد كواسطة ،

وهو شرط أساسي لحوادث من هذا النوع ، ويبدو حينئذ ثقيلًا ، انه مقيت ككل واسطة لا تكون نهايتها صائبة . قال الكونت وقد أخذ يدي وضغط عليها ببرودة :

ـ اغفر للسيدة دي مورتسوف يا عزيزي فليكس ، فالنساء بحاجة الى ان يكنّ كثيرات الحنق . فضعفهن يشفع لهن . انهن لا يعرفن ان يحصلن على التساوي في المزاج ، الذي تمنحنا اياه قوة الخلق . هي تحبك كثيراً وانا اعرف ذلك ، ولكن ...

حين كان الكونت يتكلم ابتعدت السيدة دي مورتسوف عنا لاشعورياً فبقينا وحدنا . قال لي وهو يتأمل زوجته التي كانت تصعد الى القصر يصحبها ولداها :

ـ اني اجهـــل يا فليكس ما يجري في نفس السيدة دي مورتسوف ، لكن طبعها تغير تماماً منذ ستة أسابيع . هي التي كانت كثيرة العذوبة والاخلاص حتى الآن اصبحت ذات عبوس لا يصدق !

وقد اخبرتني مانيت فيما بعد ان الكونتس انحطت قواها واصبحت غير شاعرة بمناكدات الكونت. وحين لم يعد يجد هذا الرجل ارضاً رخوة يغرز فيها سهامه اصبح قلقاً كالولد الذي يرى الحشرة التي يعذبها لم تعد تتحرك. انه في هذه البرهة بحاجة الى من يستودعه شره هي حاجة الجلاد الى معاون. وقـــال بعد وقفة :

ــ حاول ان تسأل السيدة دي مورتسوف. ان للمرأة اسراراً تخفيها عن زوجها دائماً، ولكن قد تفضي اليك بسبب همومها. لو كلفتني نصف الايام الباقية من عمري ونصف ثروتي لضحيت بالكل لأجعلها سعيدة. انها ضرورية جداً لحياتي ! واذا لم اشعر في شيخوختي بوجود هذا الملاك الى جانبي فسأكون أتعس انسان! أريد ان أموت مرتاح البال. قل لها انها لن تحتملني طويلًا. فأنا راحل يا فليكس، يا صديقي المسكين، واعرف ذلك. اني اخفي الحقيقة المشؤومة عن جميع الناس. لماذا افجعهم مسبقاً؟ انه فم المعدة دائماً يا صديقي ! فقد انتهيت

الى معرفة اسباب المرض . والحساسية تقتلني . وبالفعل فان جميع آلامنا توجه ضربتها الى المركز المعدي .

فقلت له مبتسماً :

ـ بنوع ان الشجعان يموتون بداء المعدة ؟

ـ لا تضحك يا فليكس . ليس هناك اصدق من ذلك . ان الهموم الشديدة تهيج الاعصاب . وتضاعف نشاط الحواس يجعل غشاوة المعدة في هياج دائم. واذا استمرت هذه الحالة فانها تفضي الى اضطرابات في الوظائف الهضمية لا يُشعر بها في بادىء الامر: فالافرازات تفسد، والشهية تفسد ، ويصبح الهضم غير منتظم . فتظهر حالاً آلام لاذعة ، ثم تزداد وتصبح مألوفة من يوم الى آخر ؛ ثم يبلغ الاختلال ذروته ، كأن سمًّا بطيئاً قـد مزج بالحبوب الغذائية . وتتكاثف الغشاوة ، ويحدث التصلب غير الطبيعي في صمام فم المعدة ، ويشكل فيه ورماً متحجراً يحتم الموت . ايه ! لقد انتهيت الى هذه الحالة يا عزيزي ، فالتصلب يسير دون ان يستطيع ايقافه شيء . انظر الى بشرتي الصفراء

بلون القش ، وعيني الجافتين اللامعتين ، وهزالي المفرط ! اني اجف . فماذا تريد ، وقد حملت معي من الهجرة بذرة هـــذا المرض؛ اني تعذبت كثيراً آنذاك ! وزواجي الذي كان من الممكن ان يشفي آلام الهجرة ، لم يجلب الهدوء الى نفسي بل انعش الجرح . ماذا لقيت هنا؟ هموم ابدية كان سببها ولداي ، واحزان منزلية ، وثروة يجب ترميمها ، واقتصاد في النفقات نتج عنه الف حرمان فرضته على زوجتي وكنت اول من لاقى الأمرين منه . اخيراً ، لا استطيع ان افضي بهذا السر إلا اليك، وهاك همي الاكبر . فمع ان بلانش يمكن ان تكون ملاكاً ، إلا انها لم تفهمني ، انها لا تعرف شيئاً عن آلامي ، انها تعاكسني فأغفر لها ! ان هذا قول رهيب يا صديقي ؛ ولكن امرأة أقل فضيـــلة يمكن ان تجعلني اكثر سعادة بان تلجأ الى شيء من الملاطفات التي لا تتصورها بلانش ، لانها حمقاء كطفل ! اضف الى ذلك ان رجالي يعذبونني . فهم اغبياء، يسمعون اليونانية حين اتكلم بالفرنسية . وحين رممت ثروتنا شيئاً فشيئاً وقلّت همومي كان المرض قد تكامل ، وبلغت دور الشهيات الفاسدة ،

ثم حل مرضي الكبير الذي لم يفهمه اوريجه . وخلاصة القول ، لم يبق لي اليوم سوى ستة اشهر اعيشها ...

كنت اصغي الى الكونت بشي من الرعب . وحين عدت ورأيت الكونتس فإن بريق عينيها الجافتين وصبغة جبهتها الصفراء بلون القش أدهشاني . فسرت بالكونت باتجاه البيت متظاهراً بالاصغاء الى شكاويه الممزوجة بالابحاث الطبية ، لكني لم اكن افكر بسوى هنرييت واريد ان اراقبها . وقد وجدتها في الصالون تحضر درساً في الرياضيات يلقيه الاب دي دومينيس على جاك وتري مادلين قطبة تطريز. كانت في الماضي تؤجل اشغالها يوم وصولي لتتفرغ بكليتها الي . لكن حبي كان صادقاً بشكل عميق فكبحت في قلبي الحزن الناتج عن هذا التباين بين الحاضر والماضي ؛ لاني كنت ارى الصبغة الصفراء المشؤومة الشبيهة بلون القش[1] والتي تشبه على هذا الوجه السماوي انعكاس الاضواء الالهية التي وضعها الرسامون الطليان على صور

(١) من اعراض سرطان المعدة .

القديسات. حينئذ شعرت في داخلي بريح الموت الجليد. ثم حين سقطت علي نار عينيها العاطلتين من الماء الصافي حيث كان يسبح نظرها، ارتعشت، وشاهدت بعض التغييرات الناتجة عن الحزن والتي لم اكن الاحظها ابداً في الهواء الطلق : الخطوط الدقيقة التي حفرت جبهتها، بينما لم تكن عند زيارتي الاخيرة الا مطبوعة عليها بشكل خفيف ؛ وصدغاها الزرقاوان يبدوان مضطرمين متقعرين ؛ وعيناها مغروزتان تحت قوسيهما المشفقين وقد اسمر لون الاطار ؛ كانت على وشك الموت كالثمرة التي بدأت تظهر عليها البقع المميتة كأن دودة داخلية جعلتها تشقرّ قبل الاوان. وانا، حيث كان كل مطمعي ان اسكب السعادة امواجاً في نفسها، الم القِ المرارة في الينبوع الذي كان تنتعش فيه حياتها وتتنشط شجاعتها ؟ اتيت وجلست الى جانبها، وقلت لها بصوت بكت فيه الندامة :

ـ أأنت راضية عن صحتك ؟

فأجابت وهي تغمس عينيها في عيني :

– نعم .

ثم اضافت وهي تشير الى جاك ومادلين :

– اليك صحتي .

ان مادلين التي خرجت منتصرة من صراعها مع الطبيعة في سن الخامسة عشرة اصبحت امرأة؛ فقد كبرت ، وظهرت الوانها الشبيهة بوردة البنغال من جديد على خديها الملونين بلون الصدأة؛ وفقدت اهتمام الطفل الذي ينظر مواجهة الى كل شيء وبدأت تخفض عينيها ! واصبحت حركاتها قليلة رزينة كحركات امها ، وكانت ممشوقة القامة ؛ بدأت ملاحة نصفها الاعلى تتفتح، وصقل حب التزين شعرها الاسود البديع المفصول بعصابتين على جبهتها الاسبانية . كانت تشبه تماثيل القرون الوسطى الصغيرة الدقيقة النطاق الرقيقة الشكل بحيث تخاف العين ان تكسرها وهي تداعبها ؛ لكن الصحة ، تلك الثمرة المتفتحة بعد كثير من الجهود وضعت على خديها مخمل الدراقن ، وعلى طول عنقها زغباً حريرياً يلعب عليه النور كما عند امها . كان يجب ان تعيش ! وقد

كتب الله ذلك يا برعم اجمل الزهرات الانسانية العزيز، على اهداب جفونك الطويلة، وعلى منحنى كتفيك اللتين تبشرات بنمو كثير ككتفي امك ! هـذه الفتاة الصغيرة السمراء ذات القامة الشبيهة بالحور، تتناقض مع جاك، الشاب الضعيف البالغ السابعة عشرة، والذي كبر رأسه، ودعت جبهته باتساعها السريع الى القلق، وكانت عيناه المحمومتان التعبتان منسجمتين انسجاماً عميقاً مع صوته الرنان. فالجهاز كان يعطي الصوت حجماً قوياً، وكذلك النظر فقد كان ينبىء عن كثير من الافكار. لقد كان ذلك ذكاء هنرييت وروحها وقلبها الملتهمة بلهيبها السريع جسماً لا صلابة فيه. كان لجاك صبغة الحليب تنعشها الالوان المضطرمة التي تميز الانكليزيات الصغيرات الموسومات بالعاهـة ليمتن في وقت معين؛ صحة خادعة ! حين اطعت اشارة هنرييت التي بعد ان ارتني مادلين اشارت الى جاك الذي كان يرسم صوراً هندسية وحسابات جبرية على لوح امام الاب دي دومينيس، ارتجفت لمنظر هذا الموت المختبىء تحت الزهور، واحترمت خطأ الأم المسكينة. قالت وعينها تلمع بفرح امومي :

ــ ان السرور يخرس آلامي حين اراهما هكذا . كما تهدأ الآلام وتختفي حين اراهما مريضين . اذا كانت هناك مودات اخرى تخوننا ، فان العواطف التي نجد مكافأتها هنا ، والواجبات المتممة المكللة بالنجاح تعادل الاخفاق الذي عانيناه في غير مكان. ان جاك سيصبح رجلًا مثلك ذا تعليم عال ، مليئاً بالمعرفة الفاضلة ؛ وسيكون مثلك شرف بلاده التي يمكن ان يتولى الحكم فيها ، وتساعده انت الذي ستتولى منصباً عالياً ؛ ولكني سأسعى ليكون مخلصاً لحبه الاول . ومادلين ، المخلوقة العزيزة ، هي الآن سامية القلب ، طاهرة كثلج اعلى قمم الألب ، وسيكون لها اخلاص المرأة وذكاؤها اللطيف ، انها ذات كبرياء ، وستصبح جديرة بآل لينانكور ! والام التي تعذبت كثيراً في السابق هي الآن سعيدة جداً ، تشعر بسعادة لا نهاية لها ، بدون اي مزيج ؛ نعم ، ان حياتي مليئة ، غنية ، وانت ترى ذلك ، فقد فتّح الله افراحي في قلب المودات المسموح بها ومزج بالمرارة تلك التي جرني اليها هوى خطر .

وهتف الكاهن بسرور :

ـ حسناً. ان الفيكونت يعرف ذلك اكثر مني .

حين انهى جاك دروسه سعل سعالًا خفيفاً ، فقالت الكونتس متأثرة :

ـ يكفي اليوم ايها الاب العزيز ، وبنوع خاص لا لزوم لدرس الكيمياء ، امتطِ الحصان يا جاك ـ قالت ذلك تاركة ولدها يقبلها بلذة لطيفة جديرة بأم ، وعيناها مصوبتان الي كأنها تريد اهانة تذكاراتي ـ اذهب يا عزيزي وكن حذراً .

فقلت لها وهي تلاحق جاك بنظرة طويلة :

ـ لكنك لم تجاوبيني . اتشعرين ببعض الآلام ؟

ـ نعم ، في المعدة احياناً ؛ لو كنت في باريس لكان لي شرف الاصابة بالتهاب المعدة ، المرض الدارج هذه الايام .

قالت مادلين : ـ امي تتألم في اغلب الاحيان وتتألم كثيراً .

قالت أمها : ـ آه ! أتهمك صحتي ؟

دهشت مادلين من السخرية العميقة في هـــذه الكلمات، ونظرت الينا بالتناوب؛ وكانت عيناي تعدان الزهور الوردية عـــلى وسادة اساسها الرمادي الاخضر الذي يزّين الصالون. وقلت لها هامساً:

ــ هذه الوضعية لا تحتمل.

فسألتني: ــ وهل انا خلقتها؟

ثم أضافت بصوت مرتفع وهي تتصنع ذلك المزاج القاسي الذي يجعل ثأر النساء جميلًا:

ــ أتجهـــل التاريخ الحديث يا ولدي؟ ألم تكن فرنسا وانكلترا دائماً عدوتين؟ ان مادلين تعرف ذلك، فهي تعرف ان بحراً واسعاً يفصلها، بحراً بارداً، بحراً عاصفاً.

كانت آنية الموقد قد استبدلت بشمعدانات لتحرمني لذة ملئها بالزهور، وقد وجد الآنية في غرفتها فيما بعد. وحين وصل خادمي خرجت لأعطيه بعض الاوامر، وقـــد جاءني

ببعض الحاجات التي أردت ان اضعها في غرفتي . فقالت لي الكونتس :

ـ لا تخطىء يا فليكس ! ان غرفة خالتي القديمة هي غرفة مادلين الآن . انت فوق الكونت .

اني وان كنت مذنباً فان لي قلباً ، وهذه الكلمات كلها كانت طعنات خنجر نفذ ببرود في اشد الاماكن حساسية والتي يبدو انها اختارتها مكاناً للضرب . ان الآلام المعنوية ليست مطلقة ، فهي تتناسب مع رقة النفوس . وقد اجتازت الكونتس بقساوة مرقاة الآلام هذه ، ولكن لهذا السبب نفسه فإن افضل امرأة ستكون قاسية بقدر ما كانت محسنة . وقد نظرت اليها ولكنها خفضت رأسها . وذهبت الى غرفتي الجديدة التي كانت جميلة ، بيضاء وخضراء . وهناك اغرقت بالبكاء ، وسمعتني هنرييت فجاءت تحمل باقة زهر . فقلت لها :

ـ هنرييت ، أمصممة انت على الا تغفري لي هذا الخطأ الذي هو من اكثر الاخطاء استحقاقاً للغفران ؟

فأجابت :

ـ لا تدعوني هنرييت قط ، انها غير موجودة ، المسكينة ؛ ولكنك ستجد دائماً السيدة دي مورتسوف صديقة مخلصة تصغي اليك ، وتحبك . سنتحدث فيما بعد يا فليكس . اذا بقي لديك من الشفقة علي فدعني أتعود على رؤيتك ساعة تكون الكلمات أقل تمزيقاً لقلبي ، ساعة اكتسب بعض الشجاعة . ايه ! حينئذٍ ، حينئذٍ فقط . اترى هذا الوادي ؟

ـ قالت ذلك وهي تريني الاندر ـ لقد سبب لي الالم ، ومع ذلك فاني احبه دائماً .

ـ آه ! ليأخذ الموت انكلترا وجميع نسائها ! سأقدم استقالتي للملك وأموت هنا ، مغفوراً لي .

ـ كلا . يجب ان تحب تلك المرأة ! فهنرييت غير موجودة . ان هذا ليس لعباً ، وستعرف ذلك .

وانسحبت ، وقد كشفت لهجة هذه الكلمة الاخيرة القناع عن مدى جراحها . فخرجت مسرعاً وامسكت بها وقلت :

– اذن فأنت لم تحبيني ؟

– لقد سببت لي من الالم اكثر مما سببه الكل مجتمعين ! أما وقد خف اليوم عذابي فان حبي لك قد قل ! لكن لا يوجد إلا في انكلترا من يقول : « لا ابداً ، ولا دائماً » ؛ اما هنا فنحن نقول « دائماً » . كن عاقلًا ولا تزد ألمي ، واذا تعذبت فتذكر انني أعيش .

وسحبت يدها التي كنت امسكت بها باردة ، جامدة ، لكنها رطبة ، وهربت كالسهم مجتازة الرواق حيث حدث هذا المشهد الفاجع . واثناء الغداء كان الكونت يحتفظ لي بعقوبة لم اكن احلم بها . إذ قال لي :

– اذن ، أليست المركيزة ديدلي في باريس ؟

فاحمر وجهي خجلًا وانا اقول له : – كلا .

وقال متابعاً : – أليست في تور ؟

فقلت بجدّة :

– انها لم تطلّق ، وبامكانها الذهاب الى انكلترا. وسيكون زوجها سعيداً اذا شاءت ان تعود اليه .

وسألت السيدة دي مورتسوف بصوت مضطرب :

– هل لها اولاد ؟

فقلت : – ولدان .

– اين هما ؟

– في انكلترا مع والدهما .

– هيا يا فيلكس ، كن صريحاً . هل هي جميلة بقدر ما يقال عنها ؟

فهتفت الكونتس :

ـ كيف تلقي عليه مثل هذا السؤال ؟ أليست المرأة المحبوبة هي دائماً اجمل النساء ؟

فقلت بكبرياء وقد ألقيت عليها نظرة لم تحتملها : ـ نعم ، دائماً . وأضاف الكونت :

ـ انت سعيد ، نعم ، انت شيطان سعيد . آه ! في شبابي كنت أجن لفتح كهذا ...

ـ كفى .

قالت السيدة دي مورتسوف ذلك وهي تري مادلين لوالدها بنظرة .

وقال الكونت الذي كان يسرّه ان يعود شاباً :
ـ لست ولداً .

بعد انصرافنا عن المائدة سارت بي الكونتس الى السطيحة . ولما بلغناها هتفت :

ـ كيف ! هل ثمة نساء يضحين اولادهن في سبيل رجل ؟ الثروة ، الدنيا ، اني افهم ذلك . الابدية ، نعم تقريباً ! ولكن الاولاد . الحرمان من الاولاد !

نعم ، وهؤلاء النساء يرون امتلاك اشياء اخرى ليضحين بها . انهن يعطين كل شيء . . .

وانقلبت الدنيا بنظر الكونتس ، واختلطت افكارها . انها وقد استأثر هـذا الامر العظيم بتفكيرها ، مرتابة بان السعادة تسوّغ هذه التضحية ، سامعة في داخلها صراخ اللحم المتمرد ، ظلت حمقاء امام حياتها المهدورة . نعم ، لقد مرت بساعة شك مرعبة ، لكنها نهضت منها كبيرة قديسة ، شامخة الرأس . قالت والدموع في عينيها :

ـ اذن احببتها يا فليكس ، تلك المرأة . انها ستكون شقيقتي السعيدة ، واني اغفر لها ما سببت لي من آلام . اعطتك ما لن تجده هنا ابداً ، ما لا تستطيع ان تأخذه مني ، فقد كنت

على حق . فأنا لم اقل لك ابداً اني احبك . ولم احببك كما يحبون في هذه الدنيا. ولكنها كيف تستطيع ان تحب اذا لم تكن اماً ؟

فاجبت :

ــ يا قديستي العزيزة ، يجب ان اكون اقل تأثراً مما انا الآن لأوضح لك انك تحلقين منتصرة فوقها ، وانها امرأة من الارض، ابنة عروق منحطة ، وانت ابنة السماوات ، الملاك المعبود ، وان لك قلبي كله وليس لها الا جسدي؛ انها تعرف ذلك وهي يائسة . وتود ان تبادلك مع ان اقسى استشهاد ُفرض عليها ثمناً لهذا التبديل . لكن كل هذا لا دواء له. لك الروح ، لك التفكير ، والحب الطاهر، لك الشباب والشيخوخة ؛ ولها الرغبات وملذات العاطفة الهاربة ؛ لك ذاكرتي بكل اتساعها ولها اعمق النسيان .

ــ قل ، قل ، قل لي هذا ! اوه يا صديقي . ــ وذهبت تجلس على مقعد ، وقد سالت دموعها ــ الفضيلة يا فليكس ، وقداسة الحياة ، وحب الام ، ليست اذن اباطيل . اوه ! إلقِ هذا البلسم

على جراحي ! اعد كلاماً يردني الى السماوات حيث اريد ان اطير معك طيراناً متعادلًا . باركني بنظرة ، بكلمـــة مقدسة ، وسأغفر لك الآلام التي اقاسيها منذ شهرين .

هنالك اسرار في حياتنا تجهلينها يا هنرييت . لقد التقيتك في سن يمكن فيها للعاطفة ان تخمد الرغبات المستوحاة من طبيعتنا؛ ولكن هناك عدة مشاهد ، ستظل ذكراها تحركني الى ساعة يأتي الموت ، تؤكد لك ان هذه الفترة من العمر قد انتهت . وكان انتصارك الدائم في ان تحددي فيها اجل تلك اللذات الصامتة . ان حباً دون وصال يستمر في تفاقـــم الرغبات ؛ ثم تأتي لحظة يكون فيها كل شيء عذاباً فينا . اننا نملك قوة لا يمكن التخلي عنها والا فلن نكون رجالًا . والقلب المحروم من الغذاء الذي يغذيـــه يلتهم نفسه ، ويشعر بنكهةٍ ليست هي الموت ، بل هي ما يسبقه . فالطبيعة اذن لا تخدع طويلًا ؛ انها تستيقظ عند اقل حادث بفاعليـة تشبه الجنون . كلا ، اني لم احب ، لكني كنت عطشاً في وسط القفر .

— القفر !

قالت ذلك بمرارة مشيرة الى الوادي، ثم اضافت :

– ما احسن تفكيره. وكم فيه من تمييزات دقيقة ! ان المخلصين لا يملكون ذكاء كهذا .

فقلت لها :

– يجب ان نكف عن المشاحنة يا هنرييت بسبب بعض العبارات المستحدثة . كلا ، ان نفسي لم تتردد لكني لم اكن مالكاً حواسي . وتلك المرأة لا تجهل انك المحبوبة الوحيدة . انها تلعب في حياتي دوراً ثانوياً ، وهي تعرف ذلك ، وقد رضيت به ، ولي الحق في تركها كما يترك المرء بغياً .

– وبعدئذٍ ...

– قالت انها ستقتل نفسها .

هكذا اجبت ، معتقداً ان هذا العزم سيفاجىء هنرييت .

لكنها حين سمعتني انفرجت شفتاها عن احدى تلك الابتسامات الاحتقارية التي كانت ابلغ تعبيراً من الافكار التي تنقلها .

واضفت : — يا وجـــداني العزيز ، لو اقمتِ وزناً لمقاوماتي وللاغواءات التي كانت تتآمر على ضياعي لفهمتِ هذا الحادث المشؤوم ...

فقالت :

— اوه ! نعم مشؤوم ! كنت كثيرة الايمان بك ! اعتقدت ان تنقصك الفضيلة التي يمارسها الكاهن لن و ... التي يملكها السيد دي مورتسوف — اضافت ذلك مضفيةً على صوتها لذعة قارصة ، واضافت بعد فترة : — لقـــد انتهى كل شيء وانا مدينة لك بالكثير . لقـــد اطفأت فيَّ يا صديقي شعلات الحياة الجسدية . والمرحلة الصعبة من الطريق قد اجتيزت ، والعمر يقارب النهاية ، وها انا متعذبة ، وعما قريب مريضة ؛ عدت لا استطيع ان اكون لك الجنية الساطعة التي تمطر عليك الافضال . كن مخلصاً لليدي ارابيل . اما مادلين التي ربيتها تربية عالية لك ، فلمن تصبح ؟

مادلين المسكينة ، مادلين المسكينة ! ـ رددت ذلك كلازمة مؤلمة ـ لو كنت تسمعها وهي تقول لي : لم تكوني لطيفة مع فليكس يا امي ! يا للمخلوقة العزيزة !

تطلعت الى تحت اشعة فاترة لشمس غاربة كانت تنزلق من خلال الاوراق ، واستولت عليها شفقة على حطامنا لا ادري كنهها ، وانغمست في ماضينا الكثير الطهارة تاركة نفسها تنصرف الى تأملات كانت متبادلة . فقد استعدنا ذكرياتنا ، وكانت عيوننا تسير من الوادي الى التصوينات ، ومن نوافذ كلوشيغورد الى فرابسل ، مالئة هذه الاحلام بباقتنا الفواحة ، بروايات عن رغباتنا . كانت هذه لذتها الاخيرة تذوقتها بطهارة النفس المسيحية . وهذا المشهد ، الكبير جداً بالنسبة الينا ، القانا في كآبة واحدة . لقد آمنت بكلامي ورأت نفسها اين وضعتها في السماوات . وقالت لي :

ـ انني سأطيع الله يا صديقي لان اصبعه موجودة في كل ذلك .

لم اعرف مدى عمق هذه الكلمة الا فيما بعـــد . صعدنا من السطيحة متمهلين. واخذت ذراعي واستندت اليها منقادة ، مدمأة ، تضع ضمادة على جرحها . وقالت لي :

ــ الحياة البشرية هكذا . ماذا فعل السيد دي مورتسوف ليستحق مصيره ؟ ان هـذا يثبت لنا وجود عالم افضل . الشقاء لأولئك الذين يشتكون لأنهم مشوا في الطريق الصالح !

وبدأت حينئذٍ تقدر قيمـــة الحياة وتنظر اليها بعمق في مختلف وجوهها ، فكشفت لي هذه الحسابات الباردة عن التقزّز الذي اصابها من جميع الاشياء الارضية . وحين وصلت الى الدرج المسطح تركت ذراعي وقالت هذه العبارة الاخيرة :

ــ اذا كان الله منحنا العاطفة وتذوق السعادة ، افلا يجب ان يتولى امر النفوس البريئة التي لم تجـــد على الارض سوى الآلام ؟ هذا يعني ، اما ان الله غير موجود ، واما ان حياتنا ليست سوى مزحة مرة .

بعد هذه الكلمات عادت الى البيت فجأة، وقد وجدتها على مقعدها، نائمة كأن الصوت الذي اخاف القديس بولس قد صعقها. قلت لها :

ــ ما بك ؟

فقالت: ــ اني لا اعرف ما هي الفضيلة ولست عارفة بفضيلتي.

وظللنا ذاهلين، مصغيين لصوت هذا الكلام كصوت حجرٍ ألقي في مهواة. واضافت السيدة دي مورتسوف :

ــ اذا كنت مخدوعة في حياتي فانها «هي» على حق .

وهكذا تبعت معركتها الاخيرة لذتها الاخيرة. وحين جاء الكونت اخذت تشكو، هي التي لم تشكُ ابداً؛ وقد رجوتها ان تكشف لي آلامها، لكنها رفضت ان توضح شيئاً، وذهبت لتنام، وتركتني فريسة لتوبيخات ضمير نشأ بعضها عن بعض. ورافقت مادلين والدتها؛ وفي الغد علمت منها ان الكونتس

اصيبت بحادث فيء ناتج عما اصابها من تأثيرِ عنيف في النهار ، كما قالت . وهكذا قتلتها انا الذي كنت اتمنى ان ابذل حياتي في سبيلها .

وقلت للسيد دي مورتسوف الذي ارغمني على لعب النرد :

ــ اعتقد يا عزيزي الكونت ان الكونتس مريضة جداً ولا يزال في الوقت متسعاً لانقاذها ؛ استدع اوريجه وتوسل اليها ان تتبع تعليماته .

فقال مقاطعاً :

ــ اوريجه ! الذي قتلني ؟ كلا ، كلا ، سأستشير كاربونو .

في ذلك الاسبوع ، وخصوصاً في الايام الاولى منه كان كل شيء يعذبني ، بدء شلل في القلب ، جرح في الخيلاء ، جرح في النفس . ولمعرفة رعدة الفراغ يجب ان يكون ثمة محور لكل شيء ، للنظرات والتنهدات ، يجب ان يكون هناك مبدأ الحياة والعائلة حيث يستمد كل واحد نوره . والاشياء نفسها كانت هنا ،

ولكن الروح التي كانت تحييها قد انطفأت كلهيب نفخ عليه . وادركت الضرورة الرهيبة ، ضرورة عدم رؤية المحبين بعضهم لبعض حين يزول الحب . ألّا اكون شيئاً حيث كنت ملكاً ، واجد صمت الموت البارد حيث كانت تتلألأ اشعة الحياة الفرحة! ان المقارنات ترهق . وتوصلت فيما بعد الى التحسر على الجهل المؤلم لكل سعادة ادكنت صباي . وكذلك فقد اصبح يأسي عميقاً لان الكونتس بدت وكأنها ترق لي . وذات يوم بعد الغداء، حين كنا نتنزه جميعاً على ضفة الماء ، بذلت آخر جهود لأحصل على الغفران . رجوت جاك ان يسير باخته امامنا ، وتركت الكونت يسير وحـــده ، وسرت بالسيدة دي مورتسوف نحو الزورق ، وقلت لها :

– كلمة يا هنرييت، ارجوك، والا فسألتي بنفسي في الاندر. اني اخطأت ، نعم ، هذا صحيح ؟ ولكني لم اقلد الكلب في محبته العظيمة ! لقد اصبحت مثله ، ومثله مليء بالخجل ؛ ان فعل شراً عوقب ، لكنه يعبد اليد التي تضربه ؛ حطميني ، ولكن اعيدي قلبك اليّ ...

فقالت : ــ يا للولد المسكين ! ألست ولدي دائماً ؟

واخذت ذراعي ولحقت بجاك ومادلين صامتة فرجعت معها الى كلوشيفورد عن طريق التصوينة وتركتني للكونت الذي اخذ يتكلم بالسياسة بصدد جيرانه . وقلت له :

ــ لنعد الى البيت، فرأسك عارٍ وندى المساء قد يسبب لك حادثاً ما .

فأجابني وقد اخطأ مقاصدي :

ــ انشفق علي ، انت ! يا عزيزي فليكس . ان زوجتي لم تشأ ابداً ان تؤاسيني .

ما تركتني قط مع زوجها وحدنا . وقد اصبحت بحاجة الى اعذار لأذهب اليها . كانت مع ولديها مهتمة بشرح لعبة النرد لجاك . وقال الكونت وهو دائم الغيرة من المحبة التي تحيط بها ولديها :

– ها همـــا اللذان اظل مهملًا بسببهما . ان للازواج المقام الاسفل دائماً يا عزيزي فليكس؛ وافضل امرأة تجد وسيلة ارضاء حاجتها بسرقة المحبة الزوجية .

وتابعت ملاطفاتها دون ان تجيب . فقال :

– جاكِ ، تعال الى هنا !

واظهر جاكِ بعض التردد فقالت الام وهي تدفعه :

– ابوكِ يريدكِ . اذهب يا ولدي .

فقال هذا العجوز الذي كان يعي وضعيته احياناً :

– انهم يحبونني بأمر الرئيسة .

فأجابت وهي تمر بيدها مرات على شعر مادلين الذي كان سرحاً على نسق فيرونيير[1] الجميل .

(١) كانت هذه التسريحة سارية ايام عودة الملكية وتتألف من عصابتين على الجانبين ، والجبهة معصبة بإطار من الجوهر .

ـ لا تظلم النساء يا سيدي، فالحياة ليست دائماً سهلة الاحتمال عندهن. وقد يكون لاولادهن فضائلهن.

فأجاب الكونت وقد خطر له ان يكون منطقياً:

ـ ان ما تقولينه يا عزيزتي يعني ان النساء لولا اولادهن لخسرن فضيلتهن وتركن ازواجهن.

فنهضت الكونتس واخذت مادلين الى الدرج المسطح. وقال الكونت:

ـ هذا هو الزواج يا عزيزي. اتقصد بخروجها هكذا ان تقول انني كنت اهذي؟

صرخ هكذا وهو يأخذ بيد ابنه وجاء الى الدرج قرب زوجته ورمقها بنظرات هائجة. فقالت بصوت اجوف وهي تلقي علي نظرة مجرمة:

ـ بالعكس يا سيد. لقد ارعبتني. لقد سبب لي تفكيرك

ألماً شديداً . اذا لم تقم الفضيلة على تضحيتها نفسها في سبيل اولادها وفي سبيل زوجها ، فما هي الفضيلة اذن ؟

اجاب الكونت، جاعلًا من كل مقطع ضربة قضيب حديدي على قلب ضحيته :

ـ تضحية نفسها ! اذن ماذا كنت تضحين في سبيل اولادك؟ اذن ماذا ضحيت في سبيلي ؟ من ؟ ماذا ؟ اجيبي ! اتجيبيني ماذا يجري هنا اذن ؟ ماذا تريدين ان تقولي ؟

اجابت :

ـ اذن هل تكون مسروراً يا سيد بأن تكون محبوباً لوجه الله ، وان تعرف ان زوجتك فاضلة بسبب الفضيلة نفسها ؟

فقلت متناولًا الكلام بصوت متأثر رن في هذين القلبين حيث القيت بآمالي الضائعة الى الابد ، وهدأت بالتعبير الذي هو اسمى من جميع الآلام والذي اخمدت صرخته المكتومة هذه المعركة ، كما يسكت كل شيء حين يزأر الاسد :

— ان السيدة على حق ، نعم ، ان اجمل ميزة منحنا اياها العقل هي ان نستطيع حمل فضائلنا الى الكائنات التي سعادتها من صنيعنا ، اننا لن نصير سعداء لا بالحساب ولا بالواجب ، بل بمحبة طوعية لا تنضب .

ولمعت دمعت في عيني هنرييت .

— ولو اتفق ان امرأة يا عزيزي الكونت خضعت بشكل لاإرادي الى عاطفة غريبة عن العواطف التي يفرضها المجتمع ، فان هذه العاطفة جمحت كلما عظمت فضيلة المرأة باخمادها وبتضحية نفسها في سبيل اولادها ، وزوجها . ومع ذلك فهذه الطريقة لا تطبق عليّ ، انا الذي اقدم المثل على العكس ، ولا عليك لانها لا تتعلق ابداً بك .

— انت نفس طيبة يا فليكس .

قال الكونت هذا وهو يمر بيده ، بشيء من اللطف ، على قامة زوجته ، ثم جذبها اليه بلطف ليقول لها :

ـ اغفري يا عزيزتي لمريض مسكين يريد دون شك ان يكون محبوباً اكثر مما يستحق .

فأجابت وهي تلقي رأسها عـلى كتفي الكونت الذي ظن العبارة موجهة اليه :

ـ هناك قلوب كلها اريحية .

سبَّب الخطأ ارتعاشاً للكونتس ، فسقط مشطها ، وانحل شعرها ، وشحب لونها ، وخرج من زوجها الذي كان يسندها نوع من الزئير حين شعر بتخاذلها ، فأمسكها كما يمسك ابنته وحملها الى اريكة الصالون حيث احطنا بها . وقد احتفظت هنرييت بيدي في يدها كأنها تقول لي اننا وحدنا نعرف سر هذا الحادث الكثير البساطة في الظاهر ، والمخيف جداً بسبب تمزيقه لنفسها . وقالت لي بصوت منخفض ساعة تركنا الكونت وسار في طلب كأس من ماء زهر الليمون :

ـ لقد اخطأت ، لقد اخطأت الف مرة تجاهك، كنت اريد

ان أيأس حين كنت اضطر ان استقبلك . انت يا عزيزي ذو طيبة معبودة استطيع وحدي معرفه قيمتها . نعم ، اني اعرف ذلك . هناك ألطاف توحيها العاطفة ، وللرجال اساليب عديدة في ان يكونوا طيبين ، بالحساب ، ببـــلادة الطبع ، اما انت يا صديقي فذو طيبة مطلقة .

ـ اذا كان هـذا صحيحاً فاعلمي ان كل ما فيّ من عظيم جاء منك . الا تعرفين اذن انني صنيعة يديك؟

فأجابت لحظة عاد الكونت :

ـ هذا الكلام يكفي لسعادة امرأة. انا بحالة احسن ـ قالت ذلك وهي تنهض ـ يلزمني هواء .

ونزلنا كلنا الى السطيحة المفعمـة برائحة الاكاسيا المزهرة . واخذت ذراعي اليمين وضمتها الى قلبها معبرة بذلك عن افكار مؤلمة ؛ لكنها ، حسب تعبيرها ، تحبها . كانت تريد ولا شك ان تبقى وحيدة معي ؛ لكن مخيلتها التي لا تتقن حيل النساء لم توفر

لها اية وسيلة لابعـاد ولديها وزوجها ؛ كنا نتحدث بأمور قليـلة الاهمية ومع هـذا كانت تعصر دماغها باحثة عن لحظة تستطيـع فيها ان تفرغ مكنونات قلبها في قلبي . وقالت حين رأت جمال الامسية :

— مضى وقت طويل لم اتنزه فيه بالعربة . ارجوك يا سيدي ان تصدر اوامرك لاستطيع القيام بجولة .

كانت تعلم ان كل توضيح قبل الرجاء يغدو مستحيلاً، وتخاف ان يكون الكونت يريد ان يلعب بالنرد . وكان بامكانهـا الانفراد بي على تلك السطيحة الفاترة العاطرة حين ينام زوجها، وربمـا خشيت ان تبقى تحت تلك الظلال التي تنفذ من خلالهـا اشعة بديعة، وان تتنزه على طول الدرابزين حيث نعتنق نظراتنا مجرى الاندر في المروج . ككنيسة ذات اقبيـة داكنة صامتة تغري بالصلاة ، او كأوراق ينيرهـا القمر ، متضوعة بعطور نفاذة ، منتعشة بجلبات الربيع الصامتة ، تحرك العروق وتضعف الارادة . فالريف الذي يهدىء عواطف العجائز يثير عواطف

القلوب الفتية ؛ وكنا نعرف ذلك ! واعلنت دقتان من الجرس موعد الصلاة ، فارتعشت الكونتس .

– ما بك يا عزيزتي هنرييت ؟

فأجابت :

– هنرييت غير موجودة . لا تدعها تولد من جديد ، كانت كثيرة الطلبات ، ذات اهواء ؛ اما الآن فعندك صديقة وديعة توطدت فضيلتها باقوال املتها السماء عليها . سنتكلم عن كل هذا فيما بعد . لنحضر الصلاة في وقتها . وقد جاء دوري اليوم في تلاوتها .

حين تلت الكونتس الصلاة التي طلبت فيها معونة الله ضد شدائد الحياة ، وضعت فيها لهجةً لم تدهشني وحدي ؛ لقد استعملت موهبة حاسة النظر الثانية لتستشف التأثر المخيف الذي قد يثيره حمق نسياني لعهودي مع ارابيل . وقال الكونت وهو يسير بي الى الصالون :

ـ لدينا الوقت الكافي للعب ثلاثة «دقوق» قبل ان تشد الخيل الى العربة. ستذهب للنزهة مع زوجتي، اما انا فسأنام.

ـ كان لعبنا هذه المرة عاصفاً ككل العابنا. وكان بامكان الكونتس ان تسمع صوت زوجها من غرفتها او من غرفة مادلين. فلما عادت الى الصالون قالت للكونت:

ـ انك تسيء استعمال الضيافة بشكل غريب.

وتطلعت اليها منذهلاً، لاني لم اكن معتاداً على قساوتها؛ من المؤكد انها حرصت اليوم على انقاذي من تسلط الكونت، بينما كانت في الماضي تحب ان تراني اشاطرها آلامها وأحتمل هذه الآلام بصبر في سبيل حبها. قلت لها هامساً:

ـ اني اهب حياتي مقابل سماعك تتمتمين كما في السابق: «العزيز المسكين! العزيز المسكين!»

فخفضت عينيها متذكرة الساعة التي رمزت اليها؛ وجرى

نظرها نحوي، ولكن من تحت، واظهرت فرح المرأة التي ترى اكثر نبرات قلبها زوالًا مفضلة على اللذات العميقة لحب آخر. وسامحتها، ككل مرة تعرضت فيها لاهانة مماثلة، شاعراً انني مفهوم. وخسر الكونت فادعى التعب ليتمكن من ترك اللعب، وذهبنا نتنزه حول حقل معشب بانتظار العربة. وما ان تركنا الكونت حتى شع السرور على وجهي بقوة جعلت هنريت تسألني بنظرة فضولية مندهشة. فقلت لها:

ـ ان هنريت موجودة واني لا ازال محبوباً. لقد جرحتني وتريدين ان تحطمي قلبي؛ اني لا ازال استطيع ان اكون سعيداً.

فقالت بذعر:

ـ لم يبق سوى مزقة من المرأة وقد اختطفتها في هذه اللحظة. ليتبارك الله! هو الذي يمنحني الشجاعة على احتمال استشهادي الذي استحقه. نعم، لا ازال احبك كثيراً، كدت اقع في الخطيئة والانكليزية انارت لي الهاوية.

في تلك اللحظة صعدنا الى العربة . وطلب الحوذي توجيهه .

ـ اذهب على طريق شينون ماراً بالجادة وستعود بنا عن طريق اراضي شارلمان وطريق ساشيه .

قلت بشيء من الحدة : في اي يوم نحن ؟

ـ السبت .

ـ لا تذهبي من هنـــا يا سيدتي فمساء السبت مليء ببائعي الطيور الذاهبين الى تور ، وسنلتقي بعرباتهم .

قالت وهي تنظر الى الحوذي .

ـ افعل ما قلته لك .

كنا نعرف انماط صوتينا مهما تعددت ، فلا نستطيع ان نخفي اقل تأثير نشعر به . لقد فهمت هنرييت كل شيء . وقالت بمسحة خفيفة من السخرية .

ــ لم تكن تفكر ببائعي الطيور حين اخترت هذه الليلة . ان الليدي ديدلي في تور . لا تكذب ، وهي تنتظرك قريباً من هنا «في اي يوم نحن ! بائعو الطيور ! العربات !» هل ابديت امثال هذه الملاحظات حين كنا نخرج في السابق ؟

فأجبت ببساطة :

ــ انها تثبت اني نسيت كل شيء في كلو شيفورد .

فأضافت : هل هي تنتظرك ؟

ــ نعم .

ــ في اي ساعة ؟

ــ بين الحادية عشرة ومنتصف الليل .

ــ اين ؟

ــ في الارض البور .

— لا تخدعني . اليس تحت شجرة الجوز ».

— في الارض البور .

فقالت :

— سنذهب ، وسأراها .

حين سمعت هذا الكلام رأيت كأن حياتي قد توقفت نهائياً. وعزمت في لحظـة ان انهي بالزواج الكامل من الليـدي ديدلي ذلك الصراع المؤلم الذي يهدد باستنفاد حساسيتي، ويختطف بكثير من الصدمات المكررة تلك الانفعالات اللذيذة التي تشبه زهرة الاثمار. ان صمتي الشرس جرح الكونتس التي لم اكن اعرف كل عظمتها . وقالت بصوتها الذهبي .

— لا تغتظ مني . ان هذا يا عزيزي هو عقابي .

ثم اضافت وهي تضع يدها على قلبها :

— لن تكون محبوباً كما انت محبوب هنا . الم اعـترف لك

بذلك ؟ ان المركيزة ديدلي انقذتني . لها الدنس ، ولا احسدها ابداً عليه ، ولي حب الملائكة المجيد . منذ مجيئك طفت حقولًا واسعة . وقاضيت الحياة، إرفع النفس تمزقها ؛ كلما كثر ارتفاعك قل تعاطفك ؛ وبدلًا من ان تتعذب في الوادي تتعذب في الهواء كالنسر الذي يحوم في الجو حاملًا في القلب سهماً اطلقه راع شرس . إني ادرك اليوم ان السماء والارض متضادان . نعم ، ان الله وحده ممكن لمن يريد ان يعيش في المنطقة السماوية . وعندئذٍ يجب ان تنفصل نفسنا عن جميع الاشياء الارضية . وعلى المرء ان يحب اصدقاءه كما يحب اولاده . يحبهم لانفسهم وليس لنفسه . ان الأنا تسبب المصائب والاحزان . وقلبي سيذهب الى ابعد ما يذهب اليه النسر ؟ فهناك حب لن يخدعني ابداً . اما العيش بالحياة الارضية فانه يحط كثيراً من قدرنا لأنه يجعل انانية الحواس تسيطر على روحية الملاك الموجود فينا . والمتع التي تعطيها العاطفة عاصفة بشكل مرعب ، تدفع ثمنها الاضطرابات الموهنة التي تحطم نوابض النفس . لقد جئت الى شاطىء البحر حيث تتحرك هذه العواطف ، ورأيتها عن قرب ؛ انها في اغلب

الاحيان غير مغلقة بغيومها ، والموجة لا تتحطم دائماً على قدمي . لقد شعرت بضغطها الشديد الذي يبرد القلب ؛ وعلي أن أنسحب الى الاماكن العالية ، وسأهلك على شاطىء ذلك البحر الواسع. اني ارى فيك كما ارى في جميع اولئك الذين سببوا لي الحزن ، حرس فضيلتي . كانت حياتي ممزوجة بهموم من حسن الحظ انها تتناسب مع قواي، فصانتني هكذا نقيةً من العواطف الفاسدة، دون راحة مغوية، متأهبة للقاء الرب دائماً . لقد كان حبنا محاولة ملعونة ، جهـــد ولدين سليمي النية يحاولان ارضاء قلبيهما ، الرجال والله ... جنون يا فليكس !

وقالت بعد وقفة قصيرة :

ــ ها ! ماذا تدعوك هذه المرأة ؟

فأجبت : أميديه . ففليكس كائن على حدة ، ولن يكون الا لك .

فقالت وقد افلتت منها ابتسامة ورعة :

ــ هنريت على وشك الموت . ولكنها ستهلك في اول

جهدٍ للمرأة المسيحية الخاضعة ، لـــلام الفخور ، للمرأة ذات الفضائل التي كانت خائرة بالامس فقويت اليوم. ماذا اقول لك؟ نعم ، ان حياتي تطابق نفسها في اكبر ظروفها وفي اصغرها . والقلب الذي كان يجب ان اربط فيه اولى جذور الحنو ، قلب امي ، اغلق في وجهي رغم الحاحي في البحث عن ثنية استطيع الدخول منها اليه . كنت ابنة . وقـــد جئت بعد ثلاثة صبيان ميتين ، وحاولت عبثاً ان اشغل مكانهم في محبة أهلي ؛ اني لم اشف ابداً الجرح الذي اصاب كبرياء العائلة . وما ان عرفت خالتي المحبوبة بعد تلك الطفولة القاتمة . حتى اختطفها الموت مني بسرعة . اما السيد دي مورتسوف الذي نذرت له نفسي فكان يضربني بدون انقطاع ، وبدون أن يعرف ذلك ، يا للرجل المسكين ! ففي حبه الانانية الساذجة كتلك التي يحملها لنا اولادنا . ولم يكن يشعر ابداً بالآلام التي يسببها لي ، ولذلك كنت اسامحـــه دائماً ! وولداي ، هذان الولدان العزيزان اللذان ينتميان الى لحمي بكل آلامهم ، والى نفسي بكل صفاتهم ، والى طبيعتي بافراحهم البريئة ؛ هذان الولدان ، ألم يُمنحا لي لـكي أظهر ما في صدور

الامهات من قوة وصبر؟ اوه! نعم، ان ولديّ هما فضيلتي! أنت تعلم هل جلدت منهما، وفيهما رغماً عنهما. وصيرورتي اماً تعني عندي شراء الحق بالعذاب الدائم. حين صرخ آجر في القفر اجرى الملاك ينبوعاً نقياً لهذا العبد المحبوب؛ اما انا، فحين جاء الينبوع الصافي الذي كنت تريد أن تسير بي نحوه (اتذكر ذلك؟) ليسيل حول كلوشيغورد، فانه لم يسكب لي سوى مياه مرة. نعم، لقد سببت لي آلاماً لا تصدّق. وسيغفر الله دون شك لمن لم تعرف المحبة الا بالالم. ولكن اذا كانت الهموم التي قاسيتها قد فرضتها انت علي، فلربما استحقها لان الله ليس ظالماً. آه! نعم يا فليكس، ان قبلةً تطبع خفيةً على جبهة، قد تشكل جرماً يستدعي التفكير بشدة عن خطوات الاولاد والزوج الذين كنا ندفعهم الى السير امامنا حين كنا نتنزه في المساء لكي نبقى وحدنا مع ذكريات وافكار لا تتعلق بهم. وبسيرنا هكذا كانت الروح تعتنق روحاً اخرى! وحين ينقبض الكائن الداخلي ويتصاغر لكي لا يشغل سوى المكان الذي يُقدَّم للمعانقات الا يكون ذلك اسوأ الجرائم! وحين تنحني امرأة لتتلقى في

شعرها قبلة زوجها لتصبح جبهة محايدة، فهناك جريمة! وهناك جريمة ايضاً في تخيـــل مستقبلٍ مستند الى الموت، وجريمة في تصور امومة في المستقبل خالية من الذعر، واولادٍ حسان يلعبون مساءً مع والدٍ تعبده العائلة كلها، تحت نظر مشفقٍ لأم سعيدة. نعم، لقد ارتكبت الخطيئة. ارتكبت الخطيئة بشكل فظيع! استعذبت التوبات التي تفرضها الكنيسة والتي لا تفتدي بشكل كافٍ تلك الاخطاء التي يتسامح الكاهن حيالها. وما من شك في ان الله وضع العقاب في قلب جميـــع هذه الضلالات بتكليفه من ارتكبت لأجله ان يثأر له. واعطاء شعري اليس معناه وعداً بنفسي؟ لماذا اذن احب أن أرتدي ثوباً ابيض؟ لان هذا كان يجعلني اعتقد بشكل افضـــل اني زنبقتك؛ اما شاهدتني هنا لأول مرة في ثوب ابيض؟ يا للأسف! لقد قلّ حبي لولديّ لأن كل محبة حارة تؤخذ على حساب المحبة الواجبة. اترى جيداً يا فليكس؟ ان لكل ألم معنى. اضرب، اضرب بشدة اكثر مما ضرب السيد دي مورتسوف وولداي. ان تلك المرأة هي اداة غضب الله. اريد ان اقترب منها دون حقد،

سأبتسم لها ؛ علي ان احبها تحت طائلة عقاب الا اكون مسيحية وزوجة واماً. واذا كنت استطيع المساهمة ، كما قلت ، في صيانة قلبك من الاحتكاك الذي اسقط زهوره ، فان هذه الانكليزية لن تكرهني. على المرأة ان تحب امّ من تحبه ، وانا امك . ماذا اردت ان آخذ من قلبك ؟ المكان الذي تركته السيدة دي فاندينيس فارغاً. اوه ! نعم ، كنت دائماً تشكو من برودي! نعم ، فأنا لست سوى امك . اغفر لي القساوات اللاإرادية التي بدت مني عند مجيئك ، لأن على الام أن تفرح حين تعلم ان ولدها محبوب ــ واسندت رأسها الى صدري وهي تردد :

ــ عفواً ، عفواً !

سمعت حينذاك لهجات مجهولة . لم يكن صوتها كفتاة بأنغامه المرحة ، ولا صوتها كامرأة ونهاياته المستبدة ، ولا زفرات الأم المتألمة ؛ كان صوتاً يمزق القلب ، صوتاً جديداً لآلام جديدة . وتابعت وقد انتعشت :

ــ اما انت يا فيلكس ، فانت الصديق الذي لن يعرف ان

يسيء. آه! انك لم تخسر شيئاً في قلبي، فلا تلم نفسك على شيء. ولن تكابد اي توبيخ ضمير. ان منتهى الانانية ان اطلب اليك تضحية ارحب الملذات في سبيل مستقبل مستحيل، لان هناك امرأة تركت اولادها، وتخلت عن طبقتها، وتنازلت عن الابدية لتذوقها. كم مرة وجدتك اكثر سمواً مني! كنت كبيراً ونبيلاً، اما انا فكنت صغيرة ومجرمة! لنمشِ، فهذا ما كتب علينا، فانا لا استطيع ان اكون لك سوى وميض مرتفع، متلألىء وبارد، لكنه لا يتغير. وكل ما اطلبه يا فليكس هو ان تعمل بشكل لا اكون فيه وحيدة في محبة الاخ الذي اخترته لنفسي. اغمرني باعزازك! فحب الاخت ليس له غد سيء ولا لحظات حرجة. لن تكون بحاجة الى الكذب على تلك النفس المتسامحة التي ستعيش بحياتك الجميلة، والتي لن تتخلى ابداً عن حزنها لآلامك، فتفرح لفرحك، وتحب النساء اللواتي يجعلنك سعيداً، وتغضب للخيانة. لم يكن لي اخوان لأحبهم هكذا. كن كبيراً لتعري نفسك من محبة الذات، ولتحل رباط محبتنا التي هي حتى الآن عرضة للشك، ومليئة بالزوابع، فتحل محلها تلك المحبة العذبة القدسية.

اني لا ازال استطيع ان اعيش هكذا . وسأكون الاولى التي تصافح يد الليدي ديدلي .

انها لم تكن تبكي وهي تلفظ هذه الاقوال المليئة بالمعرفة المرة، هذه الاقوال التي ارتني ، وهي تزيل آخر قناع كان يخفي نفسها وآلامها عني ، بكم من الروابط كانت مشدودة الي ، وكم من السلاسل المتينة قطعت . كنا في حالة من الهذيان بحيث لم نشاهد المطر الذي كان يتساقط سيولاً . قال الحوذي وهو يشير الى فندق بالان الرئيسي :

ـ الا تريد سيدتي الكونتس ان تدخل الى هنا لفترة ؟

فأشارت بالقبول ، وبقينا نصف ساعة تقريباً تحت قنطرة المدخل ، امام دهشة اصحاب الفندق الذين اخذوا يتساءلون عن سبب وجود السيدة دي مورتسوف على الطرقات في الساعة الحادية عشرة . اهي ذاهبة الى تور ؟ هل هي عائدة منها ؟ وحين هدأت الزوبعة وتحول المطر الى رذاذ لا يمنع القمر من ان ينير

الضباب المرتفع الذي يحمله الريح في الاعالي . وخرج الحوذي وعاد على الاثر ، فسررت جدًّا .

وصرخت فيه الكونتس بهدوء : نفذ امري .

اخذنا اذن طريق اراضي شارلمان البور حيث عاد المطر الى السقوط . وفي منتصف تلك الاراضي سمعت نباح كلب ارابيل المفضل ؟ وفجأة اندفع جواد من تحت سنديانة ، مجتازاً الطريق بوثبة ، وقفز فوق حفرة حفرها الملاكون لتمييز اراضيهم الخاصة في تلك الاراضي الموات التي يظنونها قابلة للحراثة ، واندفعت الليدي ديدلي لتقف حيث ترى العربة وهي تمر. وقالت هنرييت:

يا لها من لذة في ان ينتظر المرء حبيبه هكذا حين يكون ذلك مستطاعاً دون جريمة !

علمت الليدي ديدلي من نباح الكلب انني في العربة . وظنت انني آتٍ لابحث عنها بسبب سوء الطقس ! وحين وصلنا الى المكان الذي وقعت فيه المركيزة ، طارت الى جانب الطريق

بمهارة لا يتقنها الا الفارس ذهلت منها هنرييت ذهولها من اعجوبة . وبدافع الظرف لم تقل ارابيل سوى المقطع الاخير من اسمي ملفوظاً بالانكليزية . انه نوع من النداء كان له على شفتيها سحر جدير بجنية . كانت تعلم انه لا يجب ان يسمعها غيري وهي تهتف : « غزيزي »

وردت الكونتس وهي تتأمل تحت ضوء القمر الصافي هذه المخلوقة الخيالية التي كان وجهها المتعجل مصحوباً بضفائرها الطويلة المسبلة بشكل غريب :

ـ انه هو يا سيدتي .

انت تعلمين بأي سرعة تتفحص امرأتان احداهما الاخرى . لقد عرفت الانكليزية غريمتها وكانت انكليزية بفخر . فشملتنا بنظرة مليئة باحتقارها الانكليزي واختفت بين اشجار الخلنج بسرعة السهم .

وهتفت الكونتس التي وقعت على قلبها هذه النظرة الشرسة وقع ضربة فأس .

ـ الى كلوشيغورد بسرعة !

وعاد الحوذي ليأخذ طريق شينون الذي كان افضل من طريق ساشيه . وحين جانبت العربة الارض البور من جديد تناهى الى اسماعنا العدو الهائج لجواد ارابيل وخطى كلبها. لقد مر الثلاثة قريباً من الغابات من الناحية الاخرى لاشجار الخلنج . وقالت هنريت :

لقد ذهبت . لقد خسرتها الى الابد .

فأجبت : حسناً ، لتذهب ؛ ولن آسف عليها .

وهتفت الكونتس معبرة عن ذعرٍ رؤوم :

ـ اوه ! النساء المسكينات . ولكن الى اين تذهب ؟

ـ الى الفرينادييه ، وهو بيت صغير بالقرب من سان سير .

فتابعت هنريت بنبرة أثبتت لي ان النساء متضامنات في الحب ولا يستسلمن ابداً :

– لقد ذهبت وحدها .

حين دخلنا جادة كلوشيغورد نبح كلب ارابيل فرحاً وهو يركض الى امام العربة . فهتفت الكونتس :

لقد سبقتنا .

ثم تابعت بعد وقفة :

– لم ار امرأة اجمل منها . اي يدٍ واي قامة ! ان صبغتها تطمس الزنبقة ، ولعينيها بريق الماس . تمتطي الحصان جيداً ، كانها تحب ان تظهر قوتها ، واظنها عملية وعنيفة . ويبدو لي انها تضع نفسها بكثير من الجرأة فوق ما اصطلح الناس عليه : ان المرأة التي لا تعترف بالنواميس تكون مستعدة ألا تصغي الا الى نزواتها . واللواتي يحببن ان يلمعن كثيراً ، وان يتحركن ، محرومات من هبة رباطة الجأش . والحب ، وفقاً لافكاري ، يحتاج الى كثير من راحة البال : لقد تخيلته كبحيرة واسعة يبلغ المسبار قعرها ، تكون العواصف فيها عنيفة ولكنها نادرة ومحصورة

بحدود لا تتعداها ، وحيث يعيش كائنات في جزيرة ملأى بالزهور، بعيداً عن الناس، ينكد عليهما البريق والفخامة . لكن الحب يجب ان يأخذ طابع السجايا ، وقد اكون مخطئة . وما دامت مبادىء الطبيعة تلتوي باشكال تتكيف حسب المناخ فلماذا لا تكون العواطف المنتمية الى القانون العام لا تتناقض الا في التعبير فقط. لكل نفس اسلوبها. والمركيزة هي المرأة القوية التي تقطع المسافات وتعمل بقوة الرجل ، المرأة التي تنقذ حبيبها من الاسر وتقتل السجانين والحرس والجلادين ؛ بينما هناك مخلوقات لا تعرف الا ان تحب بكل نفسها ؛ يركعن عند الخطر ، ويصلين ، ويمتن . اي من المرأتين تعجبك اكثر. هذه هي المسألة كلها . لكن نعم ، فالمركيزة تحبك ، وقد قامت بعدة تضحيات في سبيلك ! ربما هي التي ستحبك دائماً بينما انت لا تحبها ابداً .

ـ اسمحي لي ، يا ملاكي العزيز ، ان اعيد ما قلت لي ذات يوم : كيف تعرف هذه الامور ؟

ـ ان لكل ألم درسه ، وقد تألمت بسبب كثير من الامور فاصبحت معرفتي واسعة .

كان خادمي قد سمع الاوامر المعطاة فظن اننا عائدون من طريق السطيحة ، فأمسك بجوادي جاهزاً في الجادة. واشتم كلب ارابيل رائحة الجواد ، وتبعته صاحبته ، مقادةً بفضول مشروع ، خلال الغابات حيث كانت مختبئة دون شك .

قالت هنرييت وهي تبتسم دون ان تظهر الكآبة :

– إذهب وصالحها وقل لها كم كانت مخطئة في فهم مقاصدي ، كنت أريد ان أكشف لها عن ثمن الكنز الذي انتهى اليها صدفة ! فقلبي لا يشتمل الا على عواطف طيبة نحوها وليس فيه اي غضب او احتقار ؛ اشرح لها انني اختها ولست غريمتها .

فصرخت : لن اذهب أبداً .

فقالت بكبرياء الشهداء الساطعة :

– أما شعرت أبداً ان بعض التصرفات تصل الى حد الاهانة ؟ اذهب ، اذهب .

وركضت حينئذٍ نحو الليدي ديدلي لأرى في أية حالة كانت . وقد فكرت قائلًا : ـ اذا استطاعت ان تغضب وتتركني فسأعود الى كلوشيغورد ـ وقادني الكلب الى تحت سنديانـــة حيث اندفعت المركيزة صارخة بي : « بعيداً ! ... بعيداً ! » وكل ما استطعت عمله هو اني تبعتها حتى سان سير ، وقد دخلناها عند منتصف الليل .

قالت لي أرابيل وهي تترجل :

ـ ان هذه السيدة بصحة جيدة .

إن الذين يعرفونها يستطيعون وحدهم تخيل السخريات التي انطوت عليها هذه الملاحظة التي القيت بنشوفة في الهواء والتي كانت تعني ـ أما انا فسوف اموت .

اجبتها :

اني امنعك من المجازفة باحدى دعاياتك المثلثة السهام عـن السيدة دي مورتسـوف .

ايغيظ سموك ملاحظة الصحة التامة التي يتمتع بها كائن عزيز علـــى قلبك الثمين ؟ يقال ان النساء الفرنسيات يكرهن حتى كلاب عشاقهن ؛ اما في انكلترا فاننا نحب كل ما يحب اسيادنا المالكون ، ونكره ما يكرهون لاننا نعيش في جلود اسيادنا . اسمح لي اذن ان احب هذه السيدة بقدر ما تحبها ، فقط يا ولدي العزيز ـ قالت ذلك وهي تطوقني بذراعيها المبللين بالمطر ـ اذا كنت تخونني فلن أكون واقفة ولا نائمة ، ولا في عربة محصنة بالخدم ، ولا اتنزه في أراضي شارلمان ، ولا في أرض بور في أي بلاد ، في اي عالم ، ولا في سريري . انني ولدت في لانكشير ، في البلاد التي تموت النساء فيها من الحب. أأعرفك وأتخلى عنك ! لن أتخـــلى عنك الى اية قوة ، حتى ولا للموت ، لانني سأذهب اليه معك .

وسارت بي الى غرفتها حيث الرفاهية بسطت متعها . قلت لها بحرارة :

يجب أن تحبيها يا عزيزتي لانها تحبك ، ليس بشكل ساخر ، بل بصدق .

– بصدق يا صغيري ؟

قالت ذلك وهي تحمل رباط بدلة الفارسة .

كنت أريد ، بزهو العاشق ، ان أكشف عن سجية هنرييت لتلك المخلوقة الفخور . وبينما كانت وصيفتها التي لا تعرف كلمة فرنسية ترتب لها شعرها ، حاولت أن أرسم صورة للسيدة دي مورتسوف ، واصفاً خطوط حياتها ، ورددت الافكار العظيمة التي أوحتها اليها الأزمة حيث تصبح كل النساء صغيرات ورديئات ومع ان أرابيل بدت وكأنها لم تعرني أقل انتباه فلم تفتها كلمة من اقوالي .

قالت حين امسينا وحدنا :

– انا مسرورة لمعرفتي ذوقك حول هذه الانواع من المحادثات المسيحية ؛ وهناك في احدى أراضيّ نائب اسقفي كان ماهراً في تأليف المواعظ ، وكان فلاحونا يفهمونها ما دام هذا النثر ملائماً للمستمع . سأكتب غداً الى أبي ليرسل الي هذا الرجل

بالسفينة وستجده في باريس ؛ وحين تسمعه مرة لا تعود تريد ان تسمع احداً غيره ، وفضلاً عن ذلـك فهو يتمتع بصحة جيدة ؛ واخلاقيته لن تسبب لك تلك الهزات التي تدفع للبكاء . انها تسيل دون عاصفة كينبوع صافٍ ، وتسبب نوماً لذيذاً . وفي جميع الامسيات ، اذا راقك ذلك ، سترضي شوقك الى المواعظ وأنت تلتهم طعامك . ان الاخلاقية الانكليزية يا ولدي العزيز متفوقة على اخلاقية التورين كما ان سكاكيننا وفضياتنا وخيولنا متفوقة على سكاكينهم وبهائمهم . اصنع معي جميلاً واستمع الى نائبي الاسقفي، أتعدني بذلك؟ انا لست سوى امرأة، يا غرامي، واعرف ان احب، واستطيع الموت في سبيلك اذا أردت ذلك، ولكني لم أدرس في ايتون ولا في اكسفورد ولا في إدمبورغ ؛ ولست دكتوراً ولا حاصلة على لقب « المحترم » ؛ إذن انا لا اعرف ان أعد لك الاخلاقيات فأنا غير صالحة فيها أبداً ، ولو حاولت لأصبحت في نهاية الحمق . اني لا ألومك على أذواقك ، وسيصبح لك منها ما هو اكثر فساداً. سأحاول الخضوع لها لأني أريد ان تجد بقربي كل ما تحب ، لذائذ الحب، لذائذ المائدة ، لذائـــذ

الكنيسة ، متعة طيبة وفضائل مسيحية. أتريد ان ارتدي المسوح هذا المساء ؟ سعيدة جداً تلك المرأة التي تطعمك الاخلاق ! في اية جامعة يحصل النساء الفرنسيات على رتبهن ؟ مسكينة أنا لا استطيع سوى ان اعطي نفسي ، فما انا سوى عبدة لك . . .

ـ اذن لماذا هربت حين كنت اريد ان اراكما معاً ؟

ـ أمجنون انت ماي دي ؟ اني اذهب من باريس الى روما متنكرة بزي خادم ، وأفعل لاجلك ابعد الامور عن العقل ، ولكن كيف استطيع ان اتكلم على الطرقات مع امرأة لم تقدم الي وتبدأ حديثها بموعظة ذات ثلاث نقاط ؟ اني اتحدث مع فلاحين ، وأسأل عاملاً ان يقاسمني خبزه اذا كنت جائعة ، واعطيه بعض التقدير ، وكل هذا يكون معقولاً . اما ان اوقف عربة كما يفعل نبلاء الطرقات في انكلترا ، فهذا ليس في قانوني الخاص. اذن فأنت لا تعرف الا ان تحب ايها الولد المسكين ؛ الا تعرف اذن ان تعيش ؟ ومع ذلك فاني لا اشبهك تماماً بعد يا ملاكي ! اني لا احب الاخلاقيات، لكني قادرة على بذل اكبر

الجهود لأرضيك. هيا، اسكت ، سانصرف الى ذلك ، وساسعى لاصبح واعظة . ولن يكون أرميا[1] بعد قليل سوى مهرج . ولن اسمح لنفسي بمداعبات دون ان ادخل فيها آيات من التوراة .

لقد استعملت مقدرتها ، وافرطت في استعمالها مذ رأت في نظرتي ذلك التعبير المحتدم الذي يرتسم فيها حين يبدأ سحرها . لقد انتصرت في كل شيء ، ووضعت بشيء من الملاطفة فوق المحاولات الكاثوليكية عظمة المرأة التي تتلاشى ، وتتخلى عن المستقبل وتجعل كل فضيلتها في الحب . وقالت لي :

ـ اذن فهي تحب نفسها اكثر مما تحبك ؟ وهي اذن تفضل عليك شيئاً ليس انت ؟ كيف نعلق على ما هو منا اهمية اخرى غير تلك التي تبجلها ؟ ما من امرأة ، مهما كانت واسعة العلم بالاخلاق، تستطيع ان تكون نظير الرجل . سيروا على اجسادنا،

(١) احد انبياء اسرائيل الاربعة .

اقتلونا، ولا تقلقوا وجودكم بنا . لنا ان نموت ولكم ان تعيشوا كباراً فخورين . الخنجر منكم لنا ، والحب والغفران منا لكم . هل تنزعج الشمس من الذباب في أشعتها وهي تعيش بها ؟ يعيش الذباب بقدر ما يستطيع ، وحين تختفي الاشعة يموت .

قلت مقاطعاً :

– او يطير .

اجابت بلامبالاة تلدغ اجرأ الرجال في استعمال سلطة خارقة قلدته هي إياها :

– نعم انه يطير . اتعتقد من اللائق بالمرأة ان تجعل رجلاً يلتهم خبزاً مدهوناً بسمن الفضيلة لتقنعه ان الدين مناقض للحب؟ وهل انا كافرة اذن؟ اما يكون استسلام واما رفض، لكن الرفض والتمسك بالاخلاق همٌّ مزدوج ، وهذا مخالف لحق جميع البلدان. هنا لن تحصل الا على «سندويش» فاخر عنعته لك يد خادمتك ارابيل التي ستكون كل الاخلاقيات عندها ان تتخيل مغازلات لم يشعر بها انسان بعد وتوحيها الملائكة الي .

لا اعرف شيئاً اكثر ذوباناً من دعابة تمارسها امرأة انكليزية، فهي تضع فيها ذرابة اللسان الجدية، واللهجة المتيقنة الفخمة التي يغطي الانكليز تحتها الغباوات العالية لحياتهم المخططة مسبقاً. اما الدعابة الفرنسية فمخرمات (دانتيل) تعرف النساء ان تزخرف بها السرور الذي تسببه والمشاجرات التي تفتعلها ؛ انها زينة معنوية ظريفة كزينتهن . لكن الدعابة الانكليزية حامض «أسيد» يأكل الكائنات التي يقع عليها كلياً ويجعل منها هياكل عظمية مغسولة ومفرشاة . ولغة المرأة الانكليزية الروحانية تشبه لغة نمر ينتزع اللحم حتى العظم وهو يلعب . انه سلاح بطاش لشيطان يقول وهو يضحك : «أليس الا هذا ؟» والسخرية تترك سماً قاتلاً في الجراح التي تفتحها بقصد السرور . وقد ارادت ارابيل في هذه الليلة ان تظهر مقدرتها كسلطان يتسلى بقطع اعناق الابرياء ليظهر مهارته . وقد قالت لي حين غطستني في إغفاءة ينسى فيها المرء كل شيء الا السعادة :

– لقد قمت يا ملاكي بعمل شيء من الاخلاق . سألت نفسي هل ارتكبت جريمة بحبتي اياك ، هل انتهكت حرمة القوانين

الالهية فوجدت ان ليس هناك ما هو اكثر دنية ولا اكثر طبيعية من ذلك . لماذا خلق الله كائنات اجمل من غيرها لو لم يكن يريد ان يدلنا عليها لنعبدها؟ هناك جريءة في ان لا احبك ، ألست معبوداً ؟ لقد اهانتك تلك السيدة اذ مزجتك مع غيرك من الرجال ، وقواعد الاخلاق لا تطبق عليك . ان الله وضعك فوق الجميع ، اليس اقترابك منه هو لأنه يحبك ؟ أيستطيع ان يكره امرأة مسكينة لأنها فقدت شهيتها للاشياء الالهية ؟ ان قلبك الواسع الساطع يشبه كثيراً السماء التي خدعت بها كالذباب الذي يأتي ليحترق بشموع احد الاعياد ! هل تعاقب هذه الحشرات على ضلالها ؟ ومع ذلك فهل هذا ضلال ؟ اليس عبادةً سامية للنور ؟ انها تهلك بكثير من التدين اذا دعونا الارتماء على عنق من تحب هلاكاً . انها ضعيفة بحبك بينما لتلك المرأة من القوة ما يبقيها في كنيستها الكاثوليكية ! لا تعبس ! اتظن اني اكرهها ؟ كلا يا صغيري ! اني أعبد أخلاقيتها التي اشارت عليها بان تتركك حراً فأتاحت لي ان استولي عليك ، واحتفظ بك الى الابد ؛ لأنك لي دائماً ، اليس كذلك ؟

– نعم .

– الى الابد ؟

– نعم .

– اتتكرم عليّ بمنة ايها السلطان ؟ انا وحدي كنت اعرف قيمتك . قلت انها تعرف ان تزرع الاراضي ؟ اما انا فأترك هذا العلم للفلاحين ، وأفضل ان احب زراعة قلبك .

اني احاول ان اتذكر هذه الثرثرات المسكرة لأصور لك هذه المرأة جيداً ، وأبرز ما قلته لك عنها . وبهذا اطلعك على سر الخاتمة كله . ولكن كيف اصف لك ما رافق هذه الاقوال الجميلة التي تعرفينها ! انها جنونيات شبيهة بأغرب أوهام احلامنا ؛ فأحياناً مبتكرات شبيهة بمبتكرات باقاتي : يتحد فيها الظرف مع القوة ، والحنو وتمهله الحائر مقابل غارات الهياج البركانية ؛ واحياناً تدرجات ارق الموسيقى مطبقة في حفلة لذاتنا ؛ ثم العاب شبيهة بالعاب افاعي مشتبكة ، واخيراً اكثر الاحاديث دعابة

محلاة باكثر الأفكار اضحاكاً، وكل ما تستطيع الروح ان تضيف من شاعرية الى لذات الحواس. كانت تريد ان تلاشي تحت صعقة حبها العنيف تلك الانطباعات التي تركتها في قلبي روح هنرييت الطاهرة المتبصرة. كانت المركيزة قد شاهدت الكونتس جيداً مثلما شاهدت السيدة دي مورتسوف المركيزة. واجادت الاثنتان الحكم. وقد كشفت لي شدة الهجوم الذي قامت به ارابيل عن مدى خوفها واعجابها الخفي بغريمتها. وقد وجدتها في الصباح دامعة العينين، لم تنم، فقلت لها:

— ما بك؟

فأجابت:

— اني خائفة ان ينالني اذى من حبي العظيم. لقد اعطيت كل شيء. وتلك المرأة الاكثر استقامة مني تملك في شخصها شيئاً قد تتمناه انت. اذا كنت تفضلها علي فلا تفكر بي. اني لن ازعجك بآلامي، بتوبيخ ضميري، بعذابي؛ كلا. سأذهب وأموت بعيداً عنك كغرسة بدون شمسها المحيية.

كانت تعرف كيف تنتزع مني تصريحات حب تملأها فرحاً. وبالفعل ، ماذا أقول لامرأة تبكي في الصباح؟ ان القساوة بدت لي معيبة حينذاك ، فاذا لم نقاومها في السهرة فلسنا مضطرين في الصباح الى الكذب لأن قانون الرجل يفرض الكذب علينا في المغازلة .

قالت وهي تمسح دموعها :

ــ هيه ! لا بأس ، أنا كريمة . عد اليها ، فأنا لا أريد أن أفرض حبي عليك بالقوة ، بل أريده بملء ارادتك . واذا رجعت الى هنا فسأعتقد انك تحبني اكثر مما احبك ، وهذا يبدو لي مستحيلاً .

لقد عرفت كيف تغريني بالعودة الى كلوشيغورد . ولا يمكن لرجل متخم بالسعادة ان يستشف زيف الوضعية التي تنتظرني . برفضي الذهاب الى كلوشيغورد أجعل قضية الليدي ديدلي رابحة على هنريت ، عندئــــذٍ تسير بي ارابيل الى باريس . ولكن الا يعني ذهابي اليها اهانة للسيدة دي مورتسوف؟ في هذه الحالة

علي ان اعود مع ارابيل . وهل تغفر المرأة جنايات كهذه على الحب؟ فالمرأة العاشقة تفضل رؤية حبيبها يتعذب ، على وشك الموت ، على رؤيته سعيداً مع امرأة أخرى الا إذا كانت ملاكاً هابطاً من السماء ، وليس الروح المطهرة التي تعود اليها ؛ فكلما ازداد حبها يتسع جرحها . هكذا نُظرتْ وضعيتي من وجهيها، وذهابي من كلوشيفورد إلى غرينادير يكون ايضاً مميتاً لغرامياتي المختارة بقدر ما هو مفيد لغراميائي العابرة ، لقد حسبت المركيزة كل شيء بعمق مدروس ، واعترفت لي فيما بعد بأنها لو لم تلتق السيدة دي مورتسوف في تلك الارض البور لأحرجت مركزي بطوافها حول كلوشيفورد .

حين اقتربت من الكونتس التي رأيتها شاحبة ، صريعة ، كشخص أصيب بنوبات أرق قاسية ، استعملت حالًا ، ليس اللمس ، بل الاشتمام الذي يجعل القلوب التي لا تزال فتية وكريمة أن تشعر بمدى هذه الافعال ، التافهة بنظر الدهماء ، والمجرمة حسب شريعة النفوس العظيمة . وادركت على الفور ان عالماً بكامله قد فصل بيننا ، كولد سقط في هاوية ، وهو يلعب ويقطف

الزهور ، فرأى بكثير من القلق ان الصعود مستحيل عليه ، وعاد لا يشاهد التراب البشري الا من مسافة لا يمكن اجتيازها، فشعر انه وحده في الليل يسمع العواء الوحشي. وحدثت في نفسينا ضجة شديدة كدوي «ها قد تم كل شيء» التي يُصرخ بها في الكنائس نهار الجمعة العظيمة ، وفي الساعة التي تفيض فيها روح المخلص ، انه مشهد فظيع يجمد النفوس الفتية التي تعتبر الدين حبها الاول ! لقـــد ماتت جميع اوهام هنرييت بضربة واحدة ، وتعذب قلبها بسبب عاطفة . وهي ، المحترمة جداً من اللذة التي لم تشبكها ابداً بعطاويها المخدرة، هل ادركت اليوم لذات الحب السعيد لتمنع عني نظراتها ؟ لأنها سحبت من النور الذي اضاء حياتي منذ ست سنوات . هـــل عرفت ان ينبوع الاشعة المنسكبة من عيوننا كان في نفسينا تستعملانه كطريق لتدخل الواحدة منهما الى الاخرى او لتمتزجا في نفس واحدة، فتنفصلان ، وتلعبان كامرأتين غير حذرتين تتحدثان بكل شيء؟ شعرت بكثير من المرارة بالخطأ الذي ارتكبته حين أتيت بوجه بذرت فيه اجنحة اللذة غبارها المختلف الالوان، الى تحت

هذا السقف الذي تجهله المغازلات . لو تركت الليدي ديدلي تذهب بمفردها في السهرة ، ولو رجعت الى كلوشيغورد حيث انتظرتني هنرييت ، لربما تقترح علي السيدة دي مورتسوف بهذا الجفاء ان تكون اختاً لي. لقد وضعت على جميع ملاطفاتها زهو قوةٍ مفرطة ، ودخلت في دورها بقوة لكي لا تخرج منه . لقد احاطتني بكثير من العناية اثناء الفطور ، عناية مهينة ، عنايتها بمريض تشفق عليه . قال لي الكونت :

– لقد قمت بنزهتك باكراً ، اذن يجب أن تكون شهيتك ممتازة ، أنت ذو المعدة غير المخربة .

هذه العبارة التي لم تجتذب الى شفاه الكونتس ابتسامة الاخت المختالة جعلتني اشعر بوضعيتي المضحكة . فقد كان مستحيلاً ان أكون في كلوشيغورد نهاراً وفي سان سير ليلاً . وارابيل اعتمدت على دقتي وعلى كبرياء السيدة دي مورتسوف . وادركت في ذلك النهار الطويل كم يصعب ان اصبح صديقاً لامرأة اشتهيتها زمناً طويلاً . وهذا التحول الكثير البساطة حين

تعده السنون هو مرض في ميعة العمر . اني لا استطيع ان امزق لهـــا غريمتها باسناني . وكانت تتجنب الحديث عنها، فاغتياب ارابيل كان عيباً يجعلني احتقر هنرييت البديعة النبيلة حتى آخر خفايا قلبها . بعد خمس سنوات من الالفة اللذيذة لم نكن نعرف عما يجب ان نتكلم ؛ كلامنا لا يتجاوب مع افكارنا ، ويخفي احدنا عن الآخر آلاماً آكلة ، نحن الذين كان لنا الالم ترجماناً مخلصاً . تظاهرت هنرييت بالسعادة لاجلها ولأجلي ؛ لكنها كانت حزينة . ورغم ادعائها في كل مناسبة انهـــا اختي ، ورغم انها امرأة ، فانها لم تجـــد اية فكرةٍ لبدء الحديث ، وظللنا معظم الوقت في صمت مرغم . لقد زادت من عذابي الداخلي متظاهرة بالاعتقاد انها الضحية الوحيدة لتلك الليدي. قلت لها في لحظة اطلقت الاخت فيها سخرية نسائية بحتة :

ــ اني اتعذب اكثر منك .

ــ كيف ؟

قالتها بتلك النبرة المتعالية التي تستعملها النساء حين يشعرن ان هناك من يريد التفوق على احساسهن .

ــ ولكن لي جميع الاخطاء.

وكانت لحظة اتخذت الكونتس فيها حيالي هيئة باردة حطمتني ؛ فعزمت على الرحيل . وفي المساء على السطيحة ودعت العائلة مجتمعة . وتبعني الجميع الى ملعب الكرة حيث كان حصاني يفحص الارض بقائمتيه فابتعدوا عنه . وجاءت الي حين اخذت الزمام وقالت :

ــ لنسر وحدنا ماشيين في الجادة .

فأعطيتها ذراعي وخرجنا من المنتزه سائرين بخطى بطيئة ، كأننا نتذوق حركاتنا المختلطة . حتى بلغنا اضمامة من الاشجار تغلف السور الخارجي . قالت وهي تقف وتلقي رأسها على قلبي وذراعيها حول عنقي :

ــ وداعاً يا صديقي ، وداعاً ، فلن نلتقي أبداً ان الله منحني القدرة الحزينة على التطلع الى المستقبل . الا تذكر الخوف الذي استولى علي يوم عدت وقد ازداد جمالك وشبابك ! ورأيتك

تدير لي ظهرك كما تفعل اليوم وانت تترك كلوشيغورد لتذهب الى غريناديير؟ هيه! فقد حدث ذلك مرة اخرى ايضاً اذ استطعت اثناء هذه الليلة ان القي نظرة على مصائرنا. اننا نتحدث يا صديقي في هذه اللحظة لآخر مرة ولا استطيع ان اقول لك بعض الكلمات الا بالجهد، لأنني لن اكون بكليتي أكلمك، فالموت اتلف شيئاً ما في نفسي. كنت قد خطفت من اولادي امهن، فخل محلها الى جانبهم! اتستطيع ذلك! ان جاك ومادلين يحبانك كأنك تسبب لهما الآلام دائماً.

فقلت وقد هالني ان انظر اليها وارى النار الجافة في عينيها اللامعتين بحيث لا يمكن اعطاء فكرة لمن لم يعرفوا كائنات عزيزة اصيبت بهذا المرض المخيف الا بان يقارنوا عينيها بكرتين فضيتين قد تلونتا بالسمرة:

— الموت!... الموت يا هنرييت، اني آمرك ان تعيشي. لقد طلبت مني في السابق ان اقسم لك. واني اليوم اطلب منك ان تقسمي لي قسماً واحداً. اقسمي لي بان تستشيري اوريجه وان تطيعيه في كل شيء.

فقالت تقاطعني بصرخة يأس ساخطٍ لانه لم يُعرف :

ــ اتريد اذن ان تعارض رحمة الله ؟

ــ اذن فانت لم تحبيني حباً كافياً يجعلك تطيعينني بدون تبصر في كل شيء كتلك الليدي البائسة .

ــ نعم ، كل ما تريد .

قالت ذلك مدفوعة بغيرة جعلتها في لحظة تجتاز المسافات التي كانت تتهيبها حتى الآن . قلت وانا اقبل عينيها :

ــ اني باقٍ هنا .

فهالها هذا القبول، وافلتت من ذراعيّ وراحت تستند الى شجرة ، ثم عادت الى البيت مسرعة دون ان تلتفت ، فتبعتها . كانت تبكي وتصلي . وحين وصلت الى ملعب الكرة اخذت يدها وقبلتها باحترام ، لقد اثر بها هـذا الخضوع غير المنتظر . قلت لها :

ـ اني لك مهما يكن الامر، لاني احبك كما كانت خالتك تحبك.

فارتجفت وهي تشد بقوة على يدي. قلت:

ـ نظرة واحدة ايضاً من نظراتك القديمة.

ثم هتفتُ حين شعرتُ بروحي وقد انيرت بتلك النظرة التي القتها علي:

ـ ان المرأة التي تستسلم بكليتها تمنح من الحياة والروح اقل مما تلقيت منك. هنرييت، انت المحبوبة الكبرى، المحبوبة الوحيدة.

فقالت: سأعيش! ولكن إشف نفسك ايضاً.

لقد محت هذه النظرة تأثير سحر ارابيل. اذن فقد كنت لعبة عاطفتين لا يمكن التوفيق بينهما، وقد وصفتها لك واشعر بتأثيرها دوريًّا. لقد احببت ملاكاً وشيطاناً، امرأتين جميلتين

كلتاهما ؛ تتحلى احداهما بجميع الفضائل التي تجعلنا نموت حقداً على عدم كمالنا ، وتشتمل الاخرى على جميع العيوب التي نحذرها بدافع الانانية . وبينما كنت اطوف في تلك الجادة التي كنت اعود اليها بين الفينة والفينة لأرى السيدة دي مورتسوف مستندة الى شجرة يحوطها ولداها اللذان كانا يلوحان بمنديلهما ، فاجات حركة كبرياء في نفسي لأني الحكم بين مصيرين ، ولأني المجد ذو الالقاب المختلفة لامرأتين نبيلتين ، ولأني اوحيت عواطف عظيمة لو غدرت بها لأتى الموت من كل جهة . هذا الاختيال العابر عوقبت عليه عقاباً مزدوجاً . صدقي ذلك ! لا ادري اي شيطان كان يقول لي ان انتظر بقرب ارابيل الى ان يُسلم الي هنرييت بعض اليأس او موت الكونت ، فهنرييت تحبني دائماً لأن قساواتها ، ودموعها ، وتوبيخات ضميرها ، وخضوعها المسيحي كانت كلها آثاراً ظاهرة لعاطفة لا يمكن محوها من قلبها ولا من قلبي . حين خطوت في هذه الجادة الجميلة ، وخطرت لي هذه الافكار لم اكن تجاوزت الخامسة والعشرين ، وكأني كنت في الخمسين . اليس ذلك كالمرأة التي تقفز في لحظة واحدة من الثلاثين الى الستين ؟

ومع اني طردت هذه الافكار السيئة بنفخة فانها لازمتني ، وعلي أن اعترف بذلك ! ويمكن أن يعزى السبب الى ان مبدأها كان موجوداً في التويلري تحت سقف الغرفة الملكية . ومن يستطيع مقاومه روح لويس الثامن عشر الفاسقة ، هو الذي كان يقول ليس عشق حقيقي الا في العمر الناضج ، لأن العشق ليس جميلًا ولا مفرطاً الا حين يمتزج بالعجز فيجد حينئذٍ في كل لذة ما يجده المقامر في لعبته الاخيرة ؟ حين اصبحت في نهاية الجادة التفت ، واجتزتها بلمحة عين حين رأيت هنرييت لا تزال فيها ، وحدها ! لقد جئت اودعها وداعاً اخيراً مبللًا بدموع تكفيرية كان سببها مخفياً عنها ، دموع صادقة ، ممنوحة دون ان تعلم لذلك الحب الجميل المفقود الى الابد ، لتلك التأثرات العذراء ، لزمرات العمر التي لن تنبت ابداً بعد ؛ لان الرجل فيما بعد لا يعطي ابداً بل يأخذ ؛ انـــه يحب نفسه في عشيقته ؛ بينما في مقتبل العمر يحب عشيقته في نفسه : فيما بعد نلقح اذواقنا ، وربما عيوبنا ، بالمرأة التي تحبنا ؛ بينما في بدء الحياة فان التي نحبها تفرض علينا فضائلها، ورقتها ؛ انها تدعونا بابتسامة الى كل ما هو جميل ، وتعلمنا التفاني

بان تجعل من نفسها مثلًا لنا . الشقاء لمن لم يكن له مثل هنرييت! الشقاء لمن لم يعرف مثل الليدي ديدلي! فاذا ما تزوج فان هذه لن ترعى زوجته، وتلك يمكن ان تصبح مهملةً من عشيقته . ولكن السعيد من يستطيع ايجـــاد الاثنتين في واحدة! سعيد يا ناتالي الرجل الذي تحبينه !

عند عودتنا الى باريس اصبحنا ، ارابيل وانا ، اكثر وداً مما كنا في الماضي وما لبثنا ان ابطلنا بشكل لا شعوري مفعول قوانين اللياقة التي فرضتها على نفسي ؛ وحيث الملاحظة الدقيقة غالباً ما تجعل الناس يغفرون خطأ الوضعية التي وضعت الليدي ديدلي نفسها فيها . والعالم الذي يجب كثيراً ان ينفذ الى ما وراء الظواهر ، لا يلبث ان يجعلها شرعيـةً حين يعرف السر الذي تغطيه . والعشاق المجبرون عـــلى العيش بين الطبقة العالية من الناس يخطئون دائماً في ازالة الحواجز التي تتطلبها شريعـــة الصالونات . خطأ في عدم الانصياع بدقة الى جميع القوانين التي تفرضها العادات ؛ فالامر اذن يتعلق بالآخرين اكثر مما يتعلق بهم . فالمسافات التي يجب اجتيازها ، والاحترام الخارجي الذي

يجب الاحتفاظ به ، والمهازل التي يجب تمثيلها ، والغموض الذي يجب اظلامه ، كل هذه الستراتيجية للحب السعيد تشغل الحياة، وتجدد الرغبة ، وتحمي قلبنا من استرخاءات العادة . ولكن العواطف الاولى ، وهي مسرفة في اساسها ، تشبه الشبان الذين يقطعون غاباتهم نهائياً بدلًا من تنظيمها . وارابيل لم تكن تتبنى هـــذه الافكار البرجوازية ، لكنها كانت تنحني لها لترضيني ؛ وكالجلاد الذي يوسم فريسته مسبقاً ليستولي عليها كانت تريد تشويه سمعتي في وجـــه باريس كلها لتجعل مني « تابعها » . واستعملت ايضاً كل غنجها لتبقيني عندها لانها لم تكن مسرورة من حادثها الانيق الذي لم يشجع سوى الوشوشات تحت المروحة بسبب عدم وجود الادلة . وكيف لا اؤمن بحبها حـــين اراها سعيدة بارتكاب حماقـــة ترسم وضعيتها بصدق؟ واستولى علي اليأس حين رأيت نفسي غاطساً في حلاوات زواج محـــرم لاني كنت ارى حياتي قد توقفت بعكس الافكار المتلقاة من هنرييت ووصاياها . وعشت آنذاك في نوع من الهيـــاج الذي يصيب المصدور الذي لا يريد ، وقد حانت منيته ، ان يُسأل

عن الصوت الذي يحدثه تنفسه. لقد كان في قلبي زاوية لا استطيع الانسحاب منها دون عذاب؛ وهناك روح تطالب بالثأر ما فتئت تلقي الي بافكار لم اكن اجرؤ على ان اثقل نفسي بها. وكانت رسائلي الى هنرييت تصور هذا المرض المعنوي وتسبب لها ألماً لا ينتهي. قد قالت لي في الجواب الوحيد الذي تلقيته منها: «انها كانت تريدني سعيداً على الاقل مقابل تلك الكنوز الكثيرة الضائعة!» ولم اكن سعيداً! ان السعادة مطلقة يا عزيزتي ناتالي فهي لا تتأذى من المقارنات. اما وقد مضت حرارتي الاولى، فقد قارنت بالضرورة مني هاتين المرأتين قد خبرت التناقض الذي لم استطع بعد ان ادرسه. وبالفعل فان كل حب كبير على طبعنا فيكبح فيه الخشونات اولاً ويغالي في اثر العادات التي تؤلف اخطاءنا او مزايانا؟ لكن ملامح المحيا الاخلاقية تعود الى الظهور عند عاشقين تآلفا؛ فيقاضي كل منهما نفسه، وتنكشف في الغالب اثناء مناقضة الطبع للعاطفة منافرات غريزية تهيء هذه الانشقاقات التي يتسلح بها السطحيون ليتهموا القلب البشري بعدم الاستقرار. هذه الحقبة قد بدأت، وبعد ان

خفّت غشاوة الاغواءات عن عيني وجزأتُ لذتي اذا صحّ القول ، باشرت لحصاً ، دون ان اريــــد تقريباً ، ألحق الاذى بالليدي ديدلي .

وجدت لها اولاً الروح التي تميز المرأة الفرنسية بين جميع النساء وتجعلها ألذ امرأة تحب ، وفقاً لاعـــتراف اناس جعلتهم ظروف حياتهم يختبرون اساليب الحب في كل بلد . فحين تحب الفرنسية تتحول ؛ وتستعمل غنجها ، الذي نال كـــثيراً من الاطراء في تزيين حبها ؛ وتضحي بزهوها الكثير الخطر ، وتضع كل اعجابها بنفسها في ان تحب جيداً . انها تقترن بمصالح حبيبها واحقاده وصداقاته ؛ وتكتسب في يوم واحد حيل رجل الاعمال المجربة ، وتدرس القانون ، وتفهم التدابير الموصلة الى الحظوة ، وتجذب صندوق صاحب مصرف ؛ ومع انها طائشة ومتلاف فلا ترتكب اي غلطة ولا تبـــذر اي ليرة ؛ انها تصير اماً ومدبرة وطبيباً معاً ، وتكسب جميـــع تغييراتها طلاوة من السعادة تكشف عن حب لا نهائي في اخف التفاصيل ؛ انها تجمع المزايا الخاصة التي توصي نساء كل بلد ، باعطائها هـــذا المزيج وحدةً

بالروح ، بهـــذا البذار الفرنسي الذي يحيي ، ويسمح ، ويبرر ، وينوع كل شيء ويهدم رتابـة عاطفة مستندة الى الزمن الاول لفعل واحد. ان المرأة الفرنسية تحب دائمـــاً دون انقطاع ولا تعب ، وفي كل لحظة ، بين الناس وحين تكون وحـدها ؛ فبين الناس تستعمل نبرة لا تطن الا في اذن واحدة ، وتتكلم حتى بصمتها ، وتعرف ان تنظر اليك وعيناها منخفضتان ؛ واذا منعتها المناسبة من الكلام والنظر فانها تستعمل الرمل الذي ينطبع قدمها عليه لتكتب فكرة ؛ انهـــا الوحيدة التي توضح عاطفتها حتى اثناء النوم ؛ واخيراً فهي تخضع العالم بحبها ، اما الانكليزية فعلى النقيض ، فهي تخضع حبها للعالم. انهـا ، وهي المعتادة بسبب تربيتها على الاحتفاظ بتلك العادة الباردة ، بذلك الوقار البريطاني الكثير الانانية الذي حدثتك عنه ، تفتح وتغلق قلبها بسهولة آلة انكليزية. انها تملك قناعاً كثيفاً تضعه وتنزعه ببرودة ؛ وهي عاطفية كامرأة ايطالية حين لا تراها عين ، وتصبح وقورة ببرودة حالما يتدخل الناس ، والرجل المحبوب جداً يشك بسيطرته حين يرى السكون العميق في الوجه ، وهدوء الصوت ،

والحرية التامة في الحزم الذي يميز انكليزية خارجة من بهوها . في تلك اللحظة تصل المراءاة الى حد اللامبالاة ، فالانكليزية نسيت كل شيء. والمرأة التي تعرف ان تلقي حبها كما تلقي ثوبها تبعث على الظن انها تستطيع تبديله . اي عواطف اذن ترفع امواج القلب حين يحركها حب الذات المجروح لرؤية امرأة تأخذ الحب ، وتقاطعه ، وتستعيده كقطعة نسيج في اليد ! ان نساء كهؤلاء ، يملكن انفسهن لا يكنّ لكم ؛ وهن يؤثرن كثيراً في الناس لكي لا يكن تملكنا كاملًا . فهنا ، حيث المرأة الفرنسية تؤاسي المريض بنظرة ، وتخمد غضبه على الزائرين ببعض المزحات الجميلة ، فان صمت الانكليزية يكون مطلقاً ، يزعج النفس وينكد الروح . ان هؤلاء النساء يتسلطن باستمرار في كل مناسبة ، وجبروت المجتمع الانيق ، عند معظمهن يجب ان ينتشر حتى على لذاتهن . ومن يغالي في الحياء يجب أن يغالي في الحب ، والانكليزيات هن هكذا . انهن يضعن كل شيء في الشكل دون أن ينتج حب الشكل عندهن عاطفة الفن ؛ ومهما استطعن ان يقلن ، فان البروتستانتية والكاثوليكية توضحان

الفروق التي تكسب روح الفرنسيات كثيراً من التفوق على حب الانكليزيات الخاضع للعقل ، والتبصر . فالبروتستانتية تشك ، وتفحص ، وتقتل المعتقدات ، انها اذن موت الفن والحب . وهناك حيث العالم يأمر فعلى سكان العالم ان يطيعوا ؛ ولكن العشاق يهربون منه حالًا لانهم لا يحتملونه . ستدركين اذن مدى صدقي في حب الذات باكتشافي ان الليدي ديدلي لا تستطيع ان تتخطى العالم ، وان التقلب البريطاني مألوف لديها : لم يكن هناك تضحية فرضها العالم عليها ، كلا انها تظهر بشكل طبيعي تحت شكلين متعادين ؛ واذا احبت فانها تحب بنشوة ؛ وليس هناك امرأة تضارعها في اي بلد ؛ انها تساوي قصراً ؛ ولكن الستار المسدول على هذا المشهد الساحر يبعد عنه حتى الذكريات. لم تكن تجيب على نظرة ولا على ابتسامة ؛ ولم تكن سيدة ولا عبدة ، بل سفيرة مجبرة على تدوير عباراتها ومرفقيها ، كانت تقتل الصبر بهدوئها ، وتحقر القلب بلياقتها ، وبهذا كانت تحط من قدر الحب حتى الحاجة بدلًا من ان ترفعه بالحماس حتى المثل الاعلى. ولم تكن تظهر خوفاً ، ولا اسفاً ، ولا رغبة ؛ لكن حنانها

ينتصب كنيران اشعلت فجأة ويبدو كأنه يشتم تحفظها. بأيٍ من هاتين المرأتين يجب أن اؤمن؟ لقد شعرت حينذاك، بواسطة الف وخزة دبوس، بالفروق اللامتناهية التي تميز هنرييت عن ارابيل. فحين كانت السيدة دي مورتسوف تتركني لفترة كان يبدو لي انها تترك للهواء ان يحدثني عنها؛ وكانت طيات ثوبها حين تذهب تنتصب امام عيني كما كان حفيفها المتموج يصل الى اذني بفرح حين تعود؟ كان في الطريق التي تفتح بها جفونها حنان لا نهاية له، حين تخفض عينيها نحو الارض؛ وصوتها، ذلك الصوت الموسيقي، كان ملاطفة مستمرة؛ واحاديثها تدل على فكرة ثابتة، وكانت متساوية دائماً، لا تجزىء جوها الى جوين احدهما مشتعل والآخر جليدي؛ واخيراً، كانت السيدة دي مورتسوف تحتفظ بروحها وزهرة تفكيرها لتشرح عواطفها، وتصبح مغناجاً بالفكر مع ولديها ومعي. اما روح ارابيل فلم تنفعها في ان تحب الحياة، وهي لم تستعملها قط لمصلحتي، فروحها هذه لم تكن الا بواسطة العالم ولاجله. كانت ارابيل ساخرة، في كلامها تحب ان تمزق وتعض لا لتسليني بل لترضي ذوقاً لديها.

السيدة دي مورتسوف تخفي سعادتها عن جميع الانظار اما الليدي ارابيل فتريد ان تري سعادتها لباريس كلها. كانت بكشرتها المخيفة تظل في جو اللياقات حتى وهي تطوف الغاب معي. ان هذا المزيج من الزهو والوقار، من الحب والبرودة، كان يجرح نفسي باستمرار. انها عذراء وعاطفية معاً، وبما انني لم اكن اعرف أن أنتقل هكذا من جــو الى آخر فكنت اتألم؛ ولكم اختلجت بالحب وهي تستعيد حياءها الذي تفرضه اللياقة. وحــين كان يمر ببالي ان اشكو، بكثير من المداراة، كانت تجرد عليّ لسانها المثلث النبال، مازجة تبجح عاطفتها بتلك الدعابات الانكليزية التي حاولت ان اصورها لك. وما ان تجد نفسها في تناقض معي حتى تتحول الى لعبة لتنكيد قلبي وامتهان روحي، كانت تكيفني كالعجينة. كانت تجيب على ملاحظاتي حول ضرورة ايجــاد امر وسط في كل شيء برسم صورة كاريكاتورية لافكاري تسير بها الى منتهاها. وحين كنت الومها على موقفها كانت تسألني هل اطلب منها ان تعانقني امام باريس كلها، على طريقة الايطاليين؛ وكانت تلتزم بذلك جدياً. وبما

اني اعرف رغبتها الجنونية في ان تجعل الناس يتحدثون عنها ، كنت ارتجف خوفاً من ان تنفذ وعدها . اني لم أشعر مطلقاً ، رغم حبها الحقيقي ، بشيء يدعو الى التأمـــل ، مقدس ، كما هو الامر عند هنرييت : فقد كانت نهمـــة لا تشبع كأرض رملية . اما السيدة دي مورتسوف فكانت دائماً مطمئنة وتشعر بما في نفسي بمجرد نبرة او لمحة ، بينما المركيزة لا تثقلها نظرة ولا ضغطة يد ، ولا كلمة لطيفة . وهناك اكثر من هذا ! فسرور العشية لا يبقى منه شيء في الغد ؛ وما من برهان على الحب يدهشها ؛ انها تشعر برغبة جامحة للبلبلة ، والضجة ، والظهور بحيث لا يرضيها شيء ، ومن هنا جهودها المهتاجة في الحب ؛ واهواؤها المفرطة تتعلق بها وليس بي . ان تلك الرسالة من السيدة دي مورتسوف ، النور الذي لا يزال يضيء حياتي ، التي تثبت الطريقة التي تنهجها أفضل امرأة وفقاً لعبقرية المرأة الفرنسية ، مشعرةً باحتراس دائم وتفهم مستمر لكل ما اصابني ؛ هذه الرسالة تجعلك تدركين بأية عناية كانت هنرييت تهتم بمصالحي المادية ، وعلاقاتي السياسية ، ومكتسباتي المعنوية ؛ وبأية حمية كانت تعانق حياتي في الاماكن

المسموح بها . وكانت الليدي ديدلي تتصنع حول جميع هذه النقاط تحفظاً بدائيًا . لم تستعلم مطلقاً عن اعمالي ، ولا عن ثروتي ، ولا عن أشغالي ، ولا عن صعوبات حياتي ، ولا عن احقادي ، ولا عن صداقاتي كرجل . انها مسرفة على نفسها دون ان تكون كريمة ، وكانت تفصل كثيراً بين المصالح والحب ؛ اما هنرييت فكانت تحاول دون ان اشعر ، لتجنبني الغم ، ان تجد لي ما لم تحاول ان تجده لنفسها . ولو حلت بي احدى المصائب التي تنزل بارفع او اغنى الرجال ، وفي التاريخ ما يكفي من الشواهد ، لكنت استشرت هنرييت ولكن اترك نفسي اقاد الى السجن دون ان اقول كلمة لليدي ديدلي .

الى هنا والتناقض يعتمد على العواطف ، وكذلك في الاشياء . فالفخفخة في فرنسا تعبير عن الرجل ، عن مواليد افكاره ، عن شاعريته الخاصة ؛ انه يصور الطبع ويعطي ثمناً لأقل عناية بين المحبين جاعلًا الفكر المسيطر للكائن المحبوب يشع حولنا . ولكن الفخفخة الانكليزية التي أغوتني دقة البحث عنها كانت آلية ايضاً ! فالليدي ديدلي لم تضع فيها شيئاً من عندها ، بل هي تأتي

من الناس ، انهـــا مشتراة. والوف الاعتناءات اللطيفة في كلوشيغورد كانت بنظر أرابيل من عمل الخدم ؛ فلكـل منهم واجبه واختصاصه . واختيار أفضل خادم من شأن رئيس الخدم ، كما لو تعلق الامر بالخيول . إن هـذه المرأة لم تكن ترتبط أبداً بمن حولها ، حتى موت أفضلهم لا يحزنها أبداً ، إذ يمكن بواسطة المال استبداله بآخر يكون حاذقاً مثله . اما فيما خص الاقرباء فلم أفاجىء أية دمعة في عينيها لمصائبهم ، ولها في الانانية سذاجة تستثير الضحك . وكانت أجواخ المرأة العظيمة الارجوانية تغطي هذه الطبيعة البرونزية . وألميه اللطيفة التي كانت تتقلب في المساء على طنافسها ، والتي كانت تجعل جميع جلاجل حبها المجنون ترن ، كانت تصلح بسرعة بين رجل فتي وبين الانكليزية القاسية العديمة الشعور ؛ ولم أكتشف الا خطوة خطوة تلـــك الارض الطبشورية التي اضعت عليها بذاري ، هذا البذار الذي لن يعطي حصاده قط . كانت السيدة دي مورتسوف قـــد تغلغلت دفعة واحدة في تلك الطبيعة عند لقائها السريع . ولا ازال أذكر تنبؤاتها . لقد كانت هنرييت على حق في كل شيء ولاصبح حب

أرابيل لا يحتمل بالنسبة الي . وقد لاحظت ان النساء اللواتي يمتطين الخيل ليس عندهن من الحنان سوى القليـــل . فهن كالامازونيات ينقصهن ثدي ، وفي قلوبهن مكان قد تحجر لا اعرف موضعه .

حين بدأت أشعر بثقل هذا النير ، واستولى التعب عـــلى جسدي وروحي ، وأدركت جيداً كل ما تعطيه العاطفة الصادقة من قداسة للحب ، وأرهقتني ذكريات كلوشيفورد ، حين كنت اتنشق ، رغم المسافة ، عطر جميع ورودها ، وحرارة سطيحتها ، مصغياً الى صداح بلابلها ، في تلك اللحظة الرهيبة وأنا أشاهـد فراش السيل الصخري تحت مياهه المتناقصة ، تلقيت ضربة لا تزال تدوي في حياتي لأن لها في كل ساعة صدى . كنت أشتغل في غرفه الملك الذي يخرج في الساعة الرابعة ، وكان الدوق لينانكور يقوم بوظيفته ؛ وحين رآه الملك داخلًا سأله عن أخبار الكونتس ، فرفعت رأسي بسرعة وبطريقة ذات دلالة كبيرة صدمت الملك فألقى علي نظرة سبقت الكلمات القاسية التي كان يعرف ان يقولها . وأجاب الكونت :

ـ ان ابنتي تموت يا مولاي.

فقلت والدمع في عيني ، عاجزاً عن كبح جماح غضب يكاد ينفجر :

ـ أيتفضل الملك فيمنحني اجازة ؟

أجابني مبتسماً وهو يبطن لذعة في كل كلمة ، واعفاني من توبيخه من قبيل الكياسة

ـ اركض يا « ميلورد » .

اما الدوق الذي بدا تابعاً للملك أكثر منه أباً فلم يطلب اجازة بل صعد في عربة الملك ليرافقه . وذهبت دون ان اودع الليدي ديدلي التي كانت قد خرجت لحسن الحظ ، وكتبت اليها إنني ذاهب بمهمة في خدمة الملك . والتقيت بجلالته عند صليب برني حيث كان عائداً من فريير . وساعة قبوله باقة من الزهر تركها تسقط على قدميه ، التى علي نظرة مليئة بسخرياته الملكية

المرهقة العميقة ، كأنها تقول : — إذا أردت ان تكون شيئاً في السياسة فعد ! لا تتلهَّ بالمفاوضة مع الاموات !» وأشار الى الدوق بيده إشارة كئيبة ، ومرت العربتان الفخمتان ذات الجياد الثمانية بسرعة ، وتبعهما العقداء ذوو الملابس المذهبة ، والحرس بزوابعهم الغبارية ، على هتاف « يعيش الملك » ! وقد بدا لي ان البلاط داس على جثة السيدة دي مورتسوف بعدم الاحساس الذي تشاهد به الطبيعة ويلاتنا . ومع ان الدوق كان ممتازاً فقد ذهب يلعب «الويست» بعد نوم صاحب الجلالة. أما الدوقة فقد وجهت الضربة الاولى لابنتها منذ زمن طويل حين حدثتها وحدها عن الليدي ديدلي .

كانت رحلتي السريعة كحلم ، لكنه حلم مقامر مفلس ؛ كنت في حالة يأس لاني لم اتلق أخباراً . فهل وصلت الصلابة بالكاهن المرشد الى حد منعي من دخول كلوشيغورد ؟ اتهمت مادلين ، وجاك ، والاب دي دومينيس ، والجميع حتى السيد دي مورتسوف نفسه . بعد اجتيازي تور وخروجي من بون سان سوفير لأهبط في الطريق المحاط باشجار الصفصاف ،والموصل

الى بونشيه ، والذي كنت أعجب به كثيراً حين كنت أركض باحثاً عن حبيبتي المجهولة ، التقيت بالسيد اودريجه ؛ فأدرك انني ذاهب الى كلوشيغورد ، وادركت انه عائد منها اوقف كل منا عربته وهبطنا منها ، انا لأسأله عن الاخبار ، وهو لكي يزودني بها قلت له :

– هيه ! كيف حال السيدة دي مورتسوف ؟

أجابني :

أشك بأن تجدها حية . انها تموت ميتة فظيعة ، تموت من الجوع . حين دعتني في شهر حزيران المنصرم رأيت ان ليس هناك قوة تستطيع محاربة المرض ؛ كانت تبدو عليها الاعراض المخيفة التي سيصفها لك السيد دي مورتسوف دون شك لانه يشعر انه جربها . اذن فالكونتس ليست تحت تأثير عابر لاضطراب يعزى لصراع داخلي يعالجه الطب ويصبح سبباً لحالة افضل ، ولا تحت تأثير ازمة بادئة يمكن معها إصلاح الخلل . كلا ، لقد اعجز المرض : انه نتيجة حزن لا شفاء منه ، كجرح

يميت نتيجة طعنة خنجر . لقد نتج هذا الداء بسبب توقف عضو فيها عن الحركة ، وكانت حركته ضرورية كحركة القلب . وقد قام الحزن مقام الخنجر ، فلا تنخدع بها ! فالسيدة دي مورتسوف تموت من ألم مجهول .

فقلت : مجهول ! ألم يكن والداها مريضين ؟

فقال وهو ينظر إليّ نظرات ذات معنى :

ــ كلا ، ولم يعد السيد دي مورتسوف يعذبها منذ تفاقمت اصابتها . وانه لم يبق لي فائدة ، فالسيد ديسلاند دازي يكفي ، وما من دواء ، والآلام شديدة . غنية ، صبية ، جميلة ، تموت هزيلة ، عجوزاً بسبب الجوع . لانها ستموت من الجوع ! منذ اربعين يوماً ومعدتها كأنها مقفلة ، تقذف كل طعامٍ ، بأي طريقة يقدم لها .

وشد السيد اوريجه على يدي التي مددتها اليه ، وقد طلبها مني بحركة تدل على الاحترام . وقال لي وهو يرفع عينيه الى السماء :

– تشجع يا سيد .

كانت كلمته تعبر عن الرأفة بسبب الهموم التي ظن انها مقتسمة بالتساوي . ما ارتاب قط بوقع سهم كلامه المسموم الذي أصابني كنبلة في القلب . صعدت بسرعة الى العربة ، ووعدت سائقها بمكافأة كبيرة اذا لم اصل متأخراً .

ظننت انني قطعت الطريق ببضع دقائق رغم فراغ صبري، وذلك لاستغراقي بالافكار المرة التي كانت تتزاحم في نفسي . انها تموت من الحزن ووالداها بصحة جيدة ! إذن فهي تموت بسببي ! هكذا لفظ ضميري المهدّد احد تلك الاتهامات التي تدوي في الحياة كلها وفيما وراء الحياة أحياناً . أي ضعف وأي عجز في العدالة البشرية ! انها لا تثأر إلا للأعمال الواضحة . لماذا يكون الموت والعار للقاتل الذي يقتل بضربة ، الذي يباغتك بكرم أثناء النوم ، ويجعلك تنام الى الابد ، أو الذي يضرب على حين غفلة فيجنبك آلام الاحتضار ؟ ولماذا تكون الحياة سعيدة والاعتبار للقاتل الذي يسكب المر قطرة قطرة

في الروح ويضني الجسم ليقوضه؟ كم قتيل لم ينل عقابه ! وأية مجاملة للعيب الانيق! وأية تبرئة للقتل المسبب عن الاضطهادات المعنوية ! لا أدري أية يد منتقمة رفعت فجأةً الستار المبرقش الذي يغطي المجتمع ، فرأيت العديدين من هؤلاء الضحايا المعروفين منك كما أعرفهم أنا : السيدة دي بوزيان[1] الجزء الميت في النورمندي قبل رحيلي ببضعة أيام ! والدوقة دي لانجه[2] المشوهة السمعة ! والليدي براندون التي وصلت الى التورين لتموت هناك في ذلك البيت المتواضع[3] الذي مكثت فيه الليدي ديدلي اسبوعين ، وقد قتلت ، ولكن بأي نهاية مرعبة ؟ أنت تعرفين ذلك ! وعصرنا خصب بالحوادث من هذا النوع . ومن لا يعرف تلك المرأة الفتية المسكينة التي تسممت[4] وقد قهرتها الغيرة التي يمكن انها

(١) هجرها المركيز داجودا بنتو . راجع رواية « المرأة المهجورة » .

(٢) شوه سمعتها الدوق دي مونتريفو . راجع « الدوقة دي لانجيه » .

(٣) البيت المتواضع الذي امات بلزاك فيه الليدي براندون هو الفريناديير الذي سكن فيه هو نفسه مع السيدة دي برني .

(٤) يشير هنا الى استير غوبسك التي هجرها لوسيان دي روبمبره.

قتلت السيدة دي مورتسوف ؟ ومن لم يرتعش لمصير تلك الفتاة اللطيفة الشبيهة بوردة لسعها ذباب البقر ففنيت شيئاً فشيئاً بعد سنتين من الزواج ، ضحية جهلها العفيف ، ضحية شقي يمد اليه رونكليرول وموتريفو ودي مارازي اليد لانه خدم مشاريعهم السياسية ؟ ومن لم يرتعش لقصة اللحظات الاخيرة لتلك المرأة التي لم يستطع أي توسل أن يخضعها والتي لم تشأ قط ان ترى زوجها بعد ان دفعت ديونه بنبل ؟ والسيدة ديغليمون الم تر القبر عن قرب[1] ؟ وهل كانت تعيش لولا عناية اخي ؟ ان العالم والعلم شريكان في هذه الجرائم التي لا يوجد لها محكمة جنايات. ويبدو انه ليس هناك شخص يموت من الحزن ، ولا من اليأس ، ولا من الحب ، ولا من البؤس المخفي ، ولا من الآمال المزروعة دون ثمر ، التي تزرع وتقتلع باستمرار . ان في الاصطلاحات الجديدة كلمات أريبة تشرح كل شيء : فداء المعدة ، والتهاب شغاف القلب ، وامراض المرأة العديدة التي تُهمس اسماؤها في

(١) راجع رواية « المرأة ذات الثلاثين عاماً » .

الاذن ، تستعمل كجواز مرور الى التوابيت المحروسة بالدموع المرائية التي تمسها يد الكاتب العدل بسرعة . هل في اعماق هذه المصيبة قانون لا نعرفه ؟ أيجب ان ينثر التذكار المثوي الاوراق بدون شفقة ليغطي أرض الاموات ويجففها حوله لكي يرتفع كما يتمثل صاحب الملايين جهود المصانع العديدة الصغيرة ويتبلعها ؟ وهل هناك حياة قوية سامة تقتات بالمخلوقات اللطيفة اللدنة ؟ يا إلهي! هل انا منتم اذن لجنس النمور ؟ كان تبكيت الضمير يضغط قلبي باصابعه الملتهبة ، وكان خداي مخددين بالدموع حين دخلت جادة كلوشيغورد في صباح رطب من تشرين الاول الذي كان يفصل الاوراق اليابسة عن الصفصاف الذي اعتنت هنرييت بغرسه ، في تلك الجادة حيث كانت في السابق تلوح بمنديلها كأن ذلك لتذكرني ! هل تعيش ؟ أيمكن ان أشعر بيديها البيضاوين على رأسي الساجد ؟ اني دفعت في لحظة كل ما أعطتني ارابيل من لذات ، وكان الثمن باهظاً ! وأقسمت الا اعود قط لرؤيتها ، وابغضت انكلترا . ومع ان الليدي ديدلي كانت من نوع مختلف ، الا اني غمرت انكلترا كلها بنسيج قراري .

تلقيت ضربة جديدة حين دخلت كلوشيغورد ، فقد وجدت جاك ومادلين والاب دومينيس راكعين عند صليب خشبي مغروس في زاوية ارض ضمن السور منذ بناء الحاجز ، ولم يشأ الكونت ولا الكونتس ان يزيلاه . وثبت الى خارج العربـــة وسرت نحوهم ووجهي مليء بالدمع ، والقلب محطم لمشهد هـذين الولدين وذلك الشخص الوقور وهم يتوسلون الى الله . وكان السائس العجوز هناك ايضاً على بعد خطوات ، عاري الرأس .

ـ ايه ! يا سيدي .

قلت ذلك للأب دي دومينيس بعد ان قبلت جبهتي جاك ومادلين اللذين القيا عـــلي نظرة باردة دون ان يقطعا صلاتهما. ونهض الاب فأخذت ذراعه لأستند اليه وانا أقول له : ألا تزال حية ؟ فاحنى رأسه بحركة حزينة هادئة : ـ تكلم ، أرجوك ، باسم آلام سيدنا ! لماذا تتلون الصلاة عند هذا الصليب ؟ لماذا أنتم هنا وليس الى جانبها ؟ لماذا أولادها في الخارج في مثـــل هذا الصباح البارد ؟ قـــل لي كل شيء لئلا اسبب بعض المتاعب بدافع جهلي .

ــ إن الكونتس لا تريد ان ترى ولديها الا في ساعات معينة ــ ثم أضاف بعد وقفة ــ ايها السيد ، ربما تضطر الى الانتظار بضع ساعات قبل ان ترى السيدة دي مورتسوف ، فقد تغيرت جداً . ولكن من المفيد ان نعدها لهذه المقابلة . ومن الممكن ان نسبب لهـــا بعض مضاعفات من العذاب . . . اما الموت ، فسيكون رحمة لها .

شددت على يد هذا الرجل الالهي الذي كانت نظرته وصوته يداعبان جراح الغير دون أن يؤججاها . وتابع قائلاً :

ــ اننا نصلي كلنا لاجلها هنا ، لأنها ، وهي الكثيرة القداسة ، الكثيرة الخضوع لارادة الله ، المستعدة للموت منذ عدة ايام ، اصبحت تشعر برعب خفي حيال الموت ، وتلقي عـــلى اولئك الممتلئين بالحياة نظرات ترتسم فيها لأول مرة عواطف داكنة حاسدة . لقد اهتاجت اختلالاتها . واعتقد ان سبب ذلك ليس الخوف من الموت ، بل سكرٍ داخلي ، بل ازهار صباها الذابلة التي اختمرت وهي تذوي . نعم ، ان الملاك الرديء يخاصم في

السماء تلك الروح الجميلة . والسيدة احتملت كفاحها على جبل الزيتون وارفقت دموعها بسقوط الورود البيضاء التي كانت تتوج رأسها الشبيه برأس يفتاح المتزوجة . وقـــد سقطت الورود الواحدة بعد الاخرى. انتظر ، ولا تظهر نفسك . انك ستحمل اليها اضواء البلاط . وستجد عـــلى وجهك شعاعاً من الحفلات الدنيوية وستعزز ندرهـــا . اغفر لضعف غفره الله نفسه لولده الذي صار رجلًا . ومع ذلك فأي فضل نناله اذا انتصرنا دون وجود أخصام . اسمح لمرشدها أو لي ، ونحن عجوزان لا تسيء شيخوختنا المتهدمة الى حياتها ، ان نعدها لمقابلة غير منتظرة ، والى مؤثرات طلب الاب بيروتو ان تتجنبها . ولكن هناك في امور هذا العالم خيطاً غـــير منظور للقضايا السماوية تراه العين الدينية ، ولئن جئت الى هنا فربما لأنك مسير باحدى تلك النجوم السماوية التي تشع في العالم المعنوي ، وتقود الى القبر كما تقود الى المذود .

قال لي آنذاك مستعملًا بياناً عذباً يسقط على القلب كالندى ، ان ألم الكونتس يزداد كل يوم منذ ستة اشهر رغم عناية السيد

اوريجه . وقد ظـــلّ الطبيب يأتي طوال شهرين كل مساء الى كلوشيغورد باذلًا جهده لانتزاع هذه الفريسة من الموت ، لأن الكونتس كانت تقول : — « انقذني ! » اما الطبيب فقد صاح ذات يوم : — « لكن ليشفى الجسم يجب أن يشفى القلب اولًا ! » وقال لي الاب دي دومينيس ! اصبحت اقوال هـــذه المرأة الكثيرة اللطف كثيرة المرارة وفقاً لتقدم المرض . انها تنادي الارض لتحتفظ بها بدلًا من أن تنادي السماء لتأخذها ؛ ثم تندم لأنها دمدمت ضد الاوامر السماوية . وهذه الامور المتعاقبة كانت تمزّق قلبها وتجعل صراع الروح والجسد هائلًا ، وكان الجسد ينتصر في اغلب الاحيان ! وقـد قالت ذات يوم لمادلين وجاك وهي تدفعهما عن سريرها : — « لقد كلفتماني غالياً ! » لكنها في تلك اللحظة تذكرت الله حين رأتني وقالت للآنسة مادلين هذه الكلمات الملائكية : « ان سعادة الآخرين هي فرح اولئك الذين لا يستطيعون ان يكونوا سعداء . » وكانت لهجتها تمزّق القلب فشعرت بأجفاني تتبلل بالدمع . انها تسقط ، وهـــذا صحيح ، لكنها عند كل خطوة غير سديدة كانت تزداد ارتفاعاً نحو السماء .

ودهشت للبلاغات المتتابعة التي كانت الصدفة ترسلها الي ، والتي كانت تعد الموضوع المأتمي بواسطة الحان مؤلمة في حفلة سوء الحظ الكبيرة هذه . وهتفت :

ـ اتعتقد ذلك ، وهل ستعود تلك الزنبقة المقطوعة الى الازهار في السماء ؟..

فاجابتني :

ـ لقد تركتها وهي لا تزال زهرة ، وستجدها فانية ، مطهرة بنار الآلام ، ونقية كالماسة لا تزال مخبأة في الرماد . نعم ، ان هذه الروح الساطعة ، هذه النجمة الملائكية ، ستخرج من غيومها رائعة لتذهب الى ملكوت النور .

في اللحظة التي شددت فيها على يد هذا الرجل الانجيلي ، والقلب مفعم بالامتنان ، أظهر الكونت رأسه الكامل البياض خارج البيت ، واندفع نحوي بحركة ترتسم فيها المفاجأة ، وقال وهو يلقي علي نظرة مجنونة من الرعب :

– لقد صح قولها ! هذا هو . « فليكس ، فيلكس ، هذا هو فليكس قـــد اتى !» هكذا صرخت السيدة دي مورتسوف يا صديقي . فالموت هنا ، لماذا لم يأخذ عجوزاً مجنوناً مثلي كان يطعن فيه ؟ ..

ومشيت نحو القصر مستحثاً شجاعتي . ولكن على عتبة غرفة الزائرين الطويلة الموصلة بين ملعب الكرة والدرج المسطح اوقفني الاب بيروتو بينما كنت اجتاز البيت وقال لي :

– السيدة الكونتس ترجوك الا تدخل الآن .

والقيت نظرة فرأيت خدم البيت يروحون ويجيئون ، وكلهم منهمكون ، سكارى من الالم ، يرتقبون دون شك الاوامر التي توصلها مانيت اليهم .

– ماذا حدث ؟ ..

قال الكونت غاضباً من هذه الحركة بدافع من اضطراب مزاجه الطبيعي اكثر من خوفه من الحادث الرهيب . واجاب الكاهن :

ـ انه خاطر من خواطر المريضة ، فالسيدة دي مورتسوف لا تريد أن تستقبل الفيكونت في الحالة التي هي فيها؛ وقد طلبت ان تتزين ، فلماذا نعاكسها ؟

وذهبت مانيت تبحث عن مادلين . ورأينا مادلين خارجة بعد لحظة من دخولها الى امها . ورحنا نتمشى ، جاك ووالده والكاهنان وانا ، وكلنا صامتون ، وقطعنا واجهة البناء وملعب الكرة ، واجتزنا البيت . وتأملت على التوالي مونبازون وآزاي ، ونظرت الى الوادي الذي اكتسى بالاصفرار حيث كان الحداد يتجاوب حينئذ ، وفي كل مناسبة ، مع العواطف التي تحركني ، وفجأة أبصرت العزيزة الصغيرة مسرعة وراء زهور الخريف لتقطفها دون شك وتؤلف منها باقات . وحين فكرت بكل ما تعني هذه الاجابة على اهتمامي الغرامي حدث في داخلي لا ادري اية حركة في الاحشاء ، فترنحت ، وغشي على بصري ، فحملني الكاهنان اللذان كنت اسير بينهما ووضعاني على حجر مثقوب على السطيحة حيث ظللت برهة كأنني محطم ، ولكن بدون ان افقد كامل وعيي . وقال لي الكونت :

ـ يا لفليكس المسكين ! لقد منعتنا من الكتابة اليك ، فهي تعرف مقدار حبك لها .

ومع اني كنت مستعداً للألم فقد وجدتني بدون قوة تجاه لفتة كانت تلخص كل ذكرياتي عن السعادة. وفكرت : « هذا هو السبروت الجـــاف كهيكل عظمي ، المنار بضوء أصهب ، يرتفع في وسطه دغل وحيد من الزهور لم أكن اعجب به في السابق دون رعشة مشؤومة ، فقـــد كان صورة لهذه الساعة الحدادية ! » كل شيء كان بادي الكآبة في هذا الصرح الصغير الذي كان في الماضي كثير الحيوية، كثير الانتعاش ! كل شيء كان يبكي ، كل شيء كان يتحدث عن اليأس والاهمال . هذه ممرات جرفت الى النصف ، واشغال بدىء بها وتركت ، وعمال واقفون يتطلعون الى القصر . ومع انهم قاموا بقطف العنب في الاراضي المسورة الا انه لم يُسمع لهم ضجة ولا ثرثرة . فالكروم بدت كأنها غير مأهولة، والصمت عميق. كنا نسير كأناس يرد لهم الالم كل كلام مبتذل، ونصغي الى الكونت الذي كان المتكلم الوحيد بيننا . فبعد العبارات التي املاها الحب الآلي الذي كان يشعر به

تجاه زوجته قاده منحدر روحه الى الشكوى من الكونتس . لم تشأ ان تعتني بنفسها ولا ان تصغي اليه حين يقدم اليها آراء صائبة ؛ وكان هو اول من شاهد اعراض المرض لانه كان قد درسها على نفسه ، وقد حارب هذه الاعراض وشفي منها وحده بدون مساعدة احد سوى مساعدة الحمية وبتجنبه كل تأثير شديد. وكان بامكانه ايضاً ان يشفي الكونتس. ولكن زوجاً لا يستطيع القبول بمسؤولية كهذه وخصوصاً حين يرى ان اوريجه طبيباً لها ، اوريجه الذي عالجه معالجة سيئة في الماضي قتل زوجته . واذا كانت الاحزان المتتابعة هي سبب هذا المرض فانه كان في جميع أوضاعه معرّضاً لينال منها نصيباً. ولكن ماذا يمكن ان تكون أحزان امرأته ؟ فقد كانت الكونتس سعيدة ، ولم يكن عندها هموم ولا معاكسات ؛ وكانت ثروتها بحالة مرضية بفضل عنايته وافكاره الصائبة ؛ وقد ترك السيدة دي مورتسوف تحكم كلوشيغورد ، وولداه تربيا تربية حسنة ، وصحتها جيدة لا توحي بأي قلق ؛ فمن أين أتى المرض اذن ؟ كان يناقش ، ويمزج التعبير عن يأسه باتهاماته الجنونيــة . ثم أوصلته بعض الذكريات الى

الاعجاب الذي تستحقه تلك المخلوقة النبيلة وافلتت بعض الدموع من عينيه الجافتين منذ امد طويل.

وجاءت مادلين تخبرني ان والدتها بانتظاري. وتبعني الاب بيروتو، وبقيت الابنة الوقور بجانب ابيها، قائلة ان امها ترغب أن تكون وحدها معي. واحتجت بالتعب الذى يمكن أن يسببه لها وجود عدة اشخاص. لقد احدثت هذه في نفسي ذلك الطابع الحار في الداخل والبارد في الخارج الذي يحطمنا في ظروف الحياة الكبرى. والاب بيروتو، أحد اولئك الرجال الذين وسمهم الله بميسم رجاله فأسبغ عليهم اللطف والبساطة، ومنحهم الضمير والرأفة، اخذني جانباً وقال لي:

ـ اعلم يا سيد انني فعلت كل ما هو ممكن بشرياً لأمنع هذا الاجتماع، فخلاص هذه القديسة يتطلب ذلك. لم أر الا هي وليس انت. والآن، وانت ذاهب لترى تلك التي كان حماها محرماً عليك بواسطة الملائكة، فاعلم انني سأبقى بينكما لأدافع عنها ضدك، وربما ضدها! احترم ضعفها. اني لا أطلب منك الرأفة

ككاهن ، بل كصديق متواضع لم تعرف ان تتخذه ، ويريد أن يجنبك توبيـــخ الضمير . ان مريضتنا العزيزة تموت من الجوع والعطش دون شك . وكانت منذ هذا الصباح فريسة هياج محموم يسبق ذلك الموت المرعب ، ولا أستطيع أن أخفي عنك مقدار اسفها على الحياة . ان صرخات لحمها الثائر تنطفىء في قلبي حيث أحـــدثت جراحاً في اصداء لا تزال مدوية . لكن السيد دي دومينيس وانا قبلنا هذه المهمة الدينية لنخفي مشهد ذلك الاحتضار الاخلاقي عن تلـك العائلة النبيلة التي لم تكن تعرف كوكبها المسائي والصباحي . لان الزوج ، والاولاد ، والخـدم كلهم يسألون : أين هي؟ بسبب ما طرأ عليها من تغيير . وعند رؤيتك سيعود التذمر الى الظهور . اترك أفكار رجـــل الدنيا وانس أباطيل القلب ، وكن الى جانبها مساعداً للسماء وليس مساعداً للارض لئلا تموت هذه القديسة في ساعة شك فتصدر منها بعض كلمات يأس ...

لم اجب بشيء ، وقد هال صمتي المرشد المسكين . كنت أرى ، وأسمع ، وامشي ، ومع ذلك فلم اكن على الارض . وهذا

التفكير : « ماذا حدث إذن ؟ بأية حالة يمكن ان اجدها لتتخذ كل هذه الاحتيطات ! » ولد في نفسي ادراكات مبهمة كانت اليمة اكثر مما هي غامضة. وهذا التفكير اشتمل على كل الآلام مجتمعة . وصلنا الى باب الغرفة الذي فتحه لي المرشد القلق ، وشاهدت عندئذٍ هنرييت في ثوب أبيض جالسة علـى مقعدها الصغير أمام الموقد المزين بآنيتينا المملوئتين بالزهور ؛ وهناك زهور ايضاً على المنضدة المستديرة الموضوعة امام النافذة . ووجه الاب بيروتو المنذهل لمنظر هذه الحفلة المرتجلة وللتبديل الذي طرأ على هذه الغرفة المنظمة بسرعة وفقاً لما كانت عليه في السابق ، جعلني ادرك ان المحتضرة قد أبعدت الجهاز المقيت الذي يكون بجانب سرير المريض . انها انفقت آخر قوة لحمّى في دور نهايتها لتزين غرفتها المختلة النظام لتكون جديرة صالحة بان تستقبل ذاك الذي تحبه في هـذه اللحظة اكثر من اي شيء . وتحت امواج من الدانتيل كان وجهها الهزيل الشاحب المخضر كزهور المانولية حين تتفتح ، يبدو كما تبدو الخطوط الاولى لرأس عزيز مرسوم بالطبشور على قماش اصفر ، ولتشعري بمقدار انغراز مخلب النسر

في قلبي افترضي ان عيني هذا الرسم قـــد انتهتا وامتلأتا بالحيـــاة ، عينان متقعرتان تلمعان ببريق غير مألوف في وجه منطفىء . لم يكن عليها جلال الهدوء الذي كانت تكتسبه من انتصاراتها على آلامها . وجبهتها ، وهي القسم الوحيد مـن الوجه الذي احتفظ بتناسقه الجميل ، كانت تظهر جرأة الرغبـة المعتدية والوعيـــد المكبوت . ورغم الصبغة الشمعية في وجهها المستطيل فان نيراناً داخلية كانت تتفلت منه باشعاع شبيه بالسائل الذي يشتعل فوق الحقول في يوم حار . صدغاهـا متقعران ، وخداها أجوفان يظهران اشكال الوجه الداخلية ، والابتسامة التي رسمتها شفتاها البيضاوان تشبـه ضحكة الموت . وثوبها المشبك على صدرها يشهد على هزال نصفها الاعلى الجميـل. وكان تعبير رأسها يقول انها تعرف انها تبدلت وانها في حالـة يأس . هذه ليست هنرييت اللذيذة ولا السيدة دي مورتسوف القديسة السماوية ؛ وبل شيئاً من « بوسيه » دون اسم ينتفض مقاوماً العدم ، وحيث الجوع والرغبات المخدوعة كانت تدفع الى معركة الحياة الانانية ضد الموت . جلست بقربها آخذاً يدها لأقبلها فوجدت تلك اليد ملتهبة جافة . وادركت دهشتي المؤلمة

حتى في الجهـــد الذي بذلته لأخفيها . وحينئذٍ امتدت شفتاها اللتان ذهب لونهما على اسنانها الجائعة محاولة ان تظهر ابتسامة مغتصبة تخبيء تحتها سخرية الثأر ، وانتظار اللذة ، وسكر الروح ، وثورة الاخفاق وقالت :

آه ! انه الموت يا فليكس المسكين ، انت لاتحب الموت ! الموت المقيت ، الموت الذي ترتعب منه جميـــع المخلوقات حتى العشاق. هنا ينتهي الحب . وكنت أعرف ذلك تماماً . لن تراك الليدي ديدلي مندهشاً من تغيرها . آه ! لمـــاذا تمنيتك كثيراً يا فليكس ؟ ها انت اخيراً قد أتيت : واكافئك عـــلى هذا الاخلاص بهذا المنظر المرعب الذي جعل سابقاً من الكونت دي رانسيه رجل دين متنسك انا التي كنت أرغب ان اظـــل جميلة وكبيرة في ذهنك ، وأعيش فيه كزنبقة أبدية ، جئت ازيل اوهامك . ان الحب الحقيقي يعرف الحساب. ولكن لا تهرب . إبق . فالسيد اوريجه وجدني افضل كثيراً في هـــذا الصباح . سأعود الى الحياة ، وساولد من جديد تحت نظراتك . ثم حين استعيد بعض القوى ، حين استطيع تناول بعض الاغذيـــة ،

سأعود جميلة . اني لا اكاد ابلغ الخامسة والثلاثين ، لا أزال أستطيع الحصول على سنوات جميلة . فالسعادة تعيد الشباب ، وأريد ان اعرف السعادة . لقد قمت بمشاريع شائقة سنتركها في كلوشيفورد ونذهب الى ايطاليا .

ورطبت الدموع عيني فأدرت وجهي الى النافذة متظاهراً بالنظر الى الزهور ، وجاء الي الاب بيروتو متعجلًا ، وانحنى على باقة الزهر وقال هامساً في اذني : ــ كفكف دمعك ! » واجبتها مبرراً حركتي الفجائية :

ــ الا تحبين اذن يا هنرييت وادينا العزيز ؟

فقالت وهي تقدم جبهتها الى شفتي بحركة حب رقيقة :

بلى . لكنه بدونك يصبح شؤماً علي ... « بدونك » ، اضافت ذلك وهي تلمس اذني بشفتيها الحارتين لتلقي فيها هذين المقطعين كأنهما زفرتان .

وهالتني هذه الملامسة الجنونية التي كانت تضخم احاديث

الكاهنين الرهيبة . وفي هذه اللحظة تبددت دهشتي الاولى ؛ لكن لو استطعت ان استعمل عقلي فان ارادتي لم تكن تمكنني من كبح الحركة العصبية التي هزتني اثناء هذا المشهد . كنت اصغي بدون ان اجيب ، او بالاحرى كنت اجيب بابتسامة ثابتة وباشارات استحسان لئلا اعاكسها ، متصرفاً كأم حيال ولدها . وبعد ان دهشت من التحول المفاجىء في الشخص ، شاهدت ان المرأة التي كانت في السابق جليلة بسموها ، كان لها في الهيئة ، في الصوت ، في السلوك ، في النظرات ، في الافكار جهل طفل ساذج ، والشكر الصادق ، ونهم الحركات ، والاهمال العميق لكل ما هو غير رغبتها ، واخيراً كل الضعف الذي يوعز الى الولد بالوقاية . هل هذا الامر شأن جميع المحتضرين ؟ اتجرد جميع الاقنعة الاجتماعية من اقنعتها ، مع ان الولد لم يرتديها بعد؟ ام ان الكونتس تفسر بذلك البراءة العذبة على طريقة «كلويه» وقد وجدت نفسها على حافة الابدية بعدم قبولها اي شيء من العواطف البشرية سوى الحب ؟ وقالت :

— ستعيدني الى الصحة يا فليكس كما في الماضي ، ووادي سيكون محسناً لي . لماذا لم آكل ما قدمت لي؟ انت حارس

مريض ممتاز ! ثم انت غني جداً بالقوة والصحة ، والحياة بقربك تنقل عدوى الصحة . اثبت لي اذن يا صديقي انني لن استطيع ان أموت ، أموت مخدوعة ! انهم يعتقدون ان ألمي الحاد هو العطش . اوه ! نعم ، انا شديدة العطش يا صديقي ، ورؤية مياه الاندر تسبب لي الضرر ، لكن قلبي يشعر بعطش حاد جداً. لقد كان بي عطش اليك ، – قالت لي ذلك بصوت مكتوم وهي تأخذ يدي بيديها الملتهبتين وتجذبني اليها لتلقي هذا الكلام في أذني : لقد كان احتضاري في عدم رؤيتك ! ألم تقل لي ان أعيش؟ اريد ان اعيش ، وأريد ان امتطي الحصان ايضاً ، انا ، اريد معرفة كل شيء ، باريس ، الحفلات والملذات .

آه ! يا ناتالي ، هذه الصيحة الرهيبة التي جعلتها مادية الحواس المخدوعة باردة على البعد ، جعلت أذني الكاهن العجوز وأذني تطن : ان نبرات هذا الصوت البديع كانت تصور معارك حياة بكاملها ، وآلام حب حقيقي مخيب . ونهضت الكونتس بحركة تدل على فراغ الصبر كولد يريد لعبة. وحين رأى الكاهن

تأبلته بهذه الحالة ركع بسرعة، وجمع يديه وتلا بعض الصلوات. وقالت وهي تطلب الي ان انهضها واتكأت علي :

ـ نعم، اعيش ! اعيش بالحقائق ليس بالاكاذيب . كان كل شيء كذباً في حياتي، وقد عددت هذه الاكاذيب منذ بضعة ايام . هل يمكن ان اموت انا التي لم أعش؟ انا التي لم أذهب لأبحث عن احد من الناس في أرض؟ وتوقفت وبدت انها تستمع، واشتمت من خلال الجدران رائحة لا أدري كنهها ـ فليكس ! لقد ذهبت قاطفات العنب الى الغداء، وانا، انا ـ قالت ذلك بصوت طفل ـ التي هي ربة العمل، اجوع . ان لقي هذا شيئاً من الحب، انهن سعيدات، هن !

ـ كيرياليسون !

قال الاب المسكين ذلك وكان يتلو «الطلبات» ويداه مضمومتان وعينيه الى السماء .

وألقت ذراعيها حول عنقي، وقبلتني بشدة، وضمتني اليها وهي تقول :

– لن تفلت مني قط ! اريد ان اكون محبوبة ، سأقوم بأفعال جنونية كالليدي ديدلي ، وسأتعلم الانكليزية لأحسن ان اقول لك : ماي دي .

واشارت إليّ برأسها كما كانت تفعـــل في السابق وهي تتركني ، وذلك لتقول لي انها ستعود بعد برهة ، وقالت : – سنتناول غـــداءنا معاً ، وسأشعر مانيت بذلك . – وتوقفت بسبب وهنٍ اجتاحها فمددتها بملابسها على السرير . وقالت وهي تفتح عينيها :

– في الماضي حملتني مرة هكذا .

كانت خفيفة الوزن جداً لكن جسدها كان محروراً ؛ شعرت وانا احملها ان جسدها يشتعل بكامله . ودخل السيد ديسلاند ، ودهش لوجود الغرفة مزينة هكذا ، لكنه حين رآني وضح لديه كل شيء . قالت بصوت مضطرب :

– يتعذب المرء كثيراً ليموت يا سيدي .

وجلس ، وجس نبض المريضة ، ونهض فجأة ، وجاء يتكلم مع الكاهن بصوت منخفض ، وخرج فتبعته وسألته :

– ماذا تريد ان تفعل ؟

فقال :

– اجنبها فترة احتضار مخيفة . من كان يظن ان هناك قوة كهذه ؟

اننا لا نـــدرك كيف تعيش إلا اذا فكرنا بالطريقة التي عاشت بها . هذا اليوم الثاني والاربعين الذي لم تشرب فيـــه السيدة دي مورتسوف ولم تأكل ولم تنم .

وطلب السيد ديسلاند مانيت . اما الاب بيروتو فقد سار بي الى الحديقة وقال لي :

– لندع الطبيب يعمل . وستساعده مانيت ليغمراهـــا بالافيون . ايه ! لا بأس . لقد سمعتها تتواطأ مع هذه الحركات الجنونية !

فقلت : كلا ، ليس هي !

كنت مخبولًا من الالم ، وكلما سرت اتسع كل جزء من هذا المشهد. خرجت بسرعة من الباب الصغير في اسفل السطيحة وجئت اجلس في الزورق حيث اختبأت لابقى وحدي ألتهم افكاري. حاولت ان افصل نفسي عن تلك القوة التي كنت أعيش بها ؛ انها عقوبة شبيهة بتلك التي يعاقب بها التتار الزاني اذ يمسكون عضواً من المذنب بقطعة خشب ، تاركين له سكيناً ليقطع بها هذا العضو بنفسه اذا شاء ألا يموت جوعاً. انه درس مرعب تحملته نفسي التي وجب ان اقطع منها اجمـــل نصفيها . كانت حياتي ناقصة ايضاً ! فاليأس اوحى إليّ باغرب الافكار . تارة كنت اريد ان اموت معها ، وطوراً اذهب واسجن نفسي في ميليراي حيث يقيم الرهبان النساك . ان عيني اللتين ذهب بريقهما لم تكونا تريان الاشياء الخارجية . كنت اتامل نوافذ الغرفة حيث تتعذب هنرييت معتقداً اني اشاهد فيهـــا الضوء الذي ينيرها اثناء الليل ، وحيث خطبت نفسي لها . ألم يكن عـــليّ اطاعة الحياة البسيطة التي خلفتها لي ، وهي تحتفظ بي

لنفسها في القيام بالمهام ؟ ألم تكن تأمرني ان اكون رجلًا عظيماً لتقيني من العواطف المنحطة المعيبة التي عانيتها كجميع الرجال؟ ألم تكن العفة ميزة سماوية لم اعرف كيف احتفظ بها ؟ ان الحب كما تفهمه ارابيل أثار اشمئزازي فجأة . وفي اللحظة التي كنت ارفع فيها رأسي الصريع متسائلًا من اين يأتيني بعد الآن النور والامل ، واي فائدة لي في الحياة ، تحرك الهواء محدثاً ضجة خفيفة ، فألتفت نحو السطيحة ، وشاهدت عليها مادلين تتنزه وحدها بخطى بطيئة . وبينما كنت صاعداً نحو السطيحة لأسأل هذه الصغيرة العزيزة حساباً عن النظرة الباردة التي قذفتني بها عند الصليب ، كانت قد جلست على المقعد ، وحين شاهدتني في منتصف الطريق نهضت وتظاهرت بعدم رؤيتي لئلا تبقى وحيدة معي ؛ كانت مشيتها سريعة وذات مغزى . كانت تكرهني . انها تهرب من قاتل امها . وحين عدت الى كلوشيغورد عن طريق الدرج المسطح رأيت مادلين كالتمثال ، جامدة وواقفة تصغي الى وقع خطاي . وكان جاك جالساً على احدى الدرجات وهيئته تنبىء بعدم الحساسية نفسها التي

ادهشتني حين كنا نتنزه جميعاً. واوحى إلي بتلك الافكار التي تركناها في زاوية من نفوسنا لكي نستعيدها ونحفرها فيما بعد على مهل. ولاحظت ان الفتيان الذين يحملون الموت في اجسادهم كلهم فاقدو الحس في المآتم. واردت ان استجوب هذه النفس الداكنة. فهل احتفظت مادلين بافكارها لنفسها فقط، ام انها اوصت بحقدها لجاك؟ وقلت له لكي ابدأ الحديث:

ــ انت تعلم انك تجد فيّ اكثر الاخوان اخلاصاً.

فأجاب وهو يلقي عليّ نظرة شرسة من الالم:

ــ ان صداقتك غير مفيدة لي. اني سأتبع امي!

فهتفت: جاك، انت ايضاً؟

فسعل، وراح بعيداً عني، ثم اراني حين عاد منديله بسرعة وقد تلوث بالدم. وقال:

ــ افهمت؟

وهكذا كان لكل منهم سرّه المشؤوم، وكما رأيتهم منذ برهـــة، الاخ والاخت يهرب احدهما من الآخر. وهنريت سقطت. لقد اصبح كل شيء حزناً في كلوشيغورد.

– السيدة تنام.

هكذا جاءت مانيت تقول لنا وهي سعيدة لمعرفتها ان الكونتس لا تتألم.

في تلك اللحظات الحرجة، ومع ان كل واحد كان يعرف النهاية المحتومة، فان المودات الحقيقية تصبح جنونية وتتعلق بمسرات صغيرة. والدقائق قرون يراد جعلها نافعة. ويراد لو يرتاح المرضى على ورود، ولو تؤخذ آلامهم، ولو تكون الزفرة الاخيرة غير منتظرة منهم. قالت مانيت.

– رفع السيد ديسلاند الزهور التي كانت تؤثر بشدة على اعصاب السيدة.

وهكذا سببت الازهار بحرانها ايضاً، ولم يكن لها دخل

في ذلك. ان محبة الارض، واعياد الخصب، وملاطفة النبات قد اسكرتها بعطرها وايقظت افكار الغرام السعيد التي كانت تغفو في نفسها منذ صباها. قالت لي:

– اذن تعال يا سيد فليكس. تعال وانظر السيدة، فهي جميلة كالملاك.

عدت الى غرفة المحتضرة ساعة كانت الشمس تغيب وتصبغ بلون الذهب مخرمات سطوح قصر آزاي. كل شيء كان هادئاً ونقيًّا. كان نور عذب يضيء السرير الذي ترتاح عليه هنرييت سابحة بالافيون. وكان الجسم قد تلاشى في تلك اللحظة اذا صح القول؛ والروح وحدها تسيطر على هذا الوجه الصافي كسماء جميلة بعد العاصفة. بلانش وهنرييت. هذان الوجهان السماويان لامرأة واحدة عاذا الى الظهور بشكل اجمل بحيث ان ذاكرتي وفكري ومخيلتي وهي تساعد الطبيعة اصلحت امائر كل خط حيث الروح المنتصرة كانت ترسل اضواءها امواجاً مختلطة مع امواج التنفس. وكان الكاهنان جالسين بقرب

السرير. وظل الكونت المصعوق واقفاً وقــد عرف بيارق الموت التي تخفق على هذه المخلوقة المعبودة. اخذت على الاريكة المكان الذي كانت تشغله. ثم تبادلنــا نحن الاربعة نظرات يختلط فيها الاعجاب بهذا الجمال العلوي بـدموع الاسف. لقد كانت انوار الفكر تعلن عن وجود الله في احــد بيوت جسده. وكنت والاب دي دومينيس نتبادل الكلام بالاشارة ونتبادل الافكار. نعم، ان الملائكه تحرس هنرييت! نعم، ان سيوفهم تلمع فوق تلك الجبهة النبيلة التي عادت اليها امائر الفضيلة الجليلة، تلك الامائر الــتي كانت تشكل عندها في السابق روحاً منظورة تتناجى معها ارواح محيطها. وتطهرت خطوط وجهها، وكبر فيها كل شيء واصبح كثير الجلال تحت المباخر غير المنظورة للساروفيم الذي يحرسها. وتركت صبغات الآلام الجسدية الخضراء مكانهــا لصبغة بيضاء تماماً، للشحوب الكامد البارد، شحوب الموت القريب. ودخل جاك ومادلين، وبعثت مادلين الرعشة في اجسادنا بحركة العبادة التي قامت بها مسرعة امام السرير، فقد ضمت يدي امها وأوحت اليها هذا

الهتاف السماوي: — اخيراً هذه هي امي! وكان جاك يبتسم، فقد كان واثقاً من انه سيتبع امه الى حيث تذهب. وقال الاب بيروتو:

— انها تصل الى المرفأ.

ونظر الى الاب دي دومينيس كأنه يكرر قوله: — ألم اقل ان النجمة ستنهض متألقة؟

وظلت عينا مادلين عالقتين بأمها، تتنفس حين تتنفس، مقلدة تنفّسها الضعيف، آخر خيط يربطها بالحياة، وقد تابعناه برعب خائفين ان ينقطع لدى أي جهد تبذله. وكانت الابنة كملاك على ابواب معبد، جشعة وهادئة، قوية وخاضعة. وفي تلك اللحظة دقّ الجرس في برج كنيسة القرية. وقذفت امواج الهواء على دفعات ذلك الرنين الذي كان يعلن لنا ان المسيحية بأجمعها تردد في هذه الساعة الاقوال التي قالها الملاك للمرأة التي افتدت اخطاء جنسها. في هذا المساء ظهر لنا «السلام لك يا مريم» تحيةً من السماء. وكانت النبوءة واضحة جداً والحادث

قريب جداً بحيث انهمرت دموعنا . وتمتمات المساء ، ونسيم منغم في اوراق الاشجار ، وآخر اغاريد العصافير ، وطنين الحشرات ، وخرير المياه ، ونقيق الضفدع الشاكي ، والحقول كلها كانت تودع اجمل زنبقة في الوادي ، تودع حياتها البسيطة الريفية . وهذه الشاعرية الدينية متحدةً مع جميع الشاعريات الطبيعية كانت توضح تماماً نشيد الرجل الذي كان بكاؤنا يردده . ومع ان باب الغرفة كان مفتوحاً فقد كنا غارقين في ذلك التأمل الرهيب كأننا نحفر ذكراها في نفوسنا الى الابد ، ولم نشاهد جميع خدم البيت راكعين جماعات حيث كانت تتلى صلوات حارة . ان جميع هؤلاء الناس المساكين ، المعتادين على الامل ، كانوا لا يزالون يعتقدون انهم يحتفظون بسيدتهم ، وهذه الدلالة الواضحة ارهقتهم . وباشارة من الاب بيروتو خرج السائس العجوز في طلب كاهن ساشيه . والطبيب الواقف بقرب السرير ، الهادىء كالعلم ، الممسك بيد المريضة المنومة ، أشار الى المرشد ليقول له ان هذه الاغفاءات هي آخر ساعة بدون ألم تبقى للملاك المستدعى . وجاءت ساعة منح المريضة اسرار الكنيسة الاخيرة.

في الساعة التاسعة استيقظت بهدوء ونظرت الينا بعين مندهشة، ولكنها هادئة، ورأينا معبودنا من جديد في جمال احلى ايامه. وصرخت مادلين :

– امي، انت جميلة جداً فلن تموتي، والحياة والصحة عادتا اليك.

فقالت وهي تبتسم :

– يا بنتي العزيزة، سأعيش، ولكن فيك.

وكانت عندئذٍ قبلات تمزق القلب من الام الى الاولاد، ومن الاولاد الى الام. وقبل السيد دي مورتسوف زوجته بورع في جبهتها، واحمر وجه الكونتس خجلًا مني. وقالت :

– يا عزيزي فليكس. هذا هو، كما اظن، الحزن الوحيد الذي سببته لك، انا! ولكن انس ما يمكن ان اقوله لك، انا المجنونة المسكينة التي كنتها – ومدت يدها فأخذتها لأقبلها،

فقالت لي عندئذٍ بابتسامتها اللطيفة المشبعة بالفضيلة : — كما في السابق يا فليكس .

وخرجنا كلنا ، وسرنا الى الصالون وبقينا طوال الوقت الذي استغرقه اعتراف المريضة الاخير . وجلست بالقرب من مادلين فلم تستطع الهرب مني امام الجميع بدون ان تظهر عدم التهذيب ، ولكنها لم تكن تنظر الى احد ، مقلدةً امها ، ولزمت الصمت دون ان تلقي عليّ نظرة واحدة ، فقلت لها بصوت منخفض :

— عزيزتي مادلين ، بماذا اسأت اليك ؟ ولم هذه العاطفة الباردة وامام الموت يجب ان يتصافى الجميع ؟

— اعتقد اني اسمع ما تقوله امي هذه اللحظة .

هكذا اجابت متخذة هيئة الرأس الذي وجده أنغر[1] لام

(١) دومينيك انغر ، مصور فرنسي (١٧٨٠ — ١٨٦٧) .

الله ، تلك العذراء المتألمـــة التي تستعد لحماية العالم الذي مات فيه ولدها .

– وانت تدينيني في اللحظة التي غفرت لي امك فيما لو كنت مذنباً .

– انت . ودائماً انت !

كانت لهجتها تفصح عن حقد رزين كحقد كورسكي ، حقدٍ لا يهدأ كأحكام اولئك الذين لا يقبلون اي تخفيف عن اخطاء ارتكبت ضد قوانين القلب ، شأن الذين لم يدرسوا الحياة . ومضت ساعة في صمت عميق . وعاد الاب بيروتو بعد ان تلقى اعتراف الكونتس دي مورتسوف العام . ودخلنا جميعاً ساعة ألبست هنرييت ثوباً طويلًا يصلح ان يكون كفناً ، وفقاً لاحدى هذه الافكار التي تستولي على تلك النفوس النبيلة ذات المقصد الواحد . ووجـــدناها في مجلسها ، جميلة في تكفيرها ، وجميلة في آلامها : رأيت في الموقـــد رماداً اسود لرسائلي التي احرقت ، وهي تضحية لم تكن تريد القيام بهـــا ، كما قال لي

مرشدها، الا في لحظة الموت. وابتسمت لنا جميعاً ابتسامتها الماضية. وكانت عيناها المرطبتان بالدموع مفتوحتين بشكل بديع، وكانت تشاهد آنذاك الافراح السماوية للأرض الموعودة وقالت لي وهي تمد يدها الي وتضغط على يدي :

— يا عزيزي فليكس. عليك ان تحضر مشهداً من مشاهد حياتي الاخيرة ولن يكون اقلها الماً ولكنك هنا لتشهد الكثير.

وأتت باشارة فأقفل الباب. وجلس الكونت بدعوة منها. اما الاب بيروتو وانا فظللنا واقفين. ونهضت الكونتس بمساعدة مانيت وركعت امام الكونت الذي عرته الدهشة، وارادت ان تبقى هكذا. ولكن حين انسحبت مانيت رفعت رأسها واسندته الى ركبتي الكونت المنذهل. وقالت له بصوت مضطرب :

— مع اني تصرفت حيالك كزوجة مخلصة، فمن الممكن ان اكون قد اخللت احياناً بواجباتي؛ لقد صليت الى الله ليمنحني القوة على ان اسألك غفران اخطائي. في عنايتي بصداقة خارج

حدود العائلة كنت اوليها التفاتاً فيـــه من المودة اكثر من الالتفات الذي يجب ان اوليك اياه . ومن الممكن ان يساورك الغيظ مني بسبب مقارنة تستطيع القيام بها حول هذه الاعتناءات وهذه الافكار وبـــين ما كنت امنحك . — وتابعت بصوت منخفض — لقد كان لي صداقة حية لم يعرفها بكاملها احد حتى هو الذي كان موضوع هذه الصداقة . ومــع انني ظللت امرأة فاضلة وفقاً للقوانين البشرية ، واني لك الزوجة التي لا عيب فيها، فقد كانت تجتاح قلبي في معظـــم الاحيان افكار طوعية او لا ارادية، واني خائفة في هذه اللحظة ان اجابه بها. ولكن مثلما احببتك بحنان، وظللت زوجتك الخاضعة، وبما ان الغيوم لم تفسد طهارتي وانا امر تحت السماء ، فها أنت تراني اطلب بركتك بجبهة نقية . اني اموت بدون اي فكرة مرة اذا سمعت من فمك كلمة حلوة لزوجتك بلانش ، لأم ولديك ، وغفرت لها هذه الامور التي لن تغفرها لنفسها الا بعد تأكيدٍ من المحكمة التي سنرجع كلنا اليها .

وهتف العجوز وهو يسكب دموعه فجأة على رأس امرأته :

ـ بلانش ، بلانش . اتريدين ان اموت ؟ ثم رفعها اليه بقوة غير مألوفة ، وقبل جبهتها بقداسة ، وابقاها هكذا ثم اضاف :

ـ اليس عندي ما اطلب عفوك عنه ؟ الم اكن قاسياً في الاحيان ، انا ؟ ألم تضخمي وساوس ولد ؟

فأجابت :

ـ ممكن ... ولكن يا صديقي كن متسامحاً مع ضعف المحتضرين ، دعني اطمئن . حين تصل الى هذه الساعة فستفكر انني تركتك وانا اباركك . اتسمح لي ان أترك لصديقنا هذا تلك الشهادة الدالة على عاطفة عميقة ؟ ـ قالت ذلك وهي تشير الى رسالة كانت على الموقد ـ انه الآن ولدي بالتبني ، هذا كل شيء . فالقلب يا عزيزي الكونت له وصاياه : وامنياتي الاخيرة تفرض على فليكس العزيز هذا اعمالاً مقدسة عليه ان يقوم بها ، ولا اعتقد اني غاليت في حسن الظن به ، فافعل كما لو انني لم اغال في حسن ظني بك بان تسمح ان اوصيه ببعض الافكار .

اني دائماً امرأة – قالت ذلك وقد حنت رأسها بكآبة حلوة – وبعد ان نلت غفرانك فاني اطلب اليك منّة.

ثم قالت وهي تقدم الي الرسالة السرية:

– اقرأ، ولكن بعد موتي.

ورأى الكونت شحوب لون امرأته فأخذها وحملها بنفسه الى السرير حيث احطنا بها. وقالت لي:

– قد اكون قد ارتكبت حيالك بعض الاخطاء يا فليكس. وغالباً ما سببت لـــك بعض الآلام بأن تركتك تعلل نفسك بمسرات تراجعت أمامها؛ ولكن ألست مدينةً لشجاعة الزوجة والام بموتي وانا على وفاق مع الجميع؟ اذن ستغفر لي انت أيضاً، انت الذي اتهمتني كثيراً وكان ظلمك يجلب لي السرور!

ووضع الاب بيروتو اصبعه على شفتيها، ولدى هذه الحركة احنت المحتضرة رأسها، وانتابها الضعف، فحركت يديها طالبة ادخال الكاهن وولديها وخدمها؛ وبحركة آمرة ارتني الكونت

المتلاشي وولديها اللذين دخلا . ان منظر هذا الاب الذي نعرف نحن وحدنا جنونه الخفي ، والذي أصبح وصياً على هذين الكائنين الرقيقين ، اوحى اليها توسلات صامتة سقطت على نفسي كنار مقدسة . وقبل أن تتلقى المسحة الاخيرة طلبت من خدمها ان يغفروا لها تعنيفها في بعض الاحيان ؛ وتوسلت اليهم ان يصلوا لأجلها ، واوصت الكونت بهم ؛ واعترفت بنبل انها تلفظت في الاشهر الاخيرة بشكاوى غير مسيحية كان من الممكن أن تشين أهل بيتها ؛ فقد كانت تبعد ولديها ، وتضمر عواطف غير لائقة ؛ ولكنها نبذت هذه العيوب بخضوعها لارادة الله فيما خص آلامها التي لا تحتمل . واخيراً ، وبصوت مرتفع من كل قلبها ، شكرت الاب بيروتو لانه اراها بطلان الامور البشرية . وحين انقطعت عن الكلام بدأت الصلاة ، ثم ناولها كاهن ساشيه القربان . وبعد لحظات تعثر تنفسها ، وانتشرت سحابة على عينيها اللتين فتحتها لتلقي على نظرة اخيرة ، وماتت أمام عيون الجميع وهي تسمع اصوات بكائنا . وبصدفة غير طبيعية في الريف ، سمعنا حينذاك صداحاً متبادلًا بين بلبلين رددا عدة مرات لحنها الوحيد الذي

كان ينساب صافياً كنداء حنون . وفي اللحظة التي صعدت فيها زفرتها الاخيرة ، آخر عذاب في حياةٍ كانت كلها عذاباً طويلًا، شعرت في داخلي بضربة اصابت قواي كلها. بقيت مع الكونت بقرب سرير الميتة طوال الليل ، ومعنا الكاهنان والخوري ، وظللنا ساهرين على ضوء الشموع ، والميتـة مسجاة على فراش سريرها ؛ الآن هدوء في المكان الذي لاقت فيـه الكثير من العذاب . وكان هذا اول اتصال لي بالموت . ظللت طوال تلك الليلة وعيناي عالقتان بهنرييت ، وقد خلبني ذلك التعبير الطاهر الناتج عن هدوء جميع العواصف ، وكذلك بياض الوجه الذي لا أزال ازينه بعواطفه الحبية التي لا تحصى ، ولكنه لم يكن يستجيب لحبي . أي جلال في هذا الصمت وفي هذا البرود ! وأي أفكار لا يوضحها ؟ واي جمـال في تلك الراحة المطلقة ؟ وأي استبداد في هذا السكون ؛ ان الماضي لا يزال فيها والمستقبل يبدأ . آه ! لقد احببتها ميتة اكثر مما احببتها حية . وفي الصباح ذهب الكونت لينام ، والكهنة الثلاثة ، وقد انهكهم التعب ، ناموا في تلك السـاعـة الثقيلة التي يعرفها جيداً اولئك الذين

يسهرون . واستطعت حينئذ ان اقبل جبهتها دون شهود بكل الحب الذي لم تسمح لي ابداً ان اعبر عنه .

وفي اليوم الثالث ، وفي صباح خريفي معتدل البرودة، رافقنا الكونتس الى مقرها الاخير ، وقد حملها السائس العجوز ، ومارتينوس وابنه ، وزوج مانيت . إنحدرنا في الطريق الذي طالما صعدت فيه فرحاً يوم عدت اليها ؛ واجتزنا وادي الاندر لنصل الى مقبرة ساشيه الصغيرة . مقبرة قروية قائمة خلف الكنيسة ، وراء تلة ، حيث أرادت ان تدفن بتواضع مسيحي مع صليب بسيط من الخشب الاسود كأي امرأة فقيرة من تلك الاراضي ، كما قالت . وحين شاهدت من منتصف الوادي كنيسة القرية ومكان المقبرة اصابني ارتعاش مصحوب بتشنج . يا للاسف ! إن لنا جميعاً في هذه الحياة جلجلة نترك عليها سنواتنا الثلاث والثلاثين ونحن نتلقى طعنة حربة في القلب ، ونشعر على رأسنا بتاج الشوك الذي يحل محل تاج الورود : هذه التلة يجب ان تكون لي جبل التكفير . وتبعنا جمهور غفير جاء مسرعاً ليظهر أسف هذا الوادي الذي كانت تدفن فيه سراً ،

لثيراً من اعمـــال الخير . وقد عرفنا من مانيت وهي كاتمة اسرارها انها كانت تقتصد من نفقات زينتها لتساعد الفقراء اذا لم تكف مدخراتها . أولاد عراة تكسوهم ، وأقمطة اطفال ترسلها، وامهات تعينهن ، وأكياس قمح تدفع اثمانها للطحانين في الشتاء لتوزع على شيوخ عجزة ، وبقرة تعطى لعائلة فقيرة ؛ وأخيراً اعمالها كامرأة مسيحية وام وربة قصر ، وبائنات لتجمع زوجين تحابا ، وتعويضات لفتيان تخلى عنهم القدر . انها تقدمات مؤثرة من المرأة المحبة التي كانت تقول : — « ان سعادة الآخرين هي عزاء اولئك الذين لا يستطيعون ان يكونوا سعداء .» هـــذه الامور التي كانت موضوع الاحاديث في جميـع السهرات منذ ثلاثة ايام جعلت الجمهور المشيع كبيراً جداً . كنت اسير وراء النعش مع جاك والكاهنين . وحسب العادة المتبعة لم تكن مادلين ولا الكونت معنا اذ بقيا وحدهما في كلوشيغورد. اما مانيت فأبت الا ان تأتي . وكثيراً ما سمعت من خلال الدموع، وفي عدة مناسبات ، اصوات تصرخ :

— السيدة المسكينة ! السيدة المسكينة !

وفي اللحظة التي ترك فيها الموكب سد الطواحين ارتفع نحيب اجماعي ممزوج بالبكاء مما يحدو الى الظن ان هذا الوادي كان يبكي روحه . وكانت الكنيسة ملأى بالناس . وبعد الصلاة سرت الى المقبرة حيث ستدفن بقرب الصليب . وحين سمعت دحرجة الحصى وحصباء الارض على التابوت فارقتني شجاعتي وترنحت ، فرجوت مارتينوس وابنه ان يسنداني، وسارا بي بين الموت والحياة حتى قصر ساشيه ، فقدم لي اصحابه مأوى قبلته وأعترف لك انني لم اكن اريد العودة الى كلوشيغورد . وكنت اكره وجودي في فرابسل حيث استطيع رؤية قصر هنرييت . فهنا كنت قريباً منها ، فبقيت عدة ايام في غرفة تفتح نوافذها على هذا الوادي الهادىء المنعزل الذي حدثتك عنه . انه ثنية واسعة من الارض تحوطها أشجار السنديان المعمرة اكثر من مائتي سنة ، يجري فيها سيل ناتج عن الامطار الغزيرة . وكان هذا المنظر يناسب التأمل القاسي الاحتفالي الذي اريد ان انصرف اليه . وأدركت اثناء النهار الذي عقب الليلة المشؤومة كم سيكون وجودي معها في كلوشيغورد ، فقد انتاب الكونت

تأثير عنيف بسبب موت هنرييت ، ولكنه كان ينتظر هـذا الحادث الرهيب ، وفي اعمـــاق تفكيره عزم يشبه عدم المبالاة شعرت به عـــدة مرات . وحين تركت لي الكونتس ، وهي راكعة ، تلك الرسالة التي لم اجرؤ على فتحها ، وحين تحدثت عن حبها لي ، فان هذا الرجل لم يلق علي النظرة الماحقة التي كنت انتظرها منه . فقد كان يعزو كلام هنرييت الى الرقة المتناهية لذلك الضمير الذي يعرفه كثير الطهارة . وهـذا اللاإحساس من رجـــل اناني كان طبيعياً . روحا هذين الكائنين لم يتزوجا كجسديها ولم يكن بينهما تلك الاتصالات المستمرة التي تحيي العواطف ؟ ولم يتبادلا الهموم ولا المسرات ، تلك الروابط المتينة التي تحطمنا في الف نقطة اذا ما انفصمت لانها تتصـل بكل عروقنا ولانها مرتبطة في حنايا قلوبنا ، وفي الوقت نفسه تلاطف الروح التي تمكن كلاً من هذه الصلات . ان عـداوة مادلين اقفلت كلوشيغورد في وجهي . فـــهذه الفتاة القاسية لم تكن مهيأة لعقد هدنة مع حقدها على تابوت امها . وقد كنت قلقاً بشكل فظيع لوجودي بين الكونت الذي كان يحدثني عن

نفسه ، وبين ربة البيت التي خصتني باشمئزاز لا يغلب . أأكون هكذا هنا ، حيث كانت الزهور نفسها تلاطفني فيما مضى ، ودرجات السلم طلقة ، وحيث كانت ذكرياتي جميعها تسبغ الشاعرية على الشرفات ، والحجاره المستديرة ، والشرفات ، والسطيحات ، والاشجار والمشارف؟ أأكون مكروهاً هنا حيث كان كل شيء يحبني ! اني لا استطيع احتمال هذه الفكرة. ثم اني ازمعت على امر منذ البدء. واأسفاه ! هذه اذن نهاية اعظم حب خالج قلباً بشرياً . ان سلوكي في نظر الاغراب سيكون موضع شبهة لكن ضميري مطمئن اليه . انظري كيف تنتهي اجمل العواطف واعظم مآسي الشباب . نسير كلنا تقريباً عند الصباح ، كما كنت اسير من تور الى كلوشيغورد ، مستحوذين على الناس ، والقلب جائع للحب ؛ ثم حين مرت ثرواتنا في البوتقة ، حين اختلطنا بالناس والحوادث ، صغر كل شيء لاشعورياً ، ووجدنا قليلاً من الذهب في كثير من الرماد . هذه هي الحياة ! الحياة كما هي . اوهام كبيرة وحقائق صغيرة . تأملت طويلاً في نفسي متسائلاً ماذا أفعل بعد ضربة حصدت كل زهوري . عزمت على الانطلاق نحو السياسة والعلم ، في دروب

الطمع الملتوية، وان اطرد المرأة من حياتي، وان اكون رجل دولة بارداً دون عاطفة، وان أظل وفياً للقديسة التي احببتها. كانت تأملاتي تنطلق على مدى البصر بينما ظلت عيناي عالقتين بالبساط البديع من اشجار السنديان المذهبة ذات الرؤوس الصارمة والاقدام البرونزية: وتساءلت هل فضيلة هنرييت لم يكن مصدرها الجهل، وهل حقاً سببت موتها. كنت اتخبط بين وخزات ضميري واخيراً، في ظهيرة لطيفة من احد ايام الخريف، واحدة من آخر ابتسامات السماء الكثيرة الجمال في التورين، قرأت رسالتها التي كان علي الا أفتحها الا بعد موتها، وفقاً لوصيتها. ولك ان تحكمي على انفعالاتي وانت تقرئينها!

رسالة من السيدة دي مورتسوف

الى الفيكونت فليكس دي فاندنيس

« فليكس، يا احب صديق، علي الآن ان افتح لك قلبي، لا لأظهر حبي لك بل لأنبئك بعظمة التزاماتك وذلك بأن

اكشف لك القناع عن مدى عمق الجراح التي احدثتها فيه . في اللحظة التي سقطت منهوكةً من تعب الرحلة ، موهنة من الاصابات التي تلقيتها اثناء المعركة ، كان من حسن الحظ ان المرأة فيَّ قد ماتت ، وظلت الام وحدها حية . وسترى يا عزيزي كيف كنت السبب الاول لآلامي . واذا كنت فيما بعد اقدم نفسي بسرور لضرباتك فاني اليوم اموت مصابةً بآخر جرح منك ؛ لكن هناك لذات فائقة الوصف في ان يشعر المرء انه تحطم بواسطة من يحبه . في بادىء الامر حرمتني الآلام من قوتي فوضعت قيد الاستعمال آخر اشعة ذكائي لأرجوك ايضاً ان تحل بقرب ولديَّ محل القلب الذي حرمتها منه . ولو كان حبي لك اقل مما هو لفرضت عليك هذا العبء بداعي السلطة ؛ ولكني افضل ان ادعك تحمل هذا العبء بنفسك ، بعامل ندامة مقدسة ، وكاستمرار لحبك ايضاً : ألم يكن الحب فينا ممزوجاً بشكل مستمر بتأملات ندامة ومخاوف تكفير ؟ اننا نحب بعضنا البعض دائماً ، وانا اعلم ذلك ولم يكن خطأك سيء المغبة بعامل منك بل بالدوي الذي جعلته يحدثه في داخل نفسي . ألم اقل لك انني

كنت غيورة، غيورة حتى الموت؟ ايه! حسناً، اني اموت، فتعزَّ: لقد ارضينا القوانين البشرية. وقالت لي الكنيسة بأحد اطهر اصواتها ان الله يتسامح مع الذين ضحوا بميولهم الطبيعية تنفيذاً لأوامرها. عليك يا صديقي ان تعلم كل شيء اذن، لأنني لا اريد ان تظل جاهلاً اية فكرة من أفكاري. وما اسررته الى الله في لحظاتي الاخيرة يجب ان تعرفه انت ايضاً، فأنت ملك قلبي كما هو ملك السماء. لقد تركني الزواج في حالة جهل يكسب نفوس الفتيات جمال الملائكة حتى في تلك الحفلة التي اقيمت على شرف الدوق دانغوليم، وهي الحفلة الوحيدة التي حضرتها. لقد كنت اماً، وهذا صحيح، ولكن الحب لم يقترب مني ابداً بلذاته المسموح بها. كيف بقيت هكذا؟ لا ادري عن ذلك شيئاً. ولم اعرف ايضاً بأي ناموس تغير كل شيء في نفسي في لحظة. الا تزال اليوم تذكر قبلاتك؟ انها سيطرت على حياتي، لقد خددت نفسي؛ لحرارة دمك ايقظت حرارة دمي، وشبابك نفذ الى شبابي، ورغباتك دخلت قلبي. وحين نهضت بكثير من الكبرياء كنت اشعر بإحساس لا أعرف عنه كلمة في اية

لغة . فالاولاد لم يجدوا بعد ذلك الكلام الذي يفسر تزاوج النور وعيونهم ، ولا قبلة الحياة على شفاههم . نعم ، لقد كان ذلك هو الصوت الآتي في الصدى ، النـــور الملقى في الظلمات ، الحركة المعطاة للكون . وكان سريعاً لجميع هذه الامور ؛ لكنه اجمل منها بكثير ، لان ذلك كان حياة للنفس ! اني ادرك وجود ما لا اعرف من مجهول بالنسبة الي في العالم ، قوة اجمل من الفكر ، انها كل الافكار ، كل القوى ، انـــه مستقبل قائم في انفعال مقتسم. لم اكن اشعر اني ام إلا نصف شعور. وحين سقطت ضربة الصاعقة تلك على قلبي انارت فيه رغبات كانت نائمة دون ان اعلم؛ وادركت فجأة كل ما كانت تقصد خالتي ان تقوله حين قبلتني على جبهـــتي وهي تهتف : — يا لهنريت المسكينة ! وبعودتي الى كلوشيغورد فان الربيع ، والاوراق الاولى ، وعطر الزهور ، والغيوم الجميلة البيضاء ، والاندر ، والسماء ، كانت كلها تحدثني بلغة كانت حتى ذلك الوقت غـــير مفهومة ، وردت الى نفسي قليلًا من الحركة التي كنت رسمتها لحياتي . ان كنت نسيت تلك القبلات الرهيبة فاني لم استطع ابداً ان امحوها من ذاكرتي ؛

اني اموت منها ! في كل مرة رأيتك بعدها كنت تنعش طابعها ، كنت متأثرة لمنظرك من الرأس الى القـــدم ، بمجرد احساسي بوصولك . فلا الزمن ، ولا ارادتي الثانية استطاعت اخضاع تلك اللذة الآمرة . وتساءلت لاإرادياً : ماذا يجب ان تكون اللذات؟ نظراتنا المتبادلة ، قبلات الاحترام التي طبعتها على يدي ، ذراعي الموضوع على ذراعك ، صوتك ذو النبرات الحنون ، كانت اقل الاشياء تحركني بشدة وتنشر سحابة على عيني بصورة دائمة : كانت اذن ضجة الحواس المتمردة تملأ اذني . آه ! لو انـــك أخذتني بين ذراعيك في تلك اللحظة التي كنت اضاعف فيها برودي لكنت مت من السعادة . كنت احياناً أشعر بالرغبة في بعض العنف منك. لكن الصلاة كانت تطرد تلك الفكرة الشنيعة بسرعة . وكان اسمك حين يلفظه أولادي يفعم قلبي بدم أكثر حرارة يلون وجهي توّاً . وكنت استدرج مادلين المسكينة لأجعلها تقول . لـكم أحببت غليان هذا الاحساس . ماذا أقول لك ؟ ان لكتابتك سحراً . كنت انظر الى رسائلك كما يتأمل المرء صورة . نعم ، منذ اليوم الاول اكتسبت لا أدري أية سلطة

مشؤومة علي، وانت تدرك يا صديقي انهـــا تصبح لانهائية حين اعطيت موهوبة قراءة ما في نفسك . اي لذة غمرتني حين وجدتك نقياً ، صادقاً متحلياً بصفات جميلة ، قادراً على امور عظيمة ، والآن كثير الخبرة . رجل وولد ، خجل وشجاع ! وأي فرح غمرني حين رأيت اننا نحن الاثنين ممسوحان بآلام مشتركة ! منذ تلك الامسية التي تبادلنا فيها الاعترافات ، اصبح فقدك يعني الموت عندي : ابقيتك الى جانبي بداعي الانانية . ان تأكد السيد ديلابرج من الموت الذي سببه بعدك عني اثر به كثيراً ، لأنه كان يقرأ ما في نفسي . الا انه قضى بان وجودي ضروري لولدي وللكونت : لم يأمرني ابداً ان اقفل بيتي في وجهك، لأني وعدته ان ابقى نقية عملًا وتفكيراً . وقد قال لي : ـ ان التفكير غير خاضع للارادة ، ولكن حراسته ممكنة وسط العذاب . اجبته : ـ « لو فكرت لضاع كل شيء ، انقذني من نفسي ! إفعل ما بوسعك ليبقى بقربي ولابقى طاهرة ! » ومع ان الرجل العجوز كان كثير الصرامة الا انه كان متساهلًا آنذاك بكثير من سلامة النية قال : ـ «تستطعين ان تحبيه كما تحبين ولدك، وذلك بان تكرسي له ابنتك». وبكثير من الشجاعة قبلت حياة العذاب

لئلا افقدك ؛ وتعذبت ولكن بحب حين رأيت اننا مربوطان بنفس النير . يا الهي ! لقد بقيت جامدة ، مخلصة لزوجي ، ولم ادعك تقوم بأية خطوة يا فليكس في مملكتك الخاصة . ان عظمة حبي اثرت على قواي ، وكنت ارى في العذاب الذي رماني به السيد دي مورتسوف تكفيراً ، وكنت احتمله بكبرياء لأذل ميولي المجرمة . في السابق كنت على استعداد للتذمر ، ولكن ما ان بقيت بقربي حتى استعدت بعض المرح الذي رأى فيه السيد دي مورتسوف بادرة خير. ولولا هذه القوة التي منحتنيها لأذعنت منذ وقت طويل لحياتي الداخلية التي حدثتك عنها . واذا كنت سبباً للكثير من اخطائي فقد كنت السبب في كثير من قيامي بواجباتي ، والامر كذلك مع ولديّ . كنت أعتقد انني حرمتهما من شيء ، وأخشى الا أقوم لهما بما يكفي . وكانت حياتي منذ ذلك الوقت المـــاً مستمراً أحببته . وحين شعرت انني أقل أمومة وأقل فضيلة ، إستوطن توبيخ الضمير قلبي ، وخشية ألا أقوم بالتزاماتي فانني كنت أريد أن أتخطاها دائماً . ولكي لا أخفق وضعت مادلين بينك وبيني وكرستكما

الواحد للآخر رافعة بهذا العمل الحواجز بيننا نحن الاثنين . حواجز عاجزة ! فما من شيء كان يستطيع إيقاف الارتعاشات التي كنت تسببها لي . وسواء أكنت حاضراً ام غائباً فقد كانت لك القوة نفسها . وفضلت مادلين على جاك لان مادلين ستكون لك . ولكني لم اتخلى عنك لابنتي دون كفاح . كنت أقول لنفسي انني لم أتجاوز الثامنة والعشرين ، حين التقيت بك ، وكنت انت في الثانية والعشرين تقريباً ؛ فقربت المسافات ، وانصرفت الى آمال كاذبة . اوه ! يا الهي ، لقد سردت عليك هذه الاعترافات لأوفر عليك عذاب الضمير ، وقد يكون ذلك لأعلمك انني لست فاقدة الحس ، وان آلامنا في الحب كانت متساوية فى قسوتها ، وان ارابيل ليس لها اي تفوق علي . فقد كنت أيضاً إحدى بنات هذا العرق المنحط الذي يحبه الرجال كثيراً . ومرت لحظة كان الصراع فيها هائلاً بحيث كنت ابكي في جميع الليالي: وسقط شعري، وقد حصلت عليه ! انت تذكر المرض الذي أصاب السيد دي مورتسوف . وعظمة نفسك يوم ذاك لم ترفعني بل صغرتني . يا للأسف ! كنت

أتمنى منذ ذلك اليوم ان استسلم اليك كمكافأة على هذه البطولة العظيمة ! ولكن هذا الجنون كان قصيراً فقد وضعته علـــى قدمي الرب اثناء القداس الذي رفضت ان تحضره . وبدا لي مرض جاك وعذاب مادلين كتهديد من الله الذي كان يأخذ اليه النعاج الضالة . ثم ان حبك الطبيعي لتلك الانكليزية كشف لي اسراراً كنت اجهلها . كنت احبك أكثر مما كنت اظن اني احبك . واختفت مادلين . ان الانفعالات الدائمة لحياتي العاصفة، والجهود التي بذلتها لاخضع نفسي دون اية معونة سوى معونة الدين ، كل هذا أعد المرض الذي اموت فيه . ان هذه الضربة الهائلة وضعت حداً للأزمات التي كنت التزم السكوت عنها . كنت أرى في الموت النهاية الوحيدة الممكنة لتلك المأساة المجهولة . ان فيها حياة مسلوبة ، غيورة ، مهتاجة اثناء الشهرين اللذين مرا بين الخبر الذي جاءني من امي عن علاقتك بالليدي ديدلي وبين مجيئك . كنت اريد الذهاب الى باريس ، كنت متعطشة للقتل ، واتمنى موت هذه المرأة ، ولم اكن اشعر بداعبات ولديّ . والصلاة التي كانت كالبلسم حتى

ذلك الوقت اصبحت بدون تأثير على نفسي ، فقد فتحت الغيرة الثلمة الواسعة التي دخل منها الموت . ومـع ذلك ظللت هادئة الجبين . نعم ، ان ذلك الفصل من المعارك كان سراً بين الله وبيني. وحين تأكدت من انني كنت محبوبة اكثر مما احببتك انا نفسي ، وانك خنتني بدافع الطبيعة لا بتفكيرك ، اردت ان أعيش ... ولم يعد هناك وقت. فقد وضعني الله تحت حمايته ، واخذته الشفقة على مخلوقة صادقة مـــع نفسها ، وصادقة معه ، وكانت آلامها تُطرح على ابواب المعبد في أغلب الاحيان . يا حبيبي ، لقد قاضاني الله ، والسيد دي مورتسوف سيغفر لي دون شك . ولكن انت ، هـــل تكون رحيماً ؟ هل ستسمع الصوت الخارج من قبري في هـــذه اللحظة ؟ وهل ستتدارك المصائب التي كنا سببها نحن الاثنين ، وانت اقل مني تقريباً ؟ انت تعرف ما سوف اطلبـــه منك . كن الى جانب السيد دي مورتسوف كما راهبات المحبة بجانب مريض . إصغ اليـه ، واحببه لأنه لن يجد من يحبه ، وتوسط بينه وبين ولديه كما كنت افعل . ولن تكون مهمتك طويلة الامد : فجاك سيترك البيت

ليذهب الى باريس ليكون بجانب جده . وقد وعدتني ان ترشده خلال مهالك هذا العالم . اما مادلين فانها ستتزوج ؛ ومن الممكن ان تنال اعجابها ذات يوم ! انها انا نفسي ، وفضلاً عن ذلك فهي قوية ، وتملك تلك الارادة التي كانت تنقصني ، وتلك القوة الفاعلة الضرورية لرفقة رجل مهمته مكرسة لزوابع الحياة السياسية . انها مستقيمة وثاقبة النظر ، فاذا اتحد مصيركما فستكون اكثر سعادة من امها . وبهذا تكتسب الحق بإكمال عملي في كلوشيفورد . وتمحو اخطاء لم يكفر عنها التكفير الكافي مع انها غفرت في السماء وعلى الارض ، لأنه كريم وسيغفر لي . اني كثيرة الانانية كما ترى . ولكن اليس في هذا برهان على حب مستبد ؟ اريد أن تحبني في أهل بيتي . واني وان لم استطع أن أكون لك ، فقد تركت لك افكاري وواجباتي ! واذا كانت محبتك لي قليلة لا تضطرك الى طاعتي ، واذا لم تشأ أن تتزوج مادلين ، فستسهر على راحة نفسي على الاقل بان تجعل السيد دي مورتسوف سعيداً كما يستطيع ان يكون .

وداعاً يا ابن قلبي العزيز ، فهنا هو الوداع المليء بالعقل ،

المليء بالحياة ، وداع روح نشرت عليها الكثير من الافراح لتشعر بأقل ما يمكن من عذاب الضمير بسبب الكارثة التي نتجت عن هذه الافراح . اني أستعمل هذه الكلمة ، وأنا أفكر أنك تحبني ، لأني وصلت الى مكان الراحة ضحية الواجب ، وهذا ما يجعلني ارتعش ، وليس بدون أسف ! والله يعرف أفضل مني هل طبقت هذه القوانين المقدسة وفقاً لروحه . وما من شك في انني ترددت في أغلب الاحيان لكني لم أسقط أبداً . وأقوى عذر لاخطائي هو في عظم الاغواءات التي احاطت بي . وسيراني الله مرتعشة كما لو أنني ذللت . وداعاً أيضاً . انه وداع شبيه بالوداع الذي قمت به البارحة لوادينا الجميل الذي سأرتاح في صدره حيث ستأتي في أغلب الاحيان ، اليس كذلك ؟ «هنرييت»

وغرقت في مهواة من التفكير مشاهداً الاعماق المجهولة لهذه الحياة المضاءة آنذاك بتلك اللهبة الاخيرة . لقد تبددت غيوم أنانيتي . إذن فهي تعذبت مثلي ، أكثر مني ، لأنها ماتت . كانت تعتقد ان على الآخرين ان يحسنوا التصرف حيال صديقها ؛ وقد أعماها حبي فلم تخالجها اية ريبة بحقد ابنتها . وهذا البرهان الاخير

على حنانها بعث الامل في نفسي . مسكينة هنرييت التي تريد ان تعطيني كلوشيغورد وابنتها !

منذ ذلك اليوم الرهيب يا ناتالي الذي دخلت فيه الى المقبرة مرافقاً جثمان تلك الهنرييت النبيلة التي تعرفينها الآن ، اصبحت الشمس أقل حرارة وأقل تألقاً ، والليل أشد ظلاماً ، والحركة أقل سرعة ، والتفكير أكثر ثقلاً . هناك اشخاص ندفنهم في الارض ، لكن هناك آخرون أعزاء علينا ، نجعل من قلوبنا أكفاناً لهم ، وتمتزج ذكرياتهم كل يوم بخلجات نفوسنا ! اننا نفكر بهم كما نتنفس . إنهم فينا بقانون التقمص اللطيف الصالح للحب . ثمة نفس في نفسي . فحين اقوم ببعض الخير ، وحين اقول كلمة لطيفة ، فان تلك النفس تتكلم وتتحرك ؛ وكل ما لدي من صالح يصدر عن هذا القبر ، كزنبقة يفعم عطرها الجو . اما السخرية والشر وكل ما تأخذينه علي فيأتي مني . والآن ، حين أظلمت عيناي بسحابة ، وتعلقتا بالسماء بعد ان تأملتا الارض طويلاً ، وحين اصبح فمي صامتاً عن كلامك وعن عنايتك ، فلا تسأليني أبداً ! — «بماذا تفكر ؟ »

يا ناتالي العزيزة ، لقد انقطعت عن الكتابة بعض الوقت ، فهذه الذكريات اثرت بي كثيراً. وانا الآن مدين لك بقصة هذه الحوادث التي تلت الكارثة ، والتي تحتاج الى شيء من الكلام . فاذا كانت الحياة لا تتألف الا من عمل وحركة ، فان كل شيء قد قيل ؛ ولكن حين تتغلغل في أسمى مناطق النفس فان تاريخها يكون مسهباً . لقد انارت رسالة هنرييت أملًا أمام عيني . فقد شاهدت في هذا الغرق الكبير جزيرة استطيع اللجوء اليها . فالعيش في كلوشيغورد بجانب مادلين مكرساً لها حياتي ، مصير ترضى عنه جميع الافكار التي تتحرك في قلبي ؛ ولكن يجب معرفة أفكار مادلين الحقيقية . كان علي ان اودع الكونت ، فذهبت الى كلوشيغورد لأراه ، فالتقيته على السطيحة ، وتنزهنا طويلًا . حدثني أولًا عن الكونتس كرجل يعرف مدى خسارته ، وعن جميع الاضرار التي سببتها لحياته الداخلية . ولكن ما ان انتهت اول صرخة من المه حتى بدا مهتما بالمستقبل اكثر منه بالحاضر . كان يخاف من ابنته التي لا تتحلى برقة امها كما قال لي . فطبع مادلين الصلب المنطوي على شيء

بطولي لا ادري كنهه والممتزج بمزايا امها اللطيفة، كان يخيف هذا العجوز المعتاد على حنان هنرييت ، وينبىء بارادة لا يلويها شيء. اما مايمكن ان يعزيه عن هذه الخسارة التي لا تعوض فهو تأكده من انه سيلحق بزوجته قريباً : ان بلبلات واحزان تلك الايام الاخيرة زادت حالته المرضية سوءاً ، وايقظت آلامه القديمة ؛ والمعركة التي على وشك النشوب بين سلطته كأب وسلطة ابنته التي اصبحت سيدة البيت ستجعله ينهي ايامه في الكرب ، اذ عليه ان يخضع لابنته هنا حيث استطاع ان يصارع امرأته . ومع ذلك فولده سيرحل ، وابنته ستتزوج ، اي صهر سيكون صهره ؟ ومع انه كان يتكلم عن موته السريع ، فقد كان يشعر انه وحيد ، وانه سيظل لوقت طويل بدون اي عطف .

في تلك الساعة التي لم يتحدث فيها إلا عن نفسه طالباً صداقتي باسم زوجته انتهى من ان يرسم لي صورة المهاجر الكبيرة كاملة، وهي احد النماذج الاكثر وقاراً في عصرنا . كان ضعيفاً محطماً في الظاهر ، لكن الحياة تبدو مستمرة فيه بسبب اخلاقه العفيفة

واشغاله في الحقول . انه لا يزال حياً في هذه اللحظة التي اكتب فيها . كانت مادلين تستطيع مشاهدتنا ونحن نتمشى على السطيحة الا انها لم تنزل الينا ، بل تقدمت نحو الدرج ودخلت الى البيت عـدة مرات لتسجل احتقارها لي . واغتنمت فرصة مجيئها الى الدرج فرجوت الكونت ان يصعد الى القصر لأن عنـــدي ما اقوله لمادلين ، متذرعاً بآخر ارادة للكونتس عهدت بها الي . ولم يكن هناك غير هـــذه الوسيلة لأراها . فذهب الكونت يدعوها وتركنا وحدنا على السطيحة . قلت لها :

— عزيزتي مادلين ، اذا كان من واجبي أن اكلمك فهنا حيث اصغت امك الي وهي تشكو من أحداث الحياة اكثر مما تشكو مني . اني أعرف أفكارك ، ولكن لا تسرعي بادانتي دون ان تعرفي الوقائع . ان حياتي وسعادتي مرتبطتان بهذه الاماكن ، وانت تعرفين ذلك ، ولكنك تبعدينني عنها بالبرودة التي جعلتها تعقب الصداقة الاخوية التي كانت تجمعنا ، وان موتها قد شدّد الرباط بألم مشترك . عزيزتي مادلين ، انت التي أبذل حياتي فوراً في سبيلها بدون اي امل بمكافاة ، وحتى بدون ان تعرفي

ذلك ما دمنا نحب اولاد اولئك الذين بسطوا حمايتهم علينا في الحياة. انت تجهلين المشروع الذي داعب خيال امك المعبودة اثنـــاء تلك السنوات السبع ، والذي سيبدل عواطفك دون شك ؛ ولكني لا اريد شيئاً من تلك المكاسب. كل ما ارجوه منك هو ان لا تنتزعي مني الحق بالمجيء لاستنشاق هواء هـذه السطيحة وانتظار الوقت ليغير افكارك حول الحياة الاجتماعية؛ اني احرص في هـــذه اللحظة على الاّ اصطدم بأفكارك ؛ واني احترم الالم الذي اضاع صوابك لأنه انتزع مني الحكم السليم على الظروف التي اجدني فيها. والقديسة التي تسهر علينا في هـذه اللحظة تستصوب الاحتراز الذي الزم نفسي به ، واني اتوسل اليك لتبقي حيادية فقط بين عواطفك وبيني . اني احبك كثيراً رغم ما أبديت نحوي من كراهية، وهذا الحب يدفعني الى ان أشرح للكونت مخططاً يتبناه بحماس. كوني حرة ، وفكري فيما بعد بانك لم تعرفي إنساناً في العالم أفضل مما تعرفينني ، وانـه ليس هناك انسان يحمل في قلبه من عواطف أخلص من عواطفي .

كانت مادلين تصغي وعيناهـــا منخفضتان . وهنا اوقفتني باشارة ، وقالت بصوت يرتجف انفعالًا :

ـ وأنا أيضاً أعرف كل أفكارك ياسيد ؟ لكني لن أغير عواطفي بصددك ، وأحب ان التي بنفسي في الاندر على أن أرتبط بك . اني لن أكلمك عن نفسي ! لكن اذا كان اسم والدتي لا يزال يحتفظ ببعض السلطة عليك ، فباسمها أرجوك ألا تأتي قط الى كلوشيغورد ما دمت فيها . ان منظرك وحـــده يسبب لي اضطراباً لا أستطيع تفسيره ولن أتغلب عليه قط .

وحيتني بحركة كلها عظمة وصعدت نحو كلوشيغورد دون أن تلتفت ، ثابتة الجنان كما كانت أمها ذات يوم ، لكنها خالية من الشفقة . ان عين هـــذه الفتاة الثاقبة أدركت ، ولو متأخرة ، كل شيء في قلب أمها وربما زاد حقدها ، عـــلى رجل بدا لها مشؤوماً ، بعض الحسرات بسبب اشتراكها البريء في الذنب . كان كل شيء كالهاوية هنا . مادلين تكرهني دون أن تستوضح هل أنا مسبب هذه المصائب ام ضحية لها . لربما كانت

تبغضنا بالتساوي ، امها وأنا ، فيما لو كنا سعيدين ، هادمة بذلك كل شيء في بناء سعادتي الجميل . لقد اضطررت وحدي ان اعرف حياة هذه المرأة العظيمة المجهولة بكاملها ، ووحدي كنت في سر عواطفها، ووحدي طفت روحها بجميع امتداداتها؛ فلا امها ولا أبوها ، ولا زوجها ، ولا اولادها عرفوها . شيء غريب ! اني أنبش هذه الكومة من الرماد فاجد سروراً في عرضها امامك ، وبامكاننا جميعاً أن نجد فيها شيئاً من أعز ما نملك. كم من عائلات لها هنرييتها ! وكم من كائنات حية تترك الارض دون ان تلاقي مؤرخاً ذكياً يسبر أغوار قلوبها ويقيس عمقها واتساعها ! هـــذه هي الحياة البشرية بكل حقيقتها ؛ في الغالب لا تعرف الامهات أولادهن كما أن أولادهن لا يعرفونهن ؛ وكذلك الامر مـــع أزواج وعشاق واخوة ! وهل أعرف انا سوى اني ذات يوم ، وعلى تابوت والدي نفسه ، سوف أخاصم شارل دي فاندنيس أخي ، بسبب الترقية التي ساهمت فيها كثيراً ؟ يا إلهي ! كم من تعلم في أبسط تاريخ . حين اختفت مادلين في باب الدرج عدت محطم القلب لأودع مضيفي وأرحـــل الى باريس محاذياً ضفة

الاندر اليمنى التي أتيت منها الى هذا الوادي لاول مرة . ومررت كئيباً خلال قرية بون دي روان الجميلة . ومع ذلك فقد كنت غنياً ، والحياة السياسية تبسم لي . ولم أكن رجل عام ١٨١٤ المنهوك . ففي ذلك الوقت كان قلبي مليئاً بالرغبات ، أما اليوم فعيناي مليئتان بالدموع ؛ في السابق كان علي ان املأ حياتي ، واليوم اشعر بها مقفرة . كنت لا أزال صغيراً ، وأنا في التاسعة والعشرين ، وكان قلبي ذابلاً . وكانت عدة سنوات كافية لتجريد هذه المناظر الريفية من بهائها الاول ولتجعلني اتقزز من الحياة وبامكانك الآن ان تدركي مبلغ تأثيري حين التفت ورأيت مادلين على السطيحة .

لم افكر في هدف رحلتي وانا واقع تحت تأثير حزن لا يقهر . كانت الليدي ديدلي بعيدة جداً عن تفكيري لكي أدخل الى بلاطها دون أن أعلم . وقد ارتكبت الحماقة مرة فوجب ان ادعمها . كان لي منها عادات زوجية . صعدت حزيناً وأنا أفكر في كل متاعب الانفصال . ان كنت فهمت جيداً طبع الليدي ديدلي وسلوكها فستتخيلين خيبة املي حين أدخلني رئيس خدمها

وهو بثياب السفر الى صالون وجدتها فيه بملابس فخمة يحوطها خمسة اشخاص . كان اللورد ديدلي ، أحد رجال الدولة القدماء وأشهرهم في انكلترا ، واقفاً أمام الموقد متكلفاً الوقار ، مليئا بالعجرفة ، بارداً ، ذا هيئة ساخرة فرضها عليه البرلمان . وقد ابتسم حين سمع اسمي . وهناك ايضاً ولدا أرابيل اللذان يشبهان دى مارسي أحد ابناء اللورد العجوز غير الشرعيين شبهاً عظيماً . والذي كان هناك بقرب المركيزة على الاريكة والولدان كانا بقرب امها .

حين رأتني ارابيل اتخذت هيئة متكبرة . وثبتت نظرها على قبعة السفر التي اعتمرها ، كأنها تريد ان تسألني في كل لحظة عما أتيت افعل عندها . وأخذت تقايسني كما تفعل مع نبيل ريني قدم اليها . اما مودتنا القلبية ، وتلك المحبة الابدية ، وتلك الاقسام بأن تموت اذا انقطعت عن حبها ، والافراط في استخدام الخوارق التي يتقنها ارميد كل هذا اختفى كالحلم . كنت كأني لم اشد على يدها ابداً ؟ كنت غريباً ، لا تعرفني . ورغم الدم البارد الدبلوماسي الذي بدأت اعتاد عليه فقد فوجئت . وأي

واحد مكاني لا يفاجأ . كان دي مارسي يبتسم لحذائـه الذي كان يتفحصه بمحبة غريبة . وصممت حالّا على امر . اني ارضى بالفشل ببساطة من كل امرأة اخرى ، لكن ان اغتاظ لرؤية تلك البطلة التي كانت تريد ان تموت من الحب ، والتي سخرت من المنية ، فقد عزمت على مقابلة الوقاحة بالوقاحة . وكانت تعرف ما حاق بالليدى براندون من مصائب . وتذكيرها بها معناه توجيـــه طعنة خنجر الى قلب ينبو عنه كل سلاح فقلت لها :

ـ ستغفرين لي يا سيدتي دخولي الى بيتك بشيء من قلة الحياء حين تعرفين انني آت من التورين وان الليدي براندون حملتني اليك رسالة لا تحتمل أي تأخير . كنت أخاف ان أجدك وقـد ذهبت الى لانكشير ؛ ولكن بما انك باقية في باريس فسأنتظر اوامرك والساعة التي تتفضلين فيها باستقبالي .

لحنت رأسها ، أما انا فخرجت . ومنذ ذلك اليوم لم التق بها إلا بين الناس فنتبادل تحية صداقـــة ، وأحياناً كلاماً لاذعاً .

أحدثها عن نساء لانكشير اللواتي لا يتعزين ، فتحدثني عن الفرنسيات اللواتي يشرفن يأسهن بأمراضهن في المعدة . وبفضل عنايتها كان لي عدو مميت في شخص دي مارسي التي تحبه كثيراً . اما أنا فأقول انها تتزوج الجيلين . وهكذا لم يعد ينقص كارثتي شيء . فتابعت المخطط الذي كنت أوقفت العمل به أثناء عزلتي في شاسيه . وقذفت بنفسي في غمرة العمل ، واهتممت بالعلم والادب والسياسة ؛ ودخلت في السلك الدبلوماسي عند تسلم شارل العاشر العرش اذ الغى الوظيفة التي كنت اشغلها في عهد الملك المتوفي . ومنذ تلك اللحظة عزمت على ألا القي بالًا لأية امرأة مهما تكن جميلة ولطيفة ومحبة . وقد نجحت في هذا نجاحاً باهراً واكتسبت راحة فكرية لا تصدق ، وجلداً على العمل . وادركت مقدار ما تبدد هؤلاء النساء من حياتنا ، انهن دفعن لنا الثمن ببضع كلمات لطيفة . ولكن مقاصدي كلها اخفقت ، وانت تعرفين كيف ولماذا ياعزيزتي ناتالي بعدما سردت عليك قصة حياتي دون تحفظ ولا تصنع ، كما يمكن ان اسردها على نفسي . وبسردي عليك عواطف لا علاقة لك بها آمل ان

اكون قد لمست ثنية في قلبك الغيور الرقيق ؛ لكني واثق ان ما يثير سخط امرأة عامية يكون لك سبباً جديداً لتحبيني . فللنساء النخبة دور سام حيال النفوس المعذبة المريضة يقمن به ، هو دور راهبة المحبة التي تضمد الجراح ، دور الام التي تغفر للطفل . والفنانون والشعراء الكبار لا يتعذبون وحدهم : فالرجال الذين يعيشون لبلادهم ، لمستقبل الامم ، موسعين دائرة عواطفهم وافكارهم ، يعتادون على عزلة قاسية . انهم بحاجة الى الشعور بحب طاهر مخلص الى جانبهم . وكوني على ثقة بانهم يدركون عظمته وقيمته . سأعرف غداً هل كنت مخدوعاً بحبي لك .

الى الكونت فليكس دي فاندنيس

«عزيزي الكونت . لقد تلقيت من تلك المسكينة السيدة دي مورتسوف رسالة لم تكن بدون فائدة ، كما قلت ، لتقودك في مجاهل الدنيا ، رسالة انت مدين لها بمركزك السامي . فاسمح لي ان اكمل تعليمك . ارجوك تخلص من عادتك المقيتة ؛ لا تقلد النساء الارامل اللواتي يتحدثن دائماً عن زوجهن الاول ،

ويقذفن دائماً في وجه الثاني فضائـــل المرحوم . اني فرنسية يا عزيزي الكونت ؛ وكنت اريد ان اتزوج اي رجل أحبه ، ولن اعرف بالحقيقة ان أتزوج السيدة دي مورتسوف . فبعد ان قرأت قصتك بالانتباه الذي تستحق ، وانت تعلم اي اهتمام أكنّ لك ، بدا لي انك اضجرت الليدي ديدلي كثيراً وانت تقارنهـــا بشمائل السيدة دي مورتسوف . وسببت كثيراً من الاذى للكونتس بان أرهقتها بموارد الحب الانكلـــيزي ، وأعوزتك الفطنة حيالي ، انا المخلوقة المسكينة التي ليس لي من مزية أخرى سوى العمل على إرضائك ؛ لقد جعلتني أدرك انني لم أكن أحبك مثل هنرييت ولا مثل أرابيل . اني اعترف بعيوبي واعرفها ؛ ولكن لماذا تلجأ الى هذه القساوة لتجعلني اشعر بها ؟ أتعرف بمن تأخذني الشفقة ؟ بالمرأة الرابعة التي ستحبها . فهذه ستكون مجبرة على النضال ضد ثلاثة اشخاص ؛ وكذلك يجب علي ان أحذرك ، لصالحك كما هو لصالحي ، من خطأ ذاكرتك . اني أتخلى عن المجد الشاق في ان احبك : لان هذا يلزمه كثير من الصفات الكاثوليكية والانكليكانية ، ولن اهتم بمحاربـــة

الاشباح . ان فضائل عذراء كلوشيغورد تجلب اليأس للمرأة الاكثر وثوقاً بنفسها ، وأمازونيتك الباسلة تخمد شجاعة اجرأ رغبات السعادة . ومهما فعلت اي امرأة فانها لن تستطيع ان تعطيك مسرات تعادل طمعها . ولا القلب ولا الحواس تظفر بذكرياتك وقد نسيت اننا نمتطي الخيول غالباً . ولن اعرف ان أبعث الحرارة في الشمس التي فترت حرارتها بسبب موت قديستك هنرييت ، وستعروك الرعشة الى جانبي . فيا صديقي، لانك ستبقى دائماً صديقي ، احذر من إعادة اعترافات كهذه تعري اوهامك ، وتضعف شجاعة الحب ، وتجبر المرأة على الشك بنفسها . فالحب يا عزيزي الكونت لا يعيش إلا بالثقة . فالمرأة التي تتساءل قبل ان تقول كلاماً او تمتطي حصاناً ، اذا كانت هنرييت سماوية فلم تكن تتكلم افضل ، واذا كانت فارسة كأرابيل لم تكن تتضوع كياسة اكثر ، فهذه المرأة ، وكن على ثقة ، سيكون لها سيقان مرتجفة ولسان متلجلج . لقد منحتني الرغبة في استقبال احدى باقاتك المسكرة ، لكنك لم تجمعها . وهناك ايضاً كثير من الاشياء لا تجرؤ على صنعها ،

وافكار ومتع لا يمكن ان تعود الى الوجود لأجلك. وليس هناك امرأة ، واعرف ذلك جيداً ، تريد ان تحاذي في قلبك تلك الميتة التي تحتفظ بها فيه. انت ترجوني ان احبك بدافع الخير المسيحي. اني استطيع ان افعل اشياء لا نهاية لها بدافع الخير ، واعترف لك بذلك ، اني افعل كل شيء إلا الحب. انت في بعض الاحيان مضجر وضجر ، وتدعو حزنك بإسم كآبة : لا بأس ، لكنك لا تحتمل وتسبب متاعب قاسية لمن تحبك. وغالباً ما كنت التقي بقبر القديسة يفصل بيننا نحن الاثنين : لقد تفحصت نفسي وعرفتها اني لا أريد ان أموت مثلها. واذا كنت قد اتعبت الليدي ديدلي وهي امرأة نجيبة الى النهاية ، فأنا التي لا أملك رغباتها المفرطة أخاف ان أُصاب بالبرود اكثر منها. لنلغ الحب بيننا ما دمت لا تستطيع ان تذوق فيه السعادة إلا مع الاموات ، ولنبق اصدقاء ، اني اريد ذلك. كيف ، يا عزيزي الكونت ؟ لقد كان لك في بدء امرك امرأة معبودة ، عشيقة كاملة كانت تفكر بمستقبلك ، ومنحتك الامارة ، واحبتك بنشوة ، ولم تطلب منك إلا ان تكون

وفياً، فأمتّها من الحزن ؛ اني لا اعرف ما هو أسوأ من ذلك. من من أنشط وأتعس الشبان الذين يجررون أطماعهم على بلاط باريس لا يبقى عاقلاً طوال عشر سنوات ليحصل على نصف النعم التي لم تكن تعرف كيف تحققها ؟ وإذا كان المرء محبوباً بهذا الشكل فماذا يطلب اكثر ! يا للمرأة المسكينة ! فقد تعذبت كثيراً ، وقد ظننت نفسك بريء الذمة مع تابوتها حين كنت تصوغ بعض العبارات العاطفية . هذا هو ، بدون شك ، الثمن الذي ينتظر محبتي لك .شكراً يا عزيزي الكونت . اني لا اريد ضرة لا قبل القبر ولا بعده . وحين يكون ضمير المراء مثقلاً بجرائم كهذه فيجب على الاقل ألاّ يتحدث عنها. كنت قد طلبت منك طلباً غير حكيم ، وكنت آنذاك في دوري كامرأة ، كابنة حواء ، اما دورك فكان في ان تقدر مرمى جوابك . وكان عليك ان تخدعني ، وسوف اشكرك فيما بعد. الم تفهم اذن فضيلة الرجال في حالة الرخاء؟ الا تشعر بمقدار كرمهم حين يقسمون لنا انهم لم يحبوا أبداً ، وأنهم يحبون لاول مرة ؟ ان منهاجك لا يمكن تنفيذه. ان أكون السيدة دي مورتسوف والليدي

ديدلي معاً ، ولكن اليس معنى هذا يا صديقي أنك تريد جمع الماء والنار ؟ انت اذن لا تعرف النساء ؟ . انهن ما هنّ ، ويجب ان يكون فيهن عيوب خصالهن . لقد التقيت بالليدي ديدلي قبل الآن لتستطيع تقدير قيمتها ، وما قلته عنها من شر يبدو لي انه ثأر لزهوك المجروح ؛ ولم تفهم السيدة دي مورتسوف الا متأخراً فعاقبت الواحدة منهما لأنها لم تكن الاخرى . ماذا يحدث لي إذن انا التي ليست هذه ولا تلك ؟ اني احبك حباً يجعلني افكر بمستقبلك ، لاني في الواقع أحبك كثيراً . وكانت هيئتك كفارس من فرسان « الوجه الحزين » تروقني دائماً . وكنت اعتقد بثبات الناس السوداويين ؛ ولكني كنت اجهل انك قتلت اجمل النساء وأكثرهن فضيلة ساعة دخولك الدنيا . إيه ! تسألت عما بقي لك ان تفعله : فكرت جيداً في ذلك . أظن يا صديقي ان عليك ان تتزوج واحدة من طراز السيدة شاندي التي لا تعرف شيئاً عن الحب ، ولا عن العاطفة ، والتي لا تلقي بالّا لليدي ديدلي ولا للسيدة دي مورتسوف ، ولا تبالي ، في تلك اللحظات، بالسأم الذي تدعوه كآبة وتكون في أثنائها مسلياً

كالمطر ، وستكون هذه السيدة واحدة من راهبات المحبة الممتازة التي تطلبها . اما ان تحب ، ان ترتعش لمجرد كلمة ، ان تعرف كيف تنتظر السعادة ، وتعطيها ، وتتلقاها ، وتشعر بألف زوبعة من العاطفة ، ان تتزوج الاوهام الصغيرة لامرأة محبوبة ، فاقلع عن ذلك يا عزيزي الكونت . لقد عملت كثيراً بالنصائح التي اسداك اياها ملاكك الطاهر حول النساء الصغيرات . وقد تجنبتهن تماما بحيث انك لا تعرفهن قط . وكانت السيدة دي مورتسوف على حق حين وضعتك عالياً لأول وهلة ، لأن جميع النساء وقفن ضدك ولن تصل الى شيء . وقد فات الوقت الآن لتبدأ دراستك ، ولتتعلم ان تقول لنا ما نحب ان نسمعه ، ولتكون كبيراً في الوقت المناسب ، ولتحب صغرنا حين يرضينا ان نكون صغيرات . اننا لسنا حمقى كما تظن ! فنحن حين نحب نضع الرجل الذي نختاره فوق كل شيء . وكل من يزعزع ايماننا بتفوقنا يزعزع حبنا . انكم تمدحون انفسكم بمديحنا . واذ كنت تحرص على البقاء في الدنيا لتستثمر تجارة النساء فخبيء عنهن باعتناء ما قلته لي ؛ فهن لا يحببن ان يبذرن زهور حبهن

على الصخور ، ولا ان يغدقن ملاطفاتهن لتضميد جراح قلب مريض . ان النساء كلهن سيفطنّ الى جفاف قلبــــك وسوف تكون دائم البؤس . قليلات منهن يكن صريحات كفاية ليقلن لك ما اقوله ، وطيبات كفاية ليهجرنك دون حقد ويقدمن لك صداقتهن كما تفعل اليوم تلك التي تعتبر نفسها صديقتك المخلصة .

ناتالي دى مانرفيل

باريس ، تشرين الاول ١٨٣٥